الرواية الحائزة على
جائزة أورانج

البيت

مارلين روبنسون

«رواية»

ترجمة : سامر أبو هواش

نبذة عن المؤلفة:

ولدت مارلين روبنسون في العام 1943 في «ساندبوينت» بولاية إيداهو. تخرجت في الأدب الإنجليزي في جامعة واشنطن عام 1970. إضافة إلى الكتابة النقدية والأدبية. مارست تدريس الأدب في عدد من الجامعات الأمريكية. كما تعلم في «محترف أيوا للكتاب». في العام 1980 ظهرت روايتها الأولى «تدبير منزلي» وحققت نجاحاً فورياً. وحصلت على جائزة «همنغواي/ بن» المرموقة ورشحت لجائزة بولتيزر. التي حصلت عليها عن روايتها الثانية «جلعاد» في العام 2005. كما حصلت عنها على جائزة «ناشيونال بوك كريتيك أوورد» في العام . 2004. بين الروايتين نشرت كتاب «موت آدم: مقالات في الفكر المعاصر» (1998). روايتها الأخيرة «البيت» صدرت عام 2009. وحصلت عنها على جائزة «أورانج» المرموقة.

نبذة عن المترجم:

ولد سامر أبو هواش في مدينة صيدا اللبنانية لأبوين فلسطينيين عام 1972. شاعر وروائي ومترجم. من ترجماته: «على الطريق» لجاك كرواك. «حياة باي» ليان مارتل. «بوذا الضواحي» لحنيف قريشي. «شجرة الدخان» لدنيس جونسون. «تدبير منزلي». «جلعاد». لمارلين روبنسون. «بلد آخر» لنادين غورديمر. «كتاب الشاي» لكاكوزو أوكاكورا. مشروع الشعر الأمريكي الذي صدر منه حتى الآن خمسة عشر كتاباً. له في الرواية: «عيد العشاق». و«السعادة». ومن أعماله الشعرية «شجرتان على السطح». و«تحية الرجل المحترم» و«تخيط ثوباً لتتذكر».

البيت

تأليف: مارلين روبنسون

ترجمة: سامر أبو هواش

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

PS3568.O3125 H5812 2011
Robinson، Marilynne
البيت / تأليف مارلين روبنسون ؛ ترجمة سامر أبوهواش.-ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
ص 417 ؛ 21×14 سم.
ترجمة كتاب : Home
1. القصص الأمريكية. أ. أبوهواش، سامر، -1972 ب. العنوان.



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

البيت

إلى نوح وإليز

وإلى بياتريس

«عائدة إلى البيت لكي تبقي هذه المرة يا غلوري! يا سلام!»، قال والدها، وأحسّت بانقباض في قلبها. حاول استحضار ومضة فرح في هذه الفكرة، إلا أن عينيه غشاهما الأسى. فعدّل كلامه: «عائدة لبعض الوقت هذه المرة!»، وأخذ منها حقيبتها، بعد أن نقل عكازته إلى يده الأكثر وهناً. يا إلهي، قالت في سرّها، يا إله السماوات، على نحو ما تبدأ صلواتها هذه الأيام وتنتهي؛ عبارتان كانتا في حقيقة الأمر صرختين تنمّان عن الذهول. كيف يعقل أن يكون والدها بمثل هذا الوهن؟ وكيف يمكن أن يكون متهوراً إلى هذه الدرجة في تحقيق تصوّره عن الشهامة، فيعلق عكازته على درابزين الدرج، لكي يتمكن، يا إلهي، من حمل حقيبتها إلى غرفتها في الطابق العلويّ؟ إلا أنه فعل ذلك، ثم وقف عند الباب، ملتقطاً أنفاسه.

أشار إلى النوافذ قائلاً: «هذه الغرفة هي الأجمل بحسب مسز بلانك، جيدة التهوئة. لا أعرف. جميع الغرف جميلة بنظري». وضحك، «على أيّة حال إنه منزل[1] جيد». يجسّد المنزل بالنسبة إليه الهناءة العامة

(1) تستعمل الكاتبة هنا كلمة House (منزل) لا Home (بيت) التي تستعملها في مطلع الرواية؛ في اللغة الإنجليزية وفي حين تشير الأولى إلى البناء بصرف النظر ما إذا كان مأهولاً

في حياته، تلك الجلية، غير القابلة للجدل. وهو ما لم يقصّر يوماً عن التعبير عنه، لاسيما حين يحاول أن يواجه به أسى معيناً. وحتى إنه صار يفعل ذلك بوتيرة أكبر بعد موت والدتهم، متكلماً على البيت وكأنه زوجة طاعنة في السنّ، رائعة بسبب كلّ أسباب الراحة وكلّ النعم، التي وفّرتها على مرّ السنوات الطويلة. وجمال هذا المنزل لا يتبدّى لكلّ عين. فهو شديد العلوّ قياساً ببقية بيوت الحيّ، واجهته مسطحة وسقفه أفقي تماماً، وله حواف مدبّبة فوق النوافذ. «إيطالي الطرز»، قال والدها، إلا أن هذا ليس إلا تخميناً، أو تسويغاً منطقياً. وعلى أيّة حال، فقد أفلح في أن يبدو رصيناً ومتفاخراً في آن معاً، على الرغم من الشرفة التي بناها والدها أمامه، ليجعله متناسباً مع ذلك النزوع المحلي إلى التواصل الاجتماعي خلال الأماسي الصيفية الحارة، والتي فاضت على جوانبها كرمة العليق[1] المتسلّقة. إنه منزل جيد، قال والدها، قاصداً أن له قلباً رقيقاً بصرف النظر عن غرابة مظهره. والآن باتت رقع المزروعات والشجيرات شعثاء مفتقرة إلى الترتيب، مثلما يعرف بكل تأكيد، وإن كان نادراً ما تجرّأ على المضيّ أبعد من الشرفة.

لا يعني هذا أن تلك المزروعات والشجيرات، كانت حسنة المنظر، حتى في عزّ شباب البيت. وذلك بفضل ألعاب الغميضة والكروكيت وتنس الريشة وكرة السلة. «يا للأوقات التي عشتموها!»، قال والدها، وكأن الخراب المهلهل الراهن، كناية عن قصاصات ورق ملونة وأغلفة حلوى خلّفها وراءه موكب مهيب. وثمة أمام البيت شجرة البلوط،

أم لا، فإن Home هو المكان المأهول بالسكان، وتحديداً بأفراد العائلة الواحدة، ويعرف أتش أل منكن، الكاتب واللغوي الأمريكي، كلمة بيت بأنه «ليس مجرد مكان مبيت مؤقت، ذلك أن جوهره يكمن في شخصيات أولئك الذين يسكنونه».

(1) Vine Trumpet.

الأقدم عمراً من الحيّ أو البلدة، والتي حوّلت الرصيف الذي تنتصب عليه إلى حصى، مادّة غصونها التي يصعب تقدير حجمها، إنما الأضخم من جذع أي شجرة عادية، فوق الطريق والفناء الخارجي. وكان جذعها مفتولاً على نحو يديها لأنظارهم مثل درويش عملاق. قال والدهم إنهم إذا كانوا يستطيعون الرؤية مثلما يستطيع الربّ، لكان في وسعهم في الزمن الجيولوجي، أن يروها وهي تنبثق من الأرض، متقلّبة في الشمس وناشرة أذرعها متمتعة بمباهج كونها شجرة بلوط في أيوا[1]. أربع أرجوحات علّقت في ما مضى على أغصانها، معلنة للعالم خصوبة بيتهم بالأولاد. ولا تزال الشجرة تزدهر، وبالطبع لا يزال ثمة أشجار التفاح والكرز والمشمش وجنبات الليلك وكرمة البوق والزنبق النهاري[2]. وقد تمكن بعض السوسن الذي زرعته أمها من الازهار. وقد اعتادت وشقيقاتها في عيد الفصح أن يحملن ملء أذرعهن من الزهور، فتترقرق عينا أبيهن بالدمع مردّداً: «آه، أجل، يا سلام!» وكأنهن أتين بتذكار ما، وكأن تلك الزهور هي بمثابة ذكرى مبهجة. ما الذي يجعل هذا البيت العامودي المتين يبدو مهجوراً لناظريها، مكسورَ الفؤاد إلى هذا الحدّ؟ إنها عين الناظر[3]، فكّرت. ومع ذلك، فإن سبعة من إخوتها يزورون البيت متى سمحت ظروفهم بذلك، كما أنهم يتصلون هاتفياً، ويبعثون الرسائل والهدايا وأقفاص «الجريب فروت». أما أطفالهم، فمنذ اللحظة التي صاروا قادرين فيها على مسك أقلام التلوين والخربشة، تعلموا أن يتذكروا جدّهم، ثم جدهم الأكبر. وقد

(1) Iowa: ولاية أمريكية تقع في الغرب الأوسط، عاصمتها دي موين.

(2) Day lily: نوع من الزنبق الذي يزهر نهاراً ويذبل ليلاً.

(3) أو بالأحرى Beauty is in the eye of the beholder: مثل إنجليزي يعني أن كل شخص يرى الأمور بطريقة مختلفة عن سواه، وما يراه امرؤ جميلاً قد يراه سواه قبيحاً.

دأب أفراد الرعية وأولادهم وأحفادهم على تفقّد والدهم بوفاء كان من شأنه أن يرهقَ صحته لو لم يلمح لهم القسّ الجديد إلى هذه المشكلة. وكان هناك آيمز، صديق والدهم المقرّب[1]، الذي يأتمنه على أسراره به منذ زمن طويل جداً، وبصورة مطلقة، إلى حدّ أنه صار بمثابة أب ثان لهم جميعاً، على الأقل لجهة أنه يعرف عنهم أكثر مما يريحهم أن يعرفه. وأحياناً كانوا يرغمون والدهم على أن يعدهم بألا يخبر أحداً، والذي يُفهم منه أنهم يقصدون الموقّر آيمز، لأن والدهم أشدّ كتماناً من أن يفشي بأي سرّ، إلا في المطبخ المتقشّف لصديقه العازب آيمز، حيث يعرفون أن هذه الاعتبارات تغدو في طيّ النسيان. وما الذي لا يريدون من أبيهم إفشاءه؟ كيف وشوا بجاك، وكيف أخبروه ماذا قال جاك، أو فعل، أو ماذا ينوي أن يفعل.

كان والدهم يقول: «يجب أن أعرف من أجل صالحه». فيشون بأخيهم المسكين الأزعر، الذي يعرف ذلك، ويستاء منه، ويستمتع به بشيء من التجهّم، فيمدّهم بالمعلومات أو بالمعلومات الخاطئة، مثيراً فيهم الشكوك الملحّة التي يشعرون أنه يجدر بهم نقلها، أياً تكن ظنونهم، لكي يوفروا على أبيهم الاضطرار إلى التعامل مع مأمور الشرطة ثانية. لم يكونوا من الأولاد الوشاة. بل تقيّدوا بقانون صارم يمنع ذلك بين بعضهم بعض، واستثنوا جاك من ذلك، من باب خشيتهم من العواقب لو فعلوا عكس ذلك. «هل سيزجّون به في السجن؟»، تداولوا فيما بينهم هذا السؤال بأسى بالغ، حين عثر ابن رئيس البلدية في حظيرتهم على بندقية الصيد الخاصة به. لو أنهم عرفوا فحسب، لكانوا أعادوها ووفروا على والدهم المفاجأة والإذلال. لو أنه تلقى إنذاراً صغيراً لتمكن

(1) في الأصل Alter Ego: الأنا أو النفس الثانية.

من أن يكون رابط الجأش، بدلاً من مواجهة الأمر بذعر تام.

إنما لا، لم يزجّوا به في السجن. فقد قدّم جاك الواقف إلى جانب والده اعتذاراً آخر، ووافق على كنس سلّم مبنى البلدية صبيحة كل يوم طوال أسبوع. وصار يغادر المنزل بالفعل في الصباح الباكر من كل يوم. إلا أن وريقات الشجر تراكمت على مبنى البلدية حتى انقضى الأسبوع فقام رئيس البلدية بكنسها بنفسه. لا. كان والده يتوسّط له دوماً. وكانت مكانته في البلدة تغني عن التوسط عادة. كما كان هذا الفتى يعتذر بيسر شديد مثلما يرتل أيّ من أبناء آل بوتون الآخرين «قانون الإيمان»[1].

عَقدٌ من الخيانات، الصغيرة والكبيرة، التي زادها سوءاً وعيهم جميعاً بأنهم متيقظون للانتهاكات التي سيرتكبها جاك ومواقيت وقوعها الوشيكة، ومما زادها سوءاً أكثر حقيقة أن جاك لم يردّ عليهم بمثل هذه الخيانات، وإن كان هذا فحسب لأن انتهاكاتهم هم أصغر من أن تثير اهتمامه. ومن قبيل المبالغة القول إنهم ما زالوا يشعرون حتى الآن بتأنيب الضمير تجاه جاك. لا ريب في أنه كانت له أسبابه للبقاء بعيداً كل هذه السنوات، رافضاً أيّ اتصال بهم. هذا إذا افترضنا، رحماك يا رب، بأنه ما زال على قيد الحياة. كان من السهل – بعد مراجعة أحداث الماضي – تخيل أنه سئم الأمر برمته، وإن كانوا يعرفون أنه جعل منه لعبة مشاكسة. أحياناً بدا أنه يتمنى الوثوق ببساطة بأحد أشقائه أو شقيقاته. يتذكرون من وقت لآخر أنه كان شبه صريح، ويتكلم بشبه جدية. ثم يضحك، إلا أن هذا على الأرجح بسبب شعوره بالحرج.

دأبوا على الاهتمام بوالدهم طوال السنوات التي تلت رحيل جاك،

(1) Apostle's Creed: هناك ثلاث صيغ من قانون الإيمان المسيحي وضعت خلال المجمعات المسكونية الثلاث الأولى، وهي نوع من إشهار الإيمان المسيحي.

جزئياً إدراكاً منهم لأساه. كما تعاملوا مع بعضهم بعض بلطف بالغ، وكانوا بشوشين، محبين لاستذكار الأوقات الحلوة، ومشاهدة الصور الفوتوغرافية القديمة، حتى يضحك والدهم قائلاً: «أجل، أجل، لقد كنتم صعبي المراس حقاً». وربما بدا هذا كله حقيقياً أكثر بسبب إحساسهم بالذنب، أو إن لم يكن هذا، فبسبب حزن له طعم الإحساس بالذنب. كان إخوتها الطيبيون اللطيفون المرحون، طيبين ولطيفين ومرحين من الداخل والخارج. ولقد كانوا صالحين حتى في طفولتهم، إلا أن السبب في ذلك أيضاً رغبتهم في أن يبدوا كذلك. وقد انطوى سلوكهم هذا على شبهة من النفاق، وإن قصدوا منه التعويض عن جاك فحسب، الذي كان غير صالح إلى درجة أن يجعل الحزن يخيّم على منزلهم. كانوا سعداء بقدر ما يرغب والدهم في أن يكونوا، بل أسعد من ذلك. أيّ فرح! وكان والدهم يضحك من ذلك كله، ويراقصهم على موسيقى الفيكترولا[1]، ويغني معهم حول البيانو. أيّ عائلة رائعة كانوا! وجاك، إذا كان موجوداً أساساً، يراقب ويبتسم ولا يشارك في هذا كله.

باتوا اليوم، كبالغين، شديدي الحرص على الاجتماع في العطل، فلم ترَ غلوري، منذ صغرها، البيت فارغاً هادئاً طوال سنوات. وحتى بعد أن يغادر الجميع إلى المدارس، تكون أمها هناك، أما والدها فكان لا يزال متمتعاً بما يكفي من القوة لكي يحدث بعض الجلبة في البيت، رائحاً وغادياً، مغنياً ومدمدماً. فتقول أمها: «لا أعرف لماذا يصفق هذا الباب صفقاً!»، وذلك حين يخرج للقيام بإحدى مهماته الرعوية أو

(1) الفونوغراف، نسبة إلى شركة فيكتور التي عرفت بإنتاج الفونوغرافات، والفيكترولا تحديداً كانت مصممة بأناقة لكي تكون جزءاً من أثاث المنزل.

لكي يلعب الدّاما مع آيمز. كان إلى حدّ ما يقفز قفزاً على الدرجات. ورغم أن مسألة جاك والفتاة وطفلتها قد صدمته وأعيته، إلا أنه ظلّ نشيطاً إلى حدّ كبير، ومليئاً بالعزم. ثم، بعد أن قهرته هشاشته أخيراً، وعقب وفاة والدتهم، كان لا يزال هناك زحمة العائلة، مرح أولاد العمومة ومشاحناتهم، الذين يشتّتون أحاديث الكبار ويقاطعونها بما فيه الكفاية لكي يصرفوا النظر عن وضعها الخاص: الفتاة التي لا تزال تمتهن التدريس، لا تزال مخطوبة مقبلة على الزواج، بلى، الخطوبة الطويلة هي الأفضل. مرتان جاء معها الخطيب إلى البيت، وصافح جميع الموجودين وابتسم أمام أنظارهم المتفحّصة. دخل إلى منزلهم. ومع أنه لم يتمكن من المكوث إلا لوقت وجيز، فقد التقى والدها، الذي زعم أنه أعجب به بما فيه الكفاية، وهذا خفّف قليلاً من الهواجس المتعلقة به. هواجسهم وهواجسها. وها هي الآن وحيدة، مع البابا الطاعن في السن، البابا الحزين الطاعن في السن، الذي على كتفيه بكى - في وقت من الأوقات - جميع أبناء جلعاد ممن تجاوزوا العشرين من العمر. لا حاجة إلى قول شيء له، ولا أمل في محاولة إخفاء شيء عنه أيضاً.

بدت المدينة مختلفة في عينيها، الآن وقد عادت للعيش فيها. اعتادت على جلعاد بوصفها موضوع ذاكرة مفعمة بالحنين ومسرحها. كيف كانوا جميعاً، باستثناء جاك، يحبون العودة إلى البيت، وكيف كانوا مستعدين دوماً للرحيل ثانية. كما كان هذا المكان وقصصه القديمة عزيزة على قلوبهم، وكيف تشتّتوا وباعدت المسافات بينهم. كان الماضي شيئاً رائعاً، حيث هو. أما عودتها الآن، لكي تبقى، مثلما قال والدها، فإنها تحوّل الذاكرة إلى نذير بالخطر. فأن تتجاوز الذاكرة حدودها على هذا النحو وتصير حاضراً وربما مستقبلاً أيضاً - جميعهم يعرفون أن هذا مما

يعود بالأسف. وقد وجف قلبها من فكرة حنينهم.

مضى زمن طويل على هدم معظم عائلات البلدة للملحقات[1] بيوتهم، وبيعهم لمراعيهم. وانتشرت بين البيوت القديمة، أعداد كافية من البيوت الأحدث طرزاً والأصغر مساحة لكي تبدو البيوت القديمة أكثر فأكثر غربة. ففي السابق كانت بيوت جلعاد تتوسّط المزارع ورقع الزهور، ورقع الأشجار المثمرة، وأقنان الدجاج، وسقائف الحطب، وزرائب الأرانب، وحظائر تضمّ بقرة أو اثنتين، حصاناً أو حصانين. كانت تلك بساطة متطلبات الحياة. وكانت السيارة التي غيّرت ذلك، كما يقول والدها. لم يعد الناس مضطرين إلى التزوّد بأنفسهم بحاجياتهم مثلما كانت الحال في السابق. كانت تلك خسارة - فليس هناك أفضل من فضلات الدجاج لكي تزدهر الزهور.

أما آل بوتون الذين اعتادوا الاحتفاظ بكل شيء، فقد احتفظوا بأرضهم، بحظيرتهم الفارغة، بسقيفة الخشب غير المفيدة، ببستانهم غير المشذّب الشجر، وبمرجهم الخالي من الجياد. هناك على أرض طفولتهم الثابتة كان بوسع أشقائها وشقيقاتها أن يتذكروا تلك السنوات، وكانوا يفعلون ذلك حقاً، بأدق التفاصيل، مستحضرين ذكرياتهم الفردية، ولكن بصورة أكثر تواتراً الذاكرة الجماعية التي لم يجدوا حاجة خاصة إلى تشتيتها بينهم. كانوا يشاهدون الصور الفوتوغرافية ويتذكرون الأيام الخوالي ويضحكون، ويكون والدهم مغتبطاً تماماً.

يمتد عقار آل بوتون إلى ما وراء البيت ضمن شريط عريض يمتد إلى مجمعين سكنيين، الآن وقد كبرت البلدة واتسعت بما فيه الكفاية لكي

(1) Outbuildings: الأبنية الملحقة بالدور الكبيرة عادة والتي كانت في الماضي تخدم وظائف ما عادت ضرورية.

تضمّ مثل هذه المجمعات. وطوال سنوات قام أحد جيرانهم – ما زالوا ينادونه السيد تروتسكي لأن أخاها لوقا، بعد عودته من الجامعة، أسماه كذلك – بزرع البرسيم على امتداد نصف مساحة هذا العقار، وكان والدها يحاول أحياناً إيجاد الكلمات التي تعبّر عن مدى انزعاجه من ذلك، قائلاً: «لو يطلب مني الإذن فحسب». كانت أصغر سناً في ذلك الوقت من أن تفهم سبب غضب والدها من البرسيم، وكانت في الجامعة حين بدأت تفهم معنى القصص القديمة، أن هذه النباتات كانت سبب اشتعال الحرائق قديماً واضطرامها العنيف في أمكنة أخرى. كان يسرّها التفكير بأن جلعاد هي جزء من العالم الذي قرأت عنه، وتمنّت لو أنها عرفت السيد تروتسكي وزوجته، لكنهما في شخوختهما غادرا جلعاد لحماقاتها، في نوبة من السخط لم يعرف أحد تفاصيلها، وذلك في نهاية سنتها الدراسية الثانية في الجامعة.

الأرض التي كانت ميدان المعركة ما كانت لتُستعمل لو لم يزرعها الجار، وكان البرسيم مفيداً للتربة، والطرفة، وربما الحقيقة، هي أن الجار الذي بدا لولا ذلك عاطلاً عن العمل، والذي كان يشجب التعاملات المالية، تبرّع بمحصوله لابن عم قروي له، تبرع له في المقابل بمبلغ معين من المال. على أية حال، لم يتمكن والدها أخيراً من إقناع نفسه بأن اعتراضه كان مبرراً. فهذا الجار كان لا أدرياً[1] يحدوه توق على الأرجح لخوض جدال أخلاقي معه. وبدا أن والدها يشعر بأنه لا يستطيع المخاطرة بخسارة واحد آخر من هؤلاء، بعد تلك الحادثة المحرجة حين حاول منع البلدة من شق طريق عبر أرضه، على أساس ضعيف هو أن والده ما كان ليوافق على ذلك، وكذلك جده. كان

(1) Agnostic: الذي يعتقد بأن وجود الله أمر لا سبيل إلى معرفته.

قد أدرك ذلك خلال ليلة طويلة تبدّد خلالها كالضباب إيمانه بصوابية موقفه، من دون أن يُعمل فكره كثيراً في الأمر. كان ثمة ببساطة تلك اللحظة، بُعيد الساعة العاشرة ليلاً، حين أدرك ذلك فجأة، ثم الساعات السبع حتى الفجر. ولم تبدُ وجهة نظره بأكثر صواباً على ضوء النهار، فدبّج رسالة إلى العمدة، بسيطة وموقّرة، من دون أي تلميح إلى عبارة «النفاق الجشع»، التي حسب أنه سمع العمدة يقولها تمتمة وراء ظهره عندما مشى مبتعداً عنه بعد محادثة اعتبر أنها لم تعد سارّة. أخبرهم جميعاً بذلك على مائدة الغداء واستعملها أكثر من مرة كمثال وعظي، ذلك أنه كان يؤمن حق الإيمان أنه حين يمنحه الرب عظة أخلاقية فهي ليست لاستعماله الخاص فحسب.

كل عام كان الجار اللا أدري يجلس مستقيم الظهر على جراره الزراعي رافعاً كتفيه كرجل مستعد للتحدي. ورغم أنه إنسان لا اجتماعي، فقد كان ينادي بحرارة على أحد المارين مثل رجل ليس لديه ما يخفيه، مزمعاً ربما على إعلام الموقر، وإعلامه أيضاً بأن البلدة برمتها تعرف، بأنه يتعدى على حرمة أرضه. هذا هو السلوك عينه الذي بممارسة عكسه تماماً يؤثّر المؤمنون المسيحيون في مصائر أرواحهم، بما أنهم كانوا، إذا أصغوا إلى صلواتهم الخاصة، مجبرين على مسماحة أولئك الذين يعتدون عليهم.

عاش والدها في حال جلية من الانزعاج حتى موسم الحصاد، إلا أنه كان مستعداً للتغاضي عن المسألة. عرف أن الجار يعرضه للحرج العام عاماً بعد عام، في وقت الزرع والحصاد، لا ليذكّره دوماً بقراره غير الحكيم بمعارضة بناء الطريق، بل أيضاً لكي ينتقم بدرجة صغيرة، في نظرته اللا أدرية الثابتة، من كل تاريخ النفاق الديني.

ذات مرة، لعب خمسة من صغار بوتون الستة - كان جاك في مكان آخر - لعبة «الثعلب والإوز» لغرض آخر غير المرح، وذلك في حقل البرسيم الهشّ، ذلك البرسيم الرائع، شديد الخضرة إلى درجة أنه كاد يستحيل أزرق، وريّان إلى حدّ أن الندى علا وريقاته الصغيرة حتى في وسط النهار. لم يكونوا مدركين توقهم إلى الانتقام حتى هرع دان إلى الحقل لكي يحضر كرة البايسبول، وركض تيدي وراءه، تتبعهم هوب وغرايسي وغلوري. صاح أحدهم «الثعلب والأوزة»، وركضوا جميعاً لكي يشكلوا الدائرة الواسعة، ثم لكي يشكّلوا قطر الدائرة، لاهثين، بينما البرسيم يتكسر تحت أقدامهم بعذوبة شديدة إلى درجة أن اقدامهم أسفت على الأذية التي تقوم بها حتى وهي تصرّ عليها. زحطوا ووقعوا في الطين ولطخوا ركبهم وأيديهم، حتى تغلّبت مسرتهم بالانتقام على معرفتهم بأنهم أوقعوا أنفسهم في متعاب جمة. ظلوا يلعبون حتى سمعوا النداء إلى الغداء. حين اندفعوا إلى المطبخ يفوح منهم العرق الطفولي ونبات البرسيم المحطم، شهقت أمهم بحدّة، ونادت: «روبرت، انظر ماذا لدينا هنا».

أكّد لهم خلوّ وجه أبيهم من الرضا ما كانوا يخشونه، وهو أنه رأى فرصة لإظهار التواضع المسيحي بصورة حاسمة لا يمكن أن تقع في نفس الجار إلا كتعنيف.

قال: «بالطبع، سيكون عليكم الاعتذار». بدا شبه عابس، مغتبطاً قليلاً فحسب، مستمتعاً قليلاً فحسب، قال: «يحسن بكم الانتهاء من هذا الأمر». كما كانوا يعرفون فإن الاعتذار الذي يقدمه المرء عن طيب خاطر أشدّ تأثيراً بكثير من ذاك الذي قد يبدو مفروضاً من قبل الطرف المتأذي، وبما أن الجار رجل سريع الغضب، فإن توازن الحق النسبي يمكن

أن ينقلب بسهولة ضدهم. فساروا جميعاً باتجاه الجانب الآخر من المجمّع السكني. وفي مكان ما على الطريق تبعهم جاك وسار معهم، وكأن التوبة ينبغي أن تشمله دوماً.

قرعوا باب البيت البني الصغير وفتحت الزوجة. بدت سعيدة بما فيه الكفاية لرؤيتهم، وغير متفاجئة على الإطلاق. دعتهم إلى الدخول، معتذرة نوعاً ما عن رائحة الملفوف المطهي. كان البيت قليل الأثاث محتشداً بالكتب والمجلات والكتيبات، ويوحي ترتيب المكان بالعيش المؤقت وإن كان الزوجان يعيشان هناك منذ سنوات. وقد علقت على الجدار صور رجال ملتحين عابسين ونسوة مشعثات الشعور يضعن نظارات من دون إطارات.

قال تيدي: «جئنا إلى هنا لكي نعتذر».

هزّت رأسها: «لقد سحقتم الحقل. أعرف ذلك، وهو يعرف أيضاً. سوف أخبره بحضوركم». تكلمت إلى أعلى السلّم، ربما بلغة أجنبية، وأصاخت السمع برهة من دون أن تسمع شيئاً، ثم عادت إليهم. قالت: «التخريب عار عظيم، التخريب بلا سبب».

قال تيدي: «هذا حقلنا. أعني، أبي يملك هذا الحقل حقاً».

قالت: «أيها الطفل المسكين، لا تعرف أفضل من هذا، ان تتكلم عن امتلاك أرض حين لا يكون ثمة وجه انتفاع منها. امتلاك الأرض لحجبها عن الآخرين فحسب. هذا كل ما تعلمته من أبيك القس! أن تقول ملكي، ملكي، ملكي! في حين أنه يكسب رزقه من جهل الناس!». لوحت بيد هزيلة وقبضة صغيرة «مخبراً أكاذيبه الحمقاء مرة بعد مرة في حين يعاني الفقراء في كل مكان!».

لم يسمعوا أحداً يتكلم على هذا النحو من قبل، وقطعاً ليس عنهم أو

موجهاً الكلام لهم. حدّقت بم لكي توصل كلامها حتى النهاية. كان ثمة غضب وإحساساً بالصوابية مقنعين في عينيها الزرقاوين المائيتين، وضحك جاك.

قالت: «آه بلى، أعرف من تكون. الفتى اللص، السكير الصغير! في حين يعلّم والدك الناس كيف يعيشون! إنه يستحقك!»، ثم أضافت: «لمَ انتم صامتون هكذا؟ ألم تسمعوا الحقيقة من قبل؟».

قال أكبرهم دانيال: «لا يجدر بك التكلم بهذه الطريقة. لو كنت رجلاً لاضطررت على الأرجح إلى ضربك».

«ها! أجل، أيها المسيحيون الصالحون، تأتون إلى بيتي لكي تهددوا بالعنف! سوف أبلغ عنكم مأمور الشرطة. ثمة بعض العدل، حتى في أمريكا»، ولوحت بقبضتها من جديد.

ضحك جاك وقال: «لا بأس. فلنعد إلى البيت».

وقالت: «أجل اسمعوا كلام أخيكم. فهو يعرف بشأن مأمور الشرطة».

اندفعوا إلى الخارج، الذي صفق وراءهم، ومضوا إلى البيت في ضوء المساء محاولين استيعاب ما قد سمعوه. اتفقوا على أن المرأة مجنونة، وكذلك زوجها. ومع ذلك، فقد غلت الدماء في عروقهم توقاً إلى الانتقام، وراحت الاقتراحات تتوالى من تحطيم نوافذ بيتهما، وتفريغ عجلات سيارتهما من الهواء، أو حفر حفرة كبيرة وتمويهها جيداً حتى يهوي فيها الجار بجراره الزراعي. وسيكون هناك عناكب في الحفرة، وأفاع. وحين يصرخ طالباً النجدة ينزلون له سلماً قد نشرت درجاته لكي تنكسر تحت ثقله. آه، ذلك الفرح الرهيب بين الصغار، في حين امتص الأكبر سناً حقيقة أنهم سمعوا إهانة توجه

لعائلتهم ولم يفعلوا شيئاً حيال ذلك.

دخلوا إلى مطبخهم، حيث كان والداهم ينتظران سماع التقرير. أخبروهما أنهم لم يتكلموا إلى الرجل، إلا أن المرأة صرخت بهم ونعتت والدهم بالقس.

قالت أمهم: «حسناً، آمل أنكم تصرفتم بتهذيب».

هزّوا أكتافهم ونظروا إلى بعضهم بعض. قالت غرايسي: «كل ما فعلناه أننا وقفنا هناك فحسب».

قال جاك: «كانت لئيمة حقاً، حتى إنها قالت إنك تستحقّني».

رمش والده، وقال: «أقالت ذلك؟ حسناً، كان هذا لطيفاً منها. سأحرص على شكرها. أتمنى أن أستحقك يا جاك، وأنتم جميعاً بالطبع». رقته تلك التي لا تعرف الكلل، وصمت جاك المطبق في وجهه.

زرع السيد تروتسكي البطاطا والكوسا في العام التالي، والذرة في العام الذي تلاه. جاء ابن أخ ابن العم الريفي لكي يساعده في الحصاد، وفي أثناء ذلك منح حرية استعمال الحقل وبنى منزلاً صغيراً في أحد أركانه وأحضر زوجته وأطفاله للسكن معه. المزيد من مساكب زهر القطيفة، المزيد من حبال الغسيل المرفرفة، سقف آخر تحت السماء ليؤوي الأمل والهشاشة البشريين. تنازل آل بوتون ضمناً عن أي حق لهم في تلك الأرض.

في غضون أسابيع من عودتها استقرت غلوري ووالدها على نمط حياة مقبول. كانت مدبرة المنزل مسز بلانك التي تكبر والدها ببضع سنوات، سعيدة بالتقاعد، بعد أن اطمأنت إلى أنها تترك الموقّر بين يدين صالحتين.

توقف الاهتمام الاعتيادي بوالدها من قبل الجيران وأبناء الرعية، أو أنه صار يتمّ خلسة حين يتمّ أساساً. وأحست غلوري كم كان التوقف معجزاً ومؤقتاً. كان ذلك وكأن إشارة ما قد أعطيت، كأن البحر انشق وارتدّت المياه كالجدران. ذات مرة في طفولتهم، قالت أختها غرايس، متفكرة إلى مائدة العشاء، إنها لا تعرف كيف يمكن أن يحصل مثل هذا الأمر، أن تقف المياه ثابتة على هذا النحو، وقالت لها غلوري، بعد أن قلبت الأمر في عقلها، إن ذلك يشبه الهلام. ولم تقصد تفسير المعجزة بل وصف تأثيرها فحسب. إلا أن الجميع على الطاولة ضحكوا، بمن فيهم جاك. كانت تشعر أحياناً أن جاك هو الأكثر تعاطفاً مع يفاعتها. لذا انتبهت إلى أنه ضحك وعلق ذلك في ذاكرتها. فليضحكوا كما شاؤوا، فقد بدا لها أن غرز إصبع في جدار من المياه، لا يمكن أن يختلف جوهرياً عن غرزه في قالب من الهلام - وهو ما أوتيت فرصة فعله، بوصفها ابنة قس، مرات ومرات، وقبض عليها أكثر من مرة وهي تفعل ذلك. لكنها فكرت أنه لابدّ من أن أحداً من الإسرائيليين أو المصريين قد قام بالتجربة نفسها، وأن لمس سمكة في تلك الظروف لا يمكن أن يختلف اختلافاً كبيراً عن لمس قطعة من الموز. أي شيء غريب لكي يتذكره المرء. جاء مع كونها في البيت.

كل يوم تمسح الأرضيات وترتب البيت - عمل خفيف، بما أن البيت لم يكن مأهولاً عملياً. قامت بالقليل الكافي لإراحة والدها. كان يجلس إلى النافذة، او على الشرفة، يأكل المقرمشات ويشرب الحليب ويقرأ الصحيفة ومجلة «ساتورداي إيفننج بوست». كانت تقرأها أيضاً، إضافة إلى كل ما يمكنها العثور عليه. أحياناً تصغي إلى المذياع إذا كان يبث عرض أوبرا أو مسلسلاً درامياً، أو إذا رغبت فحسب في سماع

صوت بشري. كان المذياع الكبير القديم يكتسب سخونة وتفوح منه رائحة أشبه بمستحضر شعر منتن، فيذكرها ببائع متوتر، ويصدر صوت صفير وطقطقة إذا ابتعدت عنه. كان من نوع الصحبة السيئة التي تجعلها الوحدة موضع ترحيب. درسٌ في نجاح التودد الأخرق، أو التشبث بزواج سيء. لامت المذياع وسامحته على ولعها بـ «طيران الدبّور»[1] وأوبرا رافيل «بوليرو». ولكي تسترضي المذياع كانت تجلس إلى جانبه وهي تقرأ. وحتى إنها فكرت البدء بأعمال الخياطة. قد تجرب أن تخيط مجدداً أشياء أكبر وأبسط. كانت محاولاتها الأولى كنزة للأطفال وقلنسوة. لم ينتج شيء عن ذلك. بيد أنه أقلق والدتها التي قالت لها: «غلوري، إنك تأخذين الأمور بجدية زائدة». هذا ما قالته دوماً عنها. هوب هادئة، لوقا كريم، تيدي ذكي، جاك هو جاك، غرايس كانت موسيقية، وغلوري التي تأخذ كل شيء على محمل الجد. تمنت لو أخبروها كيف تفعل الامور بطريقة أخرى، أي شيء آخر كان يجدر بها فعله.

كانت دمعتها سهلة. وهذا لا يعني أنها أكثر إحساساً من الآخرين. ولا يعني قطعاً أنها هشة أو عاطفية أو مستعدة لاستحضار تلك القوة البللية كلما واجهتها إحدى مساوئ كونها طفلة العائلة. حين كانت في الرابعة بكت لثلاثة أيام على موت كلب في مسرحية إذاعية. وكلما ذرفت القليل من الدمع، يتذكر إخوتها وأخواتها كيف بكت أثناء سماعها «هايدي» و«بامبي» و«بايبز في الغابات»، التي قرأوها لها عشرات المرات. وكأن الهدف الوحيد من تلك القصص أن يظهر للعيان الحزن الطفولي. كان الأمر مزعجاً بحق، ولم يكن من شيء يمكن

(1) من أعمال الموسيقيّ الروسي المعروف نيكولاي ريمسكي كورساكوف.

فعله حياله. وقد تعلمت أن تسيطر على ملامح وجهها لكي لا تبدو من بعيد أنها تبكي بالضرورة، ثم ابتدعوا لعبة صغيرة من الإمساك بها وهي تبكي - دموع، كانوا يقولون. آه، الدموع. فكرت كم كانت ستكون الطبيعة مراعية لمشاعر الآخرين لو أنها جعلت التنفيس عن المشاعر عبر راحة اليد أو حتى أخمص القدم.

حين كانت صغيرة خلطت، بل في الحقيقة مزجت بين كلمتي «سر» و«مقدّس»[1]. في الكنيسة عليك ألا تتكلم حتى همساً. وهناك كلمات يجدر بك ألا تتلفّظ بها قطّ. وهناك أمور ستشرح لك حينما تصبح كبيراً بما فيه الكفاية لكي تفهمها. كانت تهمس غصباً عنها، في الكنيسة وخارجها. وكانت شقيقاتها الكبيرات يقلن لها: هذا سرّ. لا يجب أن تفشي به أبداً. عدي بأنك لن تفعلي. أقسمي. ثم يهمسن في أذنها شيئاً بلا معنى أو بديهياً أو غير صحيح البتة، ويتفرجن عليها وهي تعاني بحمله لعشر أو خمس عشرة دقيقة. الطرفة كانت أنها لا تستطيع كتمان سرّ، وأنها ستفشيه لأول أذن راغبة بسماع أياً يكن ما تبقى من الهراء الذي أؤتمنت عليه. إلا أن «أتمنى أن أموت» و«إذا مت قبل أن أفيق»، أصبحتا أيضاً مترابطتين في عقلها، وهي واعية بأنها تخرق قسمها باستمرار. وذات مرة، حين كانت لا تزال أصغر من عمر المدرسة، وكان يجدر بجاك أن يكون في المدرسة لكنه لم يكن، رأته في البستان، وذهبت إليه، باكية بسبب ما بات خوفاً لا يحتمل. نظر إليها وابتسم قائلاً: «اللعنة أيتها الصغيرة، اكبري». ثم قال: «هل ستفشين أمري؟ هل ستوقعيني في المتاعب؟». لم تفعل. كان هذا أول سرّ تحتفظ به. شعرت أنها تعلمت الشرف حينذاك، ربما ببساطة لأنها وصلت إلى

---

(1) بالإنجليزية Secret و Sacred.

العمر الذي تكون فيه ميالة لذلك. ربما في كل حياتها لم تفرّق حقاً بين السر والمقدّس، وأحبت اللياقة والتعقل أكثر مما ينبغي. حسناً، في هذا كله، ربما لم تكن إلا واحدة من عائلة بوتون في نهاية المطاف.

غير أنها في الثامنة والثلاثين لا تزال حذرة تجاه أغنيات «الكانتري» والقصص ذات المنحى الإنساني. وكانت حذرة قطعاً تجاه أفكار معينة، وذكريات معينة، لأن والدها لم يكن ليحتمل تعاستها. كان وجهه يتهدّل حين يرى أي إشارة على ذلك. لذا لم تكن تسمح لنفسها بأن تطيل التفكير، أياً يكن الدافع قوياً أحياناً. فهذا سيشعره بالتعاسة.

راقبها والداها وقلقا عليها في تلك الأيام التي شكّلت، على حدّ علمهما، ذروة الخزي في حياة جاك، وراعيا مشاعرها بجدية أثارت اهتمامها. كانت مشاعرها هشة إلى حدّ كبير في ذلك الحين. فقد أوشكت على دخول عامها السادس عشر من العيش اللطيف في مكان هادئ، مما عنى فحسب أن أهواءها وقناعاتها كانت غير معقدة وقوية، وأنها تتصارع معاً كالشخصيات في الحكايات الرمزية. يجب أن تكون الحقيقة راسخة. والولاء مطلق، والكرم غير محدود، في حين أن المظهر والتقاليد هما طفلا النفاق العملاق ويجب الانتصار عليهما. لم يتسن لها الوقت ولا المناسبة لكي تفكر بعمق بمعاني الولاء والكرم. لم تكن لديها فكرة حقاً عما تفكر به، وهي في تلك الحال من الحماية. كيف حصل أن رزق جاك بطفل مثلاً. بدا لها أمراً ساراً إلى حدّ كبير، وإن احتفظت برأيها لنفسها. علمت من الكتب وأيضاً من أجزاء من الشائعات حول الموضوع العام نفسه أنها مخطئة بالنظر بمثل هذه البساطة إلى المسألة. كان والداها بالفعل آخر شخصين على الأرض يبكيان ويتهامسان حول ولادة حفيد، وعلمت أنها يجب أن تجد طريقة تأخذ فيها حزنهما في

الاعتبار. الكثير لم يشرح لها البتة. كانوا من هذا النوع من العائلات. الأمور الضروري معرفتها تمرر من أخ لأخ، ومن أخت لأخت، وهذا كاف معظم الأحيان، على الرغم من هامش الخطأ الحتمي والإفراط في العاطفة. إلا أن سلسلة نقل المعلومات انكسرت حين غادرت غرايس للعيش مع هوب في مينيابوليس، ونسي والداها المشكلة، بعد أن اعتمدا طويلاً جداً على أطفالهما لكي يجفلوا بعضهم بعضاً بالمعلومات.

كان والداها، البريئان على طريقتهما تماماً مثلها، قد وضعا براءتهما جانباً لأسباب عملية، لا اعتقاداً منهما أنه انتقص من قدرها، بل لأنهما تقبلا شروط الحياة في هذا العالم كمعاهدة مفضلة على النزاع، وإن لم تكن مثالية بأي شكل من الأشكال. وقد علمتهما التجربة أن للحقيقة حواف حادة وزوايا صلبة، ويمكن أن تتعارض بجدية مع اللطافة. تعلما أن التفاني المفرط حتى تجاه أسمى الأشياء يبدو – وهو على الأرجح كذلك بالفعل – تظاهراً بالورع، وأن المعيار الكافي للإفراط هو نظرة الانزعاج تلك، التي تتأكد في ذاتهما بوخز من الحرج، الذي يعني أنه تمّ تجاوز الخط المسموح به. تعرفا النعمة في استعداد أكثر الخطاة كلاحة لإلقاء طرفة صغيرة، بضع كلمات تنم عن التواضع، كنوع من الاعتذار. وكان هذا أمر تعلم والدها الذي كان متزمتاً أخلاقياً إنما اجتماعياً كذلك، أن يقدره بشكل ودّي. صحيح أنه الحياة الكهنوتية محفوفة بالمخاطر، وكان والدها متيقظاً تجاهها جميعاً. بالصرامة المخيفة لطفل مستقيم لاحظت غلوري تدبيراته وتأملت فيها، أياً تكن صغيرة أو حمائية. كان هذا جزئياً نتيجة لأنها وجدت نفسها فجأة في بيت هادئ ليس فيه إلا والداها لتفكر بهما.

رغم ذلك، فإن نظرة غلوري للأمور كانت تحتوي على عنصر قوة

تحديداً لأنها ساذجة. الطفل هدية رائعة من الرب في نهاية الأمر. لم يتولّ والدها يوماً عمادة طفل من دون قول هذه الكلمات. وإذا كان جاك قد تصرف بخزي تجاه والدة الطفل - إنها صغيرة جداً، صغيرة جداً!»، همس والدها - فهذا لا يلغي حقيقة أن المولود طفل للعائلة، يستحق الترحيب به ومعانقته. لم تفهم غلوري حقاً لمَ كان البؤس يشكل جزءاً مهماً من ردّ والديها على الوضع. ما كانت الفتاة لتكون أصغر بكثير من غلوري نفسها، وكانت واثقة تماماً من أنها ما كانت لتمانع أن ترزق بطفل. مخبلة مثلما كانت حينذاك بالوحدة واليفاعة، وبعيدة عن فهم لماذا يشعر والدها أن الغطرسة لها دور في الأمر على الإطلاق. أو لماذا همس تلك الكلمات بذلك التوكيد المرير. كل يوم أحد حين يكون الصبيان في البيت يقف والدها أمام الكنيسة، منتظراً امتلاء المقاعد الخشبية. يدخل إخوتها، ثلاثة منهم، وينتظر والدها دقيقة اخرى، مراقباً المدخل، محدقاً عالياً نحو الشرفة. ثم يميل رأسه جانباً، تعبيراً عن الأسف والغفران في حركة واحدة. أحياناً، نادراً، يهزّ رأسه ويبتسم، فتعرف أن جاك هناك، وأن الموعظة ستكون حول الفرح وحول طيبة الرب بصرف النظر عن فحوى النص الذي يتلوه. لم تسمع والدها قط يقول كلمات قاسية كهذه - فظاظة الأمر! الغطرسة! - ولم تره يوماً يكتئب لأيام مدمدماً، وكأنه يستوعب حقيقة أن بعض الآثام تتجاوز قدرة الفانين على مغفرتها. وما أكثر ما عبرت بالها تلك الكلمات القاسية نفسها.

إنما في تلك الأيام كانت حياتهم تعاش بعلانية شديدة، بدا لها أنه يمكن لهما أن يعترفا بما يعرفه الجميع على أية حال. لم يكن لديها سبب لتفكر بأن لوالديها نوايا أخرى، إلا أنها كانت لتساعدهما، كما فكرت،

من خلال تقديم نفسها كمصدر إضافي للقلق. فقد آمن كلاهما بقوة بقوة المثال. وهذا كان ليشكّل فعلاً عظيماً من أفعال التوجيه الأخلاقي. يجب عليهما التصرف بانسجام مع عقيدتهما. يجب عليهما التفكير بكل تطبيقاتها في الظرف الراهن. أجل! رأت والدها وهو يستجمع شجاعته «كان الربُ طيباً جداً معي!»، قال، مذكراً نفسه بأن التزاماته جسيمة بالاتفاق مع ذلك، بل إنها في حقيقة الأمر غير محدودة. تلك فكرة لطالما وجدها مبهجة. ترك جاك مفاتيح سيارته على البيانو وركب القطار عائداً إلى الجامعة. كانت قد بلغت للتو سناً مناسبة للقيادة، وكانت واثقة بما فيه الكفاية من كيفية فعل ذلك. فأخذت والدها إلى الريف لرؤية الطفل. تشعر بالاضطراب عندما تتذكر كم كانت سعيدة حينذاك، في وسط أعمق مشاعر حزنه.

كانت عودتها إلى البيت ما جعلها تتذكر، كونها وحيدة وسط كل هذا الصمت، أو جالسة إلى جوار مذياع مزعج محاولة قراءة كتاب اختارته ليكون الأقل قابلية للقراءة بين مئات الكتب القديمة الموزعة على عشرات الرفوف وخزائن الكتب التي ضاقت بها الغرف المليئة بالأثاث. «رقصة السيوف» بالتأكيد و«مقدمة 1812»[1]. «هذا غابرييل هيتر[2] يقرأ عليكم نشرة الأخبار». والدها ينهض بنفسه من حين لآخر من أجل لعبة داما أو مونوبولي. كان يفعل ذلك كرمى لها. في طفولتها، حين كانت تضطر إلى البقاء في السرير بسبب إصابتها بالجدري أو

(1) رقصة السيوف مقطوعة موسيقية للموسيقي الأرمني أرام خاتشوريان، هي جزء من الحركة الأخيرة من عمله «جايان» الذي اكتمل في 1942، أما مقدمة 1842 فهي من أعمال الموسيقيّ الروسي تشايكوفسكي.

(2) مذيع أمريكي معروف (1890—1972) اشتهر بعبارته خلال الحرب العالمية الثانية: «ثمة أخبار طيبة الليلة».

الحصبة وأبو كعب أو الإنفلونزا، كان يأتي والدها إلى غرفتها حاملاً كيساً من النعناع وعبوة من جعة الزنجبيل ومجموعة المونوبولي، ويلعب لعبة قصيرة مرحة معها، مخرجاً بطاقات الخروج من السجن من أكمامه، مضيعاً قطعته المعدنية على الملاءة لكي يخرجها من وراء أذنها. والآن من وقت لآخر يغشّ لصالحها. فيضع حجره خلسة قبل أن يحط في «بورد واك» في حين يكون لديه الكثير من المال لكي يشتريه ويكون قد امتلك سلفاً «بارك بلايس»[1]. وكان ذلك يشعرها بالحزن، تماماً مثلما لم يكن أهلاً للثقة في ما خص تولي إدارة «المصرف».

حين يجلس على الشرفة في العصارى، تعمل في الحديقة. تلك الساعات تمرّ بهيجة. فتنظف رقع التربة التي تستطيع زرعها بالبازلاء والخس.

أما الأماسي، فكم كانت بطيئة. إنني في الثامنة والثلاثين، تقول لنفسها، خلال أعمال تنظيف المائدة بعد العشاء. لدي شهادة ماجستير. علمت الإنجليزية في الثانوية طوال ثلاثة عشر عاماً. كنتُ معلمة جيدة. ماذا فعلت بحياتي؟ ما الذي آلت إليه؟ وكأنني حلمت حلماً بحياة البلوغ وصحوت منه، هنا في منزل والديّ. بالطبع، ثمة فساتين بسيطة رصينة، معلقة في خزانتها، تناسب التدريس. كان ثمة سترات الصوف والأحذية قصيرة الكعب من تلك الحياة الأخرى. لا سبب يحول دون ارتدائها.

تحلم أحياناً أنها عادت من المدرسة. كانت طفلة تزعم أنها تمارس التعليم، أو معلمة أدركت محرجة أنها تتحول إلى طفلة. في كلا الحلمين

(1) Boardwalk وPark Place هما البديلان الأمريكيان في لعبة مونوبولي لشارعي «بارك لاين» و«ماي فاير» اللذين يعدّ شراؤهما مهماً في اللعبة.

لا فكرة لديها عما تتكلم عليه وتبتدعه بيأس. تستشعر سخرية وازدراء في الغرفة، تمتمة ونظرات غريبة. يخرج الطلبة جميعاً، متجاهلينها، ولا تجد ما تقوله لكي تستبقيهم. أيّ إذلال! تصرخ فوق أصوات الضحك وجلبة اصطفاق الخزائن، وتوقظ نفسها في جلعاد السوداء المليئة بصرّارات الليل. وهذا أفضل بالنسبة إليها من الاستيقاظ في «دي موين»[1]، عالمة أنها ستكون في الصف ثانية حين يأتي الصباح ثانية. ذكرتها أحلامها أنها لم تحبّ التعليم بكل معنى الكلمة، وإن حسبت خلال النهار أنها أحبته. ذلك الوخز في القلب الذي تحسّه حين تفيق، والشك المذعور بأنها تمسك بزمام حياتها، وليست زائفة أو مخفقة، ليس كلياً - ذلك كان شعوراً وجيزاً بالبؤس تستطيع تنحيته جانباً بإشعال الضوء والقراءة لبعض الوقت. اعتادت أن تسأل نفسها، ما الذي يمكن أن أطلبه أكثر من هذا؟ إلا أنها دائماً تشكّك في السؤال، لأنها تعرف أن ثمة حدوداً لتجربتها التي تعيق معرفتها بما هو موجود لكي تتمناه في الحياة.

لو كانت رجلاً لاختارت الكهنوت. لكان هذا أرضى والدها. لوقا اتبع طريقه، لكن فقط بعدما بات جلياً أن دان لن يفعل ذلك. جاك في ذلك الحين كان جاك، وتيدي أصغر من أن يحمل على عاتقه آمال أحد، مهما حاول ذلك عن طيب خاطر. بدا أنها تعرف منذ البداية، انسجاماً مع تفكير أبيها، بأن أعمال العالم العظمى هي أعمال الرجال، أولئك الرجال اللطفاء الجادون الضليعون في الكتاب المقدس والبلغاء في الصلاة، أو في أيّ حال، الموسومون كهنة في طائفة محترمة إلى حدّ كبير. هم وكلاء الأمور المطلقة. أما النسوة فمخلوقات من الدرجة الثانية،

(1) عاصمة ولاية آيوا الأمريكية وكبرى مدنها.

مهما كنّ ورعات، مهما كنّ محبوبات، مهما كنّ موقّرات. هذا شيء ما كان والدها ليقوله لها البتة. كانت هوب التي قالت لها إن رجال الدين هم رجال فحسب على الدوام، باستثناء آيمي سمبل ماكفيرسون[1] التي أقامت الدليل على القيام بهذا الدور. لكنها كانت عالمة بطبيعة سير الأمور قبل أن يخبرها أحد بذلك. ليس من طفل لامع الذكاء يخفق في معرفة ذلك. أيّ من هذا لم يعن الكثير خلال كل سنوات دراستها وتعليمها، أما الآن، في منتصف الليل، فبات جزءاً من الوحدة التي تشعر بها، وكأن الإحساس بأن كل شيء كان يمكن أن ينحو منحى آخر هو بمثابة «ظلمة محسوسة». ظلمة مرئية. هذا بحسب ميلتون[2].

كان أولئك الأولاد، جميعهم تقريباً، ينكبون على أي واجب مدرسي تكلفهم به، وإن بدت أجسادهم غريبة مضطربة في بداية بلوغهم، عندما يبدأ القدر بالزحف عبر أوردتهم وغددهم وحويصلاتهم[3]، مثل سمّ خفي، جاعلاً منهم نسخاً عن ذويهم وغرباء عن أنفسهم. كان ثمة طرافة في الأمر من النوع الذي يثير الأسئلة حول مبتدع هذه الطرفة.

لَم علينا قراءة الشعر؟ لَم «إيل بينسيريسو»[4]؟ اقرأوها وستعرفون السبب. وإن لم تعرفوه، فاقرأوها ثانية، وثالثة. بعضهم كان يتعامل مع كلامها بجدية، مثلما فعلت حين قيلت تلك الأبيات لها. كانت تساعدهم على الإحساس بإنسانيتهم. لطالما كتب البشر الشعر، قالت لهم. ثقوا أنه سيكون ذا معنى لكم. وقد أثّر الوصف المفخّم للحرب في

---

(1) Aimee Semple McPherson (1890– 1944): تعرف أيضاً باسم الأخت آيمي، وهي الرائدة في استعمال وسائل الإعلام الحديثة، خاصة المذياع، في الترويج الديني.

(2) من قصيدة ميلتون «الفردوس المفقود».

(3) Follicles: مجموعة من الخلايا تتشكل في الأجسام على هيئة أكياس.

(4) ميلتون، الفردوس المفقود.

«هجوم السرية الخفيفة»[1] ببعضهم حتى البكاء، ثم حدّثتهم عن الشعر الرديء. من يحق له أن يقول ما هو الجيد وما هو الرديء؟ أنا، قالت. في الوقت الحالي. ليس عليكم أن توافقوا على ذلك، إنما أنصتوا. بعضهم أنصت حقاً. وبدا لها ذلك إعجازياً تماماً. لا عجب في أنها حلمت ليلاً أنها فقدت أيّ حقّ للمطالبة باهتمامهم. أي حقّ لديها؟ أيمكن أن يكون السبب أن بعضهم شخص نحوها بذلك الاستعداد للتصديق لأن ما أخبرتهم به صحيح، أنهم بشر، وأنهم حرّاس المعرفة، وصناعها؟ أنه في حقيقة الأمر هم من يتوقّعون منها الكثير؟ علمهم والدها بألا يشكوا قطّ بأن هناك ممراً واحداً من قديم الزمان إلى الأبدية. تعلموا الكتاب المقدّس وتفكّروا في سبل الكنيسة الأولى. اعلموا ما عليكم أن تعلموه. الآباء القدماء علموا أطفالهم القدماء، الذين علموا أطفالهم القدماء، هذه الأمور عينها. ميلتون البيورتاني وملهماته الوثنيات. إنه مثل صوت يسمع من غرفة أخرى، يغني لمتعة الغناء، وعندئذ تسمع الأغنية أيضاً، وعبرك تنتقل بالصدفة والضرورة إلى الأجيال اللاحقة. إذن، لم الغناء؟ لَمِ المتعة في الغناء؟ ولَمِ بركة اللحظة حينما يُسمع صوت آخر، يحلم في نفسه؟ كان هذا والدها يدندن «أولد هاندرد»[2] وهو يحلق ذقنه. كان جون كيتس في «تشيبسايد» يسافر في ممالكه الذهبية. لا حاجة إلى أن تكون كاهنة. أن تكون معلمة كان خياراً ممتازاً. تلك النظرات الفارغة قد تكون جوهر الشيء. ربما كان الصغار ليضطربوا حول أي نار بدائية حين يكون ثمة من هو أكبر منهم ويقول لهم: اعلموا هذا. لا غرو في أن يكونوا مضطربين. فأجسادهم مستنزفة بأطرافهم

(1) قصيدة لألفرد لورد تنيسون، يصف فيها ويلات معركة بالاكلاوا، التي وقعت خلال حرب القرم في 15 أكتوبر 1854.

(2) الترنيمة المئة، من أشهر الترانيم في المسيحية.

الآخذة في التمدّد، وشعورهم الآخذة في النمو، تحضّر نفسها للتناسل.. ورغم ذلك، كانت أحياناً تشعر بصمت يسود الغرفة أعمق من الصمت الاعتيادي. كيف أمكنها أن تترك تلك الحياة؟ ومن أجل ماذا؟

كان خطيبها السابق المزعوم، طوال سنوات، قد أخبرها في إحدى رسائله لها، أنه يعرف إلى آخر فلس بكم هو مدين لها. فقد احتفظ بنوع من دفتر الحسابات. لابدّ من أنه يحتفظ به منذ البداية، منذ اصطحبها إلى العشاء ثم اكتشف أنه نسي محفظته. تضرّج خدّاها حين فكرت في الأمر. قال لها إنه سيدفع لها المبلغ كاملاً حتى آخر فلس، ما إن تتحسّن أحواله. قال: «سيتطلب بعض الوقت لكي أسدّد لك المبلغ كاملاً، بما أن مجموعه طائل». أيّ لطخة من النزاهة الرهيبة المحاسبة للذات حدت به إلى الاحتفاظ بسجل عن تلك «الديون»؟ لم تحتفظ بحياتها بشيء كالحساب، ولم تفكّر يوماً في أمر كهذا، ولم تشعر حتى بأنها تعطي شيئاً. لا شيء من هذا عاد مهماً الآن. ما يهم هو أنها كانت على هذا القدر من الحماقة. في تلك الرسالة قال لها: «إنني آسف إذا بدا أنني قد ضلّلتك». لم تسمح لنفسها بأن تتذكّر المسرات الوحيدة التي وجدتها في العيش ببساطة شديدة، مستمتعة في حقيقة الأمر بنكران الذات والتقشف اللذين من شأنهما أحياناً أن يجعلا– ماذا؟ السعادة العادية، ممكنة. ذلك النوع من السعادة الذي رأته يمرّ في الشارع، في أثناء جلوسها في الكافيتريا.

عرفت أنه لابدّ من أن يكون ثمة شكسبير وديكنز في البيت، ولابدّ من أن يكون مارك تواين في مكان ما. وجدت كيبلينج في مكانه المعتاد على النضد في حجرة لوقا وتيدي، إلا أنها تمقت كيبلينج. أخيراً سألت والدها عما حدث للكتب التي تحبها؛ أجرى مخابرة هاتفية وفي غضون

ساعتين وصلت ستة صناديق من ستة عناوين، مليئة بالكتب الجيدة القديمة، مع بعض الروايات الجديدة الجيدة أيضاً، «أنديرسونفيل»[1]، «العالي والجبار»[2]، «شيء ذو قيمة»[3]. وضعت عشر من هذه الروايات في رزمة قرب المذياع. في هذ الوقت لم تستطع أن تقرر شيئاً حيال حياتها. لم ترد أن تفكر بحياتها. فتحت «أندرسوفيل». قال لها والدها: «الرجل الذي كتب هذا من أيوا. نسيت اسم بلدته. وهو مشهور الآن. نسيت اسمه». كانت تعرف بشأن ماكينلي كانتور من «وبستر سيتي». كانت «أندرسوفيل» طويلة وحزينة بصورة رتيبة. لقد فطرت قلوب القراء في «دي موين» الأعظم. قررت أنها ستقرأها حتى النهاية. تستطيع البكاء من دون أن تزعج والدها.

ثم وصل البريد ذات يوم، متضمناً فاتورة أو اثنتين، رسالة لها من هوب، وأخرى موجهة إلى والدها، الذي دخل إلى المطبخ لكي يأتي بكوب من الماء. قال: «هذه الرسالة من جاك، أعرف خطّ يده. هذه يده». جلس ووضع الرسالة أمامه على المنضدة. قال بصوت هامس، مبحوح: «مفاجأة بحقّ». ثم جلس بسكون شديد إلى درجة أنها خشيت أنه يمرّ بنوبة ما، بأزمة قلبية. إلا أنه كان يصلي فحسب. مدّ يده ولمس طرف المغلّف. «أظن أنني سأحتاج إلى منديل يا غلوري، لو سمحت، إنها في الدرج الأعلى إلى اليمين». وهناك وجدت المناديل، في رزمة أنيقة، كبيرة ممتلئة. لطالما حمل منديلاً رائعاً، إذ في مجال عمله لا يعرف البتة متى قد يحتاج إليه. أحضرت له واحداً، مسح به وجهه.

(1) رواية للكاتب الأمريكي ماكينلي كانتور، نشرت عام 1955، وحصلت على جائزة بوليتزر في 1956.

(2) The High and the Mighty: رواية نشرت عام 1953، للكاتب الأمريكي إرنست غان.

(3) Something of Value: رواية نشرت عام 1955، للكاتب الأمريكي روبرت روارك.

«إذن نعرف أنه حيّ. هذا خبر مهم بالفعل».

فكرت، أيها الرب الرحيم، ماذا لو كان مخطئاً؟ ماذا لو كانت هذه غلطة تسبب بها الشوق والتقدّم في السن؟

قالت: «أتمانع لو ألقيت نظرة عليها؟».

«حسناً، إنها رسالة من شقيقك! بالطبع سوف ترغبين بالاطلاع عليها! يا لقلة مراعاتي!».

حملت الرسالة. كانت هزيلة لا تتجاوز قصاصة ورق، في مظروف كتب عليه سانت لويس. إلى الموقر روبرت بوتون في خطّ صغير واضح وجميل. «هل أفتحها؟».

«أوه لا، حبيبتي، آسف لكنني أفضل فعل ذلك بنفسي، في حال احتوت على شيء سرّي. فهو يقدّر، كما تعرفين، احترام خصوصيته. لا أعرف. على الأقل لا يزال على قيد الحياة». مسح عينيه.

وضعت المظروف على الطاولة، ووضع الشيخ يده بجانبه، حاملاً إياه برفق من وقت لآخر لكي ينظر إلى ما كتب عليه، والختم البريدي. «بلى، إنها من جاك حقاً. رسالة من جاك».

حسبَت أنه ربما ينتظر مغادرتها الغرفة، ورغم ذلك خشيت الخروج. قد يخيب أمله، أو ربما تكون الرسالة من جاك حقاً، إنما مزعجة بصورة ما، مرسلة من سجن للمسيئين المزمنين، المقصّرين الأبديين. من السجن، بحق السماء. يحسن أن تكون لديه أسباب وجيهة لكي يستنهض في والدها تلك المشاعر الغامرة. يحسن أن يكون لديه سبب وجيه حتى يعرض العجوز لاحتمال خيبة أمل تفوق الوصف. حتى لو كان ميتاً.

«غلوري، أظن أن عليك مساعدتي. كنت أنتظر حتى أهدأ قليلاً، لكنني أحسب أن هذا لن يحدث. عليك استعمال سكين القلم. لا

نريد أن نخرّب العنوان البريدي».

وجدت سكين طبخ وفتحت المظروف، وأخرجت الورقة المطوية، وسلمتها له. تنحنح. وقال: «أجل». وجد منديله في حضنه ووضعه على المنضدة «فلنرَ فحسب ماذا يريد أن يقول». وفتح الرسالة وقرأها. «حسناً، يقول إنه عائد إلى البيت. يقول هنا: 'أبي العزيز، أنا عائد إلى جلعاد بعد أسبوع أو اثنين. سأبقى لبعض الوقت إن لم يكن في ذلك إزعاج. بكلّ احترام. جاك'. إزعاج! يا لها من فكرة! علينا أن نردّ عليه. سأفعل ذلك بنفسي، لكن عليّ ان أستريح قليلاً أولاً. لا أظن أنني قادر على حمل قلم الآن». ضحك: «يا له من يوم!، لم أكن واثقاً دوماً من أنني سأحيا لأرى يوماً كهذا اليوم». ساعدته للوصول إلى مقعده في حجرة نومه، ونزعت حذاءه، وغطته بلحاف. قبلته على جبينه. وتركت الرسالة في يده. قال: «سيرغب آيمز في معرفة هذا الخبر».

إذن، وفي حين أخذ والدها قيلولة، وصلى، واستجمع شتات نفسه، ونحّى جانباً الأسى والشكوك، وعانى وخز الترقّب، وبحث عن موطئ قدم في النعمة العامة لحياته لصلاة أبوية نبيلة، وربما اقترب بصورة خطرة من التمزّق في جزء ما من منطقة الإحساس في دماغه الذي أسلم لعاطفة غامرة – فأوقات صمت والدها لم تكن يوماً صمتاً فحسب – ذهبت إلى منزل آيمز.

بدا البيت كعهده دائماً، بفارق أن أرضياته مُسحّت ولّمعت. وقد بني على نمط بيوت المزارع المتواضعة في تلك المنطقة من دون أن تطاوله أيّ زخرفة سوى الشكل الدائري لأعمدة الشرفة والدرابزينات. طوال سنوات طفولتها شعرت أن آيمز العجوز يعيش في مكتبته في الطابق الثاني. ليلاً كانت ترى دائماً ضوءاً في النافذة، وفي أوقات النهار حين

يرسلها والدها مع رسالة أو كتاب له، كانت تقف في المطبخ وتنتظر حتى يسمع صوتها، ينهي فقرة كان يكتبها أو يقرأها، ويهبط الدرج. كان المطبخ يعبق بالنظافة، لا برائحة الاستعمال قطّ، وكأن خلاصة عطر ما تبرز من مشمّع الأرضية مالئة الفراغ الذي يخلفه الموقد العاطل عن العمل وحجرة المؤن الفارغة.

الآن هناك نبتة إبرة الراعي على حافة نافذة المطبخ، وثمة شيء كالفرح في بياض ستائر المطبخ ونضارتها. زرعت نباتات جديدة على طول الممشى. جميع آل بوتون حضروا زفاف آيمز ما عدا جاك بالطبع. قال والدها إنه آخر زفاف سيتولاه، وأكثرها بهجة على الإطلاق. غير أنه تراجع عن قراره مرات قليلة، وزوّج ستة أو سبعة آخرين تربطه بهم عاطفة خاصة. كان يتوقّع أن يزوّج غلوري، لكنها أرسلت رسالة تشرح فيها أنها وحبيبها اندفعا وقصدا قاضياً مدنياً، فقط لكي تستوي علاقتهما بصورة صحيحة. كما تولى والدها بعض شعائر العمادة، إضافة إلى تعميد أحفاده. بيد أنه اعتبر زواج آيمز ذروة عمله الكهنوتي. ليلى، العروس غير المتوقعة، في فستانها الساتان الأصفر وقبعتها الصغيرة المدوّرة، وقفت تبتسم بخجل رقيق، محتملة الصور الفوتوغرافية التي يلتقطونها لهما، ممازحة إياهم. كان ذراعاها مغطيين بالزهور التي زرعتها ورعتها بنفسها. كانت زهورها فخرها الخاص، وما زالوا يذكّرونها ممازحين برفضها أن ترمي باقتها[1]. وعلى غرار بيته[2]، بدا العجوز آيمز وقد تحول من دون أن يتغير. والآن لم يعد أبوياً

(1) من الأعراف الشعبية السائدة في الأعراس المسيحية أن ترمي العروس بباقة زهورها باتجاه الفتيات العازبات في الحفل، ومن تقع عليها الباقة يكون هذا فألاً حسناً بأنها ستكون العروس المقبلة.

(2) في الأصل بيت الكهنة، ذلك الذي يكون وقفاً للكنيسة ويكون مخصصاً لسكن القس.

فحسب، بل صار أباً حقيقياً، ولم يعد دمثاً تجاه الآخرين فحسب، بل رفيقاً لسيدة بدت واعية دوماً لدماثته تجاهها ومتأثرة بها.

كان جالساً يقرأ كتاباً على المقعد الهزّاز في الشرفة، لكن حين رأى غلوري آتية أوقف المقعد عن الاهتزاز ووقف ينتظرها بالاهتمام المؤدب الذي يبديه تجاه كل من تجاوز الثانية عشرة، والذي لطالما شعرت بالإطراء بسببه. الآن استشعرت نوعاً من المؤاساة في وقفته هذه، وإن حاولت ألا تشعر كذلك. حاولت ألا تتساءل عما يعرفه عنها.

قال: «أصيل رائع، كيف حالك؟ كيف والدك؟ أتودّين الجلوس؟».

قالت: «نحن بخير. إلا أنني لا أستطيع البقاء طويلاً. صباح اليوم تلقّى أبي رسالة من جاك. أرادني أن أخبرك. أعني من جوني».

«أوه، بلى، رسالة من جاك».

«يقول إنه عائد إلى البيت».

«إمم. أحقاً؟ كيف كان وقع الخبر على والدك؟».

«أظنه شاق عليه. أن يعرف ماذا يتوقع. جاك لم يكن يوماً أكثر شخص يمكن الوثوق به في الدنيا».

صمت مجدداً. «أقال متى سيعود؟ أقال لماذا؟».

«قال إنه سيعود خلال الأسبوع أو الأسبوعين المقبلين. هذا كل ما قاله».

«حسناً، هذا رائع». قال ذلك من دون أيّ أثر يدلّ على الاقتناع به، «هل سيكون والدك قادراً احتمال زيارة بعد ظهر اليوم؟».

«اظن ذلك».

بينما تبعها عبر الممشى لكي يفتح لها البوابة، قال: «يحسن ألا يرفع من آماله كثيراً». ثم ضحكا. قال: «حسناً، ليس ثمة الكثير مما يمكننا

فعله حيال ذلك». بيد أن غلوري كان لها آمالها الخاصة، التي كانت بدورها مرتفعة جداً – أن هذه الزيارة ستحصل اساساً، وأنها ستكون مشوقة، وأن جاك لن يتذكرها بوصفها الأكثر إزعاجاً وفضولية ، والأقل قابلية للثقة بين إخوته. فكرت وأملت أنه بالكاد سيتذكرها.

حين عادت إلى البيت وجدت أن والدها كتب الرسالة، ووضع عليها العنوان وختمها «أجل، لقد وضعت شيكاً صغيراً في داخلها، فقط للضمانة، فالسفر مكلف هذه الأيام. آمل ألا يشعر بالإهانة جرّاء ذلك، لكنني فكرت في أنها طريقة أؤكد من خلالها مدى شوقي لرؤيته. رأيت أنها فكرة جيدة بعد التفكير ملياً. سأخرجه إذا كنت ترين أنه يجدر بي...».

«لن يشعر بالإهانة يا أبتاه. لطالما أرسلت له شيكات صغيرة».

«حسناً، أخشى فحسب أن يكون قد نسي، كما تعلمين، غرابة أطواري. كان عليّ أن أنتظرك حتى تلقي نظرة على ما كتبت. فكرت فحسب أننا نودّ إيصالها إلى البريد بسرعة. سيكون بانتظار الجواب. إن لم يكن في ذلك إزعاج، تخيلي! لا نريده قطعاً أن يقلق بهذا الشأن!».

«أنا واثقة من أنه قال ذلك من باب التهذيب».

«تهذيب شديد. أجل. وكأنه يراسل غريباً. لكن ها أنا أتصيّد له الأخطاء».

قبّلت وجنته: «سآخذ هذه إلى مكتب البريد».

«أظن أنها واضحة. العنوان واضح بما فيه الكفاية على ما أظن، قلقت بهذا الشأن، بسبب ارتعاش يدي هناك لبعض الوقت. كان يجب أن أنتظر حتى تلقي نظرة عليها. آمل أن يتمكن من قراءتها».

«سيكون الأمر على خير ما يرام». إلا أنها كانت تعلم أنه لا يريد أي تأكيد كاف تماماً، مقنع بالكامل. إذا خاب ظنّه ولم يعد جاك، يمكنه أن يقول لنفسه إنه كان خطؤه وحده، ممتصاً مرارة الأمر برمته وحده، مجنباً اللوم لابنه النذل. كان ليفعل الشيء نفسه مع أيّ واحد منهم، ومعها هي، كانت تعلم ذلك. غير أنه من أجل جاك يبتكر ويستخدم أعظم استراتيجيات - ماذا يمكن تسميتها - الإنقاذ. اعتاد أن يقول: «هذا الولد جعلني أركع على ركبتيّ حقاً». بدا أنه أقنع نفسه أن هذه كانت بركة أخرى أيضاً.

وصل آيمز عند الثانية وجلس الاثنان يلعبان الداما. كان ثمة الكثير من الدعابات بينهما. ذات مرة حين كانا صبيين في معهد اللاهوت كانا يعبران جسراً سيراً على الأقدام، يتناقشان حول مسألة ما في العقيدة. فطيرت ريح قبعة والدها نحو الماء، فرفع بنطاله وخاض في النهر وراءها، من دون أن يتمكن من الإمساك بها، وهو لا يزال يجادل آيمز في حين تمضي القبعة مع التيار. قال والدها: «كنت أحقّق الفوز في تلك المجادلة».

«صحيح، لقد كنت مستغرقاً في الضحك إلى حدّ أنني لم أستطع الدفاع عن وجهة نظري». علقت القبعة أخيراً في جذل شجرة، وهذه القصة برمتها، إلا أنها تضحكهما دوماً. بدا أن النكتة هي أنهما كانا يوماً صغيرين جداً وها هما الآن طاعنان في السن جداً، وأنهما على حالهما يوماً بعد يوم، وأنهما في نهاية الأمر تغيّرا بصورة تامة. على نحو هادئ ومحب، أخذا يحملقان واحدهما بالآخر.

قال آيمز: «فهمت أن ولدك ذاك عائد إلى البيت».

«هذا ما قاله لي. لقد بعث رسالة».

«هل سيأتي إخوته أيضاً؟».

هزّ والدها رأسه: «لقد أجريت بعض المكالمات الهاتفية». ها هو الأمر. تفريق مياه البحر «اتفقوا أنه من الأفضل لهم أن ينتظروا حتى يرغب في رؤيتهم. لم يكن يوماً مرتاحاً في علاقته بهم. أظن أنني الملام في ذلك. بالطبع، من الجيد أن غلوري هنا لكي تساعد»، قال ذلك متذكراً أنها في الغرفة. فذهبت إلى الردهة وجلست قرب الراديو المدمدم، وراحت تحلّ شبكة كلمات متقاطعة. فكرت، أمن الجيد أنني هنا؟ قد يكون هذا صحيحاً. سيكون عليّ أن أتذكر ألا اغضب. ذكرت نفسها بهذا لأن جاك على الأرجح ما زال لا يُحتمل، وقد أنفقت كل صبرها في مكان آخر.

ما تبع ذلك كان أيام من المشقة والارتباك في التعامل مع انتظار العجوز وقلقه ثم خيبة أمله، وكل واحد من هذه العناصر جعله مضطرباً أرقاً حرداً. أمضت الأيام تتملقه لكي يأكل. كانت الثلاجة وخزانة المؤن مليئة بكل شيء ظن أنه يتذكر أن جاك يحبه، وخشي من أن تستسلم باكراً جداً وتأكل كل شيء بحجة تجنب الخسارة. لذا لم يكن يرضى بتناول شيء سوى زبدية من دقيق الشوفان والبيض المسلوق، في حين غلظت القشرة التي تكسو فطائر الكريما وذبل الخس. قلقت بشأن ما ستفعله بكل هذا الطعام في حال لم يأت جاك. كانت فكرة الجلوس إلى مأدبة عفنة مفعمة بالإذلال مع أبيها المفطور الفؤاد، فكرة لا تحتمل، إلا أنها فكرت بها على أية حال، لكي تذكر نفسها بمدى حنقها، وبسبب هذا الحنق. وقد خططت في حقيقة الأمر لتهريب الطعام من البيت ليلاً بكميات يمكن أن تتناولها كلاب الجيران، بما أنه صار أقدم من أن

تقدّمه للجيران أنفسهم، ولو فعلت ذلك، فلا ريب في أنهم سيطعمونه للكلاب على أية حال، بعد أن تلطخ بالمرارة والأسى.

في انتظار وصوله، تمرّنت غلوري على تفجير غضبها في وجهه. من تحسب نفسك! كيف يمكن أن تكون مستهتراً بمشاعر الآخرين إلى هذا الحدّ! والتي تحولت مع مرور الأيام إلى: كيف يمكن أن تكون شريراً، قاسياً، فظاً، إلى هذا الحدّ! وما إلى ذلك. بدأت تتمنى أن يأتي فقط لكي تخبره بالضبط بما دار في خلدها من أفكاره تجاهه. حسناً، كان يحق لها بالغضب، بوجود أرغفة خبز الموز تلك التي تتعفن في خزانة المؤن. بأيّ حقّ تفعل ذلك! كانت تغلي في داخلها، عالمة وهي تفعل ذلك أن صلوات أبيها الوحيدة تتمحور حول مجيء جاك، وبقائه.

«يقول هنا لبعض الوقت! وهذه يمكن أن تكون مدة طويلة من الزمن!». حصلوا على عنوان جاك بعد وصول الرسالة العظيمة، تلك التي جعلت والدها ينتحب ويرتعش. أرسل والدها رسالة أخرى وشيكاً صغيراً، في حال لم يصل الأول. وانتظرا. رسالة جاك تستلقي مفتوحة على مائدة الإفطار ومائدة العشاء ومنضدة المصباح وعلى مسند مقعد «موريس»[1]. وقد طواها وأبعدها مرة حين جاء الموقر آيمز للعب الداما، ربما لأنه لم يرد أن تقع عليها عين متشككة.

«هو آت بكل تأكيد»، كان يخلص إلى القول، وكأن انعدام اليقين في هذه النقطة له علاقة بلغة الرسالة. مرّ أسبوعان، ثم ثلاثة أيام. ثم جاء الاتصال الهاتفي، وتكلم والدها بالفعل مع جاك، وبالفعل سمع صوته. «يقول إنه سيكون هنا بعد غد!»، تحوّل تلهّف والدها الشديد

(1) Morris Chair: مقعد جلدي له ظهر قابل للارجاع إلى الخلف، بدأ تسويق هذا النوع من المقاعد في العام 1866 من قبل شركة «موريس».

إلى شقاء من دون أن يفقد خاصية الصبر فيه. «أحسب أنه تأخر بسبب مشكلة جسيمة ما»، قال، مؤاسياً نفسه بأن يبثّ الرعب في نفسه. أسبوع آخر، ثم جاء الاتصال الثاني، متضمناً مجدداً المعلومة القائلة إنه سيصل بعد يومين. ثم مرت أربعة أيام، وها هو هنا، واقفاً في الشرفة الخلفية، رجل هزيل في بدلة بنية، يضرب قبعته بساقه وكأنه غير قادر على حسم قراره بالقرع على الزجاج أو بمسك فتحة الباب او بالمغادرة ثانية ببساطة. كان ينظر إليها وكأنه تذكّر فجأة أمراً مزعجاً أو عائقاً ما، متفرّساً فيها بنوع من المباشرة التي تنسى أن تموّه عن نفسها. كانت بمثابة مشكلة لم يضعها في الحسبان. لم يتوقع أن يجدني هنا، فكرت في نفسها. ليس مسروراً بمرآي.

فتحت الباب وقال: «جاك، كنت على وشك اليأس من مجيئك. ادخل». تساءلت ما إذا كانت ستعرفه لو صادفته في الشارع. كان شاحباً غير حليق الذقن، وكان ثمة ندبة تحت عينه.

هزّ كتفه: «حسن، ها أنذا، هل أدخل؟»، بدا أنه يسألها مشورتها وإذنها في وقت واحد.

«نعم، بالطبع، يمكنك أن تتخيّل كم كان قلقاً».

«أهو هنا؟».

أين سيكون؟ «إنه هنا، وهو نائم».

«أخشى أنني تاخرت. حاولت الاتصال هاتفياً وفوّت موعد الحافلة».

«كان يجدر بك الاتصال بالبابا».

نظر إليها «كان الهاتف في حانة». كان هادئاً في حقيقة الأمر. «كان يمكن أن أغتسل بعض الشيء، إلا أنني أضعت الحقيبة التي فيها

شفرة حلاقتي». لمس الشعر النامي على حنكه وكأنه خدش؟ لطالما كان نيّقاً حيال هذه المسائل.

«لا يهم، يمكنك أن تستعمل شفرة البابا. اجلس. سأحضّر لك بعض القهوة».

قال: «شكراً لك، لا أريد أن أتعبك». لم تقل له إن الوقت قد فات بالنسبة إليه لكي يبدأ بالقلق حول ذلك. كان بعيداً يتكلم باحترام وتردد. في هذا على الأقل كان بمثابة الأخ الموجود في ذاكرتها الذي كانت تعرف أن نظرة حادة منها يمكن أن تدفعه إلى الرحيل، محبطاً كل صلواتها، ناهيك عن صلوات أبيها، التي لم تكن تتوقف. إذا جاء ورحل ثانية في أثناء نوم والدها، فهل يمكن أن تخبر العجوز أنه جاء ورحل؟ أيمكن أن تقول له إن غضبها كان ما دفع هذا الرجل الهزيل، الأشعث، المتعب، الذي كان متردداً حتى في عبور الباب، إلى الرحيل؟ وقد جاء إلى باب المطبخ، وهي عادة عائلية من أيام طفولتهم، لأن أمهم كانت بصورة شبه دائمة في المطبخ الدافئ، بانتظارهم. لابدّ من أنه اتجه إلى هناك عفو الخاطر، منساقاً وراء هذه العادة القديمة. مثل شبح، فكّرت.

قالت: «لا مشكلة، أنا مسرورة فحسب أنك هنا».

«شكراً غلوري، من المريح معرفة ذلك».

تردّد في لفظ اسمها، ربما لأنه لم يكن متيقناً مع أي أخت يتعامل، وربما لأنه لم يرغب بأن يظهر بمظهر أليف جداً. ربما لأن المألوفية تتطلب جهداً. بدأت بوضع الماء في راووق[1] القهوة. إلا أنه قال: «أعتذر عن هذا... أيمكنني الاستلقاء قليلاً؟». وضع يده على وجهه. تلك الحركة، فكرت. «لم يكن يجب أن يحدث هذا، لقد كنت منقطعاً عن الشرب

(1) Percolator: جهاز لتصفية البن وصنع القهوة.

منذ أمد طويل».

«بالتأكيد، فلتذهب وتسترح، سوف أحضر الأسبرين، يذكرني هذا بأيام زمان، حين كنت أهربّك إلى الطابق الأعلى مع قنينة أسبرين». كانت تقصد ذلك من باب الدعابة، إلا أنه نظر إليها نظرة مجفلة، وندمت على قولها ذلك.

ثم سمعت رفاصات السرير وصوت أبيها ينادي «ألدينا زوار يا غلوري! أظن ذلك! أجل». ثم صوت الخفّين، والعكازة.

وقف جاك وأزاح شعره عن حاجبه وأسدل كمي قميصه ووقف ينتظر، ثم ظهر العجوز بالباب: «آه، ها أنت! كنت متأكداً أنك ستأتي، بلى كنت متأكداً!».

رأت المفاجأة المرتسمة على محيا والدها والأسف. تلألأت عيناه. عشرون عاماً زمن طويل. مدّ جاك يده وقال: «سيدي»، وقال والده: «أجل، المصافحة جيدة جداً. لكنني سأضع من يدي هذه العكازة... هاك»، قال، وحين علقها بطرف النضد، قال «الآن»، وعانق ابنه «ها أنت!»، ووضع كفه على طية سترة جاك، مربتاً إياها «لقد قلقنا كثيراً، كثيراً جداً، وها أنت هنا».

وضع جاك ذراعيه حول كتفي والده بحذر، وكأنه خائف من ضآلة العجوز وهشاشته، أو كأنه شاعر بالحرج بهما.

خطا والده خطوة إلى الخلف وعاود النظر إليه. مسح عينيه «أوليسَ هذا شيئاً رائعاً، لقد كنت أضع ربطة العنق منذ أيام، في النوم وفي الصحو، كما ستخبرك غلوري، وها قد باغتني وأنا بقميص النوم! وما الوقت الآن؟ الظهر تقريباً! آه»، قال، ووضع رأسه على صدر جاك لبرهة. ثم قال: «غلوري، هلا ساعدتني قليلاً. سوف أحضر حذائي

وأصفف شعري، وسرعان ما سأصبح شخصاً تتعرفه! لكنني عرفت أنني سمعت صوتك ولم أستطع الصبر على مرآك! أجل!»، ثم حمل عكازته وبدأ بالسير نحو الرواق. «غلوري، لو أمكنك مساعدتي قليلاً. بعد أن تلقّمي القهوة بالبن»، ومضى باتجاه غرفته.

قال جاك: «بعد كل هذه السنوات أظن أنه لا يزال يعرف متى أكون ما زلت أعاني من آثار الشراب».

«حسناً، القهوة ستساعد. إنه مثار الآن، لكنه سيرتاح بعد الغداء وستتمكن من نيل قسط من النوم».

قال جاك: «الغداء».

عشرون عاماً كانت فترة طويلة بما فيه الكفاية لكي تحوّل شخصاً كانت تعرفه بصورة أوثق بكثير إلى شخص غريب؛ شخص كانت تعرفه بصورة أفضل من أخيها هذا، وها هو يقف في المطبخ، شاحباً مضطرباً، وليس في حالة يستقبل فيها اللطف المعد له، الذي ينتظره، وإن كان الطعام قد ذبل وتخثر إلى أسوأ ما يمكن أن يكون قد عناه بكلمة «غداء». وأي كلمة بشعة هي على أيّة حال.

«سأساعد ابي على حلاقة ذقنه، ثم آتي لك بالشفرة. الفناجين ما زالت في مكانها المعتاد، والملاعق أيضاً. فاخدم نفسك حين تجهز القهوة».

قال: «شكراً لك، سأفعل». كان لا يزال واقفاً، والقبعة بيده. هكذا كان يتصرف، بكل احترام وتأدّب، حين يكون عارفاً أنه كان يجدر به أن يعاني من مشكلة. الزبدة لا تذوب في فمه[1]. سمع أحدهم يقول

---

(1) Butter wouldn`t mealt in his mouth: تعبير قديم ربّما يعود إلى القرن الخامس عشر، وكان يستخدم في انتقاد النسوة غالباً، للإشارة إلى هدوء الشخصية وبرودها إلى درجة أن الشخص المشار إليه بهذا التعبير لا حرارة فيها لإذابة الزبدة، إلا أن المعنى العام من العبارة

هذا عنه مرة، امرأة في الكنيسة. تنحنح، وقال: «أوصلت أيّ رسالة لي؟».

«لا، لا شيء». ذهبت لكي تساعد والدها على لبس جوربيه وحلاقة ذقنه وتزرير قميصه، وفكرت، كما تفكر غالباً، على الأقل أعرف ما المطلوب مني الآن، وهذا أمر يدعو إلى الامتنان. ساعدته على وضع ربطة عنقه وسترته وفرقت شعره وصففته إلى جانب واحد، على الطريقة التي يصففه بها بنفسه. حسناً، لم يكن ذلك بالأمر المهم، فلم يتبقَ الكثير من الشعر على أيّة حال.

حين انتهت قال والدها: «الآن سأتصفح الصحيفة لبعض الوقت، أعرف أن جاك يحتاج إلى الاغتسال أيضاً».

أشارت رائحة القهوة أنها تجاوزت الجهوزية بقليل، وصدمتها فكرة أنه ربما يكون قد رحل، إلا أنها وجدته هناك، يغتسل في مغسلة المطبخ، مع قطعة من صابون الغسيل. لطالما كان البيت عابقاً برائحة الخزامى ومحلول الصابون. تساءلت إذا كان يتذكر تلك الرائحة. كان قد علق سترته وربطة عنقه على ظهر كرسي، وفكّ ياقة قميصه وبدأ يفرك رقبته بمنشفة شاي، واحدة من تلك المناشف التي حاكتها جدتها في شيخوختها مطرزة عليها أيام الأسبوع. لا يهم.

عصر المنشفة وأخذ يجفّف نفسه بها. ثم انتبه إلى وجودها في الغرفة فالتفت ناظراً، محرجاً برؤيتها له أعزل على هذا النحو، فكّرت، بما أنه عاود إسدال كمي قميصه وزررهما ورفع شعره فوق جبينه.

قال: «هذا أفضل قليلاً». ثم نفض منشفة الشاي وعلقها على القضيب المعدني فوق المغسلة. كان مكتوباً عليها يوم الثلاثاء.

يعني أن الشخص يبدو لطيفاً وبريئاً في حين أنه العكس تماماً من ذلك.

«يجدر بك أن تشرب هذه القهوة إذا كنت تريد ذلك».

«بلى، يبدو أنني نسيت أمرها». عاود ارتداء سترته ووضع ربطة عنقه في جيبه.

ارتشفا قهوة رديئة معاً في حين جلس والدهما بجوار النافذة على مقعده الموريس قارئاً أخبار العالم. كانت تفصل بينهما خمس سنوات، ولم يبد تيدي وغرايس وهو كثير اهتمام بها بما يتجاوز لخبطة شعرها من وقت لآخر. لم تكن غلطتها أنها التي كانت في البيت حين حدث كل شيء. بدا محرجاً، هذا الرجل الذي بدأ يذكرها أكثر بأخيها وهي تنظر إليه. كان صعباً أن تشيح نظرها عنه، رغم علمها أنه يودّ منها ذلك. حمل فنجانه بكلتا يديه، إلا أنه ظلّ يرتعش رغم ذلك. وقد أراق القهوة على كميه وأجفل منزعجاً، وفكرت كم كان من قبيل اللطف من والدها أن يمنحه وقتاً لكي ينعش نفسه. قالت: «أنت موضع ترحيب كبير هنا يا جاك. تعرف ما يعنيه له وجودك هنا».

قال: «هذا من لطفك غلوري».

«إنها الحقيقة فحسب».

كات تحسب أنها ستتمكّن من ألا تسرف في القلق لو أن حدّة ما تسرّبت إلى صوتها أو نفد صبرها للحظة.

قال: «شكراً على القهوة، سوف أذهب لأحلق ذقني الآن».

حمل حقيبته إلى الطابق العلوي، ثم عاد بذقن تلمع، مصفف الشعر فوّاحاً بعطر أبيها «أولد سبايس». كان لا يزال يزرّر بنطاله. أشار إلى المنشفة: «إنه الثلاثاء».

قالت: «لا، هذه المنشفة سريعة بعض الشيء، لا يزال اليوم الاثنين».

تضرّجت وجنتاه، إلا أنه ضحك. وفي الغرفة الأخرى سمعا فلفشة الصحيفة ثم سمعا طرق العكازة والحذاء الرسمي الصلب الملمع جيداً والذي أبى أن يبلى في الحياة الدنيا. ظهر والدهما، وفي عينيه نظرة محتالة، كما يفعل دائماً حين يشعر أنه في أفضل أحواله.

«أجل، أيها الولدان، وقت الغداء على ما أظن. لقد كانت غلوري منشغلة جداً بالإعداد لذلك. قالت إنك تكره فطيرة الكريما، إلا أنني كنت واثقاً من أنك تحبها بصورة خاصة، وقد أعدَّتها تحت طلبي رغم تحفظها على ذلك».

قالت: «لقد صارت قاسية الآن».

«أترى، إنها تحاول أن تجعلك تنحاز ضدها! قد تظن أن ثمة رهاناً ما بيني وبينها حول ذلك!».

قال جاك: «أحب فطيرة الكريما». حدّق بها.

قالت: «إنها للعشاء على أية حال»، وفكرت أنه بدا مرتاحاً. «ربما لا يكون جاك جائعاً بسبب رحلة الحافلة طوال ليلة أمس. علينا أن نقدم له شطيرة وندعه يرتاح قليلاً».

قال: «أنا بحال جيدة». نظر والده إليه: «إنك شاحب. أجل، أرى ذلك».

«أنا بخير، لطالما كنتُ شاحباً».

«حسناً، يجدر بك الجلوس على أيّة حال. لن تمانع غلوري بأن تخدّم علينا هذه المرة الوحيدة، أليس كذلك عزيزتي».

قالت: «هذه المرة الوحيدة لا أمانع».

«إنها تجبرني على العمل حتى الموت هنا. لا أعرف ما كانت لتفعل من دوني».

ابتسم جاك بدماثة ووضع جبينه على يده حين بدأ والده بتلاوة صلاة المائدة. «هناك الكثير مما يدعو إلى الشكر، الكلمات أشياء بسيطة...»، وبدا أن العجوز قد أغفا ثم قال: «آمين»، واستجمع نفسه ثانية، وعاودته تلك الحيوية، وربّت يد جاك، مردّداً: «يا سلام، يا سلام!».

اصطحبت غلوري جاك إلى الغرفة التي أعدّتها له في الطابق العلوي، غرفة لوقا وتيدي، كما كانوا ما زالوا يسمونها. قال: «هذا من لطفك»، حين قالت له إنها لم تضعه في الغرفة التي ترعرع فيها. كان اللطف نفسه الذي أبداه والدها تجاهها. وحين، بعد نصف ساعة، صعدت ثانية، حاملة بعض المناشف له، كان جاك قد علق ملابسه ووضع نصف دزينة من الكتب على النضد بين سنادات الكتب التي على شكل إبراهام لنكلن، بعد أن وضع المجلدات العشرة من أعمال كيبلينج، التي وضعوها منذ جيلين، في زاوية الخزانة. كان قد أحضر صورة صغيرة من غرفته القديمة، صورة مؤطرة تمثل نهراً وأشجاراً، ووضعها على النضد قرب الكتب. بقدر ما كان قادراً على شيء كهذا، بدا وكأنه قد رتّب نفسه في مسكنه الجديد.

كانت الغرفة شاغرة، والباب مفتوح، حين دخلت لكي تضع المناشف على النضد، وتوقفت قليلاً، ناظرة إلى الأشياء، كان هذا صحيحاً. وحين التفتت وجدته ينظر إليها من الرواق، مبتسماً لها. لو أنه قال شيئاً ما لكان «عمّ تبحثين؟». لا، كان ليكون: «أتبحثين عن شيء ما؟». لأنه فكر أنه ضبطها وهي تسترق النظر.

«أحضرت لك بعض المناشف».

«شكراً جزيلاً لك. أنت شديدة اللطف».

«آمل أن تكون مرتاحاً».

«أنا كذلك، شكراً لك».

كان يتكلم بصوت منخفض كعهده دائماً. لم يرفع صوته يوماً. في طفولتهما كان ينسلّ مبتعداً، ويترك لعبة المطاردة[1]، ويغادر البيت، من دون أن يفتقده أحد بسبب شدة هدوئه. كان يعود حين يعود. إلا أنهم كانوا يبحثون عنه، وكأن اللعبة أصبحت أن يجدوه متلبساً بإساءة التصرف. وحتى والدهم كان يحاول، ماشياً من شارع إلى شارع، باحثاً وراء الأسوار الشجرية والأسيجة وأعلى الأشجار. لكنه يكون قد ارتكبت فعلته وعاد إلى البيت قبل أن يستسلموا من البحث. وذات مرة، حين أنهى غيابه لعبة كروكيت مسائية كادت لمرة تفوز فيها، استولى عليها الغضب والسخط. وحين علمت أنه عاد إلى البيت اقتحمت غرفته صارخة: «أيّ حق لك في أن تكون غريباً إلى هذه الدرجة!».

ابتسم لها، رفع شعره عن جبينه، ولم يقل شيئاً. إلا أنها عرفت أنها قد ضايقته، بل جرحت مشاعره. لابدّ من أنها كانت في التاسعة أو العاشرة، تلك الأخت الصغرى التي يستفزها أو يتجاهلها. شعرت أن سؤالها له ناضج، ربما بالنسبة إليه. بدا غير مؤذ، وهذا أجفلهما معاً. ومنذ ذلك الحين صار احتراسه يشملها – تغيّر بسيط، حتمي ولا ريب.

وها هي الآن، محرجة من أنه ضبطها وهي تضع المناشف في غرفة طويلة فارغة عانت قليلاً من إعدادها له، وكأن بعض القمصان والكتب، تشكل حقاً مقدّساً بالمكان وتجاوزها العتبة هو بمثابة انتهاك لهذا الحق. غير أنه كم كان سيكون مهيناً له لو أنها فعلاً كانت تفتش غرفته. ما

(1) Tag: لعبة يطارد بها ولد ولداً آخر.

كانت الفكرة لتخطر ببالها، لكنه ما كان ليعرف بذلك. والآن وجدت أنها كادت تفترض إخفاء قنينة في مكان ما، تحت السرير أو وراء مجلدات كيبلينج. تعهدت في سرّها بألا تدخل غرفته ثانية.

هل اختارات أن تكون هناك، في ذلك البيت، في جلعاد؟ لا، لم تفعل قطعاً. كان والدها بحاجة إلى من يعتني به، وكان عليها أن تكون في مكان ما، مثل كل إنسان على الأرض. أيّ حرج كان ذلك، أن تكون في مكان ما لأنه ليس لديك مكان آخر تتواجد فيه. كل تلك السنوات من العمل ولا شيء يدعو إلى الافتخار بشأنها. إلا أنك تفعل أقصى ما في مقدورك. الناس يحترمون ذلك. وإنها لنعمة أن تعرف ما المطلوب منك فعله. وكيف يمكن لهذا الرجل أن يأتي من العدم، ويحتل غرفة في البيت، ومقعداً إلى مائدة الطعام، ويشعرها أن وجودها هناك من باب التسامح معها فحسب؟ وإن لم يكن في سلوكه، في حقيقة الأمر أي وقاحة، بل مجرد احترام وتردد. من الواضح أنه هو أيضاً لم يختر أن يكون موجوداً هنا. وجدت شدة وضوح ذلك مزعجة بعض الشيء. بالطبع لم يكن بالأمر الاستثنائي أن يطلب رجل بالغ غرفة واحدة خاصة به، لاسيما بما أنه كان شبه غريب في البيت. بما أنه أيضاً فرد من أفراد العائلة. خرجت إلى الحديقة، حيث أعاد لها شعاع الشمس هدوءها. بدأ القرع ينمو. سوف تلقي نظرة على رقعة الرواند[1]. توقفت لكي تقتلع عشبة ضارة أو اثنتين ثم أحضرت المعزقة وبدأت بتنظيف الرقعة التي تنوي زرعها بالطماطم. لطالما أحبت رائحة النبات الفوّاحة في الشمس، البراعم القوية الطويلة. وفرت لها الحديقة سبباً ممتازاً وجيهاً لكي لا تكون في أيّ مكان آخر، ولكي لا تفعل شيئاً آخر. ولطالما

(1) Rhubab: عشبة من الفصيلة البطاطية ذات منافع طبية.

احتاجت إلى وقت أكثر من المتوفر لرعايتها.

دخلت إلى البيت ووجدت جاك يغسل قميصه في مغسلة المطبخ. نظر نحوها، وقد بدا على محيّاه ذلك التعبير المتحفّظ المحرج بعض الشيء، وكأنهما غريبان يتشاركان مسكنين قريبين جداً، ويختلسان النظر من وراء الستائر المقصود منها الحفاظ على المظاهر. قال: «أوشكت على الانتهاء، سوف أبتعد عن طريقك».

«لستَ تعترض طريقي. لكن إذا شئت يمكنك أن تضع ملابسك في الغسالة فحسب. لن يشكل وجودها فارقاً بالنسبة إليّ، سوف أعلمك كيف تستعمل الغسالة لو أحببت».

«شكراً لك»، قال. وشطف القميص وعصره، بتؤدة ودربة. ثم أخذه إلى الخارج ونفضه، وعلقه على حبل الغسيل، وجلس على درج الشرفة الخلفية لكي يدخّن. حسناً، فليدخن سيجارته، هناك في الخارج، مرتدياً قميصه التحتي، زائغ العينين في ضوء الشمس، ملتزماً بخصوصية العيش في نزل. حين دخل لم يشكرها على قطعة الكعك التي قدّمتها له، ولا على فنجان قهوة. حمل الفنجان والصحيفة اللذين قدمتهما له إلى غرفته.

في المدينة التي اعتادت العيش فيها كانت أحياناً ترى رجلاً في الشارع وتفكر، لا، هذا ليس جاك. ما الذي فيه ذكرني بجاك؟ شعور شيء يشبه التعرف عليه يظل ماكثاً بعد تفكيرها، إنها مشيته فحسب، ميلان رأسه. أحياناً كانت تمشي في الشوارع لكي تنظر إلى وجوه الغرباء بحثاً عن الرضى الكامن في الشبه، وتقابل نظرة باردة أو نظرة محترزة، غير مختلفة كثيرة عن نظرته، نظرة لطيفة بعض الشيء كنظرته، ثم تصحح خطأ ذاكرتها عنه لانه كان يافعاً جداً حينذاك. شعرت

وكأنها أمضت السنوات تتمرّن على التعرّف عليه حين تراه، وها هو هنا، متوتر متحفّظ، يذكرها بنفسه أقل مما يذكرها بأولئك الغرباء.

بادئة بالأمر برمته من جديد، أعدّت عشاء للترحيب بعودته إلى البيت. كانت مائدة الطعام معدّة لثلاثة أشخاص، مفرشٌ مطرّز، أدوات طعام فاخرة، شمعدانات فضية. كانت المائدة في حقيقة الأمر معدّة منذ أيام. وحين وضعت آنية الزهور في مكانها، لاحظت غباراً يعلو الصحون والكؤوس فمسحته بمئزرها. توليب أصفر وليلك أبيض، مضى موسمها بعض الشيء، إلا أنها تفي بالغرض. طلبت من البقالية لحم العجل ورطلين من البطاطا الطازجة، وربع غالون من الآيس كريم. أعدت البكسويت وكعك الشوكولا. وخرجت إلى الحديقة وقطفت سبانخ طازجة، تكفي لملء زبدية، ملساء وناعمة كما يقول والدها. وأغفا جاك. وأغفا والدها. ومرّ اليوم بهدوء، مع انتشار تلك الروائح العذبة.

حين عاودت الدخول من الحديقة، كانت رائحة البيت قد بدأت تفوح كأنه يوم الأحد. جعل هذا عينيها تغرورقان بالدمع. ذلك الانتظام الحميم البعيد من كل مقاطعة. أحد بعد أحد بعد أحد. الأطفال الصاخبون في ملابس الكنيسة، الفساتين والسترات والأحذية التي ينتعلها طفل بعد آخر، وينتزعها، مع مجيء دوره أو دورها. دائماً الحذاء أكبر من اللازم، أصغر من اللازم، إلا أنه غير مريح البتة. ثمانية منهم، أو سبعة، يحتشدون حول تلك المائدة، ثلاثة على مقعد البيانو، واحد على كرسي المطبخ، متمرنين على حسن السلوك - كيف يقون مرافقهم لأنفسهم، ألا يؤرجوا أقدامهم، وأن يجلسوا لساعة من دون الاستفزاز

والجدال اللذين لا ينتهيان فيما بينهم. بانتظار المباركة، بانتظار خدمة الضيوف – دائماً رجال قدماء يكتنفهم وقار كهنوتي يقتضي حظراً معيناً ضد السلوك الطفولي. ألا يتكلموا قبل أن يوجه الكلام إليهم، حتى انتهاء الوجبة، وأن يتكلموا – تعبيراً عن الاحترام – في الأمور العقائدية والكنسية، وحتى ألا يبدأوا بالأكل أن ترفع أمهم شوكتها وهو ما لم تكن تفعله قبل أن تكبت فيهم كل علامة على نفاد الصبر. وأن يكون جاك هادئاً جداً، إذا كان موجوداً في المقام الأول.

كانت غرفة الطعام ثابتة مثل بقية البيت. إلا أنها كانت قائمة بصورة تجعل تغييرها أمراً سهلاً. لو أمكنها إنزال الستائر ذات اللون الخوخي المعلقة فوق الستائر المطرزة التي تغطي النافذة، لكانت فعلت ذلك بثانية. لو أمكنها أن تزيل السجادة ذات الزعانف أو الوريقات أو المراوح الأرجوانية التي تشكّل حدوداً لها. لكانت نظفت النضد من ركام الحلى، الهدايا المعروضة هناك من باب المجاملة تجاه أولئك الذين قدموها لهم، والذين معظمهم الآن قد عادوا إلى بارئهم. قطط وكلاب وطيور من الخزف، وأطباق فاكهة زجاجية حليبية اللون. ولكن في هذا المكان الموحش دوماً مساء، كانت تجري كل المناسبات العائلية البهيجة، وهنا سيحتفلون بعودة جاك، إذا أفاق من النوم في الوقت المناسب. بعد أن أفاق والدها واستغرق نصف ساعة في ارتداء ملابسه، قال: «يمكنك الذهاب وقرع بابه فحسب»، ثم سمعوا صوته يهبط الدرج.

دخل ووقف هناك. كان يرتدي السترة وربطة العنق. بدا متردداً وكأنه خائف من التصرف على سجيته وكأنه يمكن ان يكون أكثر سعادة في مكان آخر. بدا شبيهاً بجاك القديم. لابدّ من أن هذا ما فكّر به والدها ايضاً، فقد بدا جلياً تأثره بمرآه. مرت لحظة قبل أن يقول:

«ادخل يا بني، اجلس، اجلس».

قالت غلوري: «يمكنك أن تضيء الشموع يا جاك». ذهبت إلى المطبخ لكي تحضر طبق اللحم، وعادت لتجدهما صامتين على ضوء الشموع، والدها شارد الفكر، وجاك يعبث بعود ثقاب. قبل عشرين سنة، قاما بمحادثة هادئة في تلك الغرفة. كان عليها أن تأخذ ذلك في الاعتبار. كان يجدر بها تقديم العشاء في المطبخ.

بعد أن وضعت البسكويت على المائدة وجلست في مكانها، نهض العجوز عن كرسيه لكي يتوجه بالكلام إلى الرب: «أبتاه العزيز، أيها الأب الذي لا يتغير حبه، ولا قوته، والذي في عينيه نحن أيضاً لا نتغير، لا نزال أطفالك المحبوبين، مهما تدنس وبلي ثوبنا البشري...».

ابتسم جاك في نفسه، ولمس الندبة تحت عينه.

قال العجوز: «أيها الأب المقدس، لقد تمرنت على هذه الصلاة – صلاة الشكر والفرح هذه – ألف مرة، وأنا أنتظر هذه الأمسية. لأنني كنت أعرف دوماً أن الوقت سيأتي. لأنني فيما كنت أنتظر شخت. ما عدت أتذكر تلك الصلوات الآن، إلا أنني أتذكر الفرح الذي كانت تمدّني به في حينها، والذي هو الثقة بأن أحدهم سيتلو واحدة أو اثنتين من هذه الصلوات على هذه المائدة. لو عشت. حسبت أن زوجتي الطيبة ستكون هنا أيضاً. إننا نفتقدها بالفعل. حسناً، أشكرك على ذلك الفرح الذي ساعدني في أوقات الشدّة. ساعدني أيّما مساعدة».

صمت.

«لكن حين أفكر بما يقرّبنا من أبينا، فقد يكون الأسى أو المرض، أو أي مشكلة أخرى. السأم. ثم ها نحن، ومن الجيد في مثل هذه الأوقات أن نعرف أن لنا أباً، الذي فرحته أن يرحّب بنا في بيته. إنه كذلك

بالفعل. ومع ذلك، إذا تكلمنا بشرياً، ثمة تلك المشكلة، ذلك الأسف، وعلى الأب أن يكون واعياً له. لا يسعه سوى ذلك. فثمة حزن إذن حتى في البركة العظيمة، وهو أمر ربما يكون صعباً على الفهم». بدا أنه يفكّر ملياً.

«إلهي، ضع حجاب الزمن والأسف جانباً من أجلنا. أعدنا إلى أحبائنا. وأعد أحباءنا إلينا. إننا نتشوق فعلاً لهم...».

همس جاك: «آمين». نظر والده إليه، فرفع كتفيه وابتسم وقال وكأنه يبرر: «آمين».

«أجل، حسناً، لقد انتهيت، حقاً. أعتذر على الإطالة».

«لا يا سيدي، أنا من يعتذر، لم أقصد...». غطى وجهه بيده وضحك.

قال والده: «لا حاجة إلى الاعتذار يا جاك! ها إنه لم يمض ساعات على عودتك إلى البيت وجعلتك تعتذر لي! لا! لا يمكننا السماح بهذا الآن!». وضع يده برقة بالغة على كتف جاك، «وها أنا أترك طعامنا يبرد! أتريد أن تسكب الطعام يا جاك؟».

«ربما لا تمانع غلوري القيام بذلك؟».

«على الإطلاق»، قالت وقطعت اللحم وقدّمت القطعة الأولى لوالدها والثانية لنفسها والثالثة لجاك. «لا يزال ثمة بعض اللون الزهري في تلك القطعة»، قالت.

وقال: «تبدو رائعة، شكراً لك».

كابد والدها بتصميم لكي يولد حديثاً على مستوى عام غير مؤذ. قال: «أظن أن تهديد الحرب الذرية حقيقي جداً. هذه نقطة أنا وآيمز لا نتفق عليها. فهو لا يملك تقويماً صحيحاً لقوة الحماقة المحض في علاقات

الأم! يزعم أنه يتفكر ملياً في الامر، إلا أنني أعرف أنه سيصوّت مجدداً للجمهوريين. لأن جده كان جمهورياً! هذا أساسي بالنسبة إلى الناس هنا. فمن لم يكن جده جمهورياً؟ لكن لا طريقة للتكلم بالعقل معه حول الامر. وهذا لا يعني أنني كففت عن المحاولة».

قال جاك: «أنا مؤيد لستيفنسون».

«أجل. هذا ممتاز».

كان يجدر بها أن تغمض عينيها خلال تلك الصلاة أو على الأقل أن تخفضهما. لكن ها هو جاك، يجلس قبالتها إلى المائدة، ناظراً إلى يديه، ثم إلى غرابة الغرفة، الستائر الطاغية والحبيبات الزجاجية الرخيصة في الثريا، وكأن صوت العجوز يوقظه على المكان. حين التقت عيناه عينيها ابتسم وأشاح نظره، مرتبكاً. لمَ بدا ذلك وكأنها كياسة فيه، تجنب النظر إليها ذاك؟ كيف ستراه، كيف سيدو في ناظريها، لو لم يكن، طوال سنوات، ذلك العبء في قلب العائلة، الغياب غير المسمّى، مثل بطل حكاية حزينة؟ شعرت وكأنه كان يجدر به أن يكون رائعاً، ولم يكن بالرائع. له الملامح الباهتة التي تميز وجوه أبناء بوتون، والعينان الحزينتان، والجلد الخشن بفعل منتصف العمر. وضع يده على جبينه وكأنه يحيط نفسه بواق من الاهتمام، ثم أسقطها في حجره، ربما لأنها ارتعشت. كانت مسرورة حين قال: «آمين»، كانت ممتنة. وحين دعا والدها الرب تكلم بإخلاص، من صميم قلبه، كما يفعل أحياناً. وانطلاقاً من حزن بالغ السخاء غمرهم جميعاً.

بعد انتهاء العشاء ساعدها جاك على إزالة الأطباق وقام بغسلها أيضاً، في حين ساعدت والدها على الإيواء إلى السرير. دخلت إلى المطبخ ووجدته قد فرغ من غسلها تقريباً، ووجدت المطبخ مرتباً تقريباً.

قالت: «مذهل، كان هذا ليتطلب ساعة مني».

قال: «لقد حصلت على خبرة مهنية كبيرة يا سيدتي. أشارك تفضيل آل بوتون للمهن التي تطلب أيد ناعمة». ضحكا، وناداهما والدهما: «بارككما الرب أيها الولدان! أجل!».

كثيراً ما تفكّرت غلوري بحقيقة أن آل بوتون يشبهون بعضهم بعضاً. كانت هوب هي الجمال المعترف به في العائلة، أي أن أنف آل بوتون وجبين آل بوتون كانا أقل بروزاً في حالتها. أما بقيتهم من ذكور وإناث، فكانوا كما قالت أمهم مليحي الملامح. جميعهم عبروا من الطفولة الملائكية إلى الطفولة العادية إلى الشباب الموسوم بالطول والهزال إلى سن النضج البوتوني ذاك الذي خففت منه أمهم وامتدحته بالكلام على الشخصية والتميز، مع هوب كاستثناء وحيد. فكان سن النضوج إذن مسألة مشاهدة ملامح عادية تنحرف عن محورها قليلاً جداً، مشاهدة الأنف ينضغط قليلاً فحسب والحنك يخرج قليلاً فحسب عن شكله المربع. وهكذا حول وجه غلوري نفسه في دوره المحتوم. تذكرت فزعها.

ثم الجبين. التقى جدها صدفة ذات مرة عالماً بفراسة الدماغ[1] وجد أن ثمة، في مثلث الجبين الضخم فوق عامود الأنف المائل، الكثير مما يستحق الثناء، حتى إنه خلال الأشهر القليلة التالية انغمس في الميتافيزيقيات وحتى إنه فكر بالترشح لمنصب عام. ولحسن الطالع أنه من الأشخاص الذين ينتبهون إلى غياب التشجيع ويستنتجون ما عليهم استنتاجه منه. إلا أنه التقط صوراً فوتوغرافية لنفسه، ثلاث صور

(1) Phrenologist: عالم متخصص بتحديد ملامح شخصية الإنسان بناء على شكل دماغه.

في حقيقة الأمر، اثنتان جانبيتان وواحدة لوجهه كاملاً. هذه الصور الثلاث المعلقة في الردهة في إطار مذهب نقشت على زواياه أكاليل الغار، كشهادة امتياز تشبه التصاوير في كتاب مدرسي أيضاً. العينان، في بورتريه الوجه، ما زالتا تتوهّجان بيقينية بهيجة حادة – هو بشخصه الحصيف يورّث مقدرة أعلى لذريته، تميزاً في الروح والعقل. ويمكن أن يشك المرء أيضاً بوجود فرح جليّ أيضاً في حقيقة اكتشافه أن الملامح التي يقدّمها للعالم لم تكن ببساطة ثقيلة وغير منتظمة، بصرف النظر عن رأي المشاهد الجاهل بما تعنيه هذه الملامح. مرت سنوات كثيرة قبل أن يحظى بوريث واحد، هو والدهم، الطفل الوحيد من زواج تمّ بحذر وتأن من الطرفين، وكان هذا الطفل الدليل الوحيد الذي قدّمه هذان الطرفان على أنهما مناسبان لواحدهما الآخر، أو هكذا تقول القصة. على أيّة حال، تستطيع العبقرية أن تتخذ من جمجمة فسيحة كهذه مثوى لها، على أنه في حالته كما في حالتهم، كان الساكن حتى الآن كفوءاً. كان فطناً في أحيان، معذّب الوجدان في أحيان أخرى، شديد الصقل في ثالثة، إلا أنه كفوء دوماً. ربما وجد آماله تتناقص في الأشكال المتواضعة التي اتخذها وجهه على مرّ الأجيال. وكان أبناء ذريته شاكرين تماماً لأنهم نجوا، إلى الحدّ الذي اعتبروا فيه أنهم نجوا، مما سمّي أحياناً شبهاً طفيفاً ببتهوفن، وإن لم يجدوا مؤاساة حين احتاجوا إليها، في فكرة أن نزوعاً ما إلى العبقرية ترك علامته عليهم جميعاً. فإذا تكلمنا في مجال فراسة الدماغ، مجال السحنات، فإن جاك كان جديراً بالشخصية والتميز مثلهم جميعاً، كما لابدّ من أنه يعرف. ربما لهذا السبب بدا تهكمياً قليلاً حين نظر إليها، عالماً بمقدار الاهتمام الذي تنظر إليه فيه. بلى، بدا وكأنه يقول، هذا هو، هذا هو الوجه الذي سخرنا جميعاً منه

وبكينا بسببه، وعاملناه بأفضل ما نستطيع، الوجه المليح. هل توعجك وحشته؟ أيفاجؤك أنه مصاب بالندوب والتعب؟

بعد يومين بات جلياً أن جاك يبقى في غرفته حتى يصحو والده، ثم ينزل، بهيئة حسنة، دمث باحترام، ويهتم بالعجوز. لم يكن يقول لها أكثر مما تتطلبه اللياقة. لابدّ من أنه يصغي لكي يسمع صوت والده، أو صوت خفيه وعكازته، لأنه لم تكن تمرّ دقائق معدودة حتى يظهر. فكرة أنه ينصت، أنه يبقى في الطابق العلوي في أثناء نوم والده، في حين تكون هي وحدها التي تدخل وتخرج وتمسح الغبار وتشغل المذياع - بصوت منخفض بالطبع - باختصار، فكرة أنه يتجنّبها، كانت أكثر من مزعجة. يجعلني أشعر كالغريبة في بيتي. لكنه ليس بيتي. ولديه الحق نفسه في أن يكون هنا مثلي. فقررت أن تأخذ إليه الصحيفة ما إن ينتهي والدها من تصفحها. فاجأها قليلاً اهتمامه بالأخبار. تايم ولايف والبوست، تصعد الدرج وتتكوم قرب سريره، وكان ينزل مساء لكي يستمع إلى برنامج فالتون لويس جونيور[1]. إذن كانت تأخذ له الجريدة وفنجان قهوة، مع بسكويتة على صحن الفنجان. فكرت، سوف أقدم له هذه الأشياء وأغادر، وسيرى ذلك كبادرة لطف بسيطة، وستكون هذه بداية. ثمة مقولة تفيد بأن الفهم هو الغفران، لكن هذا خطأ، هكذا كان يقول والدها. عليك أن تغفر لكي تفهم. وقبل أن تسامح فإنك تدافع عن نفسك ضدّ إمكانية الفهم. قال والدها هذا أكثر من مرة، في عظاته، مع الاقتباسات المناسبة من الكتاب المقدّس، إلا أن النص الفعلي

(1) Fulton Lewis Jr (1903–1966): مذيع أمريكي محافظ اشتهر بين الثلاثينات والستينات من القرن العشرين.

كان جاك، وأولئك الذين يتكلم إليهم كانوا هو نفسه، وصف إخوته الجالسين في المقعد الأول، الذي لا يتضمن جاك عادة، ثم بالطبع، الرعية. إذا غفرت، كان يقول، ربما ما زلت لا تفهم بالطبع، إلا أنك ستكون مستعداً لكي تفهم، وهذه حالة الرحمة.

كان الجميع مهتماً تماماً بتلك العظات، وإن صارت تتكرر أكثر، من حيث الموضوع على الأقل، مع الزمن، وإن قالت لهم جميعاً ألا يتوقعوا الجهد العظيم للسيطرة الأبوية التي يعتبرها الناس دوماً ممكنة ومؤثرة في منازل أخرى غير منزلهم، ولاسيما في بيوت الكهنة. سبعة أطفال مثاليين، أكثر أو أقل، جميعهم يحفظون جدول الضرب، ويجتهدون في العزف على البيانو، وإثمهم الوحيد الشغب حسن النية الذي بدا أن والدهم يحبه. وجاك. متى بدأ يصرّ على هذا الاسم؟

كان باب غرفته مفتوحاً. السرير مرتب، وإطار النافذة مرفوع مما جعل الستائر تتأرجح في الهواء الصباحي. كان مرتدياً ثياباً أنيقة، واستلقى مرتدياً جوربيه، مستنداً إلى مخداته، يقرأ أحد كتبه.

قالت: «لا تنهض، لا أقصد إزعاجك. ظننت فحسب أنك قد ترغب في قراءة الصحيفة».

قال: «شكراً لك». تساءلت ما الذي يجعله يقف حين تدخل هي أو والدها إلى غرفته. بدا احتراماً، إلا أنه بدا يعني أيضاً، لن ترياني البتة في حال مسترخية، لن ترياني البتة مكشوفاً. وكلمة شكراً تلك التي يقولها. كانت لا تخفق البتة في ان تكون رسمية، أو على الأقل غير متضمنة لأي إشارة إلى لطف محدّد، وكأنه درّب نفسه على أن يظهر حقيقة اللطف الصرفة، أياً كان حضورها خفيفاً. وبالطبع لا خطأ في ذلك على الإطلاق. وقطعاً ليس في حالته.

قالت: «على الرحب والسعة»، ثم قالت: «أبي يرغب في أن نتحدث معاً».

«آه»، قال، وكأن الدافع من وراء مجيئها إلى غرفته قد اتضح فجأة. مسّد شعره إلى الخلف بيديه. «عمّ يرغب في أن نتحدث بشأنه؟».

«أي شيء، لا يهم. إنه قلق فحسب من أننا لا نتكلم. هو لا يحب البيت الصامت».

أومأ برأسه: «أجل، أفهم، أستطيع فعل ذلك».

مرّت دقيقة، «إذن...»، قالت.

«ثمة ما أردت في حقيقة الأمر محادثتك بشأنه». مضى إلى المنضدة وحمل ورقة نقدية كانت هناك وناولها لها. عشرة دولارات.

«لِمَ تعطيني المال؟».

«لا أحسب أن الموقر لديه الكثير مما يعيله. فكرت أن أساعد في البقالية».

«هذا سيساعد بالطبع. إلا أنه على ما يرام. هو يحصل على بعض الدخل من المزرعة. ومسز بلانك استقالت حين جئتُ، فليس مضطراً لدفع أجرة مدبّرة منزل. والآخرون يعتنون به. والكنيسة».

قال: «الكنيسة. والكنيسة تعرف أنني هنا».

«حسناً، بالأمس وجدت فطيرتين على الشرفة، واليوم وجدت كسرولة وست بيضات».

«إذن انتشر الخبر».

«نعم».

«ومع ذلك لا يأتون لزيارتنا».

«ليس إن لم ندعهم».

قال: «حسن، هذا حسن». نظر إليها «لن تقومي بدعوتهم».

«لا.

«جيد، شكراً لك». ثم وكأنه يبرّر، قال: «أحتاج إلى بعض الوقت لكي أعتاد على المكان، لكي أحاول ذلك».

خطر لها أكثر مرة أن شكراً لك التي يقولها تهدف إلى إنهاء المحادثة. إلا أنه ربما لا يقصد ذلك. والآن فحسب، حين مضت المحادثة بصورة جيدة إلى حدّ معقول، قررت ألا تأخذها في هذا الاتجاه. فقالت: «ماذا تقرأ؟».

نظر جاك إلى الكتاب الصغير البالي الذي تركه على السرير وقال: «كتاب أعطاني إياه صديق، إنه مثير تماماً للاهتمام»، ثم ابتسم.

قالت: «هذا جيد»، واستدارت ونزلت إلى الطبخ. لم يهمها ما كان يقرأ. حاولت فحسب أن تجري محادثة معه. لم يطنب والدها في قول إنه لاحظ صمتاً بينهما أقلقه، إلا أنها عرفت أن هذا لابدّ من أن يكون صحيحاً، ولم تشعر بأسف حقيقي لذكر الأمر لجاك، وإن فوجئت قليلاً بذلك حين فعلت. كان الأب نائماً معظم الوقت. ومن الجيد أن تحظى بمن تتكلم إليه. كانت فظاظة منه أن يتجنّبها، وإن كانت ذكرياته عنها تزعجه. ثمة في اللياقة ما يتجاوز بكثير شكراً لك أو هذا لطف منك! تلك كانت من الأفكار التي أملت أنها لن تسمع نفسها تقولها البتة. عاودت الصعود إلى الطابق العلوي.

كان لا يزال واقفاً هناك، حاملاً الكتاب. قال: «دبليو إي دوبويس[1]، أسمعت به؟».

«حسناً، بلى، لقد سمعت به. كنت أحسبه شيوعياً».

---

(1) W.E.B. DuBois (1868–1963): مفكر أمريكي أفريقي وناشط في مجال الحقوق المدنية.

ضحك. «أوليس الجميع كذلك؟ أعني إذا كنت تصدّقين كلام الصحف؟». قال: «أفترض الآن أنك ستحسبينني في الأعلى هنا أقرأ الدعاية السياسية».

«لا يهمني ما تقرأ. كل ما يهمني هو ما أن نتمكّن من العيش معاً في هذا البيت كبشر متحضّرين». سمعا صرير رفاصات الصرير، ثم سمعا طرق العكازة على الأرض، «آتي، أبتاه!».

قال جاك: «الأمر شاق يا غلوري. أعرف رأيك بي».

«حسناً، هذا أكثر مما أعرفه».

«أأنت جادة؟».

«أنا جادة تماماً».

سمعا جلبة. «إني آتية!»، وهرعت نازلة إلى المطبخ، لتجد والدها واقفاً قرب كرسي وقع على ظهره. كان يرتدي روبه. وخفاً واحداً، وكان شعره معوجاً. نظر إليهما بقلق ينطوي على استياء. كان يحمل رقعة المونوبولي. «فكرت بأن نتسلى بهذه. لعبة أو اثنتين. يحسن أن أجلس الآن». ساعدته للجلوس على كرسي «تعرف ماذا يحدث حين تقفز فجأة من نوم عميق. حسبت أن شيئاً سيئاً قد حدث...»، وسقط في تلك الإغفاءة التي يمكن أن تكون صلاة.

أخرج جاك الرقعة والمال والنرد: «أنا القبعة العالية»[1]، قال.

قال والده: «حسناً، انا شيء ما. لا أعرف بالضبط ما هو»، أغمض عينيه، «أظن انني سأنهي تلك القيلولة على أية حال، إذن يمكنني أن أرتاح أيضاً»، ساعده جاك في الجلوس على مقعده. ثم عاد إلى المطبخ.

قالت غلوري: «أنا الحذاء».

---

(1) من حجارة المونوبولي.

«الحذاء؟».

«أعرف، لكنه يجلب الحظ لي».

ضحك. «أتلعبين المونوبولي كثيراً؟».

«زهاء ألف مرة أكثر مما ظننت أنني سأفعل».

بعد أربع دورات كانت قد اشترت مرفقين.

قال جاك: «حسناً، هذا يبدو لا يقهر تماماً. أفهم ماذا قصدت باختيار الحذاء».

«أأنت جاهز للاستسلام؟».

«أكثر من جاهز».

أبعد جاك الرقعة، مرتباً البطاقات والأوراق المالية وكأن ذلك أمر مهم».

قالت غلوري: «كيف تعرف أنني لست شيوعية؟».

ضحك. «أنت فتاة لطيفة جداً». ثم قال: «ليس أن هذا يعني شيئاً. أنا أيضاً لست شيوعياً».

«أفكّر في القراءة أكثر عنها. أعني الماركسية».

«دوبويس ليس شيوعياً. ليس حقاً».

«لم أكن ألمّح»، قالت. إلا أنها كانت تفعل. فكرت أنها لو قرأت الكتاب لأصبح ثمة ما يتحدثان بشأنه. «سوف أذهب إلى المكتبة لأرى إذا كان لديهم شيئاً ما عن الماركسية. الأختان ماكمانوس تعملان هناك ولا أستطيع مواجهة التكلم مع أي منهما».

«أنت تذهبين إلى الكنيسة».

«أول من يدخل وآخر من يخرج. عليّ ذلك. فهذا مهم لأبي».

كنيسة طفولتهما لم تعد موجودة، تلك الكنيسة الخشبية البيضاء ذات السقف المائل المنحدر والبرج المتواضع. وقد حلّ محلها بناء أكثر كلفة بكثير، ضخماً في نمطه المعماري وإن كان متواضعاً في مداه، مع برج جرس نورمنديّ ذي فتحات في إحدى الزوايا ونافذة مستديرة على شكل زهرة فوق المدخل الكبير. شخص ما لا علم له بتاريخ البلدة قد يتخيل أن قروناً من النهب والخراب تركت هذا التذكار الأخير المتين الدال على العظمة، بحيث أن برج الجرس قد غاص لدزينة من الأقدام في الأرض على مرّ الأزمنة. أعيد البحث في البناء مرة أو اثنتين مع نفاد الاموال، إلا أن النتيجة الأساسية جاءت على قدر آمالهم إلى هذا الحدّ أو ذاك. «الأنجليكانية!»، قال والدها حين رأى خرائط البناء. «استسلام تام». وقد أجفلت احتجاجاته المسنين، إلا أنها لم تعنهم بصورة خاصة، فاستقوا استنتاجات مكتومة حول حالته العقلية. ليس من شيء أوضح على نحو مبتذل من مثل هذا الكتمان، بما أنه يفترض حساسية هشة في الإنسان الذي تراعى مشاعره «وكأنني طفل!»، قال والدها أكثر من مرة، حين حدث أن الثوارن المحتشم لروحه انفجر على مائدة العشاء.

كان هذا أسى لم يتوقعه أولاده. ولا تخيلوا أن جسد والدهم سيصبح عبئاً عليه، ومصدر حرج له أيضاً. كان واثقاً من أن وهنه ألهم شتى التصرفات التي تحطّ من كرامته، وكان متنبهاً لها جميعاً، تواقاً لكي يظهر أن لا شيء يفوته، ميالاً إلى الغضب لأي سبب من الأسباب. أخذوا سبعتهم يتبادلون الاتصالات الهاتفية مع البيت بصورة يومية طوال أشهر. كان يمرّ بألم أعظم مما اعتاد عليه، وكانت صحة زوجته العجوز العزيزة تتداعى. لم يعد على طبيعته. جالسه آيمز لساعات وساعات، وإن لم يكن حتى هو فوق الشبهات. وقد وضعوا استراتيجيات للتخفيف

من الضربة المحتومة الكامنة في تقاعده، والذي كان ليعدّ نعمة لو أنه تقاعد في ظروف أخرى. آه حسناً. أخيراً عاد إلى رشده، متصالحاً مع الخسارة والأسف ومنتظراً الرب.

والآن باتت غلوري سفيرة العائلة. في عطل نهايات الأسبوع يأتون كوفد، وقد جاؤوا لكي يشهدوا تصالحاً ليس كاملاً تماماً إلى درجة أن يقنع والدها لكي يكابد صعود تلك الدرجات الحجرية في الكنيسة الجديدة. كان القس، الذي لم يعد جديداً، شاباً، سميناً، وبشوش الوجه. وقد قرّبه إعجابه برينهولد نيبور[1] من حافة الانتحال من وقت لآخر، إلا أنه كان حسن النية. كانت دائماً موضع مودته الخاصة، مما كان يزعجها.

بالنسبة إليها، فإن الكنيسة هي حجرة بيضاء فسيحة ذات نوافذ عالية تطل على عالم الرب الجميل، مع شعاع شمس الرب الجميل يتدفق إلى الداخل عبر تلك النوافذ ويسقط على منبر الوعظ حيث يقف والدها، مستقيماً وقوياً، محللاً قلب الإنسانية ومشيداً بالقلب المحب للمسيح. كانت هذه هي الكنيسة.

وضعت ورقة العشرة دولارات التي أعطاها إياها جاك في الدرج الذي لطالما احتفظوا فيه بالمال النقدي لنفقات المنزل. في كل أسبوع يأتي أحدهم من المصرف ويسلمها مغلفاً. لاحظت أن المبلغ الذي يحتويه ارتفع من خمسين إلى خمسة وسبعين دولاراً. اتصال هاتفي آخر. حتى الخمسون دولاراً لم تدع الحاجة إليها يوماً. في نهاية الأسبوع، تضع

---

(1) Reinhold Niebuhr (1892–1971): ثيولوجي بروتسانتي لعب دوراً بارزاً في ربط العقيدة المسيحية بالواقع السياسي المعاصر.

المبلغ المتبقي داخل مقعد البيانو، ليس لسبب معين سوى أن تدبيرات والدها لم تكن من شأنها، وأن درج النقود سوف يفيض إن لم تضع الفائض من المال في مكان آخر. وضعت العشرة دولارات الخاصة بجاك في مظروف خاص. كونه جهز هذا المبلغ فهذا يعني أنه قرّر ما هو المبلغ الذي يمكنه الاستغناء عنه. أنه أعطاه لها... حسناً، لطالما تصرف وكأن المنزل ليس منزله، ولا منزل عائلته. كان ثمة ثقل في هذه الحركة، في حقيقة أنه انتوى القيام بها لأيام أو ساعات قبل أن يقوم بها، وأنه لابدّ عرف أن المبلغ ما كان ليعني أحداً سواه إلا أن الكبرياء تطلب منه رغم ذلك أن يعطيه لها. كان ثمة براءة في الأمر برمته. شعرت أنها ينبغي أن تتوخى الحذر لكي لا تنفق المبلغ وكأنه ببساطة مال اعتيادي.

كل يوم ينتظر جاك وصول البريد. بأي طريقة اخرى كان ليزجي وقته، كان دائماً في مكان ما على مقربة من صندوق البريد، وأول من يفحص البريد، وإن بدا أن شيئاً من محتوياته ليس له، ما عدا مرة واحدة، بعد ثلاثة أيام من وصوله. كان يوم عيد ميلاده، الذي نسيته. كان ثمة ست بطاقات معايدة له، من إخوته. فتح أحد المظاريف ونظر إلى البطاقة وتركه مع المغلفات الأخرى التي لم يفتحها، على الطاولة في الردهة. قال: «هذا تيدي، يقول إنه مسرور لوجودي هنا. وإنه متشوق لعيد الميلاد».

قالت: «تيدي مسرور لأنني هنا أنا الأخرى، جميعهم كذلك».

ضحك. ثم سألها: «أهو أمر سيء بالنسبة إليك، أن تكوني هنا؟».

«لنقل فحسب إن هذا ليس ما كان في حسباني».

قال: «حسناً، أيتها البنت المسكينة».

كان هذا تعبيراً أخوياً، فكرت، وأنه مريح على نحو ما، وإن جاء

على حساب التلميح إلى وضعها الخاص، الذي لطالما فضّلت تجنّبه. ما الذي يعرفه عن ذلك؟ لابدّ من أن أبي أخبره شيئاً ما. وقد استاءت من المؤاساة الكامنة في «الفتاة المسكينة». إلا أن الإخوة يواسون أخواتهم. هذا دليل على العاطفة.

وصلت بطاقة أخرى في اليوم التالي. كان العنوان على المظروف مكتوباً بخط شديد الجلافة حتى ليبدو خطّ طفل. رأته لأن ساعي البريد جاء مبكراً، قبل الوقت الذي يتوقع جاك وصوله فيه. حملت له البطاقة إلى غرفته. نظر إليها وتورّد وجهه، إلا أنه وضعه من دون أن يفتحه في الكتاب الذي كان يقرأه ولم يقل لها شيئاً سوى: «شكراً لك يا غلوري، شكراً لك».

بعد بضعة أيام صارت تجده جالساً على الشرفة يتصفّح مجلة. وفي بعض الأحيان، إن كانت مشغولة في المطبخ، كان يحضر المجلة إلى طاولة المطبخ ويتصفحها هناك. ضياع، فكرت، تعلم قواعد العيش المنزلي. اختبار وسائل الراحة، وزن الأكلاف. كانت شديدة اللباقة، شديدة الحذر لكي لا تبدو متفاجئة. ذات مرة حين فتحت كتاب طبخ على الطاولة قال: «أرجو أن تخبريني إن كنت أعيق عملك».

«على الإطلاق. فأنا أقدّر الرفقة». كانت تتحيّن الفرصة لكي تخبره ذلك.

«شكراً لك، لا أرغب حقاً في الانزواء كثيراً. إنها مجرد عادة».

في حقيقة الأمر، كان وجود شخص آخر في البيت، مصدر راحة لها، وكان مثيراً لاهتمامها مشاهدة هذا الرجل، الذي غاب طويلاً جداً،

وهو ينظر إلى هذا الشيء أو ذاك من أشياء البيت، وكأنه مجفل قليلاً، وحتى شاعراً بشيء من الاستياء، أمام هذا التشابه المطلق بين ما يراه الآن وما يحفظه في ذاكرته. رأته يتحسّس مسند مقعد والدتهما، ملامساً أهداب ظلة المصباح، وكأنما ليؤكد لنفسه أن الاستمرارية المذهلة للأغراض نصف المنسية، جميعها في أماكنها ذاتها، ليست مجرد وهم من أوهام العقل. لم يتغيّر شيء في ذلك البيت، إلا ليشحب أو يخدش أو يبلى. معجزة التوفير في جيل جديهما عنت أن عبارة «خال من الدين» تنطبق على البيت وعلى كل ما يحتويه في الوقت الذي يصل فيه إلى والدهما. عبارةً تبارك التبلّد والتهرؤ. كل ذلك الأثاث الضخم المحتشد وكل تلك الذائقة المتزمتة المشكوك فيها تحتفي بذكرى الانضباط وبعد النظر الملحميين، اللذين يمكن إبطالهما، ولا يجدر البتة فعل ذلك، باعتماد معايير أخرى سوى الرصانة والصلاحية. غالباً ما أخبرهم والداهم كم أنهم محظوظون بتوافر كل احتياجاتهم، في حين يتدبّر جيرانهم عيشهم بأفضل ما يمكنهم عبر الشراء بالتقسيط. اشترى آل بوتون فوراً المذياع الخشبي الكبير والبيانو ذي الأوتار العامودية والثلاجة والموقد الكهربائيين، لأن جدّاهم في اقتصادهما المذهل تركوا لهم عدداً من الأكرات الخالية من الدين على بعد عشرة أميال خارج البلدة التي أجروها لمزارع لقاء أجر يرضي الطرفين. فبالتالي حتى الأشياء التي حصلوا عليها كانت في الحقيقة هدايا من تحت القبر، مذ، وفي ظلّ انعدام الاحتياجات، أمكنهم الاستمتاع بمسرات ووسائل راحة معينة من دون الاضطرار إلى الاقتراض. ليس في وقت أسرع من جيرانهم طبعاً. بيد أن الاقتصاد الذي كان طبيعة ثانية من طبائعهم قد تعزز على أية حال بالحرص على ألا تعكس مظاهرهم حال رخائهم المادي، وقد توافق

بصورة مرضية مع الإعجاب بالأشياء المألوفة. فلمَ تخاطر عائلة قسّ بالتفاخر؟ ولمَ تتجشم عائلة فيها ثمانية أطفال صاخبين عناء امتلاك أيّ شيء يمكن أن يلحق به الضرر؟ كانوا يجلسون على ذراعي مقعد أمهم المحشو بإفراط في أثناء قراءتها القصص لهم، ويتعلقون بظهر المقعد، وينتفون جلده المخملي. وإذا برزت ريشة منه، ينتزعونها ويلعبون بها، ريشة صغيرة جافة من الوبر، أحياناً تكون كاملة. وفي أثناء استماعهم إلى القصة يدوّرون ويدوّرون ظلة المصباح الجلدية حتى تتسخ حافتها وتكاد تهترئ الباقات الأربع المتدلية من أطرافها. لا يهم أنه كان ثمة أخاديد على البسط، ولا أن ملاعق الطبخ الكبيرة باتت رخوة من كثرة الاستعمال والصقل.

تعلمت كلمة «هبوب» وهي جالسة على مقعد أمها، تنفخ على ريشة. دخل جاك إلى الغرفة فطيّر النسيم الريشة من يدها. في تلك الأيام كان الصبية ينادونها غلوري ب. أو غلوري بي أو غلوري بيبي، أو غلوري هللويا أو القزمة أو ذات العقصة. أحياناً وبدلاً من غرايس وغلوري كانوا ينادون أختيهما الصغيرتين «هداية» و«تقديس»، الأمر الذي كاد يتسبب بإزعاج والدهم. إنما بالإجمال كان إخوتها الصبيان يتجاهلونها، وإن لم يفعل جاك ذلك بصورة تامة كالآخرين. وقف في باب المدخل في ذلك المساء وراقب الريشة تطير دائرياً إلى السقف بسبب الهواء الذي أدخله معه، ثم مد يده والتقطها بخفة في يده وأعادها لها. «لقد طيّرها هبوب الهواء فحسب»، قال. كانت في السابعة على الأرجح، لذا فقد كان في الحادية عشرة تقريباً. كان قد صار نفسه في ذلك الحين، مستوحداً حين يمكنه ذلك، رقيقاً حين يكون رائق المزاج، ومصدر قلق لهم جميعاً كلما توارى عن الأنظار. ثم

جاءت تلك السنوات الأخرى، حتى بعد رحيل غرايس، تلك السنوات المتوترة التي عاشت فيها ووالداها وحدهم في البيت، حين فقدوا عادة الإتيان على ذكر جاك بالاسم. بدأت تتذكّر أكثر، مع وجود جاك في البيت، بتلك الفتاة المنمّشة الجالسة إلى طاولة المطبخ، الخجولة والجريئة في آن معاً، متجاهلة ما يقال لها، نافدة الصبر للعودة إلى البيت. تلك الفتاة وطفلتها.

قبل شهر من مغادرة جاك وتيدي إلى الجامعة، ذهبت غرايس لكي تعيش مع هوب في مينيابوليس لكي تتمكن من دراسة البيانو مع أستاذ حقيقي. علمتهم جميعاً مسز سويت، وهي امرأة مترهلة الجسد ترتسم على وجهها تكشيرة نكدة، وكانت بارعة في ضرب اليدين من دون أن تقاطع عزف سلم موسيقي أو قطعة قصيرة. كانت تجلس قرب واحدهم على المقعد تفوح منها رائحة زنبق الوادي، ملقية نظرة جريحة على المفاتيح. متنبهة كعلجوم، قالت هوب، وسريعة مثله أيضاً. صفعة سريعة على اليدّ، حين يشذّ أحدهم عن نوتة معينة، ثم العودة إلى المراقبة المتجهمة، ثم صفعى ثانية! ستة منهم واحداً بعد الآخر كالجنود، يعزفون منفردين، ليبرزوا في نهاية الثانوية متمتعين بجدارة متواضعة ومرتاحين لتركهم وراءهم طقساً رتيباً آخر من طقوس البلوغ. كان جاك ينضم أحياناً إلى الدروس مع تيدي، لكي يضحك معه بعد الانتهاء من الدرس من مسز سويت الرهيبة. إلا أن غرايس أحبّت البيانو فعلاً. وكانت تتمرن أكثر من حاجتها إلى ذلك وتعلمت أكثر مما حُدّد لها. ومرة أخبرت والديها باكية أن الضرب على اليد يشتت انتباهها، فذهبت والدتها لكي تتكلم إلى مسز سويت التي سألتها بغضب: «وكيف إذن

ستتحسّن؟». لكن منذ ذلك الحين كبتت نفسها بشقّ النفس، في أثناء عزف غرايس ونفّست عن نهجها التعليمي مع غلوري.

هوب، التي كانت متزوجة حديثاً جلبت أخت زوجها في زيارة إلى جلعاد. وتلك السيدة سمعت غرايس وهي تعزف وفتنت بها، وتكلمت عن الفوائد التي قد تتحصل عليها فتاة موهوبة مثلها في مينيابوليس. لا تزال غلوري تذكر اليوم والساعة التي زرعت فيها هذه الفكرة في عقول عائلتها. جميعهم نظروا إلى غرايس وكأن خاتماً أو تميمة ما قد اكتشفت، مبيّنة أن اللقيطة ليست إلا طفلة ملكية. قالت هوب إن هذا سيكون رائعاً، ورق قلب أمها، ووضّبت الحقائب، وجلست غلوري في غرفتها، محاولة ان تستوعب حقيقة أن ليس من حجّة يمكن تقديمها، ولا استئناف يمكن التقدّم به. كان جاك من لاحظها. قال: «ذيل الخنزير المسكينة ستكون وحيدة». وحين شعر أنه تسبب بأن تغرورق الدموع في عينيها قال: «عذراً»، وابتسم ولخبط لها شعرها.

ربما كانت تلك الكلمات التي سمحت لها بالاعتقاد لسنوات بوجود آصرة خاصة بينهما، وأنها تفهمه بصورة أفضل من الآخرين. كنا الطفلين غير الاستثنائيين، فكرت – المستخف بهما، المغفلين. لم تكن هذه الفكرة تنطوي على حقيقة. فجاك كان استثنائياً بكل السبل التي أتيحت له، بما فيها بالطبع التهرب من المدرسة، ومخالفة القانون، ومع ذلك تمكن من تدبّر أمره بالذكاء الذي لطالما عزاه له معلموه بالقول: «لو أنه يستعمله استعمالاً مفيداً فحسب». أما بالنسبة إليها، فقد كانت صاحية الضمير جداً بحيث أنه لم يكن من ضرورة لأن تعزى درجات جيد جداً وممتاز التي تحصل عليها لأي سبب آخر سوى الاجتهاد. كانت جيدة بأكمل معنى للكلمة وأضيقه عندما تطبق على طفل أنثى.

وقد نمت لتكون بالضبط تلك الفتاة الناضجة التي تنبأت بها طفولتها. آه حسن.

ومع ذلك، حين كانت في الثالثة عشرة وفي حال مزرية وكان جاك بعيداً في الجامعة، أمكنها تخيل كل ما تحبّ وتجد الراحة والرضى فيه، غلطة ما كانت لتندم عليها حقاً. حين كان رأيها به أكثر مما يستحق، كانت أيضاً تدافع عنه، وهو ما لم تندم عليه أيضاً. بعد سنوات سمعت والدها يقول، في أعماق حزنه: «هناك أشياء غير قابلة لأن يدافع عنها». وكان ذلك وكأنه فكر أن هوة كبيرة فتحت، وأن جاك في الطرف القصي منها أبعد من يجد الخلاص أو المؤاساة. شعرت أنها لا تستطيع السماح بأن يصحّ ذلك، خاصة وأن والدها هو الذي بدا في الجحيم. فقد وصل إلى البوصة الأخيرة من قدرته على المغفرة، وهاك جاك، لا يزال أبعد من متناوله. فوقف على حافة اليأس، بصرف النظر عن كل ما قد تقوله أمها لكي تبعده عن تلك الحافة، وعلى الرغم من كل صلاة ونص مقدس أمكن آيمز العجوز الاستعانة به.

قالت لها أمها مرة: «أعتقد أن هذا الصبي ولد لكي يفطر قلب والده»، وقالت مرة أخرى: «لم أرَ روبرت يوماً بائساً إلى هذا الحد... وهذا يخيفني...»، متكلمة إليها كأنها تكلّم شخصاً ناضجاً. في تلك الليلة كتبت غلوري أولى رسائلها لجاك، من دون أن يكون لديها أي حسّ واضح بما ستطلبه منه، ما عدا أن يتصل هاتفياً أو أن يزور البيت كرمى لوالدهما.

كانت قد أوصلت والدها بالسيارة عبر النهر إلى الريف، مفعمة بالمسؤولية لأنها حديثة العهد بالقيادة، متحمسة وحمائية لأن والديها فجأة بدوا معتمدين عليها. انتظرت في السيارة مع والدها خارج البوابة

حتى ظهرت امرأة عند باب البيت الصغير الفوضوي، ونادت الكلاب إلى الداخل. خرج والدها من السيارة ووقف بجانبها منتظراً، حاملاً قبعته بيده. ثم خرج رجل من البوابة ووقف واضعاً يديه على وركيه ناظراً إلى السيارة. كانت تلك سيارة جاك الكشف في نهاية المطاف. قال لوالدها: «من أنت؟ وماذا تقصد بمجيئك إلى هنا؟».

قال والدها: «أنا روبرت بوتون. أفهم أن عائلتي لديها مسؤولية ما تجاه ابنتك وطفلتها. وقد جئت لكي أعلمك إننا مدركون لالتزامنا ومستعدون لتحمله...». وقدّم مغلّفاً، بطريقة اعتذارية، تكاد تكون دفاعية عن النفس، إلا أن الرجل بصق على الأرض وقال: «ما هذا؟ مال؟ حسناً، يمكنك الاحتفاظ بمالك اللعين». غير أن المرأة ظهرت بالباب ثانية، هذه المرة حاملة الطفلة، وحين مضى الرجل مبتعداً باتجاه الحظيرة خرجت إلى البوابة وقالت: «يمكنكم تركه فحسب عند العمود هناك». ثم أعادت طيّ الملاءة التي أخفت وجه الوليد.

مرت دقيقة. قال والدها: «أجل. أنا روبرت بوتون. هذه ابنتي». أومأت المرأة برأسها، ثم استدارت مبتعدة عنهما، وعادت إلى البيت. فتاة ترتدي بيجامة زرقاء خرجت إلى الشرفة وأخذت الطفلة بيديها. وأخذت تحك أنفها، ناظرة إليهما حتى ابتعدا بالسيارة.

عاد جاك بالفعل إلى البيت لكي يكلّم والدها. حسبت غلوري أن هذا ربما يكون بتأثير رسالتها لأنه بعد نصف ساعة من الحديث الهادئ وراء باب مقفل غادر غرفة الطعام ورآها في الردهة، جالسة على مقعد أمها، وقال لها: «ألديك عظة أخرى لي؟». لعله عنى أن والده قد وعظه للتو، لكنه عنى أنه شعر بثقل وجدية رسالتها، والتي بالفعل استلهمت كل

مصدر متوافر في النزاهة الأخلاقية منحها إياه ما تشربته عقائدياً، وأيضاً استلهمت كل يقينية يفاعتها. تكلمت فيها بصورة أساسية عن حزن والدها، بما أن كل شيء آخر كان شديد التعقيد والدقة. إلا أنها استقرت على حل واحد لكل شيء. وصلت إلى أمل واحد كبير.

سألته: «هل ستتزوجها؟».

كان شديد الشحوب. ابتسم – ابتسامة الشعور بالخزي الغريب الشاق – وقال: «لقد رأيتِها».

قالت: «حسناً، ماذا سيفعل البابا...».

«يفعل لي؟ لا شيء، أعني، سوف يغفر لي». ضحك: «والآن ثمة قطار عليّ اللحاق به».

«ألن تبقى حتى لتناول العشاء؟».

قال: «ذيل الخنزير المسكينة»، وابتسم لها وخرج من الباب.

ومرت عشرون سنة. لم يكن من طريقة للمعرفة في ذلك اليوم أن أيّ شيء نهائي قد حدث. كانت أمها مستاءة ولازمت غرفتها، منتظرة بلا ريب أن يأتي إليها سعياً إلى مصالحتها. لن تراه ثانية في حياتها. حين هبط المساء لم ينر ايّ ضوء، وجاء وقت العشاء ومضى دون انتباه. خرج والدها من غرفة الطعام وراءها في الردهة المعتمة. قال: «أجل يا غلوري»، وكأنه يذكّر نفسه بشيء ما، وصعد إلى الطابق العلوي. تناولت قطعتين من التوست الجاف لأنها كرهت الصوت الذي ينمّ عن حركة دهن التوست بالزبدة. ثم صعدت إلى غرفتها. لم يدر في خلدها يوماً أن منزلهم يمكن أن يحتوي صمتاً موحشاً إلى هذا الحدّ.

الآن هي وجاك في البيت ثانية. الأثاث وكل الضرر الذي لحق به في غمار

الحياة المنزلية القديمة النشطة، لا يزال كله موجوداً. والكتب القديمة. أرسل جدهم شيكاً كبيراً إلى إدنبره، طالباً من أحد أبناء عمه أن يجمع له المكتبة المطلوبة للتعليم في أصول الدين الحقيقي الذي لم يلحق به الفساد. وتلقى كرد صندوقاً مليئاً بالكتب الكبيرة ذات الأغلفة الجلدية السوداء، والتي افترضا جميعاً أن الإيمان الحقيقي يمكث فيها. كانوا أحياناً يتأملون العناوين ويتساءلون حولها. «حول القضاء والقدر، الردّ على قائل بتجديد العمادة»، «حول الابتلاء؛ أول ضرب للبوق ضد الحشد الوحشي للنساء»، «كتاب الكنيسة الكونية الإسكتلندية»، «دي فوكاتيون، مقالة عن نداء الرب الفعلي»، «ذا هيند أن لوزد»، «المسيح يموت ويأتي بالخطأة إليه. أو نظرة إلى مخلصنا في معاناته الروحية، حبه المتجلي في موته، وثمار ذلك». كانوا فخورين بإجلال لحصولهم على هذه الكتب في البيت، وكأنهم منحوا «تابوت العهد» لحمايته ويعلمون حقّ العلم أنه لا يجدر بهم لمسه، إلا بالطبع جاك الذي اعتاد أن ينزل كتاباً من وقت لآخر، ويقرأ أو يبدو أنه يقرأ صفحة أو اثنتين منه، ربما فقط لكي يتسبب بالقلق لوالده الذي كان يكنّ لكتب إدنبره القدر نفسه من الاحترام الذي يكنونه هم، والذي كان مثلهم قليل الميل إلى فتحها، ومن الواضح يمقت فكرة أنها قد تتضرر «أتجد فيها ما يثير اهتمامك يا جاك؟»، كان يسأله، ويجيبه جاك: «لا يا سيدي، ليس بعد»، ويبدو منشغلاً بالقراءة، ثم، بعد بضع دقائق، يعيد الكتاب إلى الرف. سواء وجد أم لم يجد المناسبة لكي يفسد صفحة ما، فلم يعرف أحد. كان ثمة عشرات آلاف الصفحات. ولم يكن والده ليرغب في أن يعرف، إذ أنه وبما يفوق حتى الضرر الآخر المتعذر على الفهم والإصلاح، الذي خلّفه أخوها وراءه، فإن هذا قد يغضبه إلى حدود تفوق قدرته على الصبر.

كل شيء آخر يعاملونه جميعاً بتوقير مضمر، كان جاك يجد طريقه إليه. العجوز المسكين آيمز. طوال سنوات حمل وطأة ذلك، من دون تذمّر. لابدّ من أن أموراً كثيرة حصلت بينهما لم يأت آيمز على ذكرها يوماً، وكانت هذه كياسة تجاه والدهم، أسف صامت وصريح وصبور يشبه أسف والدهم نفسه. تلك أصبحت، في نظرة استعادية، الأيام الطيبة، أيام سعادة والدهم.

خرجت بعد الظهر للعمل في الحديقة التي زرعت فيها الفاصولياء والفول والطماطم والكوسا والسبانخ. كانت الأرانب مشكلة والمراميط[1]. ومع ذلك فإن عقم هذا كله لم يكن نهائياً بعد. عليها أن تطلب من أحدهم وضع سياج ما، وهذا سيتطلب أن تكلم أحدهم، وهو ما فضّلت ألا تفعله.

وبعد بضع دقائق، ها هو جاك، يقف في شعاع الشمس عند طرف الحديقة، مدخناً سيجارة. قال: «فكرت أنك قد تشغلينني بشيء ما هنا».

«بالطبع، أعني يمكنك أن تشغّل نفسك. هناك الكثير مما تدعو الحاجة إلى فعله. حسناً، يمكنك أن ترى ذلك. أمنا زرعت شتلات من السوسن أعلى...».

قال: «أعرف، لقد كنت أعيش هنا».

«عنيت فقط أن هذا مكاناً يمكن البدء به، فالرقعة هناك مليئة بالأعشاب. بالطبع كنت تعيش هنا».

(1) أو خنزير الأرض، العضو الأكبر في فصيلة السناجب، يعيش في الجحور وينتشر في مناطق كثيرة في النصف الشمالي من الكرة الأرضية.

«على رغم غرابة ذلك»، قال ذلك وكأنه يكمل فكرتها أو يشاركها إياها.

سمعا أصواتاً تأتي من الشارع، ولاح على وجهه التوتّر أو الاستياء. ثم رأى أنهما شاب وولد يمران، من دون أن يلاحظا وجودهما.

قالت: «هذا ابن دوني ماك إنتاير. وحفيده. ربما تتذكره. كان بعمر لوقا».

«فهمت أن الموقر العجوز آيمز رزق بابن هو أيضاً».

«صحيح، وزوجة. يبدو أن الزواج يناسبه».

قال: «ما رأي الناس بهذا كله؟».

«أعتقد أنه كان هناك بعض النميمة. لكن من يمكن أن يلومه. أبي شعر ببعض النبذ. فهو وآيمز كانا يمضيان الكثير من الوقت معاً».

رمى جاك عقب سيجارته وداس عليه. «يحسن بي أن أجعل نفسي مفيداً»، قال، ومضى للعمل في رقعة السوسن منتعلاً حذاءه الرسمي والقميص الأبيض المحترم إلى حدّ كبير الذي بانت عليه تجعيدات الطي، وأشعل سيجارة ثانية. خرج والدهما إلى كرسيه على الشرفة، وهو أمر كبير بالنسبة إليه، عمل مضن. والآن، بوجود جاك في البيت، بات يتفادى الحصول على المساعدة كلما أمكنه ذلك، كادحاً بصورة خطرة على الدرج لكي يحلق ذقنه بيد مرتعشة. ولم يكن ثمة ما يمكن فعله سوى سماع أصوات حاجاته الملحّة والصلاة لئلا يصيبه شيء، وتجاهل الشعر على قفا عنقه حيث لم يصل المشط. من كرسيه على الشرفة يستطيع رؤية الحديقة.

انحنى جاك لكي يقتلع مجموعة من الأعشاب الضارة ورماها جانباً، ثم انتزع أخرى ورماها. ثم مضى إلى السقيفة خلف المنزل لكي يعثر

على مجرفة. وحين عاد قال «تلك الدي سوتو[1] في الحظيرة ليست لك. إنها هناك منذ وقت طويل».

«لا، أحد الصبيان تركها لأبي. لكنه لم يبدأ بالقيادة حقاً. أظن أنه حصل على رخصة قيادة لبعض الوقت، قبل سنوات».

«تبدو سيارة لائقة».

«حاولت تشغيلها مرة».

«تركت المفاتيح هناك».

أومأت. «ليس من مكان آمن لها».

قال: «حسناً، بعض الوقود في الخزان قد يغير ذلك. بعض الماء في المشعاع. بعض الهواء في الإطارات. مسحت الزجاج الأمامي لكي أجعل الأمور تبدو أقل، إذلالاً. حسبت أنني قد أخرجها إلى ضوء النهار لساعتين لكي أتمكن من إلقاء نظرة أفضل إلى محركها. إذا كان لا بأس بذلك».

«لا أتخيل لمَ قد يمانع أحد».

أومأ برأسه «أردت التأكد». حين انتهى من سيجارته بدأ يعزق الأرض.

كان يعيش هنا، وهو يعرف كيف تتم الأمور. على نحو ما، لم تشعر يوماً أن البيت يحوز على اهتمامه، أو بدا أكثر اهتماماً باستراتيجيات المراوغة وأمكنة الاختباء، لا إلى مهارات الأعمال الاعتيادية والواجبات الروتينية التي تشكل السواد الأعظم من كل حياة، وهي تشكل الكثير من قيمة تلك الحياة ومفخرتها، وفقاً للتقدير المحلي. إلا أنه أخذ يعزق

(1) DeSoto: سيارة أنتجتها شراكة كرايزلر بين عامي 1928 و1961 وهي مسماة على اسم المستكشف الإسباني هيرناندو دي سوتو.

بين صفوف السوسن وبدا منهمكاً في ذلك أيضاً، وقد رفع كمي قميصه.

سمعت والدها ينادي: «العشاء يا جاك!»، وهو رأي كونه بمفرده، بما أن الساعة كانت الرابعة والربع ولم تبدأ بتحضير أي شيء. إلا أن جاك غرز المجرفة في التربة وتوقف للحظة ناظراً إلى يده. واتجه إلى الشرفة، ناظراً إليها، وسمعت والدها يقول: «لنر! أوه أجل، أجل! غلوري ستهتم بذلك! غلوري؟ لديه شظية خشب منغرزة هنا. من مقبض المجرفة القديم ذاك! لا أعرف منذ متى لدينا تلك المجرفة! كان عليّ أن أنذرك بشأنها! غلوري؟».

قال جاك: «لو أحصل على إبرة، يمكنني الاعتناء بها على ما أظن».

«لا، لا، إنها عميقة جداً يا جاك!».

كان وجه والدها مفعماً بالقلق. أمسك بمعصم يد جاك المقلوبة إلى الأعلى وكاد يجاريه بالسرعة ماشياً بجانبه: «سنضع بعض اليود عليها!».

قالت غلوري: «يمكنك أن تغتسل وسوف أعقّم إبرة».

«سأحضر اليود!»، قال العجوز واندفع مرتقياً الدرج.

نظر إليها جاك. «إنها شظية فحسب».

قالت: «لا يحدث الكثير هنا»، وضحك.

أضحكته مرتين. وقد سرّت بصورة خاصة بشأن النكتة المتعلقة بالمنشفة، لكن أن يضحك تجاه هذه الملاحظة الصغيرة فلا بدّ من أنه يشعر بلطف بالغ تجاهها، فكرت. لم يكن ممن يضحكون حين يأمل المرء بأنه سيفعل، حين يضحك الآخرون. أي في تلك الأيام الخوالي.

كان صبياً مضطرباً ومنعزلاً وصعباً، ثم مضت عشرون سنة من دون كلمة تذكر منه، وها هو الآن في المطبخ، ماداً يده المصابة أمامها، ولا يزال رطباً من الاغتسال، وتفوح منه رائحة تشبه الخزامى والصابون المنزلي الصنع. جلسا إلى الطاولة وأمسكت يده لكي تثبتها. يد نحيلة، ما زالت ترتعش، مع بعض البثرات جرّاء العمل الذي قام به صباحاً. لطخات سجائر.

لاحظ تمحيصها النظر بيده. «أتقرأين الكف؟».

«لا، لكن لو فعلت، لقلت إن لديك شظية في خط الحياة».

ضحك. «أظن أنك ربما عثرت على ندائك».

وضعت الإبرة من يدها: «أخشى فعل هذا. قد يؤلمك حقاً ويدك ترتعش».

«حسناً، إذا كانت هذه ترتعش، فالأخرى كذلك، وقد أؤذي نفسي على ما أظن لو أنني فعلت ذلك بنفسي».

«حسناً، اثبت قدر ما تستطيع». فكرت، لو كان غريباً بحق، لما بدا هذا غريباً جداً بالنسبة إلي. تمكنت من سماع تنفسه. أمكنها رؤية خيوط الدم تحت جلد معصمه الأبيض. «ثانية واحدة»، واستأصلت الشظية بسهولة كافية.

قال: «شكراً لك».

العكازة ودرابزين الدرج الذي يصدر صريراً والحذاء القاسي اللمّاع، وها هو والدهما يدخل مسرعاً إلى المطبخ حاملاً زجاجة إيودين ولفة من الضمادات.

«أجل، سيكون عليك أن تغسلها وتجففها ثانية»، قال، ثم رشرش الإيودين هنا وهناك، وأخيراً في الموضع المطلوب.

قال جاك: «آي»، كرمى للأيام الخوالي، كما بدا من صوته وهو يتأوه.

«أجل، لكنه فعال جداً!»، كان والدها يضطرم قلقاً. اتجه إلى الثلاجة وفتح الباب ووقف هناك بجدية. قال: «العشاء، أظن أن الفطائر ليست هنا!».

قالت غلوري: «كانت باردة جداً فرميتها إلى ما وراء السياج لكلاب آل دالبيرج».

«أفعلت حقاً؟ بالطريقة التي تجري بها الأمور هنا، ربما آن الأوان لكي نستثمر في كلب يخصنا!».

ضحك جاك، وابتسم له والده وربت ذراعه وقال: «حسناً، هذا رائع! هذا ما أحب سماعه!».

أحدهم ترك شرائح من لحم الخنزير وسلطة المكرونة على الشرفة يوم أمس، أحد تلك الأمور اللطيفة التي تذكرهم أن لا شيء في منزلهم يحدث من دون ملاحظة. كانت صلاة المائدة جذلة «قلوبنا مفعمة للغاية!»، قال العجوز، وغرق في ذلك الاستغراق التأملي الذي اتخذته الصلاة بالنسبة إليه.

خلال العشاء كان جاك ضيق الصدر بأناة، وهو يستمع إلى محاولات والده لإجراء محادثة - «أجل كانت هذه بلدة مختلفة في وقت ما، حين كنا لا نزال على الشارع الرئيسي! كان ثمة أناس يمرون من هنا. ما كنت لتتذكر الفندق القديم. كنا نراه رائعاً. كان له شرفة كبيرة وصالة رقص...». تنامت حماسته بطريقة تبعث على الإشفاق، متذكراً جلعاد القديمة، وراقبه جاك وقد ارتسم على وجهه تعبير من اللامبالاة الدمثة الذي بات يلوح على وجهه بعد أن تجاوز حرج بداية العودة إلى حدّ

ما. شعرت بالشفقة على والدها، سعيداً على نحو ما كان. كان التكلم إلى جاك عملاً شاقاً. فليس في سيرة طفولته ويفاعته إلا القليل مما يمكن الإتيان على ذكره من دون أن يتسبب ذلك بالإزعاج، أما سنوات صمته العشرون فهي من شأنه إذا اختار التكلم عنها، إلا أنهما كانا مستعدين لتقدير كتمانه إذا كان ذلك سيتسبب له بالمزيد من الانزعاج. ثم هناك السؤال: «لمَ أنت هنا؟»، الذي لن يسألاه البتة. فكرت غلوري، لمَ انا هنا؟ كم سيكون من الفظ طرح هذا السؤال عليّ.

حين بدأ والده يتعب من الكلام «أجل، أجل»، قال، «أجل»... حمل جاك الأطباق عن المائدة ثم قال: «سيدي»، وأمسك ذراع والده وساعده على النهوض من الكرسي، وهو أمر ما كان العجوز ليسمح لغلوري بالقيام به، وساقه إلى كرسيه في حجرته حيث أخذ قيلولة. ساعده على نزع سترته وفتح ياقته وأرخى ربطة عنقه. ثم انحنى ونزع حذاءه. «هذا اللحاف القديم...»، قال والده، وأخذه جاك من أسفل السرير وبسطه فوقه. الطريقة التي فعل فيها هذه الأشياء كلها، وهي أمور كانت تفعلها يومياً منذ أشهر، أوحت باللياقة أكثر مما أوحت بالكياسة، وكأنها تحية لشيخوخة والده، وليست إقراراً بها. ورأت كم هدّأت ضروب الاهتمام هذه والدها، وكأن الوجع اشتهاء لراحة من هذا النوع بالذات.

بذلت قصارى جهدها.

كان الصبيان يخاطبون والدهم بالقول: «سيدي»، أما الفتيات فلا. من وراء ظهره كان الصبيان يسمونه الموقر، أو الجنتلمان العجوز، اما الفتيات فقلن دوماً بابا. جاك، هلا أخبرتني لماذا فعلت ما فعلته،

وتصرفت على نحو ما تصرفت؟ لا سيدي. ألا يمكنك تفسير ذلك جاك؟ لا سيدي. كانت تلك اللياقة درعه وستاره. كانت شجاعته. والده ما كان ليرفع يداً ضد ذلك، ونادراً ما رفع صوته. أنت تفهم أن ما فعلته خطأ. أجل سيدي، أفهم ذلك. هل ستصلي لكي تتمتع بطوية أفضل، وبمقدرة أفضل على التمييز جاك؟ لا سيدي، أشك أنني سأفعل. حسناً سأصلي من أجلك إذن. شكراً لك سيدي.

حين ساعد والده على النهوض عن الكرسي، كان ذلك باللياقة نفسها، وبدا جلياً لها أن سرور والدها يكمن جزئياً في مفاجأة الاعتراف، الإيفاء بوعد قديم، دين قديم جرى تذكّره. قالت الماما: «ذلك الصبي لفّك حول إصبعه!»، وقال والدها: «لا أريد أن نخسره فحسب». كان هذا قبل أن يدرك والداها أنها تسمع ما يقال وتفهمه. سماعها مثل هذا الكلام بين والديها جرّأها على أن تقول له: «بأيّ حق...»، وأشعرها بلمحة الخوف تلك التي لا تزال تتذكرها. لابدّ من أنه فكر أنه يعرف من أين سمعت السؤال، تلك النبرة. تذكرت أنها وقفت هناك ثابتة القدمين شابكة الذراعين على صدرها. طفلة مسكينة حمقاء. لأنها كانت الأصغر سناً، فقد نسيا بأنها أكبر سناً من أن يُسمح لها باختلاس السمع. ثم كلما رحل كانت تعرف أنهم ربما خسروه «اذهبي من هنا يا غلوري»، كان يقول لها إذا حاولت منعه من الرحيل «رجاء دعيني فحسب».

في أثناء مساعدة جاك والده على الاستلقاء لأخذ قيلولته، وقفت غلوري في الصالة، تشاهد. كان من الرائع رؤية العجوز لا يصدر حتى نأمة تدل على الانزعاج، وقد سكّته روعة اهتمام جاك به، وهو ينيمه كطفل متعب.

نزل جاك إلى الأسفل عند الغسق لابساً بدلته وربطة عنقه. وقال: «سأعود بعد قليل». وقف على الدرج لكي يضع قبعته ويعدّلها على رأسه، ثم سار على الطريق باتجاه البلدة. تحرك والدها حين سماع صوت انغلاق الباب. نادى: «هل خرج جاك؟».

«قال إنه سيعود سريعاً». وبعد ساعة صعدت إلى غرفته، فقط لكي ترى إذا ما كان قد جمع أغراضه القليلة وهرّبها من البيت، إلا أنها وجدتها في مكانها، القمصان في الخزانة، والكتب على النضد. بالطبع لم تشعل النور، بما أنه يمكنه أن يراه من الطريق. وبالطبع سمعت الباب الأمامي يفتح وهي واقفة هناك. تسللت عابرة الصالة إلى الحمام وأدارت المياه. ثم سمعته يضيء النور في غرفته. كان الباب موارباً، تذكرت. وهل تركته مفتوحاً؟ كان يفعل ذلك في طفولتهما. أحدهم تسلل إلى الغرفة! من سيكون سواي، فكرت.

طوال السنوات الماضية كان والدها يردد: «أخشى أن نفقده»، وها هو هنا ثانية، يغادر البيت لمدة ساعة، صار العجوز قلقاً في نهايتها إلى درجة أنه ما عاد قادراً على الجلوس ثابتاً وهي تختلس الدخول إلى غرفته، تتطفل على خصوصيته - في حين أنه إذا كان من شيء ترغب في أن تمنحه له أو لأي شخص آخر فهو الخصوصية! كان ذلك مذهلاً. طوال حياتها في ذلك البيت كانت القضية دائماً، إما أين يمكن أن يكون جاك وإما أين يمكن ألا يكون. لماذا رحل؟ إلى أين ذهب؟ تلك الأسئلة ظلت معلقة في الهواء طوال عشرين عاماً في حين حاول الجميع تجاهلها، وحاول التصرف وكأن حياته فيها ما يكفي من المشاغل لكي تصرفه عن حقيقة أن القليل من الرسائل وصلت، وأنه مجدداً لا اتصال

هاتفياً في عيد الميلاد، وأن والدهم بدا محدودب الظهر تحت ثقل قلق لم يسهم مرور الزمن إلا في زيادته. كانوا خائفين جداً من فقدانه، ثم فقدوه حقاً، وكانت تلك قصة عائلتهم، بصرف النظر مهما بدت هذه العائلة دافئة ومثمرة وصلبة أمام العالم الخارجي.

بمَ فكرت؟ أنه رمى حقيبته من النافذة، منسلاً مثل مستأجر يحاول أن يغش المالك؟ ما الذي سيدفعه إلى فعل ذلك؟ ولكن ما الذي يدفعه إلى فعل أيّ شيء: لمَ عاد إلى البيت عل سبيل المثال؟ سمعته ينزل إلى الأسفل ثانية، وسمعت والدها يقول: «أجل، أجل، كنا قد بدأنا نشتاق إليك يا جاك! غلوري في مكان ما هنا...». فنزلت إلى المطبخ وها هو هناك، يتأمل الجرح في يده.

سألته: «كيف هو؟».

«يلتئم بصورة حسنة، شكراً لك». كانت نظرته دمثة، لا يستشف منها شيء. «قمت بجولة في البلدة. بمَ يعمل الناس هنا؟».

قالت: «حسناً، هذا سؤال وجيه، إذا وضعنا الزراعة جانباً، هناك البقالية ومتجر الملابس والحلاق ومحطة الوقود والمصرف».

صاح العجوز من مقعده: «ثمة حاجة دائمة إلى المعلمين!»، وقال جاك: «أظن أنه من الأفضل أن أحضره إلى هنا، أليس كذلك».

كان والده قد قطع نصف الطريق عبر الصالة، إلا أنه سمح لجاك بمسك ذراعه. وحتى إنه ناوله عكازته، وكأن كل الحرص والكدّ انتهيا حينما صار جاك موجوداً لكي يتكئ عليه. «أجل»، قال، «لم أسمع يوماً بأن رجلاً متعلماً لا يمكنه العثور على عمل كمعلم مدرسة! هناك المزيد من الأطفال كل يوم! أراهم في كل مكان». ساعده جاك على الجلوس في مكانه إلى الطاولة. «يمرون في الشارع!»، قال، وكأنه ظنّ

أنه قد يضعف حجته من خلال التشديد عليها.

قدم له جاك كوباً من الماء: «لا أظن فعلاً أنني مناسب للتعليم».

«حسناً، آمل أن تفكر في الأمر قليلاً!».

«أجل سيدي سأفعل. أهذه صحيفة اليوم؟».

قال والده: «صحيفة الأمس على ما أظن. ليس أن هذا يشكّل فرقاً كبيراً. أحتفظ بها لأنني لم أنهِ حلّ شبكة الكلمات المتقاطعة».

«جيد، سوف أقرأ برجي. نسيت نوعاً ما ماذا فعلت البارحة. ها هو. يقول إن المغامرات الجديدة مفضلة اليوم. أظن أنني فوّت الفرصة».

«هذا الشيء الوحيد الذي تقوله الأبراج! هذا على الأرجح ما يقوله برجي أيضاً!».

«أجل سيدي، صحيح. لدينا الإشارة ذاتها. وهذا برجك يا غلوري: الفضول ليس دائماً مرحباً به. فكري في ضبط النفس». ابتسم لها، وطوى الصحيفة، ووضعها تحت ذراعه.

شعرت بأنها تتورد حراً، وعرفت أن ذلك جليّ. إلا أنه أشاح نظره بسرعة كافية، تقريباً، لكي يجعلها تعتقد أنه لم يتقصّد إحراجها. ربما كان هذا ما يقوله برجها حقاً في نهاية المطاف. قررت أنه من الأفضل أن تفترض ذلك، لأنها إذا شعرت بإساءة في كلامه فستعترف، وسيبدو ذلك أسوأ مما فعلته بكثير، وهذا لا يعني أن ثمة خطأ فيما فعلته. وإذا وجدت أن ذلك غير مذكور في البرج، وأنه يسخر منها، فإن الأمور ستزداد صعوبة فحسب. كان ذلك القرار الذي اتخذته في تلك اللحظة، وحين فكرت به لاحقاً، كانت شاكرة لنفسها لفعلها ذلك. مراعاة ضبط النفس بكل تأكيد، هي ما تفعله عندما تعض على لسانها عشرين مرة في اليوم. كل ما أرادته حين دخلت إلى غرفته كان أن تعرف

ما إذا كان عليها أن تبدأ بالتلميح لوالدها العجوز المسكين أن جاك قد رحل ثانية. لم يكن خطؤها أن خوفاً سخيفاً إلى هذا الحدّ كان مبرراً. ولم تكن تنوي أن تتأكد من عدم وجود ما يوحي بمعاقرته الخمرة.

قالت: «أظن أنني سأخرج في نزهة قصيرة». كان الوقت متأخراً بما فيه الكفاية لكي يقلق والدها، إذا كان منتبهاً. إلا أنه كان يتعاون مع جاك على حلّ الكلمات المتقاطعة.

خشيت أن تغضب وأغضبها ذلك. أيّ حق له بأن يستولي على البيت على هذا النحو؟ مع التسليم بأن له مثل حقها، إلا أن الفرق الوحيد أنها أمضت بضعة أشهر تهتم بالبيت وبوالدها قبل وصوله. والآن يبدو ميالاً للمساعدة على الاعتناء بالعجوز أيضاً، وهو يفعل ذلك جيداً، وكأن شيئاً ما يتم إيصاله من خلال هذه العناية يجعل منها طقساً أكثر تبجيلاً من القيام بالواجب أو الالتزام. تشكّلَ تفاهم ضمني بين الرجلين يقضي بأن يساعد جاك والده في الاستحمام وفي تبديل الملابس اللذين كانا الجزء الأصعب في رعايتها له، وكانت هذه راحة كبيرة، بما أنه كان متردداً في قبول الرعاية التي يحتاج إليها. الحقيقة أنها كانت مرتاحة لفكرة أن واجبها بسيط وأن لديها حسّ بالواجب تجاه أيّ كان وما إلى ذلك. إلا أن الأمور كانت أفضل حالاً بوجود جاك في البيت.

«الانسلال» كلمة قبيحة، أفعوانية. كانت لتفكّر بكلمة أفضل لو أمكنها ذلك. لقد استردّ مكانه في قلب أبيه، وكان هذا جلياً. اعتقدت أنه خلال عشرين عاماً ربما وصلت منه أربع رسائل، لأنها عند بداية عودتها إلى بيت أبيها ذهبت إلى الكتاب المقدس الكبير بنية صافية وهي تسكين هواجسها بقراءة مزمور أو اثنين، ووجدت في الكتاب أربع رسائل موضوعة بين العهدين القديم والجديد. وكانت المظاريف قد

بليت بما فيه الكفاية لتعتقد أن الرسائل ربما كانت موضع اهتمام عائلي، إلا أنها حين رأت العنوان عليها أعادتها إلى مكانها من دون أن تقرأها. أياً كان ما حدث بين الأب والابن، فإن والدهم لم يجد من المناسب أن يخبرهم بشأنه، على الأقل بقدر ما تعرف. كان ذكر جاك قد انقطع تقريباً من البيت. والآن ها هو هنا، من دون كلمة تفسير، يزاحمها على هذا البيت الكبير الفارغ، أو هكذا شعرت في بعض الأحيان. عليّ أن أرحل، فكرت في سرّها مرة أو اثنتين، لكي تستمتع بفكرة مفاجأتهما، ندمهما. يا لها من فكرة صبيانية. ثم سيغادر جاك بلا ريب، وستعود، كما ينبغي لها أن تفعل، وسيكون والدها غارقاً في الأسى الذي كانت سببه المباشر، والذي لن ينتهي في هذه الحياة.

وجدت نفسها أقل نزوعاً إلى الصلاة من أيّ وقت مضى. في طفولتها، عندما كان والدها - ذلك الرجل الطويل المهيب في ذلك الحين - يقف في منبر الوعظ ويحني رأسه، يحلّ الصمت على الحضور. كان يدعو قبل استهلال الصلاة. لتكن أفكار قلوبنا مرضية أمامك[1]. شعرت أن صلواتها الخاصة لم تبلغ يوماً هذا المستوى من الجدية. كانت صلوات يأس من وقت لآخر، وهي أمر مختلف تماماً. قال والدها لأطفاله أن يصلوا طلباً للصبر والشجاعة والمعروف ووضوح الرؤية والثقة والشكر. هذه الصلوات التي تستجاب، قال. أما الصلوات الأخرى فربما لا تستجاب. الرب يعرف احتياجاتك. فصلت: يا رب امنحني الصبر. أدركت أنها ليست صلاة صادقة، فلم تستمر بها. أما الصلاة الصادقة فكانت لتكون: يا رب، أخي يعاملني كغريب معاد،

(1) في الأساس من المزامير، الكتاب المقدّس: «لتكن أقوال فمي وفكر قلبي مرضية أمامك يا ربّ صخرتي ووليي» (المزمور 19: 14).

ويبدو أن أبي نحّاني جانباً، أشعر أن ليس لي مكان هنا في ما حسبته سيكون ملاذي، أنا في حال مزرية وفي قلبي مرارة، والمخاوف القديمة تنهض في داخلي، جاعلة كل ما أفعله يزيد الأمور سوءاً. لكن تطلب الأمر أن تنهمر دموعها حتى تفكّر أن وضعها ربما يكون بالفعل بائساً إلى هذا الحدّ، فصلت ثانية من أجل الصبر، من أجل الحقيقة، من أجل التفهّم، من أجل كل فضيلة قد تبقيها آمنة من النزاعات التي ستتركها بلا ريب مجروحة، كل فضيلة قد تساعدها على الأقل على الاحتفاظ بمظهر الكرامة، بحق السماء. تساءلت عما قد يفكر بها الجيران، إذا رآها أحدهم في الشارع في تلك الساعة. شيء ما قريب جيداً من حقيقة الأمر، بلا ريب.

وهي تفكّر بالصلاة التي لم تكن بعد فاقدة الأمل إلى حدّ أن تحولها إلى كلمات، أدركت على نحو غير سار أنها تحب جاك وتتوق إلى قبوله لها. كان هذا بلا ريب محتوماً، بما أنه يصحّ على العائلة كلها، مجتمعين وفرادى، باستثناء أزواج الشقيقات وزوجات الأشقاء، الذين ربما لم يلتقوه يوماً أو حتى سمعوا باسمه، والذين يمكن أن يندهشوا قليلاً فحسب بقوة هذه العاطفة الجماعية إذا ما تنبّهوا لها بأي شكل من الأشكال. كان الخروف الأسود، المخفق دوماً، الذي لا يظهر في الصور الفوتوغرافية. ولم توح أيّ من القصص القليلة جداً التي تأتي على ذكره بأن خسارته كانت مصدر أسى على الإطلاق. كان امتياز أواصر الدم المحزن يقضي بأن يكون محبوباً رغم كل شيء. كانت غلوري في الثالثة عشرة حين رحل إلى الجامعة، وذلك بعد سنوات من تجاهله لها. وها هي الآن في منتصف العمر تشعر بحقيقة لا مبالاته النزقة، نوعاً من الحكم عليها، هكذا بدا الأمر لها، وإن كان غارقاً في الخطأ، وكل

تطفلاتها طوال السنوات السابقة، كلّ إسرافاتها، أياً كان ما يسميها، لم تكن شيئاً كهذا - وقد دافعت عنها في سرّها ألف مرة، وستدافع عنها في وجهه إذا دعت الحاجة، لا سمح الله، لا سمح الله.

راودتها أكثر من مرة، وحتى قبل أن تصل كارثتها التدريجية الخاصة، المتعلقة بمغامرتها هي في العالم، إلى نهايتها، فكرة أن عبارة «على الرغم من كل شيء» هي معادلة خطرة، وأن رومانسية الغياب كانت إلهاء عن مسرات أكثر ديمومة. سنوات طفولتها المتأخرة تلك، حين شعرت بإلحاح شديد، بل متيقنة، من أن الأمور ستنصلح لو بذل الجهد الكافي كافياً في سبيل ذلك - تلك السنوات بقيت معها وكأنها كانت كل حياتها. لم يعلم الآخرون حتى - لا فايث، ولا تيدي. قال والدها إنه خيار جاك أن يخبرهم أو أن يظلّ صامتاً، بما أنه سيشعر براحة أقلّ معهم لو علموا، وقد لا يسعى إليهم إذا دعت الحاجة. قد لا يزور البيت حين يزورونه في عيد الميلاد وعيد الشكر. قال لها والدها والدمع في عينيه أن ثلاثتهم قد يخفّفون من شعور جاك بالذنب والخزي أيضاً عبر الاستفادة من الوضع على النحو الأمثل. فبدأت بالخياطة. كان سراً عميقاً. كانوا يعملون على مهمة إنقاذ كبرى. صار والداها يتكلمان بحرية معها أو على مسامعها عن الأمر برمته، وثقا بها، ولم تفه يوماً بكلمة ما عدا للعجوز آيمز، الذي كان كتمانه تاماً. أحرجها أن تتذكر كم كانت سعيدة، خلال تلك السنوات الثلاث المريرة الطارئة حتى انتهى كل شيء. لن يعرف أخوها البتة الألف شيء الذي فعلته لكي تجعل الحياة محتملة بالنسبة إليه.

الإخوة. في طفولتها، كانت تجد اهتمام أي واحد منهم بها أمراً رائعاً. كان اهتماماً نادراً، وتهكمياً، وغريباً، وغير أبويّ على الإطلاق.

وحتى غرايس، تكبرها بأقل من سنتين، حاولت أحياناً أن تعاملها بأمومية، وفايث وهوب[1] – يا لهما من اسمين – كانتا ناضجتين ومسؤولتين بصورة مزعجة. أما حين يلاحظ وجودها أيّ من الإخوة، فهذا معناه أن يؤرجحها من يديها أو يحملها على ظهره، أو يريها حيلة ما بورق اللعب، أو قشرة زيز الحصاد. حين أتمّ الصبية بلوغهم كانوا متساوين بالطول تقريباً: شبان ضامرون هزيلون لهم وجوه خشنة ناحلة وشعور خشنة. لوقا غادر إلى المدرسة حين كانت في الرابعة، ودان حين بلغت السابعة. أما جاك وتيدي فغادرا في العام نفسه، حين كانت في الثالثة عشرة، وبما أن تيدي كان مجتهداً في المدرسة فتمكن من تجاوز صفين معاً. إذن حين يجتمعون في البيت معاً، في الصيف، وفي العطلات، يستمتعون أتمّ الاستمتاع بذلك، وظلّ هذا صحيحاً في أثناء دخول الشبان في صفوف الرجال البالغين تماماً. كانوا يمزحون ويتسلون في سيارة الفورد القديمة الي يملكها لوقا، ويصلون أحياناً حتى دي موين، وجاك معهم إذا أمكنهم إغراءه بمرافقتهم. كانوا مزهوين بحريتهم وبرجولتهم، بذكائهم وبسيقانهم الطويلة، إلا أنهم كانوا يتصرفون بنبل رغم ذلك، وكان ذلك مصدر زهوهم أيضاً. أسمتهم أمهم أمراء الكنيسة، وكانوا يبدون بالفعل جيدين، وهم يدخلون معاً إلى حرم حرم الكنيسة مرتدين ستراتهم وربطات أعناقهم، حاملين الكتب المقدسة، ثلاثتهم، وأحياناً الرابع معهم. كانوا يقولون أشياء مثل volo و nolo وde gustibus[2]، و«لا أقرّ بموت حبّ ينشأ من اقتران عقلين»[3]

(1) Faith and Hope: إيمان وأمل.

(2) كلمات لاتينية، بمعنى غير راغب بالشيء، راغب فيه، وأذواق.

(3) Let me not to the marriage of true minds، السوناتة رقم 116 لوليام شكسبير، واحدة من أشهر سوناتاته.

وكانت تسيطر عليها المهابة تجاههم. وقد أعادت لها رؤية جاك ذكرى تلك الأيام. باتت تعرف الآخرين الآن، على نمط الصداقة التي تربط بين البالغين. وعلى الرغم من حبها لهم، فقد كان من الصعب عليها أن تتذكر أنهم بدوا يوماً رائعين لها. إلا أن جاك بدا بعيداً عنها أكثر من أي وقت مضى، ووجدت نفسها تنتظر ثانية أن يراها ويعترف بها، مما أثار سخطها الكبير.

بعد مدة قصيرة عادت إلى البيت، مفكرة أن والدها قد يكون مستيقظاً ينتظرها. إلا أن جاك كان قد وضعه في سريره وصعد إلى غرفته. ترك ضوء الشرفة مضاء من أجلها.

نهضت باكراً صبيحة اليوم التالي، باكراً بما فيه الكفاية حتى تفترض أن جاك لا يزال نائماً، ونزلت إلى المطبخ، وأعدت القهوة وفطيرة الزبدة، ثم انتظرت سماع حراك والدها، مثلما يفعل دائماً قبل الفجر بوقت طويل، وإن كانت عادته أن يتمهّل في النهوض من النوم، حتى تكون قد نزلت إلى الأسفل بعد ساعة أو اثنتين. كانت تعرف أن فترة الصباحات هي الأسوأ بالنسبة إليه، حيث ينهكه ضجر الاستلقاء مستيقظاً. هذا الصباح ومنذ الآن فصاعداً ستعامله بصورة أفضل. كان يحب الفطائر. ستكثر من إعدادها له.

حين سمعته يتحرك، شغّلت إبريق القهوة وصاج الفطائر، وصعدت إلى غرفته وساعدته على النهوض وارتداء روبه، ممسكة بذراعه وهو ينتعل خفيه. وأحضرت له منشفة لوجهه ويديه، وصففت له شعره.

قال: «جاهز لاستقبال النهار، أكثر أو أقل».

قالت: «الفطائر».

«يا سلام، هذا رائع. سمعتك هناك وفكرت أن هذا جزءاً من حلم أحلمه. لا أذكر ذلك الحلم، لكن كان فيه خطوات أقدام».

خطر لها أن تنظر إلى الساعة، مفترضة أنه، بما أنها أفاقت شاعرة بالتصميم، بنية راسخة في عقلها، لابدّ من أنها عتمة الصباح. كانت الساعة على منضدة والدها تشير إلى الثالثة وعشرة دقائق. رآها تنظر إليها.

قال: «الفطائر مرحّب بها دوماً»، وهو يستجمع نفسه.

«يمكنني تركك تنام ساعتين أخريين أبتاه».

«على الإطلاق، رائحة القهوة جعلتني أتخلى عن كل فكرة النوم! جميل!»، وتحرّك بعزم متقطّع نحو المطبخ، وجلس على كرسيه، وجلس يحملق، دون أن ينظر إلى شيء محدّد. فقدمت له طبقاً وشوكة وسكيناً.

قال: «أخشى ألا تكونا منسجمين معاً أيها الولدان». كانت تلك الملاحظة مفاجئة تماماً وصحيحة تماماً، حتى إنها جعلت الدمع يطفر من عينيها. عادت إلى تحضير الفطائر وقالت، حين أمكنها الوثوق من أن صوتها لن يفضحها: «الأمر صعب كما تعلم بعد كل هذه السنوات - كنت صغيرة حين رحل إلى المدرسة، ولم نكن يوماً مقربين...»، ووضعت الفطيرة في طبقه. حمل شوكته. سكبت فطيرة أخرى في المقلاة. «وأظن حقاً أنه لا يشعر بالراحة معي. وأنا لست مرتاحة معه في حقيقة الأمر، وعليّ أن أكون صادقة بهذا الشأن...».

وضعت الفطيرة الثانية فوق الأولى، وقال والدها: «لو تضعين قدمي في الموقد هناك»، وقال شيئاً آخر، وأدركت أنه أغفا. كان نائماً والشوكة بيده، وقد طفا تعبير أنيس على وجهه. أشفقت من أن توقظه ثانية،

فأطفأت النار تحت القهوة والمقلاة، وأطفأت لمبة السقف وجلست إلى الطاولة أيضاً. وحين وجدت أنها غير قادرة على رفع رأسها، ألقته على ذراعيها وبكت قليلاً، وأغفت قليلاً. ثم سمعت جاك على الدرج.

كان لا يزال الوقت مبكراً حتى حلول الفجر، فأشعل الضوء وسارع إلى إطفائه. همس: «ما الخطب؟».

قالت: «لا شيء».

«أنت تبكين».

«صحيح».

«أهو على ما يرام؟».

«إنه نائم بعمق. يمكنك أن تنير الضوء».

أنار الضوء. ووقف بالباب محاولاً استيعاب الوضع. قال: «لقد شممت قهوة فعلاً».

تململ والده في كرسيه، وأخذ جاك الشوكة من يده، قال: «من المؤسف هدر هذه الفطائر».

«إنها باردة».

«لا تزال فطائر، هل تمانعين؟».

«لا أمانع. وهناك القهوة الباردة أيضاً».

قال: «ممتاز، شكراً لك». أخذ طبق والده وقهوته، وملأ الكوب بالقهوة وجلس أمام الفطائر. «هذا لطيف في حدّ ذاته، إلا أنه غريب بعض الشيء. لا أعني ذلك منتقداً»، ثم قال: «لن تبخريني ما الأمر أليس كذلك».

«لا، لا يهم. لا أشعر بالرغبة في ذلك».

«حسناً»، ضحك «إنني مستعد دائماً للالتزام بقواعد البيت»، ثم

قال: «حين ننهي إفطارنا أيمكننا العودة إلى النوم؟»».

«لا».

«أظن أنه كان عليّ أن أخمّن ذلك».

«إنه تقريباً لا ينام البتة بهذا العمق. لن أزعج نومه. لكنني لا أريده أن يرتبك حين يصحو. سأبقى هنا. يمكنك أنت العودة إلى النوم».

نظر جاك إلى والده لبرهة. ثم وقف، ووضع ذراعاً تحت ركبتيه وأخرى حول كتفيه، ورفعه عن كرسيه. دمدم العجوز، وقال: «أنت بخير سيدي، أنا جاك». ارتفعت يد ولامست وجهه، ووجنتيه وأذنه. حمله جاك إلى غرفته ووضعه في سريره. ثم عاد إلى المطبخ.

«الآن يمكنك أن تحظي بمزيد من النوم».

قالت غلوري: «شكراً لك، سأفعل». وصعدت إلى الأعلى واستلقت في السرير وكرهت حياتها حتى الصباح.

حين أطل الصباح نزلت إلى المطبخ وأعدت القهوة والفطائر، وكأنها تفعل ذلك للمرة الأولى. كان التعبير على وجه جاك غامضاً. كان والدها نعساً أو شارد الفكر. أخيراً قال: «ثمة شيء في فكري، ليلة أمس رأيت القمر الجديد والقمر القديم بين ذراعيه، ما هذا؟ كنت أحاول أن أتذكر».

قالت: «هذه مغنّاة السير باتريك سبنس»[1].

قال جاك: «أحسنت أيتها الفتاة الجامعية».

«لا»، قال العجوز، «كانت معلمة لغة إنجليزية لعدة سنوات. ثم تزوجت، فكان عليها أن تستقيل من التعليم. يجعلونهن يفعلن ذلك.

(1) من الفلكلور الشعري الأسكتلندي

القمر الجديد والقمر القديم بين ذراعيه. هذه أغنية حزينة جداً. أوه، 'على بعد أربعين ميلاً قبالة أبردور، في عمق خمسين قدماً، يضطجع السير باتريك سبينس الطيب والسادة الإسكتلنديون عند قدميه'. قالت إن الحياة شاقة جداً في إسكتلندا، إلا أنها لطالما حنّت إليها. قالت إنها ستموت من الحنين، وربما ماتت بالفعل، إلا أنها أخذت وقتها في ذلك. كانت في الثامنة والتسعين حين ماتت». ضحك «نحن الشباب لن نرى الكثير ولن نعيش طويلاً»، قال «لقد حملتني، أليس كذلك يا جاك. حسناً، لا بأس بهذا. لست الأب الذي تتذكره، أعرف ذلك».

وضع جاك يده على جبينه «بالطبع أنت كذلك. لم أقصد... أنا آسف...».

«لا يهم. لم يكن عليّ ذكر ذلك».

امتقع وجه جاك. بعد برهة دفع كرسيه إلى الوراء، وقال: «حسناً، ثمة عمل ينبغي القيام به». خرج إلى الحديقة ووقف في الثلم الذي شقه بين شتلات السوسن وأشعل سيجارة. شاهدته غلوري من الشرف. قالت: «على الأرجح عليّ مساعدته».

قال العجوز: «أجل يا عزيزتي، سيكون هذا حسناً منك». فأجلست والدها على مقعد موريس مع الصحيفة ثم خرجت إلى الحديقة. لامست ذراع جاك ونظر إليها.

قال: «ما الأمر؟».

«فقط أردت أن أقول إنه لا خطأ في ما فعلت. إنه يكره كونه ضعيفاً. وكان عليه أن يتصالح مع الأمر منذ وقت طويل».

سحب نفساً من سيجارته، وقال: «شكراً لك».

«لا، حقاً، فكرت أن هذا كان نبلاً. نادرة كريمة. إظهار لسحرك الخرافي».

«للأسف الشديد. وجدت أن الناس ملوا من سحري الخرافي».

«حسناً، أظن أنه لم تسنح لي فرصة كافية لكي أسأم منه».

ضحك. «النهار في أوله»، ثم قال «لم أعنِ شيئاً حين قلت الفتاة الجامعية. لا أعرف ما الذي كان مسيئاً في ذلك».

«لم يكن مسيئاً. لقد أراد فحسب أن يتأكد من أنك تفكر حسناً بي. يخشى أننا غير منسجمين معاً».

تفرّس بها: «أقال ذلك؟».

«أجل، ذكر ذلك».

ليلة أمس».

«أجل...».

«وماذا قلت له؟».

«حسناً، قلت له إننا لم نعرف يوماً واحدنا الآخر معرفة حميمة».

«فقط؟».

«كان شديد النعاس فلم نتكلم كثيراً».

«إذن هو قلق من ذلك».

«إنه يقلق من كل شيء. سيكون الأمر على ما يرام. لطالما عرفت كيف ترضيه».

هزّ رأسه. «لا. لطالما أمكنني الاعتماد عليه لكي يكون راضياً مني. من وقت لآخر. غالباً بما فيه الكفاية. لم أفهم ذلك أنا نفسي يوما». هزّ كتفيه وضحك «دعينا من ذلك، لا أعتقد أنني فهمت يوماً الكثير من أي شيء». رمى سيجارته ونظر إليها، وكان ثمة نوع من الاستياء

قي نظراته، وكأنها جرّته إلى البوح بسرّ ندم عليه سلفاً «لست أقدّم الأعذار»، قال.

«أعرف ذلك. سوف آتي بضمادة ليدك. سأعود فوراً».

كان العجوز قد انتقل إلى الشرفة. نادته ولوحت له في أثناء مرورها. جلبت الشاش والشريط اللاصق، وهناك حيث وقفا كانا يعرفان أنه يسعه رؤيتهما، ضمّدت بجرحه. «يجدر أن يكون هذا حسناً».

«لطف شديد منك، شكراً لك»، قال، وبيده المضمدة لخبط شعرها بسرعة وخشونة.

كانت قد تركته يعتقد أن والدهما تأرّق طوال الليل من شدّة القلق. كان هذا خطأ من جانبها، إلا أنها لم تتقصّده حقاً. أرادت أن تخبره كم كان رائعاً ان يحمل والده على ذلك النحو. فكرت بذلك في حينه، وشعرت بمرارة بمدى عجزها عن أن تكون لطيفة إلى هذا الحدّ، كيّسة إلى هذا الحدّ. وأن تعترف بهذا الشعور غير المرحب به بالإعجاب، ولجاك نفسه، منحها شعوراً بالحرية والقوة، مكافآت تجاوز الذات تلك التي لطالما وعد بها والدها. أحسّت بها لبرهة وجيزة. ثم رأت نظرته القلقة تلك، ذلك الاحتراز النابع من عدم التيقن من طبيعة التهديد، وانعدام أي فكرة عن ملاذ محتمل. لاحظ أنه لم يرض والده، ولم يعرف كيف يرضي والده. لعله على الأرجح أحب أن يظن أنه فعل شيئاً ما خطأ لكي يتمكن على الأقل من تصويب نفسه قليلاً، لكنها قالت له شيئاً رهيباً، أنه لم يفعل ما يسيء، وأن والده اعتبره قد ارتكب خطأ على أية حال، فقط لأنه بات طاعناً في السن وحزيناً، ليس الأب الذي حسب أنه يعود إلى البيت من أجله.

عملا بصمت في الشمس، مقتلعين شتلات السوسن وفاصلين بينها. عمل جاك بكل تفان وانهماك وتأمل. أعادت غلوري زرع أفضل البصيلات، واضعة القليل منها جانباً من أجل ليلى. سألها جاك: «أنت صديقتها؟».

«ننسجم معاً. إنها امراة لطيفة. لم تزر آل آيمز بعد، أليس كذلك؟».

قال: «إني مشغول جداً»، وضحك، «سأفعل غداً».

«إنها تعتني بحديقة كبيرة هي الأخرى، وقد عرضت عليّ المساعدة في هذه، لكنني لا أريد إبعادها عن زوجها. عربة الزمن المجنحة[1] وما إلى ذلك».

«كيف حال آيمز العجوز».

«البابا قلق بشأنه. إنه يقلق بالفعل حول كل شيء. إلا أنه يقول: آيمز ليس على ما يرام فحسب! يقول لقد عرفته طوال حياتي، وأستطيع أن أعرف أن ثمة خطباً ما!». نظرت نحو الشرفة وهمست: «يفترض انه أصم، لكنه يبدو أنه يسمع كل ما أفضّل ألا يكون يسمعه. يحسن بي أن أكون حذرة».

قال جاك: «حسبت أن آيمز سيزورنا. لا عجب أن العجوز يفتقده. لم أحسب أن ثمانية وأربعين ساعة يمكن أن تمر من دون جدال بينهما، أو على الأقل من دون لعبة داما».

«أحسب أنه يعطي البابا الوقت لكي يستمتع بوجودك معه».

«آه أجل، من يفهم أكثر من الموقّر آيمز الفرح الخاص الذي أجلبه معي أينما حللت...».

(1) من قصيدة للشاعر البريطاني أندرو مارفل (1621— 1678) وهذه العبارة تقتبس كثيراً للتعبير عن سرعة مرور الزمن وانقضاء الأجل.

«لا، حقاً. أنت لا تدرك ما الذي عناه هذا».

«ما الذي عناه حتى ظهرت فعلاً»، قال «كان مجيئي وأنا ما زلت أعاني آثار الثمالة خطأ مؤكداً». أخرج السجائر من جيب قميصه وأشعل واحدة.

«أيها الولدان!»، صاح العجوز. «أظن أن هذا يكفي ليوم واحد!».

قالت: «آيمز أصبح لين العريكة قليلاً. على الأقل لم يعد قليل المبالاة مثلما كان من قبل. جزء كبير من ذلك كان الوحدة على ما أظن. وسيرضي أبي إذا قمت بزيارته».

نظر جاك إليها: «أعرف بالطبع، أنوي ذلك». كانا يسيران عائدين إلى البيت. طرح سيجارته بعيداً ورفع شعره عن جبينه، وأمسك الباب لها. ثم وقف هناك داخل الباب، مثل غريب غير واثق من أنه مرحّب به.

كان والدهما قد وضع رقعة الداما على طاوة المطبخ. قال: «جاك، أحب لعبة داما جيدة. لكنّ غلوري تدعني أفوز».

«لا، لا أفعل».

«بل تفعل. وأعرف أنها تفعل ذلك بلطف».

«لا أدعك تفوز».

«لا تستمتع باللعبة حقاً، لذا نصف الوقت تستسلم عند الحركة الثالثة تقريباً. هذا محبط. لا أستطيع سنّ مهاراتي!».

قالت غلوري: «أنا أفوز بقدر ما تفوز أنت».

قال والدها: «هذا ما قصدته! نصف الوقت تدعني أفوز فحسب!». وضحك مقهقهاً وغمز جاك، الذي ابتسم. فتح العلبة وقال: «الأسود

هو المفضل عندي. غلوري اجلسي هنا وشاهدي. ربما حصلت على بعض الحيل. هذا الشاب هنا ربما يكون قد تعلم استراتيجيات لم نسمع بها هنا في جلعاد!».

قال جاك: «لا سيدي، ليس فيما يتعلق بالداما». اقترب من الطاولة واتخذ مقعداً. ووضع الحجارة الحمراء في المربعات المخصصة لها.

قالت غلوري: «سأعدّ الفشار».

«أجل، كما في أيام زمان...». قام والدها بنقلة.

فكرت، أجل، قليلاً مثل أيام زمان. أولاد يصطبغ شعرهم بالرمادي، وأب قديم. لو أمكنهم فحسب أن يروا المستقبل من أيام زمان تلك، حين حتى لعبة داما حول الطاولة كانت صاخبة إلى حدّ يدفع والدها إلى الهروب لكي يتمرّن على عبريته في الصمت المطبق لبيت آميز – لو أمكنهم الآن النظر إلى باب المطبخ إلى ثلاثتهم هناك، أكانوا ليصدقوا ما يرون؟ لا يهم ... كان والدها منكباً على جانبه من الرقعة، زاعماً الانكباب، وجاك متكئاً، مصلباً قدميه عند الكاحلين، وكأنه من الممكن أن يسترخي على كرسي مستقيم الظهر. فرقع البوشار.

بعد قليل قال والدها: «يحسن أن نلعب اثنتين من ثلاث! أعرف متى تمّ التفوق عليّ».

«أأنت أكيد؟»، سأله جاك.

«أكيد؟ أنقل هذا الحجر، فتنقل الحجر نفسه. أقوم بهذه الحركة فتقوم بمثلها»، قال، وهو ينقر الرقعة بإصبعه. «يبدو غريباً، في ظل هذه الظروف، أن أكون أنا من يشير إلى ذلك!».

«لو لم تفعل، لما انتبهت لذلك».

«إذن، فلنعتبره تعادلاً».

ضحك جاك: «لا مانع عندي».

«هزمت!»، قال والدها، «لنضع التقنيات جانباً. لقد أنهكني! غلوري، لقد حميت الرقعة. لنر ما يمكنك فعله مع هذا الشاب».

فجلست قبالة أخيها. ابتسم لها. قال: «هذا بوشار جيد جداً».

«الكثير من الزبدة».

هزّ رأسه. لعبا لعبة مهذبة، مشغولي البال بأمل والدهما الواضح بأن يستمتعا باللعب قليلاً. لم يكن محيا جاك يدلّ إلا على الاستعداد لذلك، وهو ما تأكد فحسب في سرعة لعبه دوره، «أوه»، قال، حين قفزت فوقه قفزة ثلاثية.

ثم قال والده: «أعتقد أن أمامك فرصة سانحة هناك يا جاك». ومد يده وقام بالنقلة بنفسه، قفزة مزدوجة. «الآن حصلت على ملك أترى».

قالت غلوري: «هذا ليس عدلاً»، وضحك جاك.

«أيام زمان، يا سلام! هذا جيد جداً، لكنني لا أستطيع احتمال هذه الحماسة. أنا ذاهب إلى غرفتي. لا، أنتما أنهيا اللعبة»، قال، حين وقف جاك لكي يساعده على النهوض عن كرسيه. «هناك وقت كاف لإيصالي إلى السرير، لن أذهب إلى أي مكان».

فاستمرا في اللعب. قالت غلوري: «لا أتذكر أننا لعبنا معاً الداما يوماً. لطالما لعبت مع الفتية الأصغر سناً».

همّ جاك للقيام بنقلته، إلا أن يده ارتعشت وسقطت في حضنه.

قالت: «ما الخطب؟».

تنحنح وابتسم لها: «لم تهرّبيني يوماً إلى فوق مع قنينة أسبرين. كنت فتاة صغيرة».

«لا، لم أقصد أنني فعلت ذلك بنفسي، عنيت أنني عرفت أن هذا يحدث».

«عذراً، لم أدرك ذلك. لم أدرك ذلك في حينه. أن تكوني واعية للأمر». تنحنح.

«كان غباء مني أن أقول هذا جاك. أعتذر. أتمنى أن تنساه».

«إنه فقط يجعل الأمور أسوأ مما هي عليه. فهي سيئة بما فيه الكفاية».

«حسناً، لن آتي ثانية على ذكر ذلك».

تفكّر: «ذكر ماذا بالتحديد؟».

«حسناً، أنت مصيب. لم أقل إنني أنا شخصياً كنت أهرّبك إلى فوق. هذا ما سمعته أنت فحسب».

قال: «لا مانع عندي في أن ننسى الموضوع برمته. كل هذا حدث منذ زمن بعيد».

في تلك اللحظة فقدت أعصابها. فكرت، لماذا أعتذر لهذا الرجل من أجل شيء لم أقله، وأيضاً من أجل شيء قلته بالفعل، وهو الحقيقة لا أكثر؟

«حسناً»، أملت أنها تسيطر على رعشة الغضب في صوتها «في تلك اللحظة فحسب، لم يكن جلياً أن هذا كله قد انتهى منذ زمن طويل».

غطّى وجهه بيده. أوه، فكرت، هذا مزر. يا ربي، لقد جعلته يشعر بالخزي. كيف سنعيش في بيت واحد الآن؟ سوف يرحل، وأبي سيموت فرقاً، وستكون هذه غلطتي. فقالت: «سامحني».

«قال: «أجل، بالطبع».

نادى والدهما: «أيمكن أن يأتي أحدكما أيها الولدان ويساعدني قليلاً؟».

قال جاك: «سأذهب أنا». أبعدت رقعة الداما، ثم نظرت إلى الصالة وهناك كان جاك، راكعاً لكي يعقد شريط حذاء العجوز. ووالده ينظر إليه برقة بالغة الحزن جعلتها تتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعها، هي وكل كلمة تفوهت بها يوماً.

كان ذلك هو اليوم الذي جاءت فيه المكالمة الهاتفية، امرأة تطلب التكلم إلى جاك بوتون. قالت غلوري إنه في الحديقة وإنها ستناديه، بيد أنها لم تجده هناك، فذهبت إلى الحظيرة، حيث وجدته منكباً على محرّك السيارة «ثمة مكالمة هاتفية لك».

«من؟».

«لم تقل، إنها امرأة».

«يا إلهي»، قال، وهرع على الطريق ثم على درج البيت. حين وصلت إلى المطبخ كانت السماعة قد عادت إلى مكانها. قال: «لقد أقفلت الخط، يا ربي، لقد خرجت من البيت عشرين دقيقة فحسب...».

«أنا آسفة...».

هزّ رأسه. «هذه ليست غلطتك. أقالت لك اسمها؟ ماذا قالت؟».

«قالت إنها تتصل من سانت لويس. وكان الخط سيئاً جداً. كان ثمة الكثير من الجلبة. كانت تتصل من كشك عمومي على ما أظن».

«من سانت لويس؟ هي قالت ذلك؟».

«أجل».

جلس إلى الطاولة: «سانت لويس! أقالت إنها ستعاود الاتصال؟».

«لا، حسبتني سأتمكن من العثور عليك. أظن أنني حسبتها ستبقى على الخطّ. كان عليّ أن أسألها».

أخذ نفساً عميقاً وفرك عينيه. «لا ذنب لك في هذا كله». كانت يداه مليئتين بالشحم، فذهب إلى المغسلة وغسلهما ومسح السماعة. «ولا ذنبي أيضاً على ما أظن. لا عزاء البتة في هذه الفكرة». جلس إلى الطاولة: «آمل أنني لا أعترض طريقك هنا. لا يمكنني أن أكون أبعد من ذراع عن الهاتف في المستقبل غير المنظور. جاك بوتون مقيداً، كل ما أحتاج إليه هو نسر ينقر كبدي». قال وضحك «على الأقل تلقيت مكالمة. وهذا شيء مهم». بدا أن تلك الفكرة رفعت معنوياته.

«ألا يمكنك الاتصال بها، أعرف أنها اتصلت من هاتف عمومي، لكن ألا يمكنك الاتصال بعائلتها وسؤالهم عن كيفية الوصول إليها؟».

هزّ رأسه: «لقد تم حثّي بقوة على عدم فعل ذلك. من قبل والدها، لا أقلّ».

أحضرت له الكتاب الذي تنوي قراءته تالياً دروب المجد[1].

«مذكراتك؟».

قالت: «الفتيات في هذه العائلة أسمين تبعاً لتجريدات لاهوتية والفتيات سموا تيمناً ببشر. وهذا شيء بما فيه الكفاية من دون الحاجة إلى أن نُستفز حول ذلك طوال حياتنا».

«آسف، لقد خرجت مني عفو الخاطر، لا مزيد من النكات».

«'ممرات المجد لا تؤدي إلا إلى القبر'[2]، والآن ليس عليك أن تكبت رغبتك في قول ذلك أيضاً».

قال: «شكراً لك، كم هذا مريح».

فجلس في المطبخ يقرأ، مطرقاً بأصابعه. قلب الكتاب على

(1) رواية للكاتب الأمريكي همفري كوب (1899–1944)، حولها المخرج ستانلي كيوبريك إلى فيلم سينمائي عام 1957.

(2) من قصيدة للشاعر الإنجليزي توماس غراي (1716–1771).

الصفحات القليلة الأخيرة وقرأ الخاتمة: «محزنة!». ووضعه جانباً. قدمت له زبدية من الجوز وأخذ يقشره. وراح يمشي. ووقف على الشرفة، خارج الباب الخلفي مباشرة، يدخن.

مرت ساعتان، ورنّ الهاتف.

نادى والدها من سريره: «أيمكنك الردّ على الهاتف يا غلوري؟».

«على الأرجح أنه لجاك بابا».

«لا، قالت فايث في رسالتها إنها ستتصل بي. وهي لم تتصل منذ أيام».

لقد تكلمت إليها بالأمس.

رنّ الهاتف ثانية. همست لجاك، «ردّ!». لأنه كان واقفاً هناك فحسب، ناظراً إليها. رفعت السماعة وناولتها له، ثم ذهبت إلى غرفة أبيها. وجدته جالساً على حافة السرير. بدا ناعساً، إلا أنه بدا مزمعاً النهوض، فجلبت له رداءه.

سمعت جاك يتنحنح: «مرحباً؟».

قال والدها: «هذا رائع. يجدر به أن يكلم جميع إخوته، فرداً فرداً، فهم متشوقون لسماع أخباره».

قال جاك: «ما هذا؟ لا يمكنني سماعك! أفعل؟ متى؟ إنني أتكلم بصوت أعلى! لا، هذا ليس خطؤك، أعرف ذلك! أجل، إنهم يستاؤون بالفعل!».

قال والدها: «حسناً، لا أتخيل سبباً للصراخ على هذا النحو!».

قالت غلوري: «الخط سيء، أحدهم يتصل من هاتف عمومي».

«حسناً، آمل ذلك، وإلا فسأضطر إلى الاتصال بفايث والشرح لها. ولا أعرف حقاً كيف يمكنني أن أشرح لها صياحه في وجهها هكذا.

لا أعرف حقاً. لطالما أحبته كثيراً». كانت عيناه مغمضتين، إلا أنها صففت شعره وساعدته على انتعال خفّيه.

«ما كان ليصرخ البتة في وجه فايث بابا. فإذن لابدّ من أنه شخص آخر».

«أجل»، قال العجوز، «أفترض أنه كان عليّ إدراك ذلك».

كانت غلوري تحاول إلهاء والدها عن المكالمة، وإلهاء نفسها أيضاً، مع أن جاك بدا جزعاً بالفعل، أو منزعجاً، ولم يسعها سوى أن تتمنى معرفة ما هو الموضوع.

صاح: «إذا أمكن الشباب أن يستمروا بالبحث، سوف أدفع لهم! سوف أرسل المال!»، صمت «لا، لم أكن أقترح ذلك! أعني، أعني أنا واثق من أنكم جميعاً تبذلون قصارى جهدكم سيدة جونسون! صدّقيني! أنا لا ألومك قطعاً!».

قال والدها: «أجل، لقد ذكر سيدة تدعى جونسون. إنه يصرخ في وجه شخص لا نعرفه حتى».

«رجاء، إذا ظهر اتصلي في أي وقت! وليكن هذا على حسابي! أجل، شكراً لك، شكراً لك!».

تبعت والدها عبر الصالة إلى المطبخ. كان جاك جالساً على الأرض مسنداً ظهره إلى الجدار رافعاً ركبتيه، فاركاً وجهه بيديه. وقف ومسّد شعره وكانت عيناه محمرّتين. قال: «ليس بالأمر المهم. ثمة كلب فرّ. وقد وعدت أحدهم بالاعتناء به».

قال والده: «أوه أجل، كل هذا الصراخ كان بشأن كلب». وهزّ رأسه. أحياناً يصحو والدها جلفاً، أو مضطرباً. أحياناً يحتاج إلى ساعة او نحوها لكي يستجمع شتات نفسه. لم يكن جاك يعلم ذلك.

«كانت بشأن كلب»، قال بصوت منخفض، وابتسم لها، لأنهما أمضيا تلك الساعتين الطويلتين معاً وستفهم مرارة مفاجأته. «لست أهلاً للثقة للاعتناء بكلب».

قالت: «أحياناً تعود الكلاب، أظنّ يحسن بك أن تجلس».

هزّ رأسه وابتسم، شاحباً كما لم تره يوماً. قال: «سأتجاوز هذا، سأكون على ما يرام». أخذ الكرسي الذي سحبته له «شكراً لك». قدّمت له كأساً من الماء. هزّ كتفيه: «ربما يمكنني التعويض عليه».

كان والده يحملق به، ونظر جاك إليه ثم أشاح بنظره، منزعجاً. قال العجوز: «حسناً، أياً تكن المشكلة فسأساعد إذا كان بوسعي لك. أظنّ أنك لابدّ صرت تعرف ذلك».

«أجل سيدي أعرف ذلك».

«في هذه المرحلة أشعر بالرغبة الماسة للصلاة من أجلك. بالطبع أفعل هذا على أية حال. فإذا خطرت ببالك أي مساعدة أخرى أعلمني بذلك».

«أجل، سأفعل».

في طفولتهم، لطالما تجنّب والدهم أن يكون انتقادياً، على الأقل في الكلمات الفعلية التي يخاطبهم بها. إلا أنه كان ثمة من وقت لآخر نبرة توبيخ في صوته تتفوق على لطافة نواياه. لم تسمعه يتكلم على هذا النحو منذ سنوات، ورأت جاك يتقبل ذلك الآن، بصبر، وكأنه يسمع كلاماً ضرورياً وحقيقياً، كلاماً عذباً. فقالت: «بعض هذا هو خطؤك يا جاك. لقد أوقظت المكالمة أبي من نوم عميق، وهو غاضب بعض الشيء. هذا كلّ ما في الأمر».

قال جاك بلطف، وكأنه وجد هذه الحقيقة مثيرة للاهتمام: «لا يبدو

ان هذا يشكل فرقاً كبيراً. سواء كنت مخطئاً أم لا».

«بلى، إذا قالت غلوري إنني غاضب، فأظن أنني كذلك. لم تكن هذه نيتي على الإطلاق. لا أعرف ما قلته. أظن أنني قلت إنني سأساعد إذا أمكنني ذلك. يبدو هذا صائباً لي. لا أعرف». هزّ رأسه.

قال جاك بصوت منخفض: «كان لا بأس بذلك. كان بالغ اللطف».

«أجل»، قال العجوز، «لقد قصدت أن أكون لطيفاً معك، بالتأكيد قصدت ذلك».

أكثر فأكثر، مع مرور الأيام، صار جاك يقصدها لكي يتحدّث إليها، وحين يقود الكلام إلى الصمت، أحياناً يبتسم لها وكأنه يقول: أنا وأنت، من بين كل الناس، هنا، من بين كل الأمكنة، نقتل الوقت، لافتقارنا إلى أيّ شيء آخر نفعله به. يرمقها كغريب في ظلّ وضعهما المضجر، والصحبة الطارئة التي تأتت من إمضائهما هذا الوقت معاً، لكي يعلمها بطريقة لائقة ومتجرّدة كم أنه مسرور بوجودها هناك.

وأحياناً، حين يكونان منشغلين بالعمل في الحديقة أو في غسل الأطباق، تلاحظ أنه تراجع إلى الخلف لكي يرمقها بطريقة متفحصة وكأنه فجأة أسقط من حسابه كل افتراض بشأنها، وكأنها شخص عرف نية ما له وأدرك أنه لا يعرف شيئاً يعتدّ به أو مهماً عن هذا الشخص، شخص ما عليه إعادة التفكير بشأنه بأناة. لم تتذكر من طفولتها العادة التي لديه الآن بأن يجري طرف لسانه على شفته السفلة، لكنها فكرت أنها تتذكر بالفعل الشرود في نظرته، تلك النظرة التي تقوم بحساب عاجل، بهدوء متنبه حاد. لا يمكن إلا أن يكون خوفاً، وأرادت أن تقول

له يمكنك الوثوق بي، إلا أن هذا ما كانوا يقولونه دوماً له، فيضحك زاعماً أنه يصدّقهم، متمنياً أن يصدّقهم، كانت متأكدة من ذلك، دون أن يفعل البتة. لطالما قال والدها: «تلك الوحشة التي فيه»، وحين تراها فيه الآن، تشعر بالوحدة، وحتى بالهجران خلال اللحظة التي تستغرقها، حتى يعود مزاح الخفة والألفة ثانية. يقول: «هاي، يا صديقتي»، لكي ينتزعها من أفكارها. كانت بكل تأكيد أفكاراً بالغة الحزن، كما لابدّ هي أفكاره أيضاً، ويبتسم بإحساس مشابه، رفيقها المضطرب غير المرجّح.

يسألها النصح حول طريقة العيش في ذلك البيت وغالباً يعمل بالنصيحة. سألها إذا كانت تظن أنه سيكون من المناسب ان يعاود تشذيب الكرمة التي نبتت أمام الشرفة، وقالت: «يستحسن لا، فهي موجودة لجذب الطيور الطنانة».

«العجوز بالكاد يرى من يمرّ بالطريق».

«حسناً، لا يبدو أنه يمانع ذلك. إنه يحب الطيور. وهكذا كانت أمي. هذا جزء من الموضوع».

قال جاك: «صحيح». ثم قال: «في صغرنا كنا نظن أنه لابدّ من أن أناساً مجانين يعيشون في البيوت التي تبدو هكذا. مكسوة بالأعشاب على هذا النحو».

ضحكت. «أتذكر آل تراش. كان تيدي يجبرك على الذهاب معه لإحضار الصحيفة، لأن تلك الأجمات القديمة قد نمت كثيراً ودفنت البيت تحتها».

«كنت أفكر بهذا. كانت تقف على الشرفة في ليلة عيد جميع القدّيسين وتنادي الأولاد المارين بالطريق، وتقول لهم إن لديها كعكاً وتفاحاً لهم، فيسلمون أقدامهم للريح».

«بيد أن الجميع يعلم بشأن أبي وكروم العليق خاصته. والبيت يبدو غريب المظهر على أيّة حال. في رأيي».

قال جاك: «صحيح». إلا أنها لاحقاً رأته يفحص الكروم ثانية من طرف الطريق، وفي اليوم التالي بدأ بتشذيب الأغصان غير المتساوية، والمزيد منها في اليوم التالي، والذي بعده. لاحظت أنه يضع ما يشذبه وراء السقيفة. ضد نصيحتها ولمفاجأتها، بدأ بحملة سرية لكي يجعل البيت يبدو أقل قباحة. حتى إنه وجد أصص زهور في الحظيرة وجرف بعض نبات البطّونية ووضع الأصص على الدرج.

قال: «لا أظن أن أحداً سيمانع»، حين رآها وقد لاحظت ذلك.

تدريجياً، فقد الأمل بتلقي مكالمة أخرى. أخذ يمضي الوقت في الحظيرة ثانية، منكباً على محرك سيارة دي سوتو. كان العمل على إصلاح سيارة على مرأى من الناس يعدّ أمراً غير لائق من قبل آل بوتون، ولا يختلف جوهرياً عن رفع السيارة بالروافع الحديدية. وكان جاك متنبهاً لاحتمال الإخفاق في تصليحها وبالتالي متنبهاً لكي يوفر أقلّ فرصة ممكنة للآخرين للتندر على الأمر، أو الأسوأ لتلقي عروض المساعدة أو النصح منهم. تأملت غلوري من وقت لآخر كيف أنه كثيراً ما تتداخل سلوكيات الاحتشام الشديدة في عائلتها، إلى هذا الحدّ أو ذاك، مع استراتيجيات جاك لتجنب الإذلال. وعلى أية حال، فقد أمضى وقتاً كبيراً من كل يوم في كتمان ترابي مظلم، مزيتاً بعض ذاكرة الليونة في مقاعد السيارة الجلدية المتخشبة، أو مدخلاً أنابيب داخلية في خزان الوقود لكي يعثر على أيّ تسرّب فيه.

امتلكوا حصاناً ذات مرة، كان أبيض مرقشاً ذا وجه وقوائم بيضاء.

سموه «سنوفلايك» بسبب رقعة شبه بيضاء اللون على جبينه. كان سهل الانقياد حين اشتراه والدهم لأول اثنين من أطفاله. وثمة صور للوقا وفايث وهما يقفان في بداية تعلمهما المشي أمام الحصان والأب يمسك الرسن. سهل الانقياد تعني عجوزاً، وفي الصور الفوتوغرافية تبدو علائم التعب والبلبلة جلية عليه. إلا أنه ما التقطته الصور في الواقع كان مستهل، بل ربيع، حياة مديدة رهيبة. وحتى غلوري تذكرت الجواد القديم المترهّل واقفاً في الحظيرة أو في المرعى مفرشخاً قوائمه وكأنه يتوقع أن تميل الأرض به فجأة وكان مستعداً لذلك. كان من سوء طالعه أنه جواد، وله سمات كافية لتعبر عنه كجواد، مثل العرف ومعظم الذيل، لكي يكون له في عيون الأطفال، كرامة فروسية ورومانسية. إذن، سنة بعد سنة، كان مستحيلاً حتى فتح موضوع وضع حدّ لحياته المنهكة المربكة. ثم أخيراً ذات يوم رحل. وقد ألقى الفتية مزحات رهيبة حول فراره، وكيف اخترق جلعاد موقعاً الأمهات وعربات الأطفال في طريقه إلى الحرية في السهوب العالية. وقد اعتادوا أن يسموا الغراء وكل ما يشبهه «سنوفلايك» في ظلّ انزعاج والدهم وحيرة إخوتهم الأصغر سناً. ومع ذلك انطوت حقيقة وجود حصان في الحظيرة، وأن معلفه لا يزال على الجدار ولجامه ما زال معلقاً من مسمار فوقه، على إحساس ما، منح الحظيرة نفسها نوعاً من الرومانسية الحزينة. بعض هباءة القش ما زال يتلألأ عند أي انتقال لشعاع الشمس. بدا أحياناً أن والدها تقصّد الاحتفاظ بكل هذه الذكرى، هذه القوة المحض للرتابة، بحيث أنه حين يأتون إلى البيت، أو حين يعود جاك، لن تدعو الحاجة إلى قول شيء. فيما يخص البيت، سيكونون جميعاً على معرفة دوماً بكل شيء.

دأب جاك على كتابة رسالة كل يوم تقريباً. ثم يأخذها إلى مكتب البريد، خلف الصيدلية. وكان يرتدي ملابسه بعناية قبل أي ذهاب إلى البلدة، السترة، وربطة العنق، والقبعة. رأت غلوري أن في هذا إسراف في الاحترام، بيد أنه كان مواظباً عليه بقوة، مع المزيد من الاهتمام بتلميع حذائه. أحياناً كان يخبرها بمن التقى في الشارع، إذا تعرّف أحدهم، أو بصورة أدق، إذا تعرّفه أحدهم. وقد أبلغها عن محادثات وجيزة وكأنها أمور مشجعة، دليل على شيء. وذات مرة قال: «أظن أنني أستطيع تخيّل أنني أعيش هنا. جاك بوتون، رجل عامل نزيه. زوجة صغيرة في البيت، طفل صغير... يمرح مع كلبه، على ما أظن. ليس بالأمر المستبعد». وأحياناً كان يعود منسحباً إلى الداخل صامتاً. كل تلك الرسائل، ولا كلمة عمن يرسلها إليه، ولا عن تلقيه أيّ رد.

وذات يوم حين كانت في الردهة، تمسح الغبار بين ركام الحليّ والتذكارات التي احتشدت على رفّ المدفئة، قال: «حسناً يا غلوري، فعلت ما قيل لي. مررت بآيمز وألقيت السلام. وتعرفت على الزوجة»، ضحك، «أتعرفين، بعد كل هذه السنوات، ما زال لا يطيق النظر إلي».

قالت: «إنه مجرد رجل مسنّ، لابدّ من أنه كان متعباً فحسب، على الأرجح صاحياً طوال الليل».

«لا ريب في أنك محقة»، ثم قال: «أنا غليظ عديم الإحساس في الغالب. ولكن إذا كان ثمة ما أعرف أنني أستطيع تعرّفه فهو البغض. إذا كان يسمح لنفسه بمثل تلك الأفكار، فقد كان جالساً على شرفته مفكراً: ها قد جاء جاك بوتون ابن العاهرة».

«ربما، وربما لا».

«عذراً».

«علامَ؟».

«على ألفاظي السيئة».

«ولا يهمك».

هزّ رأسه. «من الشاق، العودة ثانية إلى هنا». فتح البيانو ولامس زر السي الوسط. «أيقوم أحد بدوزنة هذا؟».

«قام أبي بدوزنته حين أخبرته بأنني آتية إلى البيت. عائدة. كان هذا أول ما كتبه لي، بعد التعبير عن الأسى والصلوات وما إلى ذلك: سيكون من الرائع أن نسمع الموسيقى ثانية في هذا البيت. بيد أنني لم أعزف البتة. لم أشعر برغبة فعلية في ذلك».

جلس جاك على مقعد البيانو. «يمكنني فعل ذلك وأنا مغمض العينين»، قال. وشرب من كأس متخيلة، ووضعها ثانية، وراح يغني: «حين يكون قلبك مشتعلاً، يجب أن تدرك، ثمة دخان دخل في عينيك»[1].

قالت: «أكره هذه الأغنية».

«سوف أراك في كل الأمكنة الحميمة...»[2].

قالت: «توقف».

ضحك. «عذراً، أعتذر بحق». رفع كتفيه. ذخيرتي الموسيقية محدودة».

(1) أغنية من الخمسينيات من القرن العشرين للمغنية جيري ساوثرن.

(2) أغنية من الأربعينيات اشتهرت خلال الحرب العالمية الثانية، وهي جزء من عرض مسرحي لم يشهد نجاحاً بعنوان «من هنا» وهي من تأليف سامي فاين وإيرفينغ كاهال، وقد غناها كثيرون من بينهم فرانك سيناترا وبيلي هوليداي.

«أنّى يكون لك ذخيرة أساساً؟ فأنت لم تتمرن البتة!».

«حسبت أن عزف البيانو له علاقة بأن يكون المرء مشيخياً[1]. لم يخبرني أحد أنه يمكن للمرء أن يتلقى أتعاباً لقاء العزف».

سمعا صوت والدهما من الغرفة المجاورة، مستعداً وتام النغمة. «رداء اللحم هذا سأطرحه عني وأنهض، لكي أحصل على الجائزة الأبدية...»[2].

قال جاك: «أظن أن هذا تلميح»، وعزف الترنيمة، منغماً العزف قليلاً إنما بتوقير كاف «وغنّ وأنت تعبر الهواء وداعاً، وداعاً، يا ساعة الصلاة العذبة». كان يحفظ الكلمات فأداها همساً وهو يعزف. كانت تلك ترنيمة والدهما المفضلة دوماً.

«يا سلام!»، قال العجوز، «وسوف أستمتع كثيراً أيضاً بترنيمة 'هلا اجتمعنا عند النهر'[3]، أو 'أساس الكنيسة الوحيد'[4]، إذا كنت تفضّل هذه. كلاهما سيان عندي». وبدأ يرنّم بصوت مفعم بالحيوية: «هلا التقينا عند النهر، النهر الرائع الرائع...». وعزف جاك بعده «كان هذا رائعاً يا جاك! يا سلام، الأغنيات القديمة. أظن أن شهيتي انفتحت. الساعة الرابعة. حسناً، قد أتناول بسكويتة...».

قال جاك: «سأحضر لك واحدة، مع حليب؟».

«من بعد إذنك».

أحضر له طبقاً وكأساً: «تفضل سيدي».

(1) Presbyterian: اسم يطلق على عدد من الكنائس المسيحية التي تتبع التقليد الكالفني ضمن البروتستانتية. وهذه هي كنيسة آل بوتون.

(2) من ترنيمة معروفة بعنوان «ساعة الصلاة العذبة» تعود إلى أواسط القرن التاسع عشر.

(3) التي تعرف باسم «عند النهر» وهي من تأليف روبرت لاوري، في العام 1864.

(4) ترنيمة تعود إلى الستينيات من القرن التاسع عشر من تأليف صموئيل جون ستون.

قال والده: «دائماً سيدي، أليس كذلك؟ ولا مرة بابا. أو أبتاه. بعض الآخرين ينادونني أبتاه الآن، بعض الفتية أيضاً».

«أظن أنها عادة، أتنزعج منها؟».

«أوه لا يا جاك، لا أنزعج! نادني بمَ شئت! من الجيد فحسب سماع صوتك. سماع صوتك ثانية في هذا البيت. إنه رائع فحسب. لو أستطيع أن أخبر والدتك، ما كانت لتصدقني البتة». أمسك يد جاك وربّتها.

قال جاك: «شكراً لك سيدي، من الجيد أن اكون هنا».

وقال والده: «أوه، أجل. جيد، آمل ذلك. هذه مسألة مختلفة كلياً، أليس كذلك. أجل، هي كذلك». وربّت يد جاك ثم أفلتها. «ليس ثمة الكثير مما يمكنني فعله حيال ذلك. هكذا هي الأمور». قال: «أعرف أن مشاعر غلوري جرحت بشدة، بصورة رهيبة»، وهزّ رأسه.

نظر جاك إليها، وكأنه عرف للتو شيئاً عنها لم يكن واضحاً تماماً. أو ربما لكي يرى ردّة فعلها، لكي يؤكّد إحساسه بالأمور. كيف ستتفاعل؟ فهم والدها أكثر بكثير مما تسمح له به راحته، وكان طاعناً جداً بالسن».

قالت: سأبدأ بإعداد العشاء».

في صبيحة اليوم التالي خرج جاك باكراً إلى الحديقة، مقتلعاً الأعشاب البرية وفالحاً التربة. البراري القديمة تعود فوراً لحظة إهمال رقعة من الأرض. فجأة يصبح هناك أعشاب ضارة تصل إلى الرأس، سيقان نحيلة من النبات مع أكوام من الزهور الصغيرة عليها، الخزامى المغبر،

الذي يطن حوله النحل. أيضاً سوداء العينين سوزان[1]، والقرّاص والصقلاب[2] والجيولويد[3] والعليق ونوع من الكروم الطويلة التي تذبل في شعاع الشمس وتنكسر عند أقل لمسة، مخلفة أشواكاً صغيرة حيث تقع. كانت جذور هذه النباتات غليظة تضرب عميقاً في التربة، مما جعل اقتلاعها عملاً شاقاً. وكان جاك يكافح صبيحة كل يوم لاقتلاعها بدأب شديد وكأن شيئاً مع يتوقّف على ذلك. أعدّت غلوري إبريقاً من القهوة وحملت له فنجاناً إلى الخارج.

«أعمل لكي تنفتح شهيتي على الأكل، اليوم سوف آكل، والليلة سوف أنام». غرز المجرفة في الأرض ورشف من القهوة. «رائع، شكراً لك». رأيا ابن آيمز الصغير في الشارع، ماشياً مع صديقه طوبياس، كلاهما يسردان حكاية أو نكتة، مثلما يتبين من ضحكهما. رآهما روبي وصاح: «مرحباً سيد بوتون!».

قال جاك: «أظن أنه يقصدني». ناولها الفنجان واتجه إلى طرف الحديقة وقال: «ما معكما هناك أيها الولدان، أهذه كرة بايسبول؟».

«لا»، قال، رافعاً إياها، «إنها مجرد كرة».

قال جاك: «تشبهها بما فيه الكفاية، ارمها إليّ».

رمى الولد الكرة على بعد بضعة أقدام في داخل الحديقة. ارتمى جاك على ركبة واحدة أرضاً على التراب وحملها، واصطنع أنه سيعيد قذفها بقوة شديدة نحوه، ثم رماها بلطف إلى الشارع. ضحك الولدان. قال طوبياس: «دوري. دعني أرمِ هذه المرة». ومجدداً وقعت

---

(1) Black-Eyed Susan: فصيل من عبّاد الشمس.

(2) Milkweed: أو حشيشة اللبن، نبات معمّر يحتوي على مادة سامة بيضاء لزجة تشبه الحليب، ويتبع الفصيلة الدفلية.

(3) Jewelweed: نبتة شمال أمريكية تعرف بفوائدها الطبية.

الكرة في الحديقة. وتناولها جاك ثم وقف بصور جانبية، مثل مصارع ثيران، وحمل الكرة إلى صدره بكلتا يديه، وحدّد موقعه باتجاه طوبياس بكتفيه. ضحك الصبيان. رفع جاك قدمه... «الاستعداد، القذف». ورمى الكرة إلى الطريق. ضحكا وتقافزا صارخين، «افعل ذلك ثانية!»، ورميا له الكرة، إلا أنه أعادها إليهما قائلاً: «عذراً أيها السيدان، في مرة أخرى، ثمة عمل عليّ إنجازه».

قال طوبياس: «أأنت ابن عمه؟»، وقال روبي: «سبق وقلت لك إنه ليس ابن عمي!»، وقال كلاهما وداعاً ومضيا في الطريق وهما يتكلمان ويتضاحكان.

شاهدهما جاك. «يبدوان ولدين لطيفين طيبين».

ثم نفض التراب عن ساق بنطاله. وقال: «ما كان عليّ فعل ذلك».

فكرت غلوري: تلك الرشاقة الغريبة المحددة التي يبدو أن جسد الرجل لا ينساها. التقاط الكرات على مستوى منخفض من الأرض وقذفها. حين كان إخوتها في البيت، حتى جاك كان يلعب البايسبول. لهذا ربما كانوا جميعاً مأخوذين بها. حتى هو كان ينجذب إلى النقاشات الحامية حول الأهداف وإحصائيات المباريات. كان يجلس قرب المذياع مع بقيتهم لكي يصغوا إلى المباريات. وأحياناً حين يلعب ضمن فريق ويمسك الكرة بصورة رائعة أو يضرب الكرة بصورة ممتازة، بما فيه الكفاية لكي يكون في حال لا تشبهه في أي مكان آخر، كانت تسود سعادة عامة تشمله، لفترة وجيزة على الأقل. كانت قد نسيت هذا كله.

قالت: «من الجيد منك أن تنظف هذا. لقد قررت نوعاً ما أن أدعها تعود إلى الطبيعة». حتى إنه نظف الأعشاب الضارة قرب السياج حيث

ظل القرع ينمو عاماً بعد عام.

قال: «حسناً، على الأقل الآن سيكون أسهل كثيراً على الطيور العثور على التوت الأسود. لطالما سيطرت عليه حمى المعنويات المرتفعة في حين يجدر به أن يكون حزيناً، وها هو ذلك البريق الغريب المألوف في عينيه، والفظاظة في سلوكه. ما الذي يمكن أن يكون قد أحزنه؟ أخذ مجدداً ينفض التراب عن ركبته ورفع كتفيه قائلاً: «حين حفر آدم وزرعت حواء، من كان حينذاك الجنتلمان؟».

«لكنك تحتاج إلى ثياب للعمل».

قال: «أوه أجل، الأوفرأول، لطالما أحببت الأوفرأول ذي الصديري[1]».

«تعرف ماذا أقصد. شيء ما يمكنني أو يمكنك رميه في الغسالة».

هزّ رأسه وأخرج سيجارة وأشعلها. قال: «إنني غريب في أرض غريبة. فالأجدر بي أن أبدو كذلك، ألا تظنين ذلك؟».

«لا يهمني ذلك. إنه بنطالك».

«أجل، هو كذلك. جيد منك أن تشيري إلى ذلك». ورمى السيجارة وعاد إلى العزق. كان هذا فظاً بعض الشيء، فكرت. ذهبت إلى المطبخ وقشرت البطاطا لإعداد السلطة.

بعد مدة جاء إلى الشرفة وإلى المطبخ ووقف عند الباب.

قال: «أنا آسف».

«علام!؟».

«حين كنت تتكلمين قبل قليل. أظن أنني بدوت وقحاً».

(1) Bib Overall: في الأصل Bib nd Brace: سروال عمل مع صديري يربط بإبزيم، هو النوع الأشهر من الأوفرأول.

«لا، على الإطلاق».

قال: «هذا جيد، لم أقصد أن أكون كذلك. لا يمكنني ان أكون واثقاً البتة». ثم خرج ثانية.

حين خرجت إلى الحديقة لكي تحضر الثوم والبقدونس، رأت الموقّر آيمز يمشي في الشارع. قال جاك: «أظن أنه قرر أنني سأبقى هنا لبعض الوقت. لا جدوى من محاولة تجنبي».

قالت غلوري: «لقد كان والدنا يراكم بعض الاستياء من جون فوستر دالاس[1] فبدأت أتساءل ما إذا كان سيتمكن من الاستمرار يوماً واحداً من دون أن يتذمر لآيمز».

قال: «إذن لن يتوقع منا المساهمة في الحديث، هذا جيد... إنني في غاية الاتساخ».

صعدت غلوري إلى العلية، موطن الأشياء التي لم تعد تستعمل حالياً، إنما التي ليست عديمة الفائدة كلياً. إذا كانت الحضارة ستنهار على سبيل المثال، فسيكون هناك سبب وجيه تماماً للاحتفاء بهذه الذخيرة من الأحذية القديمة والمظلات المنبعجة، والتي ستكون جميعاً أفضل من لاشيء، بصرف النظر كم تبدو سيئة في أوضاع أخرى. ثمة عائلات ورعة أخرى تتبرع بالأشياء التي لا تحتاج إليها. أما آل بوتون فيضعونها في العلية، كأنما لاختبار تدبر الحياة من دونها قبل الإقدام على بادرة كرم لا يمكن التراجع عنها. ثم، ماذا عن مسألة الحياة ومرور الزمن، ماذا عن رائحة النفتلين الحادة والتسلل الحتمي للرثاثة إلى أي ذخيرة مخزّنة من

(1) John Foster Dulles (1888–1959): وزير الخارجية في عهد الرئيس دوايت آيزنهاور من 1953 وحتى وفاته. لعب دوراً بارزاً في الحرب الباردة خاصة فيما عرف باسم سياسة الاحتواء.

الثياب القديمة، أياً كانت جيدة عندما كانت جديدة، فهذا يجعل من المستحيل التبرع بها. من وقت لآخر كانت أمهم تنزل من العلية فارغة اليدين وهي تنفض الغبار عن نفسها، وتكتب شيكاً لدار الأيتام.

إذن، فكرت غلوري، القمصان التي كان والدها يرتديها قبل أن يبدأ بفقدان الوزن والطول هي بلا شك في العلية أيضاً. وعثرت عليها في صندوق من خشب السدر، مغسولة ومكوية وكأنما استعداداً لمناسبة رسمية، ربما لدفنها. وقد حال لونها إلى لون أكثر بهوتاً من الأبيض، وكان ثمة فيها إلى جانب رائحة الزمن وعدم الاستعمال، ورائحة النشاء والخزامى وخشب السدر، أثر من عطر أولد سبايس جعل الدموع تترقرق في عينيها. أخذت ستة منها، الأحدث طرزاً، كما يُستدلّ من قصة الأكمام والقبة، وأنزلتها إلى المطبخ، آملة بأن تغسلها على الأقل قبل أن يراها جاك. إلا أنها وجدته هناك في المطبخ، يبحث في أحد الأدراج. أقفله وقال: «كنت أبحث فحسب عن شريط القياس. فكرت أن أضع أسلاكاً وسياجاً في تلك الحديقة». شعرت بعدم الراحة لإحساسه بأنه مضطر دوماً إلى تبرير افعاله أمامها.

«عثرت على قمصان أبي هذه في العلية. ظننت أنه يمكنك استعمالها لو شئت. في البيت هنا. إنها من الجوخ الجيد».

تراجع إلى الخلف وابتسم: «ما هذا؟ السدر؟ النشاء؟ الزنابق؟ كيروسين؟ ألا تقول العبارة 'رائحة القداسة'[1]؟ لن افترضها لنفسي».

قالت: «أنا واثقة من أن رائحة القداسة ستزول بالغسيل»، وضحك «سأجرّب تأثير المنظفات والشمس وبعدها سأسألك ثانية».

---

(1) The Odor of Sanctity: بحسب الكنيسة الكاثوليكية يقصد بها رائحة محددة (لها علاقة بالزهور عادة) تنبعث من أجساد القديسين خاصة من جروح ما يعرف بالسمات، أي الجروح الشبيهة بجروح السيد المسيح.

«لقد أتعبتك كثيراً معي».

«لا تعب البتة».

هزّ رأسه. «أنت لطيفة فعلاً معي»، قال، بموضوعية تقريباً، وكأنه شعر أخيراً انه يستطيع تبرير هذا الاستنتاج.

قالت: «شكراً لك».

قررت أن تمشي إلى البقالية فيما القمصان في الغسالة، ووالدها منشغل بالعدد الجديد من مجلة «كريستيان سنشوري». آن أوان أن تكفّ عن تجنّب الاتصال الاعتيادي بالناس. بما أن جاك امتلك الشجاعة لفعل ذلك، فهي قادرة عليه بالتأكيد. كانت عصريّة رائعة، مشمسة دافئة، ووريقات الشجر لا تزال محتفظة بألقها. كانت قد نسيت الطقس تقريباً، بين والدها ورواياتها وإصرارها غير القابل للتفسير على قراءتها في أعتم غرفة في البيت، مستثنية فحسب حجرة الطعام، قرب ذلك المذياع الرتيب. وجدت المتجر شبه فارغ، وكان عامل الصندوق ودوداً. عادت إلى البيت تحت الشمس حاملة كيساً ورقياً بنياً، عابقة برائحتها نفسها وبالملفوف الذي اشترته وبجبن الشدر، مفكرة أنها أفادت نفسها قليلاً بمجرد خروجها من البيت. قررت أن تضع رواية «أندرسونفيل» جانباً ليوم أو يومين.

كان جاك واقفاً على الرصيف واضعاً يديه على وركيه، ناظراً إلى نافذة متجر الخردوات. كان ثمة جاهز تلفاز في الواجهة دوماً، واحد قابل للحمل وآخر ثابت، وكانا شغالين طوال اليوم، من بداية البث إلى آخره، كما هو الحال منذ سنوات، منذ كان التلفزيون يشكل شيئاً مثيراً للفضول. وقفت امرأة قربه ونظرت قليلاً إلى الواجهة. قالت شيئاً له

وهزّ رأسه وتكلم، ثم مضت في طريقها. مشت غلوري إليه ووقفت بجانبه. لمس طرف قبعته، من دون أن يشيح بنظره عن الشاشة.

قالت: «أهذه مونتغومري[1]؟».

هزّ رأسه: «أجل»، ثم ظهرت على الشاشة عبوة من معجون الأسنان.

قالت غلوري: «أخبرتني ليلى أن كنيستهم تخطط لإحضار جهاز تلفزيون لهم لكي يتمكن آيمز من مشاهدة مباريات البايسبول. أظن أن أبي سيرغب في الحصول على واحد أيضاً».

نظر إليها. «هذه فكرة جيدة». حمل الكيس منها وبدآ بالمشي إلى البيت. قال: «التلفاز المحمول[2] يباع بسعر مئتي دولار. لكن يمكنك سؤاله عن ذلك».

«يمكنني أن أطلب منهم أن يوصلوا واحداً إلى البيت ببساطة. وإذا لم يعجبه يمكنهم أخذه ثانية».

تنحنح: «يمكنك فعل هذا الآن».

«صحيح. أتريد مساعدتي على اختيار واحد؟».

«ليس حقاً، سأنتظر هنا»، ضحك «لقد أمضيت ساعة أنظر إلى الأجهزة عبر الواجهة. يبدو أنها جميعاً تعمل».

فعادت إلى المتجر واختارت تلفاز فيلكو 18 بوصة مع هوائيّ «أذن

---

(1) عاصمة ولاية ألاباما وأكبر مدنها، خلال الخمسينات من القرن العشرين، الذي تجري فيه أحداث الرواية، كانت هذه المدينة أهم مسرح لحركة الحقوق المدنية الأفريقية الأمريكية، بما فيها حملة مقاطعة الحافلات، والكثير من المواجهات بين الشرطة والمحتجّين.

(2) المقصود به جهاز التلفاز الأصغر حجماً من تلك الأجهزة التي كانت شائعة في ذلك الحين، لكن هذا النوع من الأجهزة كان يحتاج إلى وصله بالكهرباء على أيّ حال، لأن التلفاز الذي يعمل على البطارية ويمكن نقله إلى الخارج لم يخترع حتى السبعينيات من القرن الماضي.

الأرنب»[1]. سألها البائع عن والدها وإخوتها وعن جاك أيضاً، «أجاء في زيارة، أم أنه يفكّر بالبقاء؟».

قالت غلوري بهدف الإيجاز: «إنه يزورنا لفترة فحسب». لو قالت إنها لا تعرف ما الذي عاد به إلى جلعاد، فإن غرابة الوضع كانت لتثير اهتمام البائع، ومالك المتجر، الذي جاء من الغرفة الخلفية ماسحاً زيت تزييت الآلات عن أصابعه. لقد أثارت اهتمامهما أكثر مما فعلت حتى الآن. تخيلت جاك واقفاً بين صناديق المسامير وأحزمة العدة وصفوف العتلات، من دون أن يتكلم إليه أحد بما يتجاوز اللياقة الاعتيادية، بادياً غير واع لوعيهم به، مشاهداً متفرجاً على أجهزة التلفاز الوامضة في ذلك الكهف المليء بروائح الجلد والخشب والمواد المزيتة، غفلاً وسط كل أدوات القوة والتصميم هذه، حضرياً بين الجزمات ذات الأطراف الفولاذية وقمصان العمل. مكان غريب لكي يتسكع فيه رجل شديد الإحساس بالحرج، شديد الميل إلى الإحساس حتى بفكرة العتاب إذا خطرت ببال أحدهم. وحين غادر المتجر فعلاً، واقفاً على الرصيف، ناظراً إلى الواجهة، إلى الأحكام الشاجبة الصامتة وحشود الزنوج.

إذن، قال لها البائع، إن جهاز فيلكو سيسلم بعد الظهر، وإذا قرّر الموقّر الاحتفاظ به، فسيجري تركيب هوائي على السطح غبّ الطلب. وقد طمأنها البائع حول هذه النقطة بالتحديد. لطالما كان الناس راغبين في تقديم الخدمات لوالدها، وحتى منح أعمال اعتيادية كهذه مظهر اللطافة الاستثنائية. فكانت مجبرة على الإجابة عن كل سؤال وقبول كل تطمين مرتين على الأقل. قالا لها إن الكثيرين من الطاعنين في السن

(1) الهوائي الذي يوضع مباشرة فوق هذا النوع من أجهزة التلفزيون دون الحاجة إلى تركيب هوائيّ على سطح البيت، وقد سمي بهذا الاسم بسبب شكله.

يجدون تسلية كبيرة في التلفزيون. ووافقا على أن موسم البايسبول يقترب. وكانت مضطرة إلى الاستماع إلى بعض النميمة.

وقف جاك طويلاً يحمل البقالة قبل أن تخرج من المتجر. «إذن نجح ذلك»، قال، «جيد، شكراً لك». تركها تأخذ زجاجة حليب تخفيفاً من وزن الكيس، وسارا إلى البيت.

وضع جاك التلفاز على منضدة المصباح في الردهة. وأوصله بالقابس الكهربائي، وحرّك الهوائي في هذا الاتجاه وذاك حتى ظهرت الصورة واضحة. دخل والدهما وجلس على مقعد وضعه جاك قبالة الجهاز.

قال العجوز: «ها هو إذن، إننا عصريون جداً الآن». شاهد من دون تعليق امرأة ترتدي كعباً عالياً وتجري إلى الأمام والخلف على منصة حاملة بيضاً في ملعقة فيما تتكتك ساعة عملاقة.

قالت غلوري: «بعد قليل يعرضون الأخبار بابا».

«حسناً، أجل، كنت سأقول إن ليس هناك الكثير من الشيء المهم في هذا. إلا أنك يمكنك سماع الناس يضحكون. آمل أن يكون ثمة مكسب مالي لهذه المرأة البالغة التي تتصرف على هذا النحو».

رنّ الهاتف ودخل جاك إلى المطبخ وهي تردّ عليه إلا أنه كان لوقا، فعاد إلى مشاهدة بداية نشرة الأخبار. وقف وسط الغرفة واضعاً يديه على وركيه. وعلى الشاشة كان ثمة رجال شرطة بيض يحملون الهراوات ويدفعون ويجرّون متظاهرين سوداً. كان ثمة كلاب.

قال والده: «ليس من سبب ليترك المرء مثل هذه المتاعب تزعجه. بعد ستة أشهر لن يتذكر أحد شيئاً من هذا».

قال جاك: «بعض الناس سيتذكرون على الأرجح».

«لا. لم يمض وقت طويل عندما كان الناس يتكلمون على السيناتور

مكارثي. مشاهدة هؤلاء الرجال يتجادلون. إنه التلفزيون الذي يجعل الأمور تبدو مهمة، سواء أكانت مهمة أم لا. الآن ما عاد المرء يسمع كلمة عن السيناتور مكارثي».

قال جاك: «حسناً، هذا مهم، أليس كذلك؟».

«لا أستطيع قول العكس. لا أعرف. لم أحبه يوماً».

كانت قوات الشرطة تدفع حشد السود إلى الخلف مستعينة بالكلاب، وموجهة نحوهم خراطيم المياه. قال جاك: «اللعنة!».

تململ والده على كرسيه. «هذا النوع من اللغة لم يكن يوماً مقبولاً في هذا البيت».

قال جاك: «أنا...»، وكأنه سيقول المزيد لكنه كبح نفسه «آسف».

على الشاشة كان ثمة مسؤول حكومي يعلن عن نية فرض القانون. همس جاك شيئاً ما، ثم نظر إلى والده.

قال العجوز: «أؤمن بضرورة فرض القانون. الرسول بولس يقول إن علينا فعل كل شيء بطريقة لائقة وبنظام، لا يمكنك السماح للناس بالجري في الشوارع على هذا النحو».

أطفأ جاك التلفاز وقال: «عذراً، كنت فحسب...».

«لا حاجة إلى الاعتذار يا جاك. يريد الشباب تغيير العالم ويريد العجائز بقاءه على حاله. ومن الذي يحكم بينك وبيني؟ علينا أن نسامح بعضنا بعض فحسب». وبعد برهة قال: «لكنني آمل ألا نضطر إلى المشاجرة. لا أحب هذا الصراخ ولا الشتائم. خاصة الشتائم»، قال: «أعرف أن هذه الكلمات لا تعني الكثير لك. إلا أنها تعني لي. هلا احترمت ذلك».

«نعم سيدي». أزاح جاك من الطريق وتحسس جيب قميصه بحثاً

عن علبة السجائر. ارتعشت يده. وقف عند المدخل والتفت ناظراً إلى والده الذي جلس محني الظهر على كرسيه، مميلاً رأسه إلى الأمام، ليظهر قفا رأسه المائل تحت الشعر الخفيف. ربما كان يصلي، إلا أن كل من لا يعرفه جيداً يمكن أن يحسبه حزيناً ببساطة وواهناً. نظر جاك إلى غلوري: «أفعلت أنا هذا به؟». كانت الندبة تحت عينه مبيضّة.

«إنه متعب».

قال: «لم يكن يجدر بي قول ما قلته. لكنّ الأشياء تزداد سوءاً فحسب».

«سيكون على ما يرام بعد أن يحصل على قسط من النوم».

«لا، لا، أعني الكلاب. خراطيم الإطفاء. خراطيم إطفاء. إنهم أولاد...». نظر إليها تلك النظرة البعيدة التخمينية، وكأنما لكي يرى تأثير وثوقه بها إلى هذا الحدّ».

«أتفكر بالعودة إلى سانت لويس؟ لا شيء من هذا سيشكّل مشكلة لك إذا بقيت هنا».

ضحك: «أوه يا غلوري، إنها مشكلة. صدقيني. إنها مشكلة».

صعد إلى الأعلى، ونزل ثانية لكي يأخذ كتاباً، ثم عاود إنزال الكتاب بعد نصف ساعة ووضعه قرب المذياع. وقف على الشرفة يدخن، ثم قال: «سأعود بعد قليل»، وغادر. أبقت عشاءه دافئاً. ولم يرض والده بتناول ولو لقمة من طعامه. «لم أسمعه يوماً يتكلم بهذه الطريقة. لا، لطالما كان محترماً، في ما يخص هذا الأمر. هنا في منزلي. لعلني ضخّمت الموضوع. لا، لا أعتقد أن هذا شيئاً عليّ التسامح بشأنه».

حين عاد جاك، كان لا يزال والده على النضد، يتأمل حساءه البارد، قال: «لا تزعج نفسك»، حين عرض عليه جاك مساعدته على النهوض

من كرسيه «غلوري هنا وستعتني بي».

حين عادت إلى المطبخ، كان جاك واقفاً على الشرفة. قال: «الجو لطيف هنا، مظلم».

خرجت ووقفت بجانبه.

تنحنح. «أيمكنني أن أسألك سؤالاً؟».

«على الأرجح».

«لا شيء شخصياً».

«حسناً».

«فلنقل إنك فعلت شيئاً رهيباً. وقد تمّ. ولا يمكنك تغييره. فكيف تعيشين بقية حياتك؟ ماذا تقولين عن هذا؟».

«هل أعرف هذا الشيء الرهيب الذي تتحدّث عنه؟».

هزّ رأسه «نعم تعرفين. حين كنت أتنزّه في الخارج ذلك اليوم سلكت منعطفاً خاطئاً وانتهى بي الأمر في المقبرة، كنت قد نسيت أنها هناك».

«كانت جزءاً من العائلة».

هزّ رأسه.

«كل ما يمكنني قوله لك هو ما كان أبي ليقوله. كان ليقول: فلتتب، ثم يمكنك وضع الأمر جانباً، إلى حدّ ما، والمضي في حياتك. على الأرجح أنك سمعته يقول ذلك بقدر ما سمعته أنا».

«أكثر»، ثم قال «الندم لا يحتسب على ما أظن».

«لا أزعم المعرفة بهذه الأمور. يبدو لي أن الندم يحتسب. أياً كان معنى ذلك».

«لكن إذا إذا عرفت بهذا الشأن، بصرف النظر إذا كنت قد ندمت أم

تبت – فما سيكون رأيك بي؟».

«ماذا يمكنني ان أقول؟ أنت أخي. لو كنت شخصاً آخر، وكنت أعرفك وأعتبرك إنساناً صالحاً، فهذا الأمر سيعني لي أكثر من قضية حصلت قبل سنوات بعيدة».

«حتى إن لم أخبرك مسبقاً عنه، وكان عليّ أن أخبرك».

«أظن ذلك».

هزّ رأسه. «لستِ تقولين ذلك من باب اللطف فحسب».

«لا أعرف حقاً».

«حسناً، ربما كانت لديّ فرصة. يمكن أن تنجح الأمور». قال «سيكون شيئاً سيئاً في أحسن الأحوال. شيء بائس يأمل به المرء. الأمل في كل مكان. آه، يا أختاه الصغيرة. لا عجب أنني لا أقوى على النوم».

بقي جهاز التلفاز على منضدة المصباح. صار جاك يشغّله لسماع أخبار الصباح والظهر والمساء، ويطفئه ما لم يكن ثمة خبر عن مونتغومري. أما والده فتجاهله كلياً.

طوال سنوات، قبل مجيء غلوري ومن دون اعتبار للاهتمام الورع الذي يبديه أفراد العائلة خلال زياراتهم المتباعدة في العطلات، كانت ليلى تذهب إلى المقبرة لكي تعنى بأضرحة آل بوتون وأضرحة آيمز على السواء. لاحظت غلوري اهتماماً خاصاً تجاه ضريحي السيدة آيمز الأولى وطفلتها، اللتين رحلتا عن الدنيا معاً قبل زمن طويل، ونحو الطفلة الأخرى التي بدت، بطرقها العطوفة اللطيفة، لا تعرف بشأنها ولا

تطرح الأسئلة. زهرة اللبن الثلجية[1]، الزعفران[2]، والنرجس الأسلي[3]. ربما رأى جاك خزامى نهاية الموسم أو «الفلوكس الزاحف»[4]. كان هذا حسناً على الأرجح، فكرت غلوري. ستخبره في حال سأل أن ليلى من وضعت الورود، حتى لا يظن أنها تعني حداداً أبدياً، بقدر ما تنمّ عن الرغبة في تعويض طفلة عن افتقادها سبعين ربيعاً، أو ربما لإدخال الفرح على طفولتها الدائمة - تساءلت ما إذا كانت ليلى ستخبرها ماذا تعني كل هذه الأزهار، عدا عن اللطافة، وحب الحيوات، الماضية والحاضرة، التي اختارت أن تتكيّف معها، وكأنها أخيراً في بيتها. على الأرجح ستبتسم وتقول، التربة أفضل هناك، أو تلك البقعة تحصل على قدر أفضل من الشمس. إلا أن غلوري شعرت بالبهجة لأنه لابدّ من أن جاك رأى المكان رائعاً لأول وهلة، ثم نظر لكي يرى من اعتنى به بهذه الروعة. لابدّ من أنه وجد بعض العزاء في هذا، وإن كانت تعلم أن أيّ عزاء ما كان بكاف.

ربما الأسف أو الإحساس العظيم بالذنب يُقبل ببساطة بوصفه مطلقاً كالوحي. إثمي/ عقابي يفوق احتمالي. في اللغة العبرية، قال والدها، الكلمة الواحدة لها معنيان ونحن نختار أحدهما، مما قد يصعّب علينا فهم سبب مسامحة الرب لقايين وحمايته له، وتركه يمضي قدماً في حياته، ويتزوج، ويرزق بابن، ويبني مدينة. كانت جريمته هي عقابه، مما يجب أن يعني أنه لم يكن شريراً إلى هذا الحدّ في نهاية المطاف. ربما تذكر هذه

(1) Snowdrops: نبات من فصيلة النرجس، اشتق اسمه من زهراته البيضاء الرقيقة التي تذكر بالثلج.

(2) Crocuses: نبات بصلي من فصيلة السوسنيات.

(3) Jonquil: من فصيلة النرجس لونه أخضر غامق.

(4) Creeping Phlox: نبتة مزهرة تنتشر في شرق أمريكا، وزهورها قرمزية فاتحة وزهرية وبيضاء.

القصة لجاك في وقت من الأوقات، إذا بدا لها أن الحديث وصل إلى نقطة تتجرأ فيها على استحضار ما يكفي من الجرأة حتى تقارنه بقايين. ضحكت في سرها. يا لها من فكرة.

احتفظت غلوري بمعظم عادات نشأتها الورعة. في الصباح والمساء تحمل الكتاب المقدّس وتخرج إلى الشرفة وتقرأ إصحاحين أو ثلاثة. وحين يكون الآخرون في البيت خلال العطلات، يجلسون حول المائدة في حجرة الطعام، ويقرأ أحدهم بصوت مرتفع من المزامير أو الأناجيل. ومثل معظم واجباتهم ومسرّاتهم، كان المقصود من ذلك إرضاء والدهم، لطمأنته إلى أنهم يحبون نمط الحياة لقديمة، وأنهم جميعاً تلقوا كل الخير الذي أراده لهم. كان إرضاؤه دافعاً قوياً جداً إلى درجة أنه حلّ محل الدوافع التي تخصها، والتي كانت بلا ريب ستتضمن الورع. خلال السنوات التي عاشت فيها وحيدة دأبت على قراءة الكتاب المقدس صباحاً ومساء، ظناً منها أن والدها سيكون مسروراً إذا عرف بذلك، وأيضاً لكي تتذكر من تكون، لكي تتذكر المنزل الذي جاءت منه، لكي تولّد في نفسها ذكرى الراحة التي لم تكن تعيها بحق حتى خلّفتها وراءها. الآن، وقد عادت إلى منزل والدها، وهي تقرأ، تذكرت تلك الراحة نفسها، وتذكرت بالقدر نفسه امتياز البعد والوحدة، مسرات تلك الحياة الأخرى.

أيّ كتاب قديم غريب هذا. بأيّ غرابة تحتلّ القداسة موضعها بين أشياء الدنيا، وكم تَعذب الخلق وعانى تحت وطأة أهميته ذاتها. «بمثل فمي أذيع ألغازاً منذ القدم/ التي سمعناها وعرفناها وآباؤنا أخبرونا»[1].

(1) الكتاب المقدس، المزامير 78: 2—3.

أجل، ها هو، مثل المنّ[1]. كل الخبز هو خبز السماء، كان أبوها يقول. فهو يعبر عن إرادة الرب بأن يقيتنا في أبداننا هذه، في هذه الحياة. مهما كنا منهكين أو متحسرين أو حائرين، فالرب مُخلِص. يدعنا نتوه لكي نعرف معنى العودة إلى البيت.

ما الذي تعنيه العودة إلى البيت؟ لطالما فكرت غلوري أن البيت هو منزل أقل فوضى وغلظة من هذا البيت، في بلدة أكبر من جلعاد، أو في مدينة، حيث يكون أحدهم صديقها الحميم ووالد أطفالها، والذي لن ترزق منهم بأكثر من ثلاثة. ثم يمكنها أن تتعلم ما هي الأمور المفضلة عندها، ضمن حدود غاياتها طبعاً. لن تأخذ ولا قطعة أثاث من بيت والدها، بما أن أياً منها لن يكون منطقياً في تلك الحجرات الصغيرة المنارة بأشعة الشمس. قطع الأثاث المزخرفة المصنوعة من خشب الجوز، والستائر الجوخ المنقوشة والأعمدة المحفورة الناتئة من الجدارن، المرصعة بالزهور والجرار. من فكر في وضع أقدام حقيقية على الكراسي والطاولات، براثن ومخالب حقيقية؟

حلمت لها ولأطفالها وزوجها ببيت مختلف تماماً عن هذا الهيكل الطيب المبارك المفخّم المهيمن لاستقامة آل بوتون ونيتهم الحسنة. عرفت، كانت تعرف منذ سنوات، أنها لن تفتح باباً إلى ذاك البيت، لن تعبر عتبة، لن تحمل طفلاً جميلاً وتضعه في حضنها وتشعر به يميل على صدرها ويشاهد العالم من ذراعيها شاعراً بالرضى التام النابع من الثقة المطلقة. آه حسناً.

ذات مرة خرج جاك إلى الشرفة ووجدها تقرأ الكتاب المقدس. بدا

(1) من الأمثال التي كان يسوع يعلم بها تلاميذه وأتباعه، نجد هذا المثل في إنجيل متى، الإصحاح 13.

محرجاً بصورة ودودة واعتذر منها على المقاطعة، وقالت له إنه أكثر من مرحب به أن يبقى لو شاء، فوضع كرسياً بجانب كرسيها وفتح الصحيفة. إلا أنه مال نحوها لكي يرى ماذا تقرأ «المزامير»، قال «خيار ممتاز».

قالت: «أجل».

«عذراً».

«كدت أنتهي». أمكنها أن تشعر أنه متنبه لها، ومضطرب بما فيه الكفاية حتى يلهيها، فوضعت المؤشّر لكي تعلّم المكان الذي وصلت إليه وأقفلت الكتاب. وضع رجلاً على رجل وأخذ يفلفش بالصحيفة. فقالت: «ما الأمر؟».

«آه عذراً. حقاً إنه مجرد فضول على ما أظن. نابع من حقيقة أنك ما زلت تفعلين هذا الأمر. أنك لطالما كنت تفعلينه. ولا أقصد أنني لا أتوقع منك فعله. لا أعني ذلك. في الحقيقة أتفاجأ دوماً بعض الشيء بالأشياء التي عليّ توقعها. حين تحدث. إذا كان لكلامي هذا أيّ معنى».

«أظن أن له معنى».

«أما زلت.. إم... تصلين...»، أشار إلى الأرض «راكعة على قدميك؟».

ضحكت: «هذا لا يعنيك».

«أتذكر حين كنت صغيرة، كنت تركعين قرب سريرك وتغمضين عينيك وتهمسين أشياء في راحتيك، أسراراً. قطة هوب تقيأت على الحصيرة. قال جوني كلمة سيئة. وكنا نجلس هناك وننصت إلى صلاتك كلها ونحاول أن نكون جديين حيال الأمر». ضحك.

«أكنتم تنصتون إلى صلواتي؟».

«هوب كانت تفعل، ودان. أنا كنت أسمعهما يضحكان حول الأمر. فدخلت إلى غرفتك مرات قليلة».

«لا يمكنني سوى الاعتذار».

«لا فائدة. الضرر قد وقع. الرب سيستعمل هذه المعلومات كما يناسبه، يوم القيامة».

قالت: «أنا متفاجئة لتذكرك إلى هذه الحدّ».

رفع كتفيه: «لقد عشت هنا أنا أيضاً».

«كل ما أعنيه أنه حين يأتي الجميع إلى البيت في العطلات نستعيد القصص القديمة ثانية. أشك أننا سنتذكر نصفها لو لم نذكر بعضنا بها ثلاث او أربع مرات في العام».

«لقد تذكرت هذا المكان، وحتى إنني تكلمت عنه أحياناً».

ساد صمت. ثم قال: «إذن هل سنحاول أن ننقذ روحي يا أختي الصغيرة؟».

«ماذا؟ ننقذ روحك؟ ولَم قد أرغب في فعل ذلك؟».

«لَم لا؟ يبدو لي إن هذا عملاً متميزاً بالنسبة إلى سيدة ورعة. فكرت أنك قد ترغبين في إسدائي هذا المعروف. بما أنه لديك دائماً بعض الوقت».

نظرت إليه. كان يبتسم. كانت تعرفه جيداً بما فيه الكفاية لتعرف أنه يبتسم حين يظن أن كلامه قد يكون مسيئاً، سواء عن قصد أم غير قصد. يبدو أنه يضحك من نفسه، أو منها.

قالت: «سأكون سعيدة بذلك، لكنني لا أعرف كيفية القيام به».

قال: «حسناً، أنا مستعد للاعتراف ببعض التوق الروحي. أظن أن هذه عادة هي الخطوة الأولى. فهذا صار وراءنا».

«ثم؟».

«ثم أظن من الاعتيادي التفكر في الحقائق الكبرى. تلك كانت تجربتي».

«مثل؟».

«أبوة الرب مثلاً. الفكرة القائلة بأن روعة الخلق والكائن البشري تشهد على نية رؤوفة وراء ذلك، وأنها تعبر عن الرحمة الإلهية والحب. وهذا ما يمدّ العالم بالاستمرارية بصورة عامة وهو يتمثل، كما تعرفين، في خبرة الذين يجدون الخلاص الروحي. أو سيجدونه». بعد برهة قال: «من الممكن معرفة الحقائق الكبرى من دون الإحساس بأنها حقيقية. هنا تكمن المشكلة. في حالتي». نظر إليها.

قالت: «إنني حائرة. عليّ التفكير قليلاً بكلامك هذا».

«أجل، حسناً، هذا كثير عليك، أعرف. لطالما غذّيت الشك بأن الورعين يتآمرون من أجل خلاصي. ومن وقت لآخر كان هذا صحيحاً. ليس كثيراً في حقيقة الأمر. إلا أنك أختي. فبدا الأمر مستأهلاً أن أطلبه منك. فقط توفيراً للوقت». ابتسم.

قالت: «أظن أنني أحب روحك كما هي».

نظر إليها وضحك، وتورّد وجهه. «شكراً يا غلوري. هذا لا يساعد البتة، إلا أنني أقدّره. أقدّره حقاً».

أعدّت غلوري قطعة من العجين. الخبز الأسمر هو المفضّل عند أبيها. شيء ما لرفع معنويات البيت، فكرت. أحضر لها البقّال دجاجة للشواء. فتحت النوافذ لكي تبرّد المطبخ وتنفّس حجرة الطعام قليلاً، فدخلت نسائم منعشة، محملة برائحة التراب والعشب، مع إحساس بشعاع الشمس فيها.

دخل جاك آتياً من الحظيرة، محضراً معه أثراً من رائحة القش القديم والعرق وزيت المحركات. استنشق عميقاً «آه! الخبز!». رفعت المنشفة لكي يتمكن من رؤية العجينة المنفوشة المنقّطة. ثم رفع يديه المشحمتين وقال «لا تلمسي تلك البطاطا!». صعد إلى الأعلى. كان ثمة أصوات عجلة واغتسال، ثم نزل مبلّل الشعر وقميصه نصف مزرّر. عثر على سكين. «كليلة كمسعر»، قال، إلا أنه بدأ بالتقشير «إن الفن هو ما يبقي الشياطين بعيدة!». وهذا لكي يلفت نظرها إلى أنه قشّر حبة كاملة من دون أن تنكسر القشرة».

قالت: «هذا مذهل».

قال: «التمرين».

«أكنت تقتبس؟».

هزّ رأسه «لا ساجيس دو جاك بوتون، بوتون دي لا روز. بويت موديه. بويت ملاجري لوي. رويه[1] و... مساعد طبّاخ. لسبب ما لم يعلمونا معنى هذه الكلمة بالفرنسية في الجامعة». رفع قشرة أخرى لولبية «للأسف»، قال «تبدو الأمور أفضل بكثير بالفرنسية - بوم دي تير، فاي نيانت، فولير...»[2]. ابتسم. «صديقتي المثقفة كانت مصمّمة على التمرن على اللغة الفرنسية، فاستدعيت القليل الذي أحفظه منها. كنا نقرأ كتاب تربية عاطفية[3]. وكانت حماستي لهذا المشروع صادقة تقريباً».

---

(1) في الأصل بالفرنسية: La sagesse de Jaques Bouton. Bouton de la Rose. Poète malgré lui. Roué، تمعنى: حكمة جاك بوتون، بوتون الوردة، شاعر اللعنة، الخليع....

(2) بالفرنسية: Pomme de terre, fait-nèant, voleur تمعنى، بطاطا، بليد، وشرير.

(3) L'Éducation sentimentale، آخر روايات غوستاف فلوبير التي نشرت في حياته، عام 1869.

«أصدقاؤك مثيرون للاهتمام أكثر من أصدقائي».

«يجب أن تعرفي أين تعثري على أصدقائك ما بيتيت[1]».

«وأين هذا؟».

«إذا كنت جيدة، جيدة جداً، فقد أخبرك. يوماً ما. لكن عليك أن تكوني جيدة بصورة استثنائية».

ضحكت: «يعلم الربّ أنني أحاول».

قال: «هذه بداية على ما أظن. وإن ليس في كل الحالات».

ضربت العجينة بمنشفة الشاي، فخرجت منها هبة كبيرة من الهواء الخميري. وبعد دقيقة قال: «لقد استعنت بدرج النقود ثانية. اشتريت بعض شمعات الإشعال ومضخة للعجلات. تلك القديمة كانت تسرّب الهواء كثيراً إلى درجة أنها كنت بلا نفع تقريباً. واشتريت أيضاً حزاماً للمروحة».

«لستَ مضطراً إلى إخباري بهذا كله».

«وقفاز بايسبول».

«هذا المال ليس لي أيضاً يا جاك، والبابا لا يهمه أمره».

هزّ رأسه، وهو ينتزع بدقة درنة حبة بطاطا. ابتسم لها. «أقتنعت بعد بحث مذل ومواظب عن وظيفة بأنه عليّ البحث خارج جلعاد»، قال «سأحتاج إلى سيارة، إذا كنت سأصبح رجل عائلة محترم».

«أنت تفكر إذن بأن صديقة قد تأتي إلى هنا؟».

هز رأسه. «فقط حين أحاول أن أجد طريقة لكي أجبر نفسي على الخروج وأجول بتطلعاتي البائسة في البلدة مرة أخرى. أو أستمر بإصلاح تلك السيارة اللعينة. على الأرجح ستكره المكان هنا على أيّة حال».

---

(1) بالفرنسية: ma petite: يا صغيرتي.

«لم تخبرني قطّ باسمها».

«اسمها ديلّا».

«أحب التعرف عليها».

قال: «أستكونين لطيفة معها؟».

«يا له من سؤال!».

«تقسمين على ذلك؟».

«بالطبع، سأكون بمثابة أخت لها!».

ضحك «سوف أذكرك بكلامك هذا يوماً ما. إذا ما تحققت أشرس آمالي. وهو ما لن يحدث».

بعد دقيقة قالت: «جاك، ثمة أمر كنت أتساءل بشأنه».

«إمم؟».

«كيف تتصرف حين تكون سعيداً؟».

ضحك. «لقد نسيت».

«بجدية. حين دخلت الآن، حسبت أن شيئاً جيداً لابدّ قد حدث».

«أوه، إلام يعزى ارتفاع المعنويات. رائحة النفط؟ وقد بذلت الكثير من قطع ذاك المحرك بحيث أنني اقتربت من حل المشكلة الآن، مع شيء من الحظ. حين أدرت المفتاح هذه المرة... تحرّك نبض المحرك. وهذا جعلني أتخيل الانطلاق بسيارة الدي سوتو الخاصة بأبي وإنقاذ حبيبتي من ممفيس الخانقة».

«حسبتها في سانت لويس».

رفع كتفيه قائلاً: «لقد سئمت بعض الشيء من سانت لويس. أفضّل أن أنقذها من ممفيس».

«فهمت».

«وبعد التفكير في الأمر، والدها في ممفيس. إنه حمائي جداً، ولديه سيارة تعمل بالفعل. ويفكر أنني على حافة أن أكون عديم الفائدة – 'على الحافة اللعينة' لأنه مجبر مهنياً على تبني نظرة خيّرة. لديها ثلاثة إخوة في ممفيس. فأظن أنه أفضل لي أن أنقذها من سانت لويس». بدأ يقشّر حبة بطاطا أخرى. «لنضع المزاح جانباً، ربما تأتي إلى جلعاد لبعض الوقت، لكي تحاول. هذا ممكن».

تناولا غداء مبكرا. كانت تريد تقديم الدجاج بارداً، إلا أنها قررت أنه من الأفضل تقديم الخبز وهو لا يزال ساخناً، وأي فرق هنالك حين يفعلون أي شيء على أية حال. استمتع والدها بالخبز الساخن والدجاج أيضاً، والفاصولياء مع البطاطا بصلصلة الكريما. صار محباً للكلام، متذكراً صباه في جلعاد، وكيف لم يتمكن من جرّ المياه من البئر إرضاء لجدته، ناهيك عن فلق الحطب، لذا لم تكن لديه الكثير من الأعمال المنزلية كغيره من الأطفال. «لم تثق بي لإحضار البيض أيضاً، كانت تلك طريقتها في تدليلي، أجل، اعتدت الذهاب إلى منزل آيمز لكي أساعده قليلاً، ثم يكون أمامنا اليوم بطوله، في الصيف. اليوم بطوله على النهر. لا أعرف كيف كنا نمضي كل هذا الوقت. كان شيئاً رائعاً. أحياناً كان جده ينزل إلى هناك، لكي يصطاد السمك ويتكلم عن المسيح، ثم نجلس هادئين تماماً، أو نخوض إلى أعلى النهر قليلاً. كان عجوزاً غريباً، إلا أنه كان جزءاً من الحياة فحسب، كما تعرفان. مثل الطيور المزقزقة».

قال جاك: «أمضيتُ بعض الوقت قرب النهر. كنت أحبّ ذلك».

هزّ والده رأسه: «لطالما فكرت أن هذا المكان ممتاز للأولاد. ليس أنني أعرف مكاناً آخر أقارنه به».

«إنه مكان جيد».

«حسناً جاك، يسرني أنك تفكر هكذا. أجل. بعض الأشياء كانت لتحدث بصورة أفضل مما حدثت به، أعرف ذلك. لكن لطالما كان هناك الكثير من الفرح. كان هذا إحساسي على الأقل. ولا يزال كذلك. أراقب الأولاد ويبدون سعداء لي. أظنّ أنه يجدر بهم أن يكونوا كذلك».

بعد الغداء نزل جاك من غرفته وهو يطوي قفاز البايسبول الجديد ويضعه في جيبه. قال: «فكرت بأن أرى إذا كان طفل آيمز يرغب في لعب بعض الكرة. أهذه فكرة حسنة؟ إنه يافع بما فيه الكفاية، ويبدو مهتماً بذلك».

قالت: «أظن أنها فكرة جيدة».

خرج إلى الشرفة ووقف هناك قليلاً، ثم عاد إلى المطبخ ثانية. «لا»، قال ورفع كتفيه «أنا سيء السمعة. أنسى هذا من وقت لآخر. لكن ثمة مرجعية ممتازة ترى ذلك»، ابتسم «الموقر الطيب لن يوافق. أنا واثق من أنهم سيعيدون لك ثمنه»، وناولها القفاز. قال: «تلك المعنويات العالية يمكنها أن توقعني في المتاعب».

قالت: «لا أفهم شيئاً من هذا. أظن أنك تقلق أكثر من اللزوم. سوف أحتفظ بالقفاز حتى تطلبه».

«عليك مساعدتي على التفكير في الأمور يا غلوري».

«أيعني هذا أن أذكرك بأنك سيء السمعة».

«أخشى ذلك».

«أظن أنك تتخيل».

«هذه هي الحقيقة المركزية لوجودي، واحدة من ثلاث حقائق في الواقع. لكن هذه الحقيقة التي عليك مساعدتي لكي لا أنساها».

«حسناً، حقاً يا جاك، كيف يفترض بي بالله عليك فعل ذلك؟».

ضحك: «لا تكوني شديدة اللطف معي».

فكرت بما يبدو أن جاك قد طلبه منها، أن تقوم محاولة ما لإنقاذ روحه. أيها الربّ العزيز. كيف أمكن تلك الفكرة أن تملأها بحسّ الالتزام، في حين لا تعرف حقاً ماذا تعني. ثمة كلمات تسمعها طوال حياتك، فكرت، وذات يوم تتوقف عن التساؤل. لن تأتي ثانية على فتح الموضوع، إنما إذا فعل هو، فسوف تجد طريقة لكي تجيبه. لم تكن واثقة البتة من أنه كان جاداً في كلامه، وأنه لم يكن يمازحها. كان يمكنها حتى أن تشعر بالإساءة من كلامه في حينه، إن كان ثمة أيّ جدوى من ذلك. مشروع عام لسيدة ورعة لديها بعض الوقت. يا للتعطّف. لكن هذا ما يفعله كلما شعر بأنه هش— يجد طريقة ما لكي يلدغ، لكي يوضح أنه ليس وحده الهش. المسكين. إلا أنه متمرّس في تكرار ما هو متمرّس على رفضه في آن معاً. ربما قصد استدراجها إلى مشاجرة ما، ورفض هذه المشاجرة أيضاً، فقط لكي يريها بأنه يستطيع القيام بذلك. كان مهموماً. وكان ذلك طبيعياً بما فيه الكفاية، وفي الحقيقة جعلها تشعر بالحرج حيال عادتها القديمة السارة. والآن عليها قراءة الكتاب المقدّس في غرفتها لكي تتجنّب الإحساس بأنها منافقة، مثل شخص يصلي في زاوية شارع. حين خرج جاك إلى الشرفة حاملاً صحيفته في

اليوم التالي ووجدها تقرأ «صانعة الدمى»[1] رمقها بنظرة ملهوفة متسائلة، إلا أنه لم يقل شيئاً.

لم تعرف ما معنى أن يكون المرء ورعاً. لم تكن يوماً شيئاً آخر. اذكر خالقك في أيام شبابك[2]. وفعلت ذلك. بالكاد أمكنها أن تفعل شيئاً آخر. فوالدها لا يدع يوماً يمرّ من دون أن يذكّرهم جميعاً بأن كل الخير يأتي من الرب، وكل الحب والجمال. والإخفاق والخطأ يعلماننا إرادة الرب في حقيقة افتراقنا عنها بالذات. ثم هناك جزاء الرحمة والغفران، لإعادة الأمور إلى مسارها المستقيم، وتلك أكبر حسنات الرب العظمى بعد الخلق نفسه، بقدر ما نعرف نحن الفانون. كان إيمان والدها البهيج بذلك يتجاوز كل شكّ، بما أنه متأصل في طبيعته، وكانوا يحبون هذه الطبيعة ويستمتعون بها، ويتندرون حولها قليلاً أيضاً. أجل! كان ينجز بعض الانتصار في إيجاد الأعذار فيخرج من مكتبه، ملتمع العينين، وقد حلّ الأحجية، وبات مستعداً للمسامحة بشهامة، لأن يقطع مسافة الميل الإضافي. صحيح أن الهفوات والأخطاء التي كان يرى من الضروري إيجاد الأعذار لها، كانت على الأرجح صغيرة أو حتى مشكوكاً بها في بعض الحالات، بل تدلّ على على حساسية مفرطة من قبله. إلا أن شهامة رده عليها لم تكن بأقلّ روعة.

أما في ما يخصّها، فما زالت تصلي راكعة. كما أنها تقول بلسانها أو قلبها أو تتذكر دعاء شكر عند كل وجبة، حتى في المطعم أو عندما كانت مع خطيبها. ربّ الولد على الصراط المستقيم فمتى شاخ أيضاً لا

(1) The Dollmaker: رواية نشرت عام 1954 للكاتبة الأمريكية هارييت أرنو.

(2) الكتاب المقدس، سفر الجامعة 12:1، «فاذكر خالقك في أيام شبابك قبل أن تأتي أيام الشر أو تجيء السنون إذ تقول ليس لي فيها سرور».

يحيد عنه[1]. كان المثل ينطبق عليها. ووجودها في البيت عزّز فحسب كل عادة مغروسة فيها. كان الإيمان عندها وولاء عائلياً، وإلى حدّ كبير كان توقيرها للكتاب المقدس، ولقيمته الأدبية، إعجاباً بأمها وأبيها كذلك. ثم ذلك السكون الفاتن الذي تنعدم فيه الحاجة إلى الكلام. لطالما قال والدها: الرب ليس بحاجة إلى أن نعبده. بل نتعبّد لكي نزيد إحساسنا بالمقدّس، لكي نشعر بحضور الرب ونتعرّفه، الذي هو معنا دوماً. وقال: الحب هو نصل إليه بعبادتنا هذه، حب متسام، وفرحة في روح محبّة. كانت ورعة بلا ريب، وإن لم تكن لتختار تلك الكلمة في وصف نفسها.

ربما أبقت الكتاب المقدّس بعيداً عن الأنظار خشية منها أنه إذا كلمها ثانية بتلك الطريقة فستضطر إلى أن تجيبه أنها لا تملك أي فكرة أكيدة عن ماهية الروح. كانت تفترض أنها ليست عقلاً ولا ذاتاً. أياً كان العقل والذات. أنها ما يراه الرب حين ينظر إلى أي واحد منا. لكن ما الذي يمكننا معرفته عن ذلك؟ لنقل إننا نحب إنساناً آخر ونسامحه ونستمتع بجماله، مهما كانت مراوغاً هذا الإنسان. حينئذ نستطيع أن نفترض أنه باتت لدينا فكرة ما عن الروح التي صادفناها. هذا ما كان والدها ليقوله.

ربما لم تعرف يوماً أحداً يشعر أو يعترف بأنه يشعر، بأن حالة روحه موضع تشكيك. أياً كان ما يرشح من مكتب والدها، فمن الواضح أنه لم يكن هناك سوى السكينة والثقة بين أفراد رعيته. رغم التسليم بمخاطر الرضا الروحي، ووالدها كان يستشهد لرعيته بالكثير من الشخصيات

(1) الكتاب المقدّس، سفر الأمثال، 22: 6.

الفريسية[1] في الكتاب المقدّس، فقد كان هذا الرضا منسجماً مع عادات جلعاد التي تتبع العقيدة المشيخية وتقاليدها، وبالتالي يُفترض أنه مبرّر في أي حال من الأحوال. ولم يكن البرّ المسيحي يطالب بأقل من ذلك في نهاية المطاف. بين أبرشيات جلعاد، فإن البرّ في هذا المجال لم يكن ممنوحاً من قبل الجميع وللجميع من حيث المبدأ، بل على صعيد الممارسة، كان يتمّ الالتزام عموماً بالسوكيات الخيّرة، وبصورة عامة كان حق الرضا الروحي يُمنح من كل جانب. وحتى عظات والدها قدّمت الخلاص بوصفه هبة يمكن أن يكونوا شاكرين لها كجسم جماعي، وكأنما، فيما يعنيهم على الأقل، تلك المشكلة قد جرى حلها بين الكهنة[2] وقادة الجند[3] في وقت هادريان[4]. كان يأتي على ذكر الخطيئة، إلا أنه يصورها نادرة بحسب فهمه لها؛ فهي مسألة أفعال وسهو شائعة إلى درجة أن أحداً لا يمكن أن يكون بريئاً كلياً منها أو - بصورة خاصة - قلقاً منها أيضاً - تلك الأفعال التي يمكن اختصارها بالفكر غير المتسامح، وبإهمال البرّ. وفي حين أعفاه ذلك - من جهة - من ذكر تلك النواحي المظلمة من الحياة التي بدت أبعد ما تكون

(1) الفريسيون: واحدة من الفئات اليهودية الثلاث، تعني كلمة الفريسي الآرامية «المنعزل»، وقد حصر الفريسيون الصلاح في طاعة الناموس، فكان إيمانهم ظاهرياً غير نابع من القلب، وقد وبّخهم السيد المسيح على ريائهم وتحميلهم الناس أحمالاً صعبة.

(2) Druids: الدرويد، هم كهنة الشعوب السلتية، تقوم طقوسهم على عبادة الشمس والاعتقاد بخلود الروح، وبعد ظهور المسيحية كان الدرويد معارضين لها، وكانت مواجهات طويلة بين الطرفين انتهت باستسلام الدرويد للمسيحية.

(3) Centurions: عند الرومان السنتريون هو قائد المئة جندي.

(4) Hadrian: هادريانوس أو أدريان: إمبراطور روما بين عامي 117 و138 بعد الميلاد، قمع الثورة اليهودية الثانية في فلسطين في العام 132م، وسوى القدس بالأرض بانياً مكانها مدينة جديدة أسماها كولونيا إيليا كابوتاليا، وحرم على اليهود دخولها.

عن السبت[1] والنور، فقد أوضح من جهة أخرى أن الأكثر ميلاً إلى البرّ بينهم، وحتى الأكثر فضيلة، ليسوا في موقع يخولهم الحكم على أي شخص آخر، لا الماكر ولا الفاسد، ولا على أولئك الذين يدخلون الاضطراب إلى سلامهم العائلي، ولا أولئك الذين ارتكبوا ما أدّى إلى ورود أسمائهم في الصحف الأسبوع الماضي. وقد خدمته عقيدة الإثم الشامل[2] على أحسن وجه. فمن، في نهاية المطاف، يستطيع أن يرمي الحجر الأول؟ وعلى الأقل هو من بين الجميع لا يستطيع ذلك. لكن كان من الصعب الحصول على صورة واضحة لشيء شديد التغلغل والشمولية كهذا، خاصة إذا تلخّص ذلك - مثلما أصرّ والدها- في شخصه الموقر نفسه.

تتذكر مرة حين كان آيمز مدعواً في منزلهم على العشاء قبل سنوات، أنه ذكر لوالدها قصة رجل من جلعاد، لا يرتاد الكنيسة[3]، معروف بثورات غضبه وعدوانيته الخاصة تجاه الأطفال، بمن فيهم طفله، قصده في بيته عند منتصف الليل لكي يتدارس وإياه في أمر روحه. قال آيمز: «الأمر أشبه بسن منخورة تتحرّك عندما تكون كل الأسنان الأخرى نائمة، وهذه ليست من المشكلات التي قد ترغب بالتعامل معها بنفسك»، وضحكا معاً، بخفر. من يمكنه أن يعرف ماذا يعرفان، أي

(1) Sabbath: في التقليد اليهودي، كما في تقاليد دينية أخرى، فإن «السبت» أو يوم الراحة أو يوم الرب، الذي هو يوم الأحد في المسيحية، ليس يوم عطلة أو راحة فحسب، بل هو يوم عبادة، وفي المفهوم الأصلي للسبت كما يرد في سفر الخروج، فإن الربّ يؤمن الطعام لأتباع موسى ويأمرهم بألا يعملوا في اليوم السابع من الأسبوع، إلا أن بعضهم لا يستجيب لذلك، وبالتالي فمعنى السبت هنا هو الثقة بالرب وبأنه هو المعيل والمانح.

(2) Total Depravity: أو العجز المطلق، في الديانة المسيحية هي العقيدة النابعة من مفهوم الخطيئة الأصلية الذي يشير إلى وضع الإنسان الآثم بالولادة بسبب سقوط آدم.

(3) Unchurched: هو من لا صلة له بالكنيسة.

قلوب مضطربة كشفت أساريرها لهما، كم ليلة جاءت بالمؤرّقين إليهما. عليها أن تسأل جاك ما هي الروح، بما أنه يبدو أنه يشعر بحضورها. ربما كان مليئاً بالندوب، غير أن هذا ما يمنحه الوعي بها. وعلى الأرجح أن أحد هذين الورعين الطاعنين في السن، آيمز ووالدها، يستطيع أن يخبرها أيضاً. لكن فات أوان طرح هذا النوع من الأسئلة عليهما. جاك سيضحك منها ويمازحها مستفزاً، وهو ما تفضله على أن المفاجأة اللطيفة الرزينة التي قد يعبران عنها.

أراد والدها أن يأوي إلى السرير مبكراً، لكنه كان قلقاً وطلب منها النهوض ثانية. ساعدته للجلوس على كرسيه. سألها: «أين جاك؟».

«أظن أنه يعمل على تصليح السيارة».

بعد دقيقة قال: «حسبت أنك ربما تقرأين لي، أودّ أن تقرأي لي من لوقا».

جاءت بالكتاب المقدّس وفتحته وبدأت تقرأ «الرسالة إلى ثاوفيلس».

قال والدها: «أجل، هذا حسن. إنه يشغل نفسه كثيراً بتلك السيارة. أتمنى لو يعزف على البيانو، على الأقل عندئذ أعرف أين هو».

قالت غلوري: «سأعثر عليه، سيكون مسروراً بالعزف لك أبتاد».

«أجل أنا شاول في جنونه. أريد بعض الموسيقى هنا»[1].

(1) الكتاب المقدّس، صموئيل الأول، الإصحاح 16: «وفارق روح الربّ شاول، وأزعجه روح شرير من عنده، فقال له خدمه: «ها روح شرير من عند الرب يزعجك، فمرنا يا سيدي أن نبحث عن رجل يحسن الضرب بالعود، حتى إذا اعتراك الروح الشرير من عند الله يضرب بالعود فتنتعش، فقال لهم شاول: فتشوا عن رجل يحسن الضرب بالعود وجيئوني به».

فذهبت إلى الحظيرة ووجدت جاك جالساً في مقعد السائق في الدي سوتو. في المساء الأبدي الدائم المغبر هناك، كان يقرأ كتاباً على ضوء المصباح اليدوي. تردّدت في مقاطعته إلا أنه رآها في المرآة الجانبية ووضع الكتاب والمصباح في مقصورة القفازات وأقفلها. رأته يحمل الغلاف الجلدي الصغير، المشرع على لوحة عدادات السيارة ويضعها في جيب قميصه.

قالت: «عذراً، لم أقصد المقاطعة، أبي يستبدّ به القلق وفكر أنه قد يساعده لو عزفت له قليلاً».

قال: «يسرني دوماً أن ألبّي الدعوة»، وهو يخرج من السيارة ويقفل الباب. ابتسم لها على نحو ما يفعل حين يريد التحفّظ حول أمر ما لا نية له في شرحه. قال: «هذا بيتي بعيداً من البيت».

«جيد. ما كنت لأزعجك، إلا أنه يبدو لي مضطرباً بحق هذا المساء. طلب مني أن أقرأ له، واستمرّ هذا زهاء دقيقتين. كنت عزفت له لكنه يطلبك أنت».

قال: «أنت لا تزعجينني البتة غلوري. إنه لمن المذهل كم لا تزعجينني. يكاد يكون غير مسبوق».

«يسرني كثيراً أن أعرف ذلك».

نظر إليها، وحين رأى أنها مسرورة حقاً، ابتسم لها.

قال: «حسناً أيها الموقر، أخبرتني غلوري أنك تودّ سماع أغنيتين أو اثنتين، أمن طلبات خاصة؟».

«أجل، التطمين المبارك، وأيضاً الأمل الهامس[1]، لكنني أظن أنني سأكون مرتاحاً أكثر على سريري من بعد إذنك».

«يمكننا الاهتمام بذلك»، ساعده جاك على النهوض وأوصله إلى غرفته ووضعه بين الأغطية.

«أولاً التطمين المبارك»، قال العجوز، «إذا كنت تعرف هذه الترنمية».

«أظن أنني أعرفها»، جلس جاك إلى البيانو، ودندن عشوائياً على المفاتيح أولاً، حتى وجد النغمة، وعزفها. لم يغنّ والده.

«والآن الأمل الهامس».

«حاضر سيدي».

حين انتهت الأغنية، قال والده: «تجعل قلبي في أساه يفرح، هذا يمكن أن يحدث حقاً. لقد مررت بهذه التجربة. الأمل شيء بالغ القيمة، بما أن مباهج الدنيا ليست كثيرة دوماً».

ذهب جاك ليقف بباب أبيه، لكي يوفر عليه جهد رفع صوته. قال العجوز: «تعال إلى هنا جاك. قرّب الكرسي، ثمة ما أحتاج إلى قوله لك. عليك على الأرجح أن تسامحني على هذا».

«سوف أبذل قصارى جهدي».

«حسناً، أعرف هذا. يمكنني الاعتماد على ذلك. وأنت رجل ناضج الآن».

ضحك جاك: «هذا صحيح».

«لذلك أريد أن أطرح سؤالاً عليك، موافق؟».

(1) Blessed Assurance و Whispering Hope: ترنيمتان مسيحيتان معروفتان، الأولى تعود إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، والثانية إلى الستينيات منه.

«عليك به».

«أشعر أنني لم أكن مناسباً لك. لم أكن أباً صالحاً لك».

«ماذا. أحقاً؟».

«لا، هذا شعور لطالما كان لدي، مذ كنتَ طفلاً تقريباً. وكأن ثمة شيئاً تحتاج إليه مني وأنا لم أتمكن من معرفة ماهيته».

تنحنح جاك: «لا أعرف حقاً ماذا أقول. لطالما ظننت أنك أب جيد جداً. أفضل بكثير مما استحققت».

«لا، لكن عندما أفكّر في الأمر الآن. كنت دائماً تهرب من مكان ما. دائماً تختبئ في مكان ما. ربما حتى لا تذكر لمَ فعلت تلك الأشياء. لكنني ظننت أنك ربما تستطيع أن تعطيني فكرة ما».

«لا يمكنني تفسير ذلك. لا أعرف. كنت طفلاً سيئاً. وأنا آسف على ذلك كله».

هزّ العجوز رأسه: «ليس هذا مقصدي على الإطلاق. أتفهمني، أشعر وكأنك لم تعش حياة طيبة».

ضحك جاك: «حسناً، أعتذر على هذا أيضاً».

«لقد أسأت فهمي. أقصد أن حياتك لم تبد يوماً أن فيها أيّ فرح حقيقي. أخشى أنك لم تحظ بالكثير على درب السعادة».

«أوه، فهمت. لقد عرفت السعادة من وقت لآخر. الأمور صعبة قليلاً الآن...».

«أجل، وإلا لما كنت هنا. لا بأس بهذا. لكنني لم أعرف فحسب طفلاً آخر لا يشعر بأنه ينتمي إلى البيت الذي ولد فيه. كل الآخرين، كما تعرف، يعودون في العطلات. كان الأمر دائماً أشبه بحفلة كبيرة هنا، كل الألعاب التي يلعبونها، والصخب الذي يحدثونه، وأمك

تضحك على المقالب التي لا تنتهي والعبث. أما أنت فإذا وجدت وسيلة للرحيل، فستكون قد رحلت».

«لا يمكنني تفسير هذا أيضاً. أعتذر على...».

«ثم رحلتَ حقاً، أليس كذلك. عشرون عاماً يا جاك!».

تنهد جاك بعمق ولم يقل شيئاً.

«ولمَ أكلمك بهذا الأمر؟ لكنه كان دوماً لغزاً بالنسبة إلي. كن صارماً! كان الناس يقولون لي. ضع القوانين! افعل ذلك لصالحه! لكنني شعرت دائماً أن ما أتعامل معه هو الحزن، نوع من القلب المهموم. في طفل! وكيف يمكنني أن أغضب من ذلك؟ كان عليّ أن أعرف كيف أساعدك في ذلك».

«لقد ساعدتني. أعني، هناك من كانت حياتهم أسوأ من حياتي. وكان يمكن أن تكون حياتي أسوأ». ضحك وغطى وجهه بيده.

«أوه أجل، أنا واثق من ذلك يا جاك. أرى كم أنت لطيف الآن. شديد التهذيب. ألاحظ ذلك».

«خلال السنوات الماضية كان لا بأس بي، منذ نحو عشر سنوات».

«حسناً، هذا رائع. الآن، هلا سامحتني لتكلمي معك بهذه الطريقة؟».

«نعم سيدي، بالتأكيد. إذا منحتني بعض الوقت».

قال العجوز: «خذ وقتك. لكنني أريدك أن تعطيني يدك الآن». وأخذ يد جاك وقرّبها منه برقة، لكي يتمكن من التمعن في الوجه الذي يخفيه جاك عنه. «أجل»، قال، «ها أنت». وضع يده على صدره «أتشعر بهذا! القلب هنا؟ لقد أصبحت حياتي حياتك، مثل إشعال شمعة من أخرى. أوليسَ هذا لغزاً؟ لقد فكرت بالأمر مرات كثيرة. بيد

أنك دائماً تفعل عكس ما أرتجيه، العكس تماماً. فحاولت ألا أرتجي شيئاً على الإطلاق، سوى ألا نفقدك. لذا بالطبع خسرناك. كان هذا الأمل الوحيد الذي لا يمكنني التخلي عنه».

سحب يده من يد أبيه، وغطى بها وجهه ثانية. قال: «هذا شديد الصعوبة، ماذا يمكنني أن أفعل... أعني، أثمة ما يمكنني فعله الآن؟».

قال والده: «هذا صحيح: «ليس من شيء يمكن فعله. أنا آسف لأنني فتحت الموضوع. فكرت أنه كان يؤرق نومي. أظن أنه كان يؤرقه. لماذا دفعني ذلك إلى التفكير بأنه مهم؟ لا أعرف. كل ذلك الحزن القديم يعود إليّ. بيد أنني متعب الآن. يبدو أنني متعب على الدوام». واستقر بين مخداته وانقلب إلى الجهة اليمنى، بعيداً من جاك، باتجاه الجدار.

خرجت غلوري إلى المطبخ وانتظرت، وبعد بضع دقائق خرج جاك أيضاً «أتمانعين البقاء معي هنا لبضع دقائق يا غلوري؟ حتى يتسنى لي الوقت لأفحص ما إذا كان ثمة عظام مكسورة». ضحك وفرك وجهه بيديه. «آه، أشعر بالاندفاع لفعل شيء متهوّر. ليس عليك الجلوس هنا حتى تقفل الحانات، إلا إذا كنت تريدين ذلك».

قالت: «يسعدني الجلوس معك قدر ما تشاء».

«متى تقفل حانات البلدة، في ليالي الأسبوع؟ كانت تقفل في العاشرة».

«أخشى أنني لست من يملك الإجابة على ذلك».

«لم تبلغ الساعة الثامنة الآن. ساعتان بعد، ربما ثلاث ساعات. هذا وقت طويل.

«صدقني، لا خطط لدي للأمسية».

ضحك: «جيد».

«أترغب في القهوة؟».

«القهوة؟ بالتأكيد، أتمانعين لو دخنت».

«على الإطلاق».

«يجدر بك أن تعجبي من أنني لا أعرف متى تقفل الحانات. هذا يعني أنني لم أقترب من حانة بما فيه الكفاية لأقرأ ما كتب على اللافتة على الباب».

ضحكت: «أنا معجبة. بما انك أشرت إلى ذلك».

«أجل، أظن أنني يجب أن أضع لائحة بإنجازاتي. هذا سيكون الرقم واحد. ثم: لست مسجوناً. وكدت أنهي الجامعة...».

«ظننت أنك أنهيتها. كنا جميعاً سنحضر تخرجك».

«ثم تلقى الموقر اتصالاً من سانت لويس».

«قال إنه كان عليه أن يتوقع أنك لا ترغب في خوض طقوس الاحتفال».

«حسناً، كان ثمة اعتبارات أخرى... بعض المشكلات، إذا أمكننا القول. بعض الإهمال بصورة أساسية. أيفاجئك هذا؟».

«لا، إطلاقاً».

هزّ رأسه: «أنا وحش في المواظبة يا أختاه الصغرى. وإن بصورة متزايد أدركت أن المواظبة كانت الكحول تقريباً. أما الآن فأنا رجل متغير، معظم الوقت. على سبيل المثال لقد قلت لك للتو الحقيقة حول أمر ما. وأنا مدين بهذا كله لتأثير امرأة صالحة عليّ».

ضحكت.

قال: «ماذا؟ أيصعب تصديق ذلك إلى هذا الحدّ؟».

«لا، لا. هذه عبارة اعتدت سماعها كثيراً، هذا كل ما في الأمر».

قالت «أأخبرك الحقيقة حول شيء ما؟».

«بالطبع، لكنك لست مجبرة على ذلك. ليس ضرورياً أن يكون هذا تبادل رهائن أو ما شابه».

«بيد أنني سأعطيك رهينة. إنني أثق بك في هذا. يجب أن تأخذ هذا السرّ معك إلى القبر».

«سأفعل. بشرفي كما يقولون. إذا أردت حقاً إخباري».

«أظن ذلك. أرغب حقاً في إخبارك».

«لِمَ».

«لِمَ؟ لأنك أخي على ما أظن. لانني أريد أن أرى كيف يبدو ذلك حين أقوله بصوت عال».

«كيف يبدو لي أم لك؟ يمكن أن يكون هناك فرق».

«أظن ذلك. هل هذا مهم؟».

«حسناً، تعرفين، لست أفضل من يصغي ويتفهم، خاصة إذا كان ثمة تعقيد أخلاقي في الأمر. لم تكن هذه يوماً نقطة قوتي. قد تكتشفين فيّ عيباً محرجاً، عيباً إضافياً...»، ضحك «وتكفيني سمعتي الحالية بهذا الخصوص».

«حسناً، لا أسرار، ولا ائتمان على الأسرار». ثم بعد برهة وجدت نفسها تقول: «لم أكن يوماً متزوجة».

«حقاً؟»، وبدأ يضحك، بقوة ومن دون توقف «أهذا سرّ؟ أنا آسف حقاً. هذا لأنني متعب»، قال وهو يمسح دموعه». قالت: «هذه غلطتي، لقد أنذرتني بما فيه الكفاية».

«لقد فعلت أليس كذلك». استمرّ بالضحك، في إيقاع ما بين

النحيب والسعال، «أنا آسف حقاً. الأمر هو كما تعرفين، أنا لست متزوجاً أيضاً».

«لكنّ أحداً لم يحسبك كذلك. أعني أنت لم تدفع الناس إلى الظن بذلك».

ضحك مغطياً وجهه بيديه، محاولاً محاولات فاشلة للتوقف «هذا صحيح. لم أفعل البتة»، ثم قال: «أرجو ألا تغضبي مني غلوري. لا أعرف لم لا يجدر بك أن تكوني كذلك. أرجوك ألا تغضبي». كان يكافح لالتقاط أنفاسه.

قالت: «أوه تباً، سوف أحضر لك القهوة».

«تباً أجل! أحضري القهوة!»، قال وضحك.

«أقول اللعنة أحياناً. إذا كنت غاضبة. لكنني لست غاضبة، إنني مرتبكة فحسب».

قال: «أنا أفعل هذا، أربك الناس. هذا أكثر ما أبرع فيه في حقيقة الأمر».

«حسناً، لقد بت معتادة تماماً على ذلك. وأجده مثيراً للاهتمام قليلاً بطريقة ما».

قال: «شكراً لك، بجد. أعرف أنني أخطأت بالضحك على هذا النحو». هزّ رأسه بأسف، وضحك: «انت روح طيبة يا غلوري».

قالت: «أنا كذلك».

«أعرف أن ما حصل لك سيء. كنت مغفلاً بضحكي هذا».

«كان سيئاً جداً. ذات منتصف ليل خرجت ورميت أربعمئة واثنين وخمسين رسالة في الميزاب».

ضحك: «أربعمئة واثنين وخمسين!».

«كانت خطوبة طويلة. رآني شرطي وجاء يسألني عما أفعله. قلت له إنني أرمي أربعمئة واثنين وخمسين رسالة وخاتماً واحداً رخيصاً. قال: حسناً، آمل أن تنصلح الأمور بالنسبة لك».، ضحكا. قالت: «أنا بخير. كان الأمر رهيباً بما فيه الكفاية ليكون مضحكاً، على ما أظن، الآن وقد انتهى».

«أجل، ثمة هذا دوماً للتطلع إليه». ثم رفع كتفيه وقال: «كاف ليجعلني أتطلع إلى دقيقة أو اثنتين بين الموت وجهنم».

«أوه، دعك من هذا يا جاك. لا أظن حقاً أن المرء يؤمن بجهنم ما لم يؤمن بكل شيء آخر».

«لا؟ إلا أن جهنم هي الأمر الوحيد الذي لطالما كان له معنى بالنسبة إلي. أعني، لطالما بدت مقبولة، على أساس تجربتي. ولا أظن أن هذا الوقت المناسب لكي تحاولي إقناعي بعكس ذلك. أنا متعب. أنا صاح...»، ضحك، ونظر إلى ساعتها، قال: «دعيني أخمّن، الثامنة وثمانية وعشرون دقيقة».

«الثامنة وسبع عشرة دقيقة».

«إذا كنت قد تعبت من صحبتي فسأتفهم».

«لا، على الإطلاق. أأعد لك بعض العشاء؟».

«لقد تناولت العشاء للتو».

«لا لم تفعل، لقد رأيتك، ست قضمات من البطاطا».

«اظن أن شهيتي مسدودة».

«حسناً، لدي أخبار لك يا كاري جرانت[1]، لقد بدأ بنطالك يهزل عليك».

---

(1) الممثل الأمريكي البريطاني المعروف، اسمه الأصلي أرشيبالد ألكسندر ليش.

«آه. لقد أجدت إقناعي. البيض مقلي فإذن؟».

«وتوست».

«وتوست».

جلس جاك إلى الطاولة، هازاً قدمه. تنحنح.

«ماذا؟».

«لا شيء، ولا أيّ شيء». ثم بعد دقيقة قال: «صحّحي لي إن كنت مخطئاً، لكن أظن أنني سمعت للتو بأنني لست الآثم الوحيد في هذه العائلة»، ثم ضحك وغطى وجهه بيده «الآن هذا كان خطأ على الأرجح. يا لي من مغفّل».

قالت غلوري: «حسناً إذن، لنقل فحسب، إنك لست المغفّل الوحيد في العائلة»، وكسرت بيضة في المقلاة.

«لكنك لم تخبري الموقّر بهذا، كما فهمت».

«كيف تسأل حتى؟».

هزّ رأسه. «هذا ما ظننته».

«الغباء ليس خطيئة، على حدّ علمي. لكن يجدر أن يكون كذلك. يمنحك هذا الشعور. يمكنني مسامحة نفسي على كل شيء آخر».

«يمكنك مسامحة نفسك».

«أجل يمكنني».

«هذا مثير للاهتمام».

نظرت إلى ساعتها.

قال: «سنغيّر الموضوع».

ثم قال، وكأنما تعهّد بمواصلة المحادثة «تلك المرأة من سانت لويس التي ذكرتها... تغني في كورس كنيستها بالطبع. وأحياناً إذا لم تأت

السيدة التي تعزف لهم البيانو أحلّ محلها. كنت أذهب على أية حال لكي أستمع. تلك العجوز تعزف بصورة حقيقية، إلا أنها كانت لطيفة، وعلمتني بقدر ما يمكنني التعلم. عزفت من أجلهم مرات قليلة. كنت أذهب إلى الكنيسة في ليالي الأسبوع لكي أستعمل البيانو، وما دامت الموسيقى غير دنيوية كثيراً، لم يمانعوا. كان يمكنني جني رزق محترم لو عزفت في الحانات، إلا انهم كانوا... حسناً، كانت حانات. فبقيت في كنيستها. كان ذلك جيداً. أعني كنت سعيداً حينذاك». نظر إليها، ابتسم لها. «لِمَ تضحكين، ألا تصدقينني؟».

«بالتأكيد أصدقك. كنت أتساءل أنا الأخرى أين تعلمت عزف تلك الترانيم بهذه البراعة».

«ها قد عرفت. دليل على صدق كلامي. وأنت تضحكين على أيّة حال».

«هذا لأنني التقيت الرجل، كما تعرف، الذي لم أتزوجه، خلال تمارين في الكورس. قال إنه كان يعبر الشارع وسمع الموسيقى، وأعاده ذلك إلى أحلى لحظات طفولته. وطلب منا أن يجلس ويستمع قليلاً واعداً بأن يبقى صامتاً».

«يا له من رجل، أحلى لحظات طفولته، كان يمكنني ان أنذرك. هذه العبارة كانت لتصرفه بعيداً».

«أجل، بلا شك. لكن في ذلك الوقت لم أعرف إذا كنت حياً ام ميتاً. لذا لم أستطع أن الحصول على حكمتك».

«صحيح». تنحنح جاك. وتنحنح ثانية. «لا أريدك أن تظني أنني كنت أتسكع في تمارين الكورس بحثاً عن النسوة الهشات. التقيت.. المرأة التي ذكرتها، وأنا أمر بالمبنى الذي تسكن فيه ذات يوم. كانت

تمطر وكانت عائدة إلى البيت من المدرسة، هي أيضاً معلمة لغة إنجليزية. أوقعت بعض الأوراق وساعدتها على جمعها. وهكذا. كنت قد عثرت على مظلة على مقعد منتزه قبل يومين من ذلك، وإذا بي أجد أمامي سيدة بحاجة إلى إنقاذ. أصبحنا صديقين من دون أي حساب أو تخطيط من قبلي. كان كل شيء بالغ الاحترام، حقاً».

قالت: «البحث عن النساء الهشات».

«أوه حسناً، لم يكن هذا ما قصدته تماماً».

«بيد أن هذا ما كان يفعله. أنت مصيب تماماً. لكنني لم أصغ ذلك لنفسي بهذه الكلمات».

«عذراً». ابتسم وغطى وجهه. فكرت، لِمَ امتقع لونه؟ ثم قال: «تعرفين، بقولي نساء هشات عنيت حقاً متدينات. أجل. الفتيات الورعات رقيقات القلوب. يصدقن القصص المحزنة. هكذا سمعت. وهذا لصالحهن بالطبع. وهم عادة يعشن حيوات محمية. وتكون معرفتهن قليلة بعض الشيء بهذه الدنيا. فهن ينشأن على فكرة أن أحدهم يجدر به أن يحبهن لهذا السبب، لفضيلتهن وما شابه. وهن مستعدات لتصديق كل من يخبرهن، كما تعرفين، عن أمه الملاك، وكيف أن تفكيره بورعها هو بمثابة منارة تشعّ في أكثر عواصف الحياة ظلمة. هكذا قيل لي. وغالباً، في ليلة باردة، سيكون ثمة كعك وقهوة بالمجان. وهذا يمكن أن يوقظ الناحية المنافقة في الرجل، لو كان لديه معطف هزيل أو ثقباً في حذائه. كما أفهم». ثم قال: «لو كانت لي ابنة، لما تركتها تقترب من تمارين الكورس».

لم تقل شيئاً.

وقف جاك وقال: «أجل، حسناً، لا يزال ثمة القليل من ضوء النهار.

يحسن أن أذهب وأجعل من نفسي مفيداً. أن أكسب خبزي من عرق جبيني، كما يقولون». وقف عند الباب، وظل واقفاً هناك ينظر إليها. وبعد لحظة طويلة قال: «أعرف أنه يجدر بي مغادرة هذه البلدة. لكنني لا أستطيع المغادرة بعد».

«اجلس يا جاك. لا أحد يريدك أن تغادر. البابا لا يريدك أن تغادر، ولا أنا».

قال: «حسناً، هذا لطيف منك، لطيف منك قوله».

«ليس حقاً. أنا أقدّر الرفقة»، ضحكت «طوال حياتي أردت جذب اهتمامك. أردت التكلم معك. إنها لعنة الشقيقات الصغيرات على ما أظن. عرفت أن ذلك سيكون صعباً. لطالما كان هذا واضحاً بما فيه الكفاية».

رفع كتفيه: «يسرني أن أعرف أنني أرتقي إلى مستوى التوقعات».

قالت: «البابا محق بالطبع. لا أنا ولا أنت كنا لنكون هنا، لولا نوع ما من... الصعوبات. لذا لا جدوى كبيرة من ادعاء العكس، على الأقل حين يكون نائماً. لقد كنت خائفة من كلمة هشة، لكن لا يقتلني أن تقولها. لذا الآن أعرف ذلك».

«على الرحب».

ثم قالت: «أهي المرأة التي تراسلها، تلك التي ذكرتها؟».

ابتسم: «بالطبع، نعم، أراسلها. فعلت صبيحة اليوم فحسب. أرقت دمعة مع توقيع اسمي. كانت من مياه الحنفية، لكن الفكرة هي المهمة. تلك كانت الرسالة رقم مئتين وثمانية».

قالت: «حسناً، عذراً على السؤال».

قال، بصوت منخفض جداً: «أخشى أن تكوني آسفة بالفعل أحياناً.

أعني إذا عرفتني جيداً بما فيه الكفاية، قد لا ترغبين بوجودي هنا. وقد تطلبين مني أن أغادر». ابتسم «ثم ماذا أفعل؟ من الذي سيبقيني بعيداً عن المشكلات؟».

قالت: «حسناً يا جاك، لا أظن أنه عليّ ان أقول لك أين سمعت هذا الكلام من قبل».

«هذا أيضاً!»، رفع كتفيه. «في حالتي على الأقل تعرفين أن ثمة عنصراً من الحقيقة في الأمر. وهذا عل الأرجح كان في حالته أيضاً».

فكرت، كم يبدو كئيباً. فقالت: «أتذكر حين أعطيتني فلساً لكي أكفّ عن البكاء؟ كنت في البيت بسبب النكاف، وكنت في حالة يرثى لها من الضجر. وظننت أن الجميع غيري في المدرسة. إلا أنك خرجت من غرفتك، وأخرجت من جيبك فلساً وقلت لي إنك ستعطيني إياه إذا كففت عن البكاء. فكففت. ثم سرعان ما عدت وأعطيتني قرشاً لكي أتوقف عن الحازوقة. ثم أعطيتني قرشاً آخر إذا وعدتك بألا أخبر أحداً من أين جئتُ بالمال».

قال: «حسناً، كان هذا جيداً مني، على ما أظن. أهذا ما تودّين قوله؟».

«أجل. كنت مسرورة جداً... أردت الاحتفاظ بذلك المال، في الحقيقة، لكن أظن أنني أنفقته على اللبان. أنا واثقة من أنني احتفظت به لأسبوع أو اثنين».

«إذن. يبدو أنني اشتريت لنفسي بعض الوقت. ربما بعض الصبر».

«بعض الولاء».

«ممتاز. يا لها من صفقة». ضحك «إذا تذكرت شيئاً آخر يرفع من رصيدي، فأعلميني به».

«وعلمتني كلمة: هبوب».

«حسناً، لا تخبريني بكل شيء دفعة واحدة. لا أريد أن أستنفد رصيدي».

«اجلس إذن». قدمت له البيض والتوست وأعادت ملء فنجان قهوته، وجلست قبالته إلى الطاولة. أكل بطاعة ولم يمانع حين سألته إذا كان يريد المزيد. جلسا صامتين لمدة. قالت: «أوشكت على التاسعة».

غسل جاك طبقه وفنجانه ووضعهما في الخزانة، وجلس ثانية.

قالت غلوري: «كيف ظننت أنك الآثم الوحيد في العائلة؟ إننا مشيخيون!».

«أجل، كلنا أثمنا وسقطنا»، ضحك، «الكلام هيّن»، ثم قال: «أعني عليك الاعتراف بأن ثمة فرقاً بين ذاتي الملوثة، ولنقل مثلاً الدكتور ثيودور دي دبليو بوتون».

قالت: «لا بأس بتيدي. نيته حسنة».

«رغم فضائله وإنجازاته».

«أجل، على نحو ما، هذا صحيح».

ضحكا.

قال جاك: «ربما ليس من إنصاف في العالم في نهاية المطاف. يا لها من فكرة رائعة».

هزت كتفيها: «اعتماداً على الظروف».

غطى جاك وجهه. «آه، أجل. الظروف. الإحساس بالجريمة. الدليل المادي».

نظرت إلى ساعتها.

بعد قليل قال جاك: «أظن أنه يجدر بي أن ألقي نظرة على الموقّر.

أفتقد العجوز. منذ أسبوعين كان ليكون هنا الآن مع الداما. وفي طريقه إلى السرير ثانية.

هزّت رأسها: «لا أظن أنه سيبقى معنا طويلاً».

«إذن، ماذا ستفعلين عندئذ؟».

«سأدرّس، في مكان ما، ليس هنا على ما آمل. أحب التدريس». ثم قالت: «أرأيت تيدي منذ غادرت البيت؟».

«آه، أجل مرة. جاء إلى سانت لويس وبحث عني. راح يجول في الشوارع السفلية حاملاً صورتين فوتوغرافيتين حتى وجد شخصاً تعرّفني. استغرقه الأمر أياماً. كان هذا منذ زمن بعيد. كان قد تخرج لتوه في كلية الطب. وكنت... ليس في أحسن حال. ربما كان ذلك الحضيض بالنسبة إليّ في حقيقة الأمر. جلسنا على مقعد وتناولنا الشطائر معاً. طلب مني العودة معه إلى البيت، لكنني رفضت. عرض عليّ بعض المال وأخذته. كانت تجربة بائسة لكلانا. ألم يأت على ذكرها؟».

«لا، ليس على حدّ علمي».

«جعلته يعدني ألا يفعل. وألا يبحث عني ثانية. ولم يفعل ذلك أيضاً. على الأقل لم يجدني». ضحك «تلك الصور ما عادت لتكون ذات نفع بعد مدة».

«إنه رجل يفي بوعوده».

هزّ جاك رأسه: «هناك الكثير مما يسعني الندم عليه، إن كان ثمة أيّ جدوى في ذلك».

«سيأتي في عيد الميلاد. وفي عيد الشكر أيضاً، إذا تمكن من الابتعاد. مع كورين التي لا تتوقف عن الكلام. الأطفال لطيفون».

هزّ جاك كتفيه. «الكثير من الغرباء. أناس لا أعرف أسماءهم».

«ست أزواج وزوجات إخوة. . اثنان وعشرون طفلاً. وستة منهم متزوجون، لذا ستة أنسباء آخرون. خمسة أحفاد».

«كله في هذا البيت؟».

«الكثير منهم».

«واو!»، تفكّر في هذا، «إذن كنت تعودين إلى البيت طوال تلك السنوات؟».

«معظمها».

«مع... إمم... زوجك؟».

«نظرت إلى ساعتها.

ضحك، ورفع شعره إلى الوراء. «أجل، كنت سأطمئن على العجوز».

نهض ودخل إلى الصالة وبعد بضع دقائق سمعت الباب الأمامي يفتح ويغلق بهدوء. أوه! فكرت. بالطبع، كان عليّ أن أعرف. الآن سأجلس هنا وأنتظر عودته. لا. سأجلس هنا عشرين دقيقة. لمَ أفعل هذا؟ لأنه قد يعود بعد عشرين دقيقة، وإذا صعدت إلى الطابق الأعلى فسيعرف بمَ كنت أفكر، وهذا لن يكون حسناً. ومع ذلك، لماذا يخرج متسللاً هكذا؟ لكن ما الضير في انتظار عشرين دقيقة؟ نصف ساعة؟ لن أذهب بحثاً عنه. سيكون هذا سخيفاً، خاصة إذا كان قد خرج لسبب آخر. وكأن ثمة أيّ سبب آخر، في هذا الوقت من الليل. سوف أمنحه نصف ساعة.

بعد عشرين دقيقة سمعت الباب يفتح ويغلق. دخل وجلس وابتسم رافعاً كتفيه. «خرجت لكي أدخن سيجارة».

«لا أمانع أن تدخن في البيت. بابا لا يمانع».

قال: «تمشيت قليلاً».

«لا بأس».

قال: «خرجت لشراب. لكنني لم أغادر الشرفة حقاً».

«أحسنتَ صنعاً».

«أجل، أحسنت صنعاً»، وابتسم.

«وكيف هو العجوز؟».

هزّ رأسه «حسناً، كما تعرفين إنه عجوز. لا أعرف لم!، لكنني لا أستطيع التعوّد تماماً على ذلك. حين كنا صغاراً، كان أطول من آيمز، أليس كذلك؟ كان مهيباً جداً. كان يبدو لي أطول من الجميع. وكانت له تلك الضحكة الغامرة. كنت فخوراً به، حقاً كنت».

«كنا جميعاً فخورين به».

«بالطبع».

«وكنا فخورين بك».

نظر إليها: «لَمَ يصعب عليّ تصديق ذلك؟».

«لا، حقاً. ليس دائماً. وصار الأمر أصعب مع الوقت». ضحكت. «لكننا ظننا أنك كنت، لا أعرف، وهمياً، قرصانياً، زئبقياً...».

قال: «كنت مزعجاً وشقياً. كنت وغداً!».

قالت: «حسناً، أنت تعرف التفاصيل أكثر مني. أخبرك فحسب كيف بدوت لبقيتنا».

ابتسم: «يا لها من مفاجأة سارة»، ثم قال: «آيمز لطالما تمكن من رؤية دخيلتي. وحين ينظر إليّ لا يزال يرى وغداً. وقبل أيام راودني شعور أنه ربما ليس مخطئاً تماماً.. إذن، بدأت أكون فاتناً كما تعرفين. مداهناً بعض الشيء». ضحك. «ناديته بابا. استحقّ ذلك أيضاً. لم يذكر حتى لزوجته

أن والدي كرمه بجعلي سميه. أتتخيلين ذلك؟».

«إنك تستفزّ بالفعل الجانب المزاجي فيه».

«الشيطان العجوز المسكين»، هزّ جاك رأسه، «لقد امتحنتُ صبره. كما أستفز قطة أو أحرك كثيب نمل. ذات مرة فجرت علبة بريده. كان يمشي في الشارع آتياً من درس الكتاب المقدّس. ما إن وضع كتبه على درج الشرفة، ثم مضى وأحضر خرطوم الحديقة. لا أحسب أنه أخبر أحداً بهذا»، ضحك، «كان عرضاً حقيقياً بحق. كانت عتمة. كان عليّ التسلق عبر النافذة إلى غرفتي، فالوت كان متأخراً جداً».

«تعرف، لقد نقلوك إلى تلك الغرفة التي ينحدر سقف الشرفة تحت نافذتها، لكي تتمكن من الفرار من دون أن تعرض نفسك للقتل. أتذكر تلك المرة التي كسرت فيها التعريشة وحسبتك أمي متّ بسبب الفواق الذي أصبت به».

«ظننت أنهما نقلاني فحسب لكي يبعدوني عن التعريشة».

«هذا أيضاً بالطبع. فكرا أن يخبراك أنه يمكنك المغادرة من الباب إذا كنت مصراً للغاية على الخروج. إلا أنهما خشيا أن يبدو هذا تشجيعاً لك».

نظر إليها. «أيّ حق كان لي بأن أكون غريباً إلى هذا الحدّ؟ كان سؤالاً وجيه. فقدت ساعتي. لابدّ من أنها العاشرة الآن».

«أجل، وخمس دقائق. كنت طفلة حين قلت ذلك عنك. أملت أن تكون قد نسيتها. لم تعن شيئاً».

ضحك: «من أفواه الأطفال والرضع. عمت مساء الآن».

صعدت إلى غرفتها وجلست إلى النضد لكي تمشط شعرها. سمعت باب البيت يفتح ويغلق بهدوء.

نزل جاك متأخراً صباح اليوم التالي وسألها إذا كان يمكنه استعارة مظروف.

«أتحتاج إلى طابع بريدي؟».

«أجل، شكراً لك». أخرج رسالة مطوية من سترته ودسها في المغلّف وختمها، ووضع الطابع البريدي، ثم ذهب إلى حجرة الطعام لكي يكتب العنوان. حين عاد إلى المطبخ حمل إبريق القهوة. «فرغ كله».

«سوف أعدّ لك إبريقاً طازجاً بينما تعود».

«شكراً غلوري»، ثم قال: «آسف لأنني أبقيتك مستيقظة ليلة أمس. كنت مضطرباً. احتجت إلى نزهة».

«لا، أويتُ فوراً إلى النوم»، قالت، وهو ما لم يكن صحيحاً.

«حاولت أن أتحرّك بهدوء».

«لم أسمع شيئاً». وكان هذا غير صحيح كذلك. سمعته وهو يدخل من الباب بعد الثالثة بقليل. نزهة من خمس ساعات. حسناً، لطالما كان لغزاً.

كان والدها متجهماً ذلك الصباح، بعد أن سمع فتح الباب وغلقه السريين، كما افترضت، ثم ثانية، فتح الباب وغلقه والخطوات الحذرة على الدرج. «ليس من جاك على الإفطار هذا الصباح، فهمت»، قال «الأشياء لا تتغير على ما أظن، الناس لا يتغيرون، هكذا يبدو». حمل الصحيفة، وتصفحها لدقيقة أو اثنتين، ثم وضعها من يده ثانية. «أظن أنني سأذهب إلى غرفتي يا غلوري، لو لم يكن لديك مانع في مساعدتي».

«لم تلمس طبق الحبوب يا أبي».

«هذا صحيح. لا أشعر برغبة في ذلك فحسب، لو لم تمانعي». فأخذته إلى غرفته وساعدته ثانية ليضطجع على سريره. سوف تكلم جاك، حين يبدو الوقت مناسباً، وحين يمكنها التفكير بطريقة سلسة تقارب بها الموضوع. لم يكن ما يدل على ما سمعه العجوز، أو ما يعرفه، إلا أنه كان من الواضح القلق الذي جعله شديد الوعي هكذا. جاك أقلق نومه حتى حين لم يغادر البيت في منتصف الليل. خمس ساعات، فكرت، متخيلة والدها، مستيقظاً في العتمة. جلست أمام شبكة الكلمات المتقاطعة. قبل أن تفرغ منها نزل جاك مع رسالته وغادر إلى مكتب البريد.

رأته مقبلاً على الطريق ثانية، ورأت في سيماء وجهه بعض الكرب، إلا أنه ابتسم حين وصل إلى الباب ووضع قبعته على الثلاجة وعلبة من القهوة على الطاولة «فكرت أنه ربما نفد البن عندنا، ألم يصحُ الموقر بعد؟».

«أظن أنه لم ينم جيداً. لم يرغب بتناول الإفطار. أعدته إلى السرير».

قال جاك: «أوه، أنا آسف، لابدّ من أنها غلطتي».

«لا سبيل لنعرف. النوم ليس سهلاً دائماً بالنسبة إليه».

قال جاك: «أجل»، وهزّ رأسه، وكأنه يقبل توبيخاً.

سكب لنفسه كوباً من القهوة وجلس إلى الطاولة وفرد الصحيفة. ثم وضعها جانباً، «أرأى هذا؟».

«ماذا؟»، نظرت إلى العنوان العريض: «موجة من عمليات السطو». قالت: «لا أعرف، أظن أنه رآه، لمَ؟».

فرك عينيه بظاهر يديه: «لا سبب على ما أظن. حين دخلت إلى

الصيدلية هذا الصباح، توقفوا عن التكلم. تعرفين الإحساس الذي تشعرين به حين تكونين السبب لتوقف الناس عن التكلم». ضحك «فدخلت إلى البقالية، فقط لأرى إذا كان سيتكرر ذلك، فتكرر. كنت أحاول أن أقنع نفسي بأن هذا لا يعني شيئاً».

قالت: «حسناً، أشك في أنه يعني شيئاً يا جاك. لم سيظن أحد أن لك صلة بالسرقة؟ البابا لا يفكر كذلك».

ضحك وراء يديه، وقال: «أنا آسف، هذا مذل».

«لا أفهم».

«فعلت هذا مرة. فعلت هذا تماماً. خرجت ليلاً وجربت مقابض الأبواب ووجدت بابين مفتوحين وسرقت بعض المال والجعة. رأى تيدي ذلك في غرفتي. قال إنه سيخبر الموقّر لكنه لم يفعل. أمهلني ساعة لكي أعيد المسروقات فشربت الجعة خلالها. ثم صعد العجوز وجمع المال وأخذني لنعيده، ثملاً كما كنت. لم أستطع التوقف عن الضحك... آه!».

«حقاً يا جاك. لابدّ من أن هذا كان قبل.. كم سنة؟ ثلاثين سنة؟».

«إممم... ثمانية وعشرين تقريباً».

«كيف تحسب أن ثمة من يتذكر ذلك؟».

«ألا تظنين أنه يتذكر؟».

«هو يتذكر على الأرجح، على ما أظن. لكن هذا لا يعني أن أحداً سواه يتذكر. ولا يعني أنه يظنّ أنك فعلت هذا، بحق السماء».

نظر إليها: «أأنت مستعدة للشهادة حول مكان وجودي؟».

«مستعدة»، قالت، «بالطبع مستعدة. لكنني لا أعرف شيئاً... أماكنك هي الأكثر سرية دوماً».

هزّ رأسه: «هذا سيتغير. لكن ترين ما قصدت قوله».

«لا، لا أرى. علاوة على أن هذا حدث ليلة قبل أمس، حتى يكون في صحيفة الصباح».

«أغادرت البيت ليلة أول من أمس».

«لا أعرف».

رفع كتفيه قائلاً: «أفهمت قصدي؟».

«أخرجت؟».

هزّ رأسه. قال: «لا أقدر على النوم، لا أستطيع المشي في البيت. إنه يسمعني. لا أستطيع المكوث في تلك الغرفة. حسناً الآن سأفعل». نظر إليها «لن أغادر بعد الآن».

«تغادر؟ لكن ربما لم يحدث أي شيء يا جاك، ربما تذكر أبي تلك المرة السابقة، لكنه سينسى الأمر ثانية...».

«ماذا سأقول له؟ بالمناسبة يا أبي، لم أكن أسرق المال من الحانوت؟»، ضحك.

«لن تقول شيئاً. أمور كهذه تحدث. لا يتعلق الأمر بك».

«صحيح. يجب أن أتذكر ذلك. سوف أبقي هذا في رأسي».

«الآن، ماذا تودّ أن تتناول على الإفطار؟».

«المزيد من القهوة».

«لا، سوف تأكل شيئاً. إذا أردت أن تبدو مثل راسكولنيكوف[1] لا بأس، وإلا عليك أن تبدأ بالأكل. سوف يساعدك هذا على الأرجح على النوم. سوف أعدّ الفطائر».

(1) روديون رومانوفيتش راسكولنيكوف: الشخصية الرئيسة في رواية فيودور دوستويفكسي «الجريمة والعقاب» من سماته المعروفة شدة النحول.

ضحك: «أوه رجاء، ليس الفطائر، يجب أن تدعيني أجوع لأتناول هذه».

«التوست الفرنسي، دقيق الشوفان، البيض والتوست».

«الآن أنا راسكولنيكوف، بالأمس فحسب كنت كاري جرانت».

«أنت لا تأكل ولا تنام. هذا ما يحدث، سوف أعدّ التوست الفرنسي».

«أجل، يجب أن أحافظ على قوتي على ما أظن. يجب أن أحاول أن أبدو قابلاً للتوظيف».

قالت: «إذن أنت تفكّر حقاً بالبقاء هنا؟».

رفع كتفيه: «لقد خطرت الفكرة ببالي بالتأكيد».

«يفاجئني ذلك».

«وأنت تريدين المغادرة».

«نعم سأفعل، أكره هذه البلدة».

«لِمَ؟».

«لأنها تذكرني بالزمن الذي كنت فيه سعيدة».

«أوه. لا أحسب أن ثمة أملاً بأن تعيدي التفكير في ذلك».

على الأرجح لا. أيجدر بي ذلك؟».

ضحك: «أظن أنك ربما تكونين الصديقة الوحيدة لي في العالم حالياً يا غلوري. لا أحد سواك يهتم بإجباري على تناول الإفطار. فدوافعي أنانية إذن، كما هي دائماً».

حرّكت الحليب والبيض، وحمّت المقلاة «أعرف أن هذا قد يكون لباقة من جانبك»، قالت، «سأصدقك إذا فعلت فحسب ما أطلبه منك. كل أولاً. وكفّ عن القلق حول كل شيء».

«سوف أبذل جهدي البسيط، بجدية، سوف أفعل».

«ثم قد أعيد التفكير في الأمر في نهاية المطاف».

«لطيف منك أن تقولي هذا يا غلوري، كان كل شيء سيكون أصعب بكثير لولا وجودك هنا. سيكون مستحيلاً في واقع الأمر. أعرف أن هذا لا يلزمك بأي شيء...».

ناداهما والدهما من الغرفة المجاورة: «أشمّ رائحة شهية جداً. يا سلام، إفطار متأخر. سيكون هذا رائعاً!».

«آتية يا أبتاه»، قالت، وساعدت العجوز على أن يستجمع شتات نفسه وجاءت به إلى المطبخ. كان جاك قد أعدّ الطاولة ووقف ينتظرهما. تلك المراعاة، ذلك الاحتراس. لم تكن الصحيفة على مرأى النظر.

«إذن جاك، صحوت باكراً اليوم. صح».

«نعم سيدي، أردت وضع رسالة في البريد».

«حسناً، هذا جيد»، ثم قال: «أيمكنك تلاوة الصلاة لنا يا جاك. أظن أنني لست في تمام صحوي بعد. لست مستعداً للصلاة بعد».

«ربما غلوري...».

«لا، لا جاك، أريد سماع الصلاة منك. ساير شيخاً مثلي».

«حسناً»، تنحنح، «على كل ما سنتلقاه، ساعدنا لكي نكون شاكرين بحق، آمين».

نظر إليه والده: «هذا يفي بالغرض على ما أظن، لقد سمعت هذه الصلاة مرات ومرات. 'بارك هذه النعم لكي نستعملها، وباركنا لنكون في خدمتك...'، هه صلاة أخرى. مناسبة تماماً. والرب غفور. إذن يمكننا تناول الإفطار الآن».

قال جاك: «آسف».

«أجل، لا يهم. فالصلاة، كما تعرف، تفتح أفكارك، ثم تمكنك من رؤية هذه الأفكار بوضوح. لا جدوى من محاولة تخبئة أيّ شيء. ثمة فائدة عظيمة في كل ما يطلبه الرب منا، خاصة في الصلاة. كان عليّ أن أبذل جهداً أكبر لأنمّي فيك هذه العادة».

قال جاك: «لقد بذلت جهداً كبيراً على ما أذكر».

«ليس بما فيه الكفاية للأسف».

ابتسم جاك: «يبدو ذلك»، ونظر إلى غلوري.

قالت: «أترغب في الصلصة على التوست يا بابا؟ لدينا أيضاً العسل ومربى التوت».

«الصلصة جيدة. ها أنا أحاول شرح أمور كان يجدر بي الاهتمام بها قبل أربعين عاماً. حسناً، خذها فقط كحكمة أبوية، يا جاك. الصلاة هي فحسب انضباط في الصدق، في النزاهة».

قال جاك: «أجل سيدي، سوف أربط هذه الكلمات علامة على يدي. وستكون دائماً عصائب بين عيني»[1].

نظر إليه والده: «ربما تقول هذا تهكماً، لكنك على الأقل تعرفُ الكتاب المقدس».

«لم أقصد التهكم حقاً».

«جيد جداً. لكن هاك الشيء الآخر الذي أريد الاهتمام به. خطر لي خلال الصلاة هذا الصباح. ثمة حساب في المصرف، بعض المال من ميراث أمك. كنت سوف أتركه لكم جميعاً لكي تتقاسموه بعد موتي. لكنني سأخبر المصرف بأنني سأسمح لكما أنتما الاثنان بالدخول إليه.

(1) الكتاب المقدس، سفر التثنية، 11: 18، «فضعوا كلماتي هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامة على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم».

ليس من سبب أن تكونا بحاجة إلى المال، لا حاجة إلى متاعب من هذا القبيل».

تضرّج وجه جاك، وغطى وجهه بيده.

«أجل»، قال والده، «اسمنا آل بوتون لأن جد والدي كان إنجليزياً، لكن ما عدا ذلك نحن اسكتلندنيون. تعرف بشأن هذا كله. لكنني ذكرته فقط لأن جدي دائماً كان يقول لي، وأبي أيضاً، أنك لا تستطيع أن تكون شديد الاحتراز بخصوص المال. لكن أظن أنه يستطيع المرء أن يكون كذلك. وأظن أنني كنت محترزاً اكثر من اللزوم بشأنه. كان والدي، كما تعرف، رجل دين، رجلاً صالحاً جداً، إلا أنه كان بخيلاً على نحو فكرت بألا أكون مثله. لطالما كانت نيتي أن أكون باسط اليدين، خاصة مع أطفالي. كما أمكنني أن أكون، لأن والدي العجوز المسكين ترك لي المزرعة وهذا البيت والأثاث. لكنني أظن أنني كنت مثله أكثر مما أظن. لدي مال يقبع هناك في المصرف فحسب، عاماً بعد عام».

قال جاك: «لطالما كنت كريماً».

«لكن ليس كما أمكنني أن أكون. لذا أريد أن أغيّر هذا الآن».

«لا أرى حاجة فعلية لذلك».

«السبب ليس الحاجة يا جاك. إذا كان يخفف من أعبائك قليلاً، فهذا سبب كاف. أكره التفكير بأنك قد تواجه أي مشكلة لأن والدك كان ستكلندياً عجوزاً بخيلاً!».

«أؤكد لك عكس ذلك سيدي».

«جيد. هذا حسن. لكن ثمة تلك الرذيلة الأخرى التي تخص الإسكتلنديين كما تعرف. الخمرة».

ابتسم جاك: «هكذا أفهم».

«هذا وباء بينهم، كما قالت جدتي. ليس لديهم أيّ دفاع ضده. قالت إن رجالاً صالحين كثراً دمرهم الشراب».

«مذهل».

«أجل، إنه كذلك. حين تطعن في السن مثلي، ستفهم. هناك أمور جدية، لها عواقب وخيمة».

«أنا آسف، لم أقصد قلة الاحترام. لم أقصد ذلك حقاً».

نظر والده إليه: «أعرف ذلك يا جاك. وأرى أن الخطأ هنا هو خطأي. لقد كنت أكلمك وكأنك شاب يافع، وأنت لست يافعاً على الإطلاق».

ابتسم جاك.

«كنت أقول أشياء لك كان يجدر بي قولها قبل سنوات طويلة».

«لقد قلتها بالفعل يا سيدي».

هزّ العجوز رأسه. «ظننت أنني ربما قلتها».

قالت غلوري: «لم يتناول أي منكما قضمة واحدة. إنكما تضمحلان أمام ناظري، والكلاب في هذا الحيّ لم تعد قادرة على المشي لشدة ما سمنت. هذا سخيف».

«أجل غلوري، حسناً، أنا متعب جداً الآن».

«آسفة أبي، لكنّ أحداً لن ينهض عن هذه الطاولة قبل أن يتناول إفطاره».

ابتسم جاك وتمطّى ونظر إليها وكأنه سيقول إنها ليس لديها فكرة عن صعوبة ما تطلبه منه، إلا أنه تناول بضع قضمات، «رائع غلوري، شكراً لك»، ودفع كرسيه إلى الوراء.

«لم تنته بعد».

«هذا صحيح»، قال، وألقى رأسه فوق يده وتناول ما وضعته في طبقه، بانصياع تام، «ها قد انتهيت»، قال، «والآن هل يمكنني النهوض».

«لا، يمكنك التريّث حتى ينتهي البابا. أين حسن سلوكك؟».

قال والدها: «طاغية منزلية تامة، أترى ما اضطررت إلى معاناته».

«توقف عن التذمر وكل».

قال والدها: «لن أمانع لو قطّعت هذا قليلاً لي يا غلوري. يمكنك مساعدتي في هذا».

«آسفة، كان عليّ الانتباه إلى ذلك».

قال: «أنت مشغولة جداً بإلقاء الأوامر»، وضحك.

جلس جاك إلى الخلف طاوياً ذراعيه على صدره، وشاهد العجوز وهو يكافح لكي يطبق يده على الشوكة. الندبة تحت عينه كانت أكثر بياضاً، كما هي الحال، باتت تعرف الآن، حينما يكون سئماً.

بعد أن وضعت العجوز في فراشه، عادت إلى الحديقة. كان جاك قد بدأ بالعمل، مقطعاً الحطب. توقف لكي يشاهد ساعي البريد يمرّ على الطرف المقابل من الشارع، ثم أشعل سيجارة.

قالت: «احذر من سيد فايف[1]».

قال: «أجل، أن يكون المرء اسكتلندياً ليس بمسكبة من الزهور.

(1) من مسرحية ماكبث لشكسبير، الفصل الرابع، المشهد الأول، المشهد الذي تحذر فيه الساحرات أو يتنبأن له من أن ماكداف وهو سيد فايف، سوف يقتله، وهو ما يحدث في نهاية المسرحية حقاً، عندما يقتل ماكداف ماكبث لشكه بقتل الأخير ملك اسكتلندا، هنا تذكره أخته بكلام والدها عن استشراء الخمرة بين السكتلنديين.

اسكتلندي!»، ضحك. «لا أظن أنني رأيت يوماً واحداً منهم».

أظن أن الإسكتلنديين هم اسم آخر للمشيخيين. هذا يفسّر كل شيء إلى حدّ ما».

«الوغد العجوز المسكين. عذراً. ما كنت لأستقبلني كمشكلة. في هذه السن. ليس أنني لن أفعل»، ثم قال: «تعرفين، لو كان حصل سطو آخر، لجاء رجال الشرطة».

«الشرطة. أنت في جلعاد».

«أتكلم بجدية يا غلوري. هذا يمكن أن يكون بالغ السوء. على العجوز، وعليّ أيضاً. لقد بدأ يفكر أنني فعلتها».

«أنت تكبّر الموضوع يا جاك. لو اعتبرك لصاً، أكان أتاح لك الدخول إلى الحساب المصرفي ومدخرات العائلة؟».

«أجل كان سيفعل. لهذا السبب بالضبط كان ليفعل ذلك، مفكراً ربما أنني احتجت إلى المال. سيعطيني المال لكي يمنعني من السرقة ثانية. هذا ما كان يقصده في الداخل».

«ربما».

هزّ رأسه. «تعرفين أنني محق، لا أريدك أن تؤاسيني يا غلوري. أريدك أن تساعديني. هذا قد يخرّب كل شيء. إنني أتعامل مع أمور كهذه بطريقة بالغة السوء. لقد صرت أكثر سوءاً مع الخبرة».

«بالطبع سأساعدك. لكن يجب أن تخبرني بمَ عليّ فعله».

قال: «فكري فحسب معي. ساعديني على التفكير بما أفعله إن ساءت الامور. يبدو من الجنون من قبلي أن أكون خائفاً إلى هذا الحدّ، إلا أنني خائف»، ضحك، «لقد قمت... لقد قمت بأمور كثيرة سيئة في حياتي، إلا أن... إذا كنت سأسجن ثلاثين يوماً، فهذا سيقضي عليّ

تماماً». قال: «أخشى انني لست في أفضل حالاتي العقلية يا أختاه الصغيرة. لا أعرف كيف أتعامل مع هذا»، ثم قال: «يجب أن تبقيني بعيداً عن الشراب. هذا أول شيء».

«سأبذل جهدي جاك. سأفعل. أقسم لك. لكن إذا أردتني أن أساعدك على التفكير بهذا الامر، فعليك أن تمنحني بعض الوقت. وعليك أن تعدني بأن تحاول تجاهل كلام أبينا. لم يكن يجدر به التكلم إليك مثلما فعل. إنه ليس على طبيعته. لطالما أحبّك أكثر منا جميعاً».

«أحاول حقاً أن...».

«لو كان على طبيعته لكان ممتناً لك لتجاهلك كلامه».

مسح وجهه بظاهر كفه. «شكراً لك غلوري. هذا طيب من قبلك».

رأيا ساعي البريد يتوقف ويضع رسائل في علبة البريد، وبدآ يسيران معاً من الحديقة.

ضحك: «هذا مذهل، إنني في الجحيم بسبب 38 دولاراً».

نظرت إليه.

«أوه»، قال، «أوه»، ثم «لقد ذكر ذلك في الصحيفة يا غلوري. في المقالة. امتقع وجهه. توقف وفرك عينيه «يمكنني أن أريك. الصحيفة في غرفتي»، ثم ابتسم لها، ابتسامته المريرة المنهكة تلك، وكأنه يعرفها جيداً جداً، ولا يعرفها على الإطلاق في آن معاً.

قالت: «سامحني يا جاك».

قال: «بالطبع أسامحك. أي خيار لديّ؟». أخرج البريد من العلبة، فاتورة ورسالة من لوقا لوالدهما، نظر إليها، وناولها لها. «أتسمعين منه؟ من خطيبك؟».

«ماذا؟ لا؟».

«أتريدين ذلك؟».

«لا».

«أتراسلينه؟».

«لا».

قال: «خمس سنوات. هذا زهاء ألف وثمانمئة يوم. فكنت تتلقين رسالة إذن بمعدل واحدة كل أربعة أيام، أكثر أو أقل».

«لقد سافر».

ضحك جاك: «أجل، بالطبع سافر. مع ذلك فقد كان وغداً غزيراً في الرسائل».

«أحياناً كان يقصّ قصائد من المجلات فحسب ويوقع اسمه».

«وهذا الاسم هو؟».

«أيهم ذلك؟».

«أوه، لا أعرف. أنا أخوك الأكبر. قد أريد أن أتعقبه يوماً ما. وأكحّل عينه بلكمة. أستعيد بعض شرف العائلة».

قالت: «حسناً، يجدر بك أن تبدأ بالأكل قليلاً إذن».

«إذن هو رجل ضخم».

«لا».

«فهمت. نكتة أخرى عن بنيتي الجسدية».

«أجل. تستحق ذلك. تعرف أنني لا أحب التكلم في هذا الموضوع».

بدا يفكّر في الأمر. قال: «من آثم إلى آخر، لم أجد يوماً راحة في الاعتراف أنا أيضاً. فهو يطلق فحسب كل عاقبة وخيمة قد يكون

تجنبها المرء بالاحتفاظ بآثامه لنفسه. تلك كانت تجربتي الخاصة على أيّة حال».

قالت: «أظن إذن أن لدي هذا لأصبو إليه أيضاً».

رفع كتفيه.

قالت: «وعدت بمساعدتك، وسأفعل. لكنك لا تريدني على الأرجح أن أكون غاضبة منك. فأنا لا أفكر جيداً حين أكون غاضبة».

ابتسم: «هذا منصف بما فيه الكفاية. سوف أنسى أنني سمعت بهذا الإنسان، أياً يكن اسمه».

«جيد».

حسناً، ربما لن أنسى الجزء المتعلق بقص القصائد. هذا يرد بسهولة على الخاطر. كما أن الرقم أربعمئة واثنين وخمسين يبدو أنه قد استقرّ في دماغي». راح يتفرّس في وجهها «ثم أنني شعرت براحة كبيرة في فكرة أنه ثمة لطخة صغيرة في روحك، أشك في أنني سأنساها. وإن وعدتُ بأنني سأحاول». ثم قال: «ما هذا؟ آه، دموع! صديقتي الوحيدة في العالم وها قد جعلتها تبكي!».

قالت: «لست أبكي. أتريد مساعدتي؟».

ضحك: «أنا في حاجة إلى مساعدتك، بل في أمسّ الحاجة إليها».

«لقد قلت لك. لقد وعدتك».

«أنت تبكين».

«وإن يكن؟ اعتن بأبينا. سوف أصعد إلى غرفتي. يمكننا التكلم عن الأمور بعد أن أنال قسطاً من الراحة».

فتح لها الباب وتبعها إلى الداخل. قال: «غلوري».

«ماذا؟».

«أعرف أنني أطلب منك الكثير. أعرف ذلك. بيد أنني أتمنى ألا تتركينني وحيداً الآن». وضع يده على وجهه. ضحك. «ما كان التعبير الذي استعملته قبل قليل؟ آه أجل، قسماً بالله».

اقتربت منه لكي تتمكن من التكلم همساً: «هل خطر لك يوماً أنك لست الإنسان الوحيد البائس في هذا البيت؟ يجدر أن يكون هذا واضحاً بما فيه الكفاية. أقل ما يمكننا فعله هو تجنّب جعل الأمور أسوأ مما هي عليه».

ابتسم: «تعتقدين أنني لص حقير».

«كيف بحق الرب أعرف ما أفكر؟».

«أيها الولدان!»، نادى والدهما «يمكنني الإفادة من بعض المساعدة هنا!».

«آتيان بابا!».

كان العجوز مستنداً إلى كوعه بين الملاءات. «يا للأحلام التي رأيتها هذا الصباح! لقد استهلكت طاقة يوم كامل وأنا أتصارع مع هذه الملاءات! أما زال جاك هنا؟ أجل، ها هو، ها أنت». وعاود الغرق بين وساداته.

ابتسم جاك من الباب: «ما زلت هنا، لم تتخلص مني بعد».

«أوه صحيح، أتخلص منك، تعال إلى هنا لكي أرى وجهك يا بني. هكذا كان الأمر في المنام. لم أكن قادراً على رؤية وجهك بوضوح. أتتذكر حين كنت في الثالثة عشرة تقريباً وحصلت على البدلة الجديدة في عيد الفصح؟ وتذمّر بعض الآخرين قليلاً، لأنهم قالوا إنك لن تذهب إلى الكنيسة على أية حال؟ إلا أنك في ذلك اليوم ذهبت فعلاً. كانت البدلة كبيرة عليك، إلا أنك بدوت رائعاً فيها. كانت ربطة العنق معلقة

حول رقبتك، وجئت إلي وعقدتها لك. أتذكر ذلك؟».

«نعم سيدي، أعتقد أنني كنت متأخراً».

«لا، كنت متأخراً تقريباً. هذا فارق مهم. جئت تعدو إلى زاوية الكنيسة ونوعاً ما قفزت فوق الدرابزين إلى الدرج، كأسرع وأروع ما يكون. ثم نظرت إليك وأظن أنك أملت أنني سأكون مسروراً، وبالطبع كنت كذلك، مسروراً جداً وكذلك كانت أمك. أجل. قرّب ذلك الكرسي إلى هنا واجلس قليلاً. دعني أنظر قليلاً».

ضحك جاك: «ربما عليّ أن أحلق ذقني أولاً. وأن أمشّط شعري».

«اقترب فحسب».

«حاضر سيدي».

«أتمانع لمرة فحسب».

وضع جاك الكرسي قرب سرير والده وجلس.

ربّت والده ركبته: «الآن أرأيت كم ذلك سهل، لم أطلب منك الكثير يوماً، أليس كذلك؟».

«لا سيدي، لم تفعل».

«فقط أن تعتني بنفسك. هذا مطلبي الوحيد. لا تلحق بنفسك الأذى. لا تتخلّ عن الأشياء التي وهبك إياها الرب من أجل راحتك. عائلتك. إخوتك وأخواتك. يخبرني الآخرون بأنهم لم يسمعوا كلمة منك».

«عذراً. سأعالج هذا الأمر».

«اتصل لوقا أمس. سألني إذا كنت ترغب في التكلم إليه وأجبته أنني لا أعرف. قال لي أن أسلّم عليك. قال إنهم جميعاً يرسلون تحياتهم لك».

ضحك جاك: «شكراً».

«كنت في مكتب البريد على أية حال، لكنه شيء لا أفهمه. رجل لديه ثلاثة إخوة رائعين ليس مضطراً إلى التعامل مع العالم وحده، مثل ذئب مستوحد. سيكونون مسرورين لتقديم المساعدة. وأنا أيضاً، إذا كان قد بقي فيّ حيل».

«أنا بخير».

«حسناً، هذا غير صحيح فحسب يا جاك. ما زالت لديّ عينان في رأسي. لقد ولدت سئماً. أيّ شخص يمكنه رؤية ذلك».

وقف جاك: «كما قلت، الأمور شاقة حالياً. وانا أبذل قصارى جهدي. وغلوري تساعدني، أليس كذلك غلوري؟».

«هذا جيد»، قال والده. ثم، وكأنما ليبرّر نفسه: «لقد أفقت فحسب من الحلم الأكثر حزناً! لطالما قالت جدتي إنه يمكنك الوثوق بحلم صباحي. آمل أنها كانت مخطئة بهذا الصدد».

«يبدو أنه يحسن بي أن آمل ذلك أيضاً».

«حسناً، ما زلت هنا. وأنت حيّ». وأغمض عينيه.

كان جاك قلقاً، فأعطته لائحة بالمشتريات المنزلية. فاجأها باستعداده لمواجهة جلعاد ثانية، ورحل مدة كافية لإثارة قلقها، إلا أنه عاد بكيس البقالة. رأته من الحديقة وتبعته إلى المطبخ. كان قد وضع قبعته على الثلاجة وفكّ ربطة عنقه «رطل من لحم الخنزير، رطل من الزبدة. رغيف من الخبز. وبصلتان صفراوان». وضع علبة من السجائر على الطاولة «أنا مدين لك بهذه.. وهذه هدية صغير لغلوري». مدّ يه إلى الكيس ثانية وأخرج كتاباً قديماً «حال الطبقة العاملة في إنجلترا في

1844. لفردريك إنجلز. هذا أفضل ما وجدته. لم أجد شيئاً لماركس. ولا دوبويس. ثمة الكثير من الأعمال لنورمان فنسنت بيل[1]، لكنني فكرت أنك قد قرأته مسبقاً». ابتسم.

أخذت الكتاب وفتحته: «لم يستعر أحد هذا الكتاب منذ 1925».

«أفترض لهذا السبب وجدته هناك أساساً. كان جالساً بسكون على الرف منذ ربع قرن من الزمن، منتظراً أن يعذب اهتمام أختي الناشئ بالماركسية». أخرج قطعة اللحم من ورقة الجزارة «أفضل قطعة لحم في المتجر، هذا ما قاله لي البقال. جيدة جداً، ألا ترين ذلك؟».

«أجل، جيدة جداً».

لفها ثانية ووضعها في الثلاجة «لا تبدين مسرورة».

«حسناً، ما زالت البطاقة في الكتاب، و1925 ما زال آخر موعد عليها».

«أوه، إممم. أتوحين بأنني سرقته؟».

«لا، لعلك أخفقت فحسب في الاستجابة بمعايير المكتبة قبل أن تخرج منها ومعك الكتاب».

«بالطبع».

«مخالفة صغيرة».

«بلا ريب. لكنهم كانوا ليسمحون لك باستعارته. ربما كنوا طلبوا منك توقيع اسمك».

«سأعترف، فكرت بهذا. لكنني فكرت، جاك بوتون، المتهتك والوغد المعروف شوهد في مكتبة جلعاد العامة وهو يستعير كتاباً من

---

(1) Norman Vincent Peal (1898–1993): واعظ ومؤلف أمريكي، عرف خصوصاً بكتابه «قوة التفكير الإيجابي».

الواضح أنه لا يتلاءم مع الكتاب المقدس. ها أنا أحاول أن أعيد تأهيل نفسي، فلأقل إنني أحاول تقديم صورة محترمة بقدر معقول عن نفسي في هذه البلدة. فبدت لي استعارة الكتاب غير واردة. كان يمكنني أن أقول الحقيقة وأخبرهم أن الكتاب من أجلك لأنك قلت لي إنك مهتمة باستكشاف الشيوعية، ولكن في هذه الحالة كنت سأعرضك لكل عاقبة خشيتها بخصوص نفسي. ولَمَ أفعل هذا، فكرت، في حين ثمة متسع كبير في كيس البقالة هذا؟ إذا كان دسه فيه مع الزبدة والبصل يشبه السرقة الحقيرة، فلن أحطّ من قدر نفسي في نظر غلوري، بما أنها تتوقع مني هذا النوع من التصرفات على أية حال».

قالت: «أوه».

«ماذا!؟».

«ما زلت أعاقَب».

«لا، قصدت ذلك كمزحة صغيرة على ما أظن». نظر إليها «لا يبدو أنك رأيت فيها الكثير من الدعابة». ضحك «أنت محقة. انتكاسة. يبدو الأمر برمته مجنوناً بعض الشيء، أليس كذلك. أخذاً بالظروف القائمة. يحسن ألا أبدو نشالاً الآن فحسب. أنت محقة تماماً». ثم قال: «حين دخلت إلى المتجر، حلّ بعض الصمت الذي ذكرته لك في المرة الماضية. إذا كانت جلعاد قد نسيت أيّ من تفاصيل مشكلات يفاعتي، فقد تذكرتها الآن. وكأن جاك بوتون هو اللص الوحيد في العالم. فليكن الرب في عوني إذا شبّ حريق في أيّ مكان في البلدة». نظر إليها «سوف أعيد إنجلز الليلة. ثمة شقّ في الباب».

«لا، لن تخرج ليلاً بعد الآن، أتذكر؟ ليس قبل أن تقفل الحانات. وليس بعد أن تقفل الحانات».

«حسناً، لقد نسيت ذلك»، ابتسم «إنني قيد الإقامة الجبرية. لكنني لا أريد مغادرة البلدة»، قال: «ليس بعد. لكن على نحو ما تجري الأمور، أظنني سأفعل».

«يجب أن تتذكر. لم يحدث أي شيء، بقدر ما يخصك».

«أجل، هذا صحيح. جاك بوتون يعاني الأمرين بسبب لا شيء على الإطلاق. وهذا يخدم الوغد جيداً، يجب أن أقول».

«سوف أعيد الكتاب غداً»، قالت غلوري، «يمكنني أن أدسه في الرف. ليس أن شيئاً سينتج عن ذلك، إلا أنه أمر أقل نستطيع أن نشغل أنفسنا به».

قال: «غداً، حسناً. كنت سأسألك إذا كان بمقدري استعارته مع ذلك. لم أقرأه أنا نفسي. ظننت أنه قد يساعدني على تمضية ليلة أو اثنتين».

قالت: «حسناً، سوف أعيده بعد غد. الأسبوع المقبل. لن يشكل هذا فرقاً. قد أقرأه».

ضحك: «فتاة طيبة! قد نتمكن حتى من الخروج بسجال، أحد تلك الخلافات الأيديولوجية التي أقرأ عنها في الصحف من وقت لآخر. الصراخ والتلويح بالأذرع. وفي حمى المسألة برمتها قد أخرج بقناعة أو اثنتين».

«يبدو هذا رائعاً، إلا أنه يحسن بنا ألا نصرخ من أجل والدنا. لكن يبقى أمامنا التلويح بالأذرع».

هزّ رأسه: «سيكون هذا... مشيخياً على نحو ما».

«هناك أمور أسوأ».

«بالتأكيد، أدرك جيداً ذلك، لم يكن يحق لي أن أعود. هذا قلق عظيم

له، أن أكون هنا. إنه يقلق وهو نائم».

«لقد حلم بك قبل أن تراسله، قبل أن يعرف أنك آت. لطالما كنت في فكره، طوال تلك السنوات. ليس وجودك هنا ما يقلقه».

«إذن.. ما الذي يقلقه؟ وجودي، على ما أظن. وجودي البائس سيء السمعة. ومن وجهة النظر هذه لا أستطيع حتى وضع حدّ لقلقه. لا نهاية لذلك. سوف أكون دائماً في مكان ما في الأبدية، أتعفّن أو أذبل. الشيطان المسكين العجوز يشعر أنه مسؤول عن روحي».

«لم يقل شيئاً طوال حياته عن التعفّن أو الذبول!».

«صحيح. إنه دوماً الهلاك، أليس كذلك. أخيراً استخرجت معنى الكلمة في المعجم. «خسارة الروح التامة أو السعادة المطلقة في حالة مستقبلية - علامة وقف - الشقاء المستقبلي أو الموت الأبدي»، قال «هذا يبدو كله قاسياً بعض الشيء، ألا تظنين ذلك؟ إنه قديس، وأظن أنه يخشي الموت بسببي. أن يتركني على ضلالي - أعرف أن هذا ما يشغل فكره. يمكنني معرفة ذلك من الطريقة التي ينظر فيها إليّ».

«قلت له إن الأمور كانت مختلفة».

ضحك: «يحسبني لصاً غلوري. يحسب أنني سأشين عائلتي ثانية. ويمكن أن يحدث ذلك أيضاً. أعني، أن أتهم - هذا يمكن أن يحدث». غطى وجهه بيده.

«لن يحصل. ليس بسبب أمر صغير. لا أحد سيزعج والدنا بسبب سرقة في حانوت. أنت تعرف انني محقّة يا جاك. لقد بالغنا كثيراً في القلق حول هذا الأمر».

«أجل، يجب أن أتذكر المنظور العام. شكراً لك غلوري. لقد نسيت ما يشبهه أن يبالي أحد بمن يكون أبي».

قالت: «إذا كنت تشعر بأنه قلق جداً بشأنك، أخطرَ لك أن تخفّف من قلقه فحسب...؟».

نظر إليها: «أن اكذب على العجوز؟ حول حالة روحي؟». ضحك وفرك عينيه. قال: «آه يا غلوري، ماذا سأكون عندئذ؟».

«اعذرني. كانت خاطرة فحسب».

بعد برهة قال: «أتذكرين تلك السيدة التي حدثتك عنها، التي لها أثر إيجابي على شخصيتي. كانت تقية جداً – ولا تزال، بلا ريب. فاضلة جداً. وقد طلبت يدها من والدها. وأصيب بالذعر. ارتعب حقاً. الدين هو جزء من المسألة. أنا غير ملتزم دينياً. تمنيت كثيراً لحظتذاك لو كنت منافقاً. لكنه لم يكن فيّ. ترددي الوحيد، وقد دفعت ثمنه غالباً. لا، لو كنت صريحاً، لكان عليّ القول إنه يحتقرني لأمور أخرى أيضاً. الدين أولاً وأخيراً بالطبع. لقد كان رجل دين. ولا يزال». ضحك «لقد بالغت قليلاً في تقديري الخاص. لا أعرف ماذا توقعت أن تكون ردة فعله. ربما أقل تزمتاً على ما أظن، لا أعرف لِمَ أخبرك بهذه القصة، إلا ربما لكي تعرفي أنه لدي تردد واحد. لست واثقاً من أنني ينبغي أن أكون واثقاً إلى هذا الحدّ من أنه ثمة فرق بين النفاق واللا النزاهة المألوفة. ومع ذلك لاحظت أن اللصوص يصلبون والمنافقون لا. ومن وقت لآخر حملت صليبي...»، ضحك، «ليس مؤخراً، كما تفهمين». نظر إليها «عذراً. لم أقصد التقليل من احترامك. لست منافقاً. هذا ما أردت قوله».

«أعرف أنك لست كذلك. لم يجدر بي أن أقترح...».

«ربما كنتُ محتالاً. أضمن لك ذلك». ابتسم.

«لا أتهمك بشيء. لو كنت في مكانك لأغراني ذلك، إلا أنك محق. أعتذر على ذكر ذلك».

هزّ رأسه: «لو ظننت أنه يمكنني الإفلات من عاقبة ذلك لشعرت بالإغراء أيضاً، لكنني كنت أقوم بجردة حساب لحياتي. هذا الشعر الرمادي. هذا الوجه المحطم. هذه الثياب البالية. علي أن أعترف أنني لست بكذاب بارع يا غلوري. أمضيت حياة كاملة في الخداع نوعاً ما، ولدي القليل لأتفاخر به بشأنها. لن يكون لطيفاً مني أن أكذب عليه، لأنني أعرف أنه لن يصدقني. إذا كان لا يزال يكن لي ذرة من الاحترام... حسناً، تفهمين ما أعنيه. لن أرغب في أن يفقد هذه الذرة».

«يصعب عليّ أن أصدق هذه الأشياء التي تقولها عن نفسك يا جاك».

ضحك. «الكريتيون دائماً كذابون[1]... يمكنك أن تشكي بكلامي على هواك، إذا أردت ذلك. هذا يمنحني نوعاً من المهلة على ما أظن. لكن اترين مشكلتي. لا يمكنني إقناع أحد بشيء».

قالت: «لقد اقتنعت، ليس بشيء مخصوص، على ما أظن، سوى بأنك قاس جداً على نفسك».

هزّ رأسه: «أجل أنا كذلك. بسبب كل الخير الذي يسديه ذلك لي».

ساد صمت.

قالت: «حسناً، ما كنت لأهتم إذا كنت لصاً حقيراً».

ابتسم «هذا افتراض كبير منك».

«حسناً، لا يهمني إن كنت لصاً حقيراً».

«شكراً غلوري، هذا لطف منك».

(1) الكتاب المقدس، العهد الجديد، رسالة بولس الرسول إلى تيطس، 1: 12: «قال واحد منهم وهو نبي لهم خاص: الكريتيون دائماً كذابون، وحوش ردية بطون بطالة»، وهذا القول ينسب أصلاً إلى إبيمنيدس الذي عاش في كريت قبيل العام 600 قبل الميلاد، وكان شاعراً وفيلسوفاً.

لم يرها المقالة في الصحيفة، حيث ذكرت الثمانية والثلاثين دولار، ولم تطلب ذلك منه.

ذهبت غلوري إلى متجر الخردوات لكي تخبرهم بأنها ستحتفظ بالتلفاز، ولكي تطلب منهم تركيب الهوائي. وحين عادت بحثت عن جاك في أرجاء البيت، ثم وجدته في الحظيرة، يزيّت شفرة المنجل، من بين كل الأشياء المهجورة عديمة الفائدة. قالت: «ذهبت إلى متجر الخردوات لكي أطلب منهم تركيب الهوائي. وأبقوني هناك ساعة. إلا أنهم قالوا لي من سرق المال من الحانوت. بعض الفتيان في الثانوية. أولاد صالحون، قالوا. لهذا السبب لم يأتوا على ذكر الأمر في الصحيفة. كان مقلباً على ما أظن. لكنّ أحد الفتيان أصيب بنوبة ضمير واعترف بالأمر».

ضحك جاك: «كم لطيف منهم أن يخبروك! أتساءل كيف عرفوا أنك مهتمة بالأمر».

«أوه، حسناً، هذا أمر أقل يستدعي القلق بشأنه».

قال: «صحيح، بمعنى ما هذا صحيح، في الوقت الراهن».

في صبيحة اليوم التالي عرض جاك على والده أن يقرأ له، وسرّ العجوز بذلك. «مرحى!»، قال، «هذا سيمرّر الوقت». وقد فكرا أنهما ربما يخرجانه إلى الشرفة مبكراً صباح كل يوم بعد الحمام والحلاقة، حين يكون الحرّ محتملاً بالنسبة إليه، والنسيم منعشاً».

سأله جاك: «ماذا تحبّ أن تسمع، لدينا حال الطبقة العاملة في إنجلترا».

هزّ العجوز رأسه. قال: «قرأته في معهد اللاهوت، كان مثيراً للاهتمام، لكن كما أذكر كان ما يرمي إليه جلياً. لا اشعر بالحاجة إلى العودة إليه. يفاجئني أنه ما زال لدينا. حسبت أنني أهديت نسختي للمكتبة».

ضحك جاك ونظر إليها. قال: «هناك كتاب أرسله لوقا. شيء ذو قيمة. أحداثه تدور في أفريقيا».

هزّ والده رأسه: «كان لديّ اهتمام كبير بأفريقيا، ذات يوم».

قالت غلوري: «أرسل لي لوقا ملحوظة حول هذا الكتاب، قائلاً إن النقاد احتفوا به».

قال جاك: «أنا أيضاً مهتم بأفريقيا بعض الشيء».

«أجل، حسناً، الموزامبيق، الكاميرون، مدغشقر، سيراليون. أسماء رائعة. حين كنت صبياً كنت أفكر أنني سأزور أفريقيا يوماً ما. يمكننا قراءة هذا الكتاب».

«إنه عن كينيا».

«حسناً، هذا جيد أيضاً».

أخفض جاك رأسه وبدأ بالقراءة بصورة أشبه بالصلاة. ابتسم عند المقاطع التي أعجبته «في مكان ما بعيداً عن الأنظار جأر حمار وحش، وعلى ضفة جدول شتم قرد بابون». كان تيدي يقول إن جاك هو الذكي، أنه، تيدي، حيّ الضمير فحسب. وفي حقيقة الأمر كان ثمة نوع من السمو في كل ما يفعله جاك باهتمام تام، أو حين ينسى السخرية لبعض الوقت. كان دوماً مفاجئاً قليلاً لأنه كان من بين الأمور التي يستهجنها في نفسه، ويخفيها كلما استطاع. إلا أن صوته كان لطيفاً دافئاً، دمثاً تجاه الصفحة التي يقرأ منها، ونظر والده إليها ورفع حاجبيه، الإشارة

القديمة التي تعني أنه رائع حين يقصد ذلك. رائع حقاً.

ضحك العجوز من نسخة الديك الوثنية من «يريدني يسوع شعاع شمس»[1]، وأنصت باهتمام إلى التدبيرات المنزلية التي قام بها آل ماكينزي، وتعجّب من قتل الفيلة، ثم أغفا. وواصل جاك القراءة لنفسه. قال: «أظن أنني أرى إلى أين يمضي هذا». قلب الكتاب إلى الصفحات القليلة الأخيرة، «أجل»، وراح يقرأ «أخفض بيتر رأسه نحو كتفيه وأخذ نفساً عميقاً وشدّ. خرج لسان كيماني من بين أسنانه، وتخضبت عيناه بالدم، وانفجرت الشرايين الصغيرة. كان ثمة التواءة صغيرة ثم كسر حاد، وكأن رجلاً داس على عصا جافة، وفارقت الحياة جسد كيماني».

أنهض والدهما نفسه «كيماني هو ذلك الطفل الذي يلعب معه في البداية أليس كذلك؟ هذان الصبيان يلعبان معاً».

هزّ جاك رأسه.

«أظن أنه قتله».

أقفل جاك الكتاب: «أظن أنه فعل».

«مؤسف، لكن يبدو أن الأمور هكذا. الكثير من القتل. أظن أنه من الأفضل لنا أن نهتم بأمورنا فحسب».

ضحك جاك. «لقد سمعت قطعاً هذه الرأي من قبل، أعرف الكثير من الناس الذين يتفقون معك في ذلك صدقني».

«أجل، ربما نرغب في تجريب كتاب آخر يا جاك، ألا تظن؟ يبدو أنه ليس من شيء في ذلك الكتاب سيفاجئنا».

---

(1) ترنيمة مسيحية معروفة في أمريكا تعود إلى العام 1900، ويبدو أنها ترد هنا في حكاية شعبية أفريقية ما بطلها ديك في الرواية المذكورة.

«ولا شيء».

هزّ رأسه. «لكنه كاتب جيد مع ذلك. مقطع الفيلة كان مثيراً جداً للاهتمام».

بدا أن اليوم يمرّ بالطريقة الاعتيادية: غلوري تهتم بالأمور المنزلية في حين ينام والدها ويحاول جاك أن يكون مفيداً في أرجاء البيت، قائماً بغزوات صغيرة صبورة على ما يحتاج إلى ترتيب وتنظيم. أو هكذا افترضت هي. ثم أدركت أنها لم تره منذ بعض الوقت. عادة يجد سبباً ما لكي يتحدث معها من وقت لآخر، لكي يمازحها قليلاً، وكأنما لكي يطمئن نفسه ثانية إلى أنها تستلطف وجوده. بحثت عنه في الحديقة، ثم ذهبت إلى السقيفة، وبحثت في الحظيرة. لم تعثر عليه في أي مكان. هذا سخيف، فكرت. لا أستطيع القلق على هذه الشاكلة. مرت ساعة، ثم اثنتان. كانت قد تفقدت علبة البريد والعدد الجديد من مجلة «لايف». وردت على رسائل من دان ودرايس. ثم أقفل الباب الشبكي وها هو جاك، يدخل من الشرفة، وقد بدا أشعث الملابس إنما راض بعض الشيء عن نفسه. كان بقميصه التحتي، وقد رزم قميصه ووضعه على الطاولة فانفتح. قال: «الفطر! الموريل[1]! حيث ينبت دوماً!». تربة الأرض والوريقات وتلك الرائحة المسكية.

«أين وجدتها؟».

«في منطقة بعيدة يا عزيزتي. بعيداً من متناول البشر».

«بصدق! انا أختك! صديقتك الوحيدة في العالم!».

«عذراً لكن لا. انظري كم هي جميلة. سنتناول الفطر

(1) Morels: نوع من الفطر يأتي بعدة أشكال وألوان.

الليلة يا غلوري!».

«ما هذا؟»، نادى والدهما، «عمّ تتكلمان؟».

قالت غلوري: «اذهب وأره إياه. إنه يحب الموريل».

«أظن أنه عليّ أن اغتسل قليلاً».

«ليس عليك أن تغتسل. اذهب وأره الفطر فحسب».

فحمل جاك الرزمة إلى غرفة أبيه وبسطها في حضن العجوز. «آه»، قال والده، «آه أجل. لقد كنت تتموّن في الخارج». أخذ نفساً عميقاً وضحك. «أرأيت، رائحة ابني أشبه برائحة حقل باركه يهوه، الموريل. دان وتيدي كانا يحضران لي منه. والتوت الأسود والجوز. وكانا يجلبان سمك العين الجاحظة والسلور[1]. وطيور التدرج. دائماً يذهبان إلى الحقل، وإلى النهر. أما الفتيات فيحضرن الزهور دوماً. منذ زمن بعيد».

وقف جاك يراقب العجوز وهو يتأمل الفطر، ويشمه، ويقلبه في الضوء. فرك ذراعيه العاريتين، وكأنهما تعكسان شعوره، هزيلاً مكشوفاً. قال بصوت منخفض: «باركني أنا أيضاً»[2].

قال والده: «لا، هذا عيسو. أنت تخلط بينه وبين يعقوب».

---

(1) Walley: نوع من السمك يكثر في شمال أمريكا ويشتهر بعيونه الكبيرة، أما السلور أو القرموط catfish فهو من السمك النهري الذي له حول الفم شوارب، ومن هنا تشبيهه بالقط.

(2) الكتاب المقدّس، سفر التكوين، 27: 38: «فقال عيسو لأبيه، ألكَ بركة واحدة يا أبي، باركني أنا أيضاً يا أبي. ورفع عقيرته بالبكاء»، وعيسو بحسب الكتاب المقدس هو شقيق يعقوب التوأم... قبيل وفاة إسحق يقوم ابنه يعقوب بخدعة مدعياً أنه عيسو فيحصل على بركة أبيه التي تجعل منه سيداً على الشعوب والقبائل وعلى إخوته، وعندما يأتي عيسو ليحصل على بركة أبيه يجد أنه قد منحها لأخيه فيحقد عليه ويقرر قتله، أما الإشارة لاحقاً إلى نعومة جلد جاك فهي لأن يعقوب كان ناعم الجلد على عكس عيسو الذي كان مشعراً.

ضحك جاك: «أجل أنا الناعم الجلد، كيف نسيت ذلك؟ أنا من عليه سرقة البركة».

هزّ والده رأسه. «لم تكن مضطراً يوماً إلى سرقة شيء في حياتك كلها. لم يكن من حاجة إلى ذلك قطّ. لقد كنت أبحث في ذاكرتي حول هذه النقطة».

قالت غلوري: «أبتاه، بينما كنت في متجر الخردوات أمس...».

لكنّ جاك قال: «لا، لا تفعلي»، وابتسم لها، وعرفت أنها كادت تشينه. فهو لم يسرق الحانوت. كم مؤلم بالنسبة إلى هذا الرجل المنهك أن يحتاج إلى تبرئة من أذية قام بها أطفال سيئون. قال: «من الجيد أن أكون في البيت»، قال لها في وقت لاحق: «لا مكان مثل البيت، كما تقول الأغنية القديمة».

«أيمكنني أن أجلب لك شيئاً؟ القهوة؟».

«بالتأكيد، القهوة، لمَ لا؟ أنت روح طيبة يا غلوري. ذلك الرجل الذي لم يتزوج منك كان مغفلاً».

هزت كتفيها: «ليس تماماً. كان متزوجاً».

«أوه».

«هذا ما قاله».

«أوه».

«بالطبع، لم أكن أعرف ذلك في حينه. على وجه التحديد».

ضحك: «على وجه التحديد».

«تعرف ماذا أعني. كان يمكنني أن أتصوّر ذلك لو أردت».

هزّ رأسه: «آه، هذا صعب. أنا آسف». وأضاف: «وأفهم أنه لم يولد أيّ طفل من هذا الاتحاد».

هزّت رأسها «لا».

«إذن، نجوت من هذا على الأقل».

أخذت نفسها عميقاً.

قال: «أنا آسف! لمَ قلت هذا؟ لمَ لا أتوقف فحسب عن التكلم؟ لمَ لا تقولين لي أن أتوقف؟».

«حسناً جاك، أنت لم تعرفها. فأفترض أنه ليس مفاجئاً أن تفكر بها على هذا النحو. كشيء كنا نتمنى ألا نمرّ به».

«أجل، الفتاة الصغيرة».

«طفلتك الصغيرة».

«طفلتي الصغيرة»، وقف، «لست بارعاً جداً في... بقيت بعيداً طوال هذا الوقت... كان هذا أفضل ما أمكنني فعله...».

«ليس هذا ما أعنيه. أعني أننا كنا مسرورين لأنها ولدت. استمتعنا بحياتها. وأظن أنها استمتعت بها أيضاً، أعرف أنها فعلت».

غطى وجهه بيده. «شكراً لك. من الحسن معرفة ذلك على ما أظن. أنا على الأرجح أقول أشياء خطأ... لم أعرف يوماً كيف أتعامل مع هذا. للأسف. قد تحسبين أنني سأعتاد على ذلك».

«لكنني أحاول أن أقول لك إنه كان ثمة أكثر بكثير مما هو مؤسف في الأمر برمته. هذا ما حاولت قوله في تلك الرسائل. أي شخص كان ليفتخر بها. هذا ما حاولت قوله في الرسائل التي بعثتها لك».

«أوه، إذن أظن أنه كان عليّ أن أقرأها». ضحك.

قالت: «يا إلهي، يا رب السماوات، أنا أستسلم، أرفع يديّ استسلاماً».

«أرجوك لا تقولي هذا يا غلوري. إني وحيد هنا...».

«حسناً، تعرف أنني لا أعني ذلك».

قال بعد برهة: «لِمَ لا تعنينه؟»».

«حسناً، أنا أختك، هذا سبب. وسبب آخر...».

ضحك.

«... أنا أختك. هذا سبب كاف».

هزّ رأسه: «شكراً لك، هذا لطف بالغ منك».

أضاف جاك إلى الحديقة دوار الشمس ونبتة أنف العجل ونبتة المال[1]، وعدة رقع من الشمام واليقطين، وثلاثة صفوف من الذرة. وأنقذ أيكة القلب الدامي[2] من أعشاب ضارة متشابكة واعتنى بالقرع بحذق رجل يؤمن، ككل واحد من آل بوتون، أنه يزدهر في الإهمال. حين كان إخوتها صغاراً كانوا يحدثون جلبة حين يجف القرع، ويصنعون منه القناني وفناجين الشرب، ويلعبون دور الهنود الحمر. ينقرون اليقطين ويحمصون البذور، مدّعين أن الأقراص الفضية لزهور نبتة الصداقة هي دولارات، قارصين زهور نبتة أنف العجل حتى تتخذ شكل الأنف الذي يتكلم، أو نافخين إياها حتى تفرقع. وقد تناولوا بذور دوار الشمس، حين تنضج وتجف. وفتحوا زهور القلب الباكي لكي يروا السيدة الصغيرة في حوضها. كما أحبوا جميعاً عرانيس الذرة، وإن كرهوا تقشيره، وأحبوا جميعاً الشمام. وقد اعتنى جاك بهذه الأشياء عناية خاصة. وحين يسأم أحياناً يخرج إلى الحديقة ويقف هناك واضعاً يديه على وركيه، وكأنما يؤاسيه أن يراها وهي تبرعم بتواضع. وذات

(1) Snapdragon: وتسمى أيضاً زهرة الخطم لها زهور أرجوانية أو بيضاء أو صفراء. أما نبتة المال فهي Money Plant: وتسمى أيضاً بنبتة الصداقة أو نبتة الحظّ، لها زهور بيضاء.

(2) Bleeding heart: من نباتات الحدائق أيضاً، لها زهور زهرية متدلية على شكل قلوب.

مرة، حين رآها تنظر إليها جميعاً، قال: «أنسيتُ شيئاً؟».

«لا، لا أعتقد أنك فعلت».

قال: «لستُ مزارعاً»، وهو مسرور بجلاء لأن مزروعاته تبلي بلاء حسناً.

تفرّج والده من الشرفة يوماً بعد يوم وسأله عما يزرعه، وما إذا نبتت الذرة ودوار الشمس، وما إذا كان الشمام ينمو. أحضر له جاك عسلوجاً من القلب الدامي، وبرعماً من اليقطين.

«يا سلام!»، قال العجوز، كما يفعل حين تستثار ذاكرته «تلك كانت أياماً طيبة».

ذات ليلة دخل جاك عند نهاية الغروب، وكانت غلوري تضع والدها في السرير. سمعاه في المطبخ يصب لنفسه كوباً من الماء. كان الهواء بارداً. وحشرات صغيرة كثيرة احتشدت على مشبك النافذة، ملتمسة الضوء من لمبة والدهما المغطاة في ظلة المصباح على نضد السرير، وكانت صرارات الليل صاخبة، وريح المساء تهزّ الأشجار. لطالما استكانت عند عودة جاك إلى البيت قبيل المساء. علمت أنه سيكون مستنداً إلى النضد، يشرب المياه الباردة المنعشة في العتمة، ملمس التربة ورائحتها ما زالا في يديه. إلا أن والدها كان مضطرباً. كان يشغله أمر ما، نية ما يرغب في التصرف وفقاً لها وإن انتهك بذلك سكينته العذبة. قال: «أريد أن أتكلم إليه إن لم تمانعي يا غلوري».

فنادته وسمعته يقف ويضع كوبه في المغسلة، مع ذلك التأخير الصغير الذي يعني أنه تجاوز تردده. وحين دخل إلى الغرفة ابتسم لها. «حسناً، ها أنذا».

قال والده: «قرّب الكرسي واجلس هنا».

«حاضر سيدي».

«ثمة ما أود قوله لك». مدّ يده من الأغطية وربّت ركبة جاك. ثم تنحنح «لقد فكرت مطولاً، وأشعر أنني أعرف ما الذي يقلقك يا جاك. أعتقد أنني لطالما عرفت ذلك، ولم أكن صريحاً بما فيه الكفاية مع نفسي حياله. أريد أن أكلمك بشأنه».

ابتسم جاك وتململ على كرسيه: «حسناً، أنا منصت».

«إنها مسألة طفلتك تلك يا جاك».

«ماذا؟».

«أجل، وأريدك أن تعرف أنني أعرف كم أخطأتُ في الأمر برمته».

«ماذا؟». تنحنح جاك «أنا آسف يا سيدي، لكنني لا أفهم».

«كان عليّ أن أعمّدها. لقد ندمت مرات كثيرة لأنني لم أفعل لها هذا على الأقل».

قال جاك: «أوه، أجل، فهمت، أجل».

نظر إليه والده. «ربما لم تدرك ذلك، أنها ماتت من دون القربان المقدّس، وربما لم يجدر بي قول ذلك لك، بما أنه قد يزيد من الأسى فحسب. كنت متردداً في الإتيان على ذكره. إلا أنني أردت أن أتأكد من أن تفهم أن الخطأ برمته كان خطأي». وضع يده على وجهه، «أوه يا جاك!»، قال، «تلك كانت حالي، خادم الرب، وحملت تلك الطفلة عدداً من المرات. فلماذا لم أفعل فحسب الأمر الجليّ! بضع قطرات من المياه! كان ثمة برميل مطر هناك بجانب البيت – من كان سيمنعني! لقد فكرت في ذلك مرات كثيرة».

قالت غلوري: «أبتاه، إننا مشيخيون، لا نؤمن بضرورة العمادة. لطالما قلت ذلك».

«صحيح، وآيمز يقول ذلك أيضاً. سوف يأتي بكتاب الأسس[1] ويريك الموضع الذي ذكر فيه ذلك. وكان كالفن محقاً بشأن أمور عدة. ووجهة نظره في ذلك أن الرب لن يحمّل الطفل المسؤولية... ويجب أن يكون هذا صحيحاً. أما بالنسبة إلي، حسناً 'القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره'[2] عليّ أن أتذكر الإيمان بذلك أيضاً».

غرقوا في الصمت. أخيراً قال جاك: «كل ما حصل كان خطأي أنا. كله كان خطأي. يصعب عليّ أن أصدق أنك بأي طريقة تلوم نفسك على ذلك. أنا... أنا... مندهش».

قال والده: «أوه، لكنك كنت يافعاً. ولم تعرفها. غلوري كانت تحاول دائماً الحصول على صورة فوتوغرافية جيدة ترسلها لك، كانت تلبسها، وتضع البكلات على شعرها. لكن لا يمكنك معرفة الكثير من الصور. كانت كائناً صغيراً رائعاً مفعماً بالحيوية والمرح. كانت تواقة للنهوض والمشي. أتذكرين يا غلوري؟ حين كانت صغيرة جداً تلاحق أمها لكي تلعب معها – كثيراً ما فكرت أنني كان ينبغي أن أعمّد أمها أيضاً»، ثم قال: «أن تعرف طفلة كهذه، ثم لا تفعل كل شيء يمكنك فعله من أجلها، لا عذر في ذلك. يحقّ للرب أن يتوقع شيئاً أفضل مني، وأنت أيضاً. أفهم ذلك».

أرجع جاك كرسيه إلى الخلف ووقف: «عليّ... عليّ أن...». ضحك. «لا أعرف. أن أستنشق بعض الهواء». ابتسم لغلوري «إذا

(1) أسس العقيدة المسيحية، الكتاب الرئيس الذي وضعه كالفن عام 1536، ويعدّ من أكثر الأعمال تأثيراً في المذهب البروتستانتي.

(2) الكتاب المقدس، المزامير، 51: 17.

عذرتني... عليّ...». وغادر الغرفة.

قبلت غلوري والدها على جبينه وقالت له: «نلْ قسطاً من النوم الآن»، وقلبت وسادته ومسدتها بيدها. ثم تبعت جاك إلى المطبخ. كان جالساً إلى الطاولة واضعاً رأسه بين يديه. قالت: «أنا آسفة».

قال: «من بعد إذنك لو نطفئ الضوء؟». فأطفأته؟ وبعد وقت طويل قال: «لو كنت رجلاً نزيهاً لأخبرته أنني لم أفكر بالأمر البتة... بأي من هذا. ولا فكرة واحدة على الإطلاق».

«حسناً».

«أعني، سواء عمّدت أم لا. لقد فكرت ببقية الأمر من وقت لآخر».

ضحك، «لا لأنني اخترت ذلك البتة».

قالت: «كل هذا حصل منذ زمن بعيد. كنت يافعاً».

«لا، لم أكن يافعاً. لا أعتقد أنني كنت يافعاً يوماً». ثم قال: «الأعذار تخيفني يا غلوري. تجعلني أشعر بفقدان السيطرة. لا أستطيع شرح ذلك. لكن لا تحاولي رجاء اختلاق الأعذار من أجلي. قد أبدأ بتصديقها في وقت ما. عرفت أناساً من هذا النوع».

صمتت. «لكنك عرفت أنها ماتت».

«كانت حواف المظروف سوداء. فكرت أنها ربما...».

«ماذا؟ شخص ما يهمك أمره؟».

«لم أقل هذا. لم أعن هذا. لكنك لا تتوقعين فحسب أن يموت طفل...»، قال، «لم أفكر أبداً في الأمر في حينه. الآن أفعل. أفكر به الآن، طوال الوقت». ضحك وغطى وجهه بيديه «لا يمكن أن يكون هذا إنصافاً. من الرهيب التفكير بأن الأمر به أي صلة بالإنصاف».

ماذا يمكنها أن تقول لكي تؤاسيه؟ «يصعب الكلام على هذه الأمور.

أقول أشياء لا يجدر بي قولها. أنا آسف». وبعد برهة «لا أعتقد حقاً أن العدالة يمكن أن تكون رهيبة».

«أحقاً؟ أليست هذه ماهية الانتقام؟ العدالة الرهيبة؟ ماذا كان والدك ليقول؟».

«حسناً، لا أعرف يقيناً، لكنّ الرحمة على ما يبدو تجيب عن كل سؤال، بقدر ما يعنيه الأمر».

نظر جاك إليها. «إذن لا يجدر به القلق على ابنه الآثم، هل يجدر به ذلك. أتمنى أن تشيري له بذلك. أعني، يبدو تناقضاً بالفعل، أليس كذلك؟».

قالت: «بالفعل. لكنني أظن أننا تجاوزنا النقطة التي يمكننا فيها طرح أسئلة حول معتقداته اللاهوتية. إذا أشرتُ إلى تناقض في تفكيره، فسوف أزعجه على الأرجح. وقد بات حسّاساً حيال هذه المسائل. حسناً، لقد كان كذلك منذ سنوات. على أيّة حال، لا أظن أنه يقلق حول هذا كله أكثر مما تقلق أنت».

رفع كتفيه: «الابن سرّ أبيه».

يبدو أن العجوز قد تسبّب لنفسه بالقلق ببوحه بمكنونات قلبه. فبات فجأة تواقاً إلى أن يكون برفقة جاك، في سلام أبوي رفيق معه. حشد اهتماماً اجتماعياً بالتلفاز، خاصة البايسبول، وهو وجاك تحدّثا عن الفرق والموسم بشغف مثلما يمكن التحدث عن أيّ لحظة مهمة، وكأنها الطقس الصيفي والجفاف والبرق. بدا أنه دائماً يغفو حين تكون ثمة أخبار اضطرابات في أيّ مكان.

لابدّ من أن جاك اعتبره غافلاً فعلاً، لأنه حين بدأت الأنباء بإيراد

الاضطرابات في الشمال قال بصوت منخفض: «يا إلهي».

نهض العجوز: «ماذا هنالك الآن؟».

قال جاك: «اوه، عذراً، عذراً. إنها توسكالوزا[1]، ثمة امرأة ملونة تريد الدخول إلى جامعة ألاباما».

«يبدو أنهم لا يريدونها هناك».

ضحك جاك: «من المؤكد أن الأمر لا يبدو كذلك».

شاهد الأخبار قليلاً ثم قال: «لا أكنّ شيئاً ضد الملونين. أظن انهم بحاجة إلى تحسين أنفسهم مع ذلك، إذا أرادوا أن يكونوا مقبولين. أظن أن هذا هو الحلّ الوحيد». نظرته ونبرته كانتا رزينتين. كان يبذل جهداً كبيراً لكي يكون لطيفاً ومؤاسياً، حتى بعد أن أساء جاك استعمال اسم الرب، بحيث ان جاك أمعن النظر فيه ببساطة، من يديه إلى فمه وكأنما ليمنع نفسه من التكلم.

أخيراً قال: «أنا نفسي غير محسَّن. لقد عرفت الكثير من الزنوج ممن هم أكثر احتراماً مني بكثير».

نظر إليه والده: «لا أعرف من أين تأتي بهذا الرأي الرهيب عن نفسك يا جاك».

«حسناً، أظن أنه شيء يجدر أن نكون كلانا شاكرين له».

قال والده: «أنا جاد. هناك الكثير مما يمكنك فعله لو صممت عليه».

ضحك جاك: «صحيح فعلاً. يمكنني البقاء في فندق. يمكنني تناول الطعام في كافيتريا. يمكنني إيقاف سيارة أجرة، الاقتراع في الانتخابات، وأنا على هذه الحال من التبطّل».

---

(1) Tuscaloosa: مدينة في ولاية الاباما.

«أنت خريج جامعي»، قال والده بحسم.

ابتسم جاك ونظر إلى غلوري. هزّت رأسها. فقال: «صحيح»، ثم قال: «بيد أن معظم الناس ليس لديهم هذا الامتياز. أعني الأناس البيض».

«وهذا سبب إضافي يجعلك تفتخر بعض الشيء بنفسك».

«أوه، فهمت. أجل سيدي. سأبقي هذا في بالي».

بعد دقيقة قال والده: «أعرف أنني شردت عما كنت أقوله قبل قليل. لكنني أردت أن أذكر ذلك لك. أردت أن أقول لك إنه يجدر بك أن ترى نفسك بصورة أفضل».

«شكراً سيدي، سأحاول ذلك».

قال والده: «يبدو لي أن الملونين يتسبّبون بالمشكلات والعوائق لأنفسهم بكلّ هذه الـ... فوضى. ليس من داع لكل هذا الشغب. إنهم يتسببون بذلك لأنفسهم».

نظر جاك إليه. تنهد بعمق مرتين. سأله برقة: «أسمعت بإيميت تيل[1]؟».

«إيميت تيل، أليس ذلك الزنجي الذي.. اعتدى على المرأة البيضاء».

قال جاك: «كان فتى. في الرابعة عشرة. قال بعضهم إنه صفّر لامرأة بيضاء».

قال والده: «أظن أنه فعل أكثر من ذلك يا جاك، كما أتذكر، فقد جرى إعدامه. كان ثمة محاكمة».

---

(1) Emette Till (1941–1955): فتى أمريكي أفريقي من مدينة شيكاغو بولاية إلينوي. قتل في سن الرابعة عشرة في بلدة «ماني» في ولاية مسيسيبي. بعد أن صفّر لامرأة بيضاء. تم تبرئة قتلته من البيض من التهم. لكنهم اعترفوا لاحقاً بها. وتعد جريمة قتل تيل من بين أبرز الأسباب التي أدت إلى بروز حركة الحقوق المدنية الأمريكية.

قال جاك: لم تكن محاكمة. لقد قتل. كان طفلاً، وقد قتلوه». تنحنح لكي يستعيد السيطرة على صوته.

«أجل، كان ذلك مزعجاً. لديّ ذكرى أخرى عن الحادثة».

قال جاك: «نحن نقرأ صحفاً مختلفة».

«ربما يكون هذا الفارق. مع ذلك فالأهل يتحملون المسؤولية».

«ماذا؟».

«إنهم يأتون بالأطفال إلى عالم خطر، وعليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم لحمايتهم».

تنحنح جاك: «لكنهم لا يستطيعون دائماً... قد يرغبون في ذلك حقاً. هذا شاق. ومعقد...». ضحك.

«إذن تعرف بعض السود، هناك في سانت لويس».

«أجل، لقد كانوا لطفاء تجاهي».

حدق والده به «أنا وأمكم ربيناكم لكي تكونوا مرتاحين في أي صحبة. أي صحبة لائقة. حتى يمكنكم الإفادة من أي صداقة جيدة. لأن الناس يحكمون على المرء من خلال علاقاته. أعرف أن هذا يبدو قاسياً، إلا أنه الحقيقة».

ابتسم جاك: «أجل سيدي، صدقني أعرف ما معنى أن يُحكم على المرء بسبب علاقاته».

«يمكنك مساعدة نفسك بالعثور على نوعية أفضل من الأصدقاء».

«لقد بذلت جهداً كبيراً في هذا الاتجاه. إلا أن صلاتي جعلت هذا الأمر شديد الصعوبة».

«صحيح»، كان والده محترزاً تجاه هذا الإقرار. فسرعته بدت أقرب إلى التهكم. وبعد دقيقة قال: «يبدو لي أنك دوماً تفكر أنني أتكلم

عن طفلتك تلك. أنت تأسف لأنك لم تكن أباً لها، أعرف ذلك. وإذا قيضت لك العودة بالزمن، تريد أن تكون موجوداً من أجلها، أعرف ذلك أيضاً، والرب يعرف أيضاً».

غطى جاك وجهه بيديه وضحك. «الرب»، قال، «إنه مثير جداً... للاهتمام».

«أعرف أنك لا تقصد ذلك بقلة احترام»، قال والده.

«لا أعرف حقاً ما أعنيه. لا أعرف حقاً».

«حسناً»، قال العجوز «أتمنى لو تسعني مساعدتك بهذا الشأن». ثم أدار وجهه بتصميم نحو شاشة التلفاز. وجلس جاك إلى جانبه وشاهد معه. وفي الضوء الرمادي بدا حزيناً منهكاً ويافعاً بصورة غريبة، رجل لا يزال والده على حاله، ومستحيلاً، وواهناً. ربّت العجوز ركبته. على التلفزيون الكاوبوي والأعيرة النارية. أعدت لهما غلوري عشاء وتناولا الطعام بصمت وتهذيب مشوب بالحذر. «أعتقد أنه الخميس. أأنا محق؟».

«أجل سيدي».

«أرغب في اللحم المشوي لعشاء الأحد. أريد أن تملأ رائحة الشواء البيت. سوف أضع ربطة عنق. وسوف نشعل الشموع. وربما ينضم إلينا آيمز وعائلته. يمكننا أن نقضي وقتاً طيباً. هل ستكون هنا يا جاك؟».

«بالطبع».

«يمكن أن تعزف لنا القليل من البيانو».

«يمكنني ذلك».

«أرني يدك، أين كانت تلك الشظية».

«إنها تتماثل للشفاء».

«أرني».

مدّ جاك يده اليمنى وأخذها العجوز بيديه وربتها وأمعن النظر فيها. «ستكون ندبة صغيرة هنا»، ثم قال: «عشرون عاماً، عشرون عاماً».

وضع جاك والده في السرير، وجفف الأطباق وصعد إلى غرفته.

حين نزلت غلوري إلى الأسفل في صبيحة اليوم التالي، كان جاك في المطبخ يستعد لقلي شريحة من اللحم. قال: «أعتقد أنني خضت تجربة تحويلية». نظر إليها نظرة جانبية.

«هذا مثير للاهتمام. أخبرني بالمزيد».

«لا شيء مهماً. كنت أفرّش أسناني، وأدركت أمراً فجأة. خلاصته أن جاك بوتون يمكن أن يصبح تجمعياً[1]. تعرفين، على الأقل أن أجرب ذلك لبضعة أسابيع».

«هذا دراماتيكي بعض الشيء، أعني إذا كنت حقاً ستذهب إلى الكنيسة».

«هذا بالضبط ما أنوي فعله يا أختاه الصغيرة. إلا إذا غيّرت رأيي. هذا الأحد. إن لم يكن غير مناسب لك، لهذا السبب فكرت في ذكر الأمر لك. لا يمكننا ترك العجوز هنا وحده أعرف ذلك...».

«لكي تذهب إلى الكنيسة؟ قد أضطر إلى تقييده إلى قائمة السرير لكي أمنعه من التحليق من النافذة. عدا ذلك، أشك في أن يكون ثمة أي مشكلة».

---

(1) الكنيسة التجمعية Congregational Church وهي فرع من المذهب البروتستانتي، لا يؤمن أتباعه بإعادة العمادة، أو العمادة مرتين مثل المعمدانيين، لأن هذه الإعادة تعني أن العمادة الأولى لم تكن صحيحة. وفي حين أن بوتون ينتمي إلى الكنيسة المشيخية فإن صديقه آيمز ينتمي إلى الكنيسة التجمعية.

«حسناً، هذا أمر يهمني حقاً. ربما يبالغ في تقدير الأمر. إنها مجرد فكرة خطرت لي. قد لا أرغب حتى في المضي بها».

«سأبقى معه. سيكون الأمر على ما يرام».

«ظننت أنني ربما يمكنني التكلم إلى آيمز حول بضعة أمور. إذا ما انسجمت معه بصورة أفضل. هذا كل ما يهمني حقاً. بادرة احترام».

نظر إليها «هلا أخبرتني إذا رأيتها فكرة سيئة».

«لا أعرف حقاً ما الذي يمكن أن يكون سيئاً فيها».

هزّ رأسه. «آيمز سوف يحرص على ذكر الأمر. لذا لا جدوى من أن نكون سريين حوله. تساءلت إن لم تمانعي...».

«سوف أحضر له قهوته، وسوف يسألني لَمَ لست مرتدية ثياب الكنيسة، وسأقول له، لقد رغب جاك في الذهاب هذا الصباح».

«ثم...»، قال جاك، وضحكا «آه»، قال، «ساعديني على التفكير في هذا. ربما عليك أن تقولي فحسب إن جاك ذهب إلى الكنيسة هذا الصباح. إذا قلت إنني أردت أن أذهب فسيبالغ في تفسير الأمر. ربما... قرر جاك الذهاب. لا، هذه سيئة مثل أراد تقريباً».

«حسناً، جاك ذهب إلى الكنيسة صباح اليوم».

«ثم ماذا؟».

«من يعرف. سوف أرتجل. هذا أمر جديد تماماً».

«هو كذلك». نظر إليها. «ألا تظنين أن هذا سيبدو هازئاً جداً، أليس كذلك؟ منافقاً؟ مداهناً؟ ماكراً؟».

رفعت كتفيها: «الناس يرتادون الكنيسة».

«الأناس الآخرون يرتادونها. أعني، يصعب ألا يكون حضوري بارزاً. وآيمز العجوز معجب بي أيما إعجاب». بعد برهة قال: «حسناً،

لا شيء يمكن فعله حيال ذلك، إمم؟ لهذا أفكر بالذهاب في المقام الأول. لا أستطيع التفكير بمقاربة أخرى. لقد حاولت. سوف أجلس تحت منبره، كما يقولون، وربما ستلين مشاعره نحوي قليلاً. سأكون شديد الاحتراس». ابتسم. قال «يستحق الأمر المحاولة. ثم هو وزوجته سيأتيان إلى العشاء. سوف أعزف بعض الترانيم القديمة المحبوبة. يمكن أن يفلح ذلك».

«كل هذا حسن يا جاك. لكنني لا أستطيع إقناع نفسي بضرورته».

هزّ رأسه. «لقد كنت مصدر عذاب لصديقه الحميم طوال ثلاثة وأربعين عاماً. إنه سئم مني. ولا يريد أن يكون كذلك، إلا أنه كذلك. وأنا أيضاً. لكنني أريد التكلم إليه».

«هذه فكرة جيدة. أظنها جيدة جداً».

«حسناً إذن. إذا كان هذا رأيك. فسأفعل ذلك على الأرجح».

وضع جاك ربطة عنقه وقبعته ومضى إلى المتجر لكي يشتري البقالة من أجل عشاء الأحد، مع ورقتي عشرة دولارات من مال الدرج العائلي. كان يمكنها الاتصال بالبقال وطلب الأغراض، بيد أن جاك قال إنه يريد الخروج قليلاً من البيت. فذهبت إلى آل آيمز. كانت ليلى في الحديقة تقطف الخس في طشت، وروبي يلعب على أرجوحته، متمدداً على بطنه، دافعاً ودائراً ومتأرجحًا وملامساً العشب بأطراف أصابعه. وقفت ليلى حين رأت غلوري عند السياج وابتسمت لها ونادت الصبي لكي يأتي ويسلّم عليها، فجاء وقال مرحباً ثم هرع ليبحث عن صديقه طوبياس، المدعو لتناول الغداء معه.

«صباح الخير»، قالت غلوري، وأجابت ليلى «إنه كذلك، إنه صباح جميل». أرجعت شعرها إلى الخلف بيديها «أيمكنك الإفادة من

بعض السلطة؟ إنها تنبت أسرع مما أستطيع تناوله أنا نفسي، ورجلاي ليسا محبين كثيراً للخضروات». ناولت الطشت لغلوري. «كنت أقطفها فحسب لأنها جميلة. سيسرني أن تأخذيها».

كانت ليلى عريضة الكتفين والوركين، وكانت يداها كبيرتين، محترستين وكفوءتين. في زمن ما، في مكان ما، بدا جيداً لها أن ترفّع حاجبيها وتقوّسهما، فبقيا كذلك، كتذكار من حياة سابقة تتناقض وإطارها الأمومي الطاغي. بدت الشمس تضايقها، مثل اهتمام ودود تسأم منه أحياناً، فترفع يدها لكي تحمي عينيها. قالت غلوري: «طلب مني أبي أن أدعوكم إلى العشاء غداً».

هزت رأسها: «مرّ بنا جاك قبل بضع دقائق. قلت له إنني سأسأل الموقّر؟ الوعظ ينهكه أكثر مما يرغب في أن يعترف بذلك».

«يمكن أن نجعله عشاء باكراً. هذا سيمنحه الوقت لكي يرتاح».

بعد ظهيرة ذلك اليوم حين كانت في الحديقة تقتلع الأعشاب الضارة من رقعة الفراولة، قاطفة حفنة من الحبات الناضجة، سمعت مفتاح تشغيل سيارة الذي سوتو يعمل مرتين، ثم ثالثة، ثم سمعت المحرك يهدر لبرهة، ثم تلاشى. مجدداً صوت تشغيل السيارة، وبعد دقيقة أو اثنتين قعقعة الحصى والسيارة تتراجع إلى الخلف خارجة من الحظيرة ملتمعة بقتامة ورزانة مثل خوخة ناضجة. وكان حديدها ملمعاً، وأسطوانات العجلات وجوانبها بيضاء كالثلج. جمال أخرق في كل ذلك اللمعان دفعها إلى الضحك. مدّ جاك ذراعه من السيارة، ملوحاً بقبعته مثل صاحب مقام رفيع زائر، متراجعاً إلى الشارع، ثم منطلقاً، مبطئاً المركبة البرّاقة عبر ظلال أشجار الحور المائلة، والضوء

يسقط عليها عبر وريقات الأشجار مثل قصاصات الورق الملون، وهي تسلك دربها الاحتفالي. وبعد بضع دقائق سمعت بوقاً، وها هو جاك يمر بالدي سوتو من أمام البيت. وبعد بضع دقائق أخرى عاد من الاتجاه الآخر، ودخل إلى الممر باتجاه البيت، ووقف هناك. عبرت العشب إلى السيارة وركبت.

روعة!».

هزّ رأسه: «لا بأس بنا حتى الآن. أشمّ الفراولة».

مدّت يديها: «لم أغسلها بعد».

أخذ واحدة ونظر إليها وأعادها: «ما رأيك بجولة صغيرة في الحي».

«أبي سيرغب بالمجيء».

«أجل، حسناً، أنا أعمل لهذا الغرض. أرغب في أن أمضي نحو ميلين بها لكي أتأكد من أنه يمكن الوثوق بها. لن نرغب بأن يعود العجوز إلى البيت سيراً على الأقدام».

فأقفلت الباب وانطلقا إلى الشارع.

قال: «لابدّ من أن لديك رخصة قيادة. كنت معتادة على القيادة».

«لديّ. في مكان ما. وأنت؟».

نظر إليها. «لمَ تسألين؟».

«ليس مهماً. على سبيل المحادثة فحسب». أكملا دورة لائقة في الحيّ، وحين دخلا إلى ممر السيارات أمام البيت، رأيا والدهما واقفاً وراء الباب الشبكي.

نادى: «يا للتشويق! فكرت بمرافقتكما، إن لم يكن في ذلك مشكلة».

بدا أنه سيحاول حتى نزول الدرجات الامامية.

«مهلاً!»، هرع جاك عبر المرجة وأمسكه من ذراعيه وساعده للنزول إلى الرصيف.

«شكراً لك عزيزي. هذا رائع». استند على عكازته وأخذ يتأمل السيارة بإعجاب. «يا سلام، إنها سيارة جميلة. عرفت أنني أدّخرها لسبب وجيه». وضحك. كان وجهه طافحاً بجذل بالكاد تمكن من إخفائه وكأنه يشعر بأنه فعل شيئاً، أو لم يفعل شيئاً، جاء بنتيجة ممتازة «تلقيت عروضاً لبيعها، كما تعلم. الكثير منها. أجل». تأمل الدي سوتو اللماعة بنظرات تتجاوز الفخر بالملكية «والآن انظر ماذا فعلت بها يا جاك، هذا رائع!».

كان جاك ينظر إلى هذا كله واضعاً يديه على وركيه وقد لاحت عليه مسرّة بعيدة عميقة، وكأنها لحظة اقترحها عليها الخيال، ترف ما كان ليسمح لنفسه به في نهاية المطاف. قال: «يبدو أنها تعمل جيداً، أفترض أننا نستطيع القيام بجولة صغيرة». ساعد والده على الجلوس في المقعد الأمامي. «سوف أدخل وأحضر دولارين لشراء الوقود، فقط تحسباً». مشى نحو البيت، ثم عاد. مدّ يديه المكورتين إلى غلوري وأفرغت الفراولة فيهما. «دقيقتان»، قال. وحين عاد كان يضع الفراولة في زبدية حبوب، منظفة يتلألأ عليها الماء. ناول الزبدية لغلوري وصعد إلى مقعد السائق. أدار المفتاح، واشتغل المحرك وانطلق ثلاثتهم في الشارع. وحين لوّح أحد الجيران لهم، بالكاد رفع يده العجوز رداً، وكأن هذا كله كان متوقعاً ومقصوداً، دفاعاً تاماً رائعاً. ضحك جاك.

قالت غلوري: «تناولا الفراولة».

أخذ جاك واحدة وناولها لأبيه، ثم أخذ واحدة له ورماها في فمه ثم بصق سويقتها من النافذة.

«يا سلام»، قال والده، وهم يمرون بأطراف جلعاد الريفية إلى الريف نفسه «هذه هي الحياة الرفيعة».

كانت السماء زرقاء، وتلألأت التلال بالذرة الطازجة، وفي المراعي وقفت الأبقار مع صغارها أو تمدّدت في الظلال المختلطة المعكرة لأشجار البلوط. «حسناً، كدت أنسى هذا كله»، قال العجوز، «من الجيد الخروج من البيت من وقت لآخر. آيمز سيستمتع بهذا». وتكلم لمدة عن جلعاد القديمة. كانت الرائحة ما أيقظ ذاكرته. كان ثمة خمام دجاج وأقفاص أرانب في كل بيت تقريباً، وكان الناس يربون أبقار الحلب، وكان ثمة ما يكفي من الأرض لتفلح بجواد أو بغل وتزرع الذرة. كنت تعرف حيوانات البلدة كما تعرف أطفالك، وإذا وجدت معزاة عجوزاً ترعى في حديقتك، فكنت تعرفها وتعرفك وتسوقها ببساطة إلى البيت. إلا أن الإوز كان شريراً وصاخباً. كانت تتبعك إلى كل مكان وتروح تنقرك، وتقرص عقبيك. ولم نكن ننام بسبب كل الصخب الذي تحدثه الديكة في الصباح. لكن في الليل يمكنك سماع الحيوانات وهي تأوي، وكان هذا مريحاً جداً. قاد جاك بحذر شديد حتى إن الكلاب التي هرعت وراء السيارة واصلت ذلك طويلاً قبل أن تتخلى عن المطاردة وتعود أدراجها.

انعطفوا إلى طريق آخر، ثم صمتت غلوري ووالدها لوقت، مشاهدين المناظر الطبيعية وهي تصير غريبة عليهما بصورة غير مريحة. ثم قال جاك: «أوه... لقد...»، ووقف على كتف الطريق لكي يعود أعقابه بالسيارة، قريباً جداً من قناة مياه ضحلة بحيث ان العجلات الخلفية انزلقت في الرمل. على بعد مئة قدم منهم كان الجسر فوق نهر

شنبوتنا الغربي[1]، وبعده بمسافة قصيرة ذلك البيت الأبيض الصغير. اندفع جاك بالسيارة فتمايلت على الطريق ثم توقفت. «عذراً، يمكنني التعامل معها، أعطياني دقيقة فحسب». غطى وجهه بيديه وأخذ نفساً. ثم وضع السيارة في حالة تعشيق وأدار المفتاح ولامس مخنقة السيارة فاشتغل المحرك وناور بحذر شديد، راجعاً إلى الوراء مرتين قبل أن يصير يمينه مفتوحاً. قال: «أظن أنه آن أوان العودة إلى البيت».

طوال هذا كله احتفظ والده بمحيا ساكن وقور، كما يفعل دوماً حين يشعر بحال طارئة. «أجل»، قال، «أجل، كنت أتابع الأحداث في مصر. في هذه الحالة الوحيدة شعرتُ أن سياسات أيزنهاور مناسبة للأوضاع[2]. سيحكم الزمن على ذلك».

قال جاك: «صحيح».

«كينيا مسألة أخرى».

«هذا صحيح أيضاً».

بعد ميل آخر أو نحوه توقف جاك على كتف الطريق «غلوري، هل تمانعين بالقيادة بقية الطريق؟ ليست المسافة طويلة. نسيت أن أملأ الخزان بالوقود. ليست واثقاً من أن مقياس الوقود شغّال، ويشتتني القلق بشأنه. وهذا يقلقني». ضحك «لم أقد سيارة منذ عشرين عاماً».

فتبادلت وإياه الجلوس على مقعد السائق. أمسك لها الباب، باحتفالية، مبتسماً، بتعب وظرف. «شكراً جزيلاً لك»، قال لها.

نظرت لتتبين موضع دواستي الفرامل والتعشيق، ثم وضعت تروس

(1) West Nishnabotna: نهر نشنبوتنا هو رافد من نهر مسيسيبي، ومعظمه يمتد في خطين متوازيين في ولاية أيوا، هما نهرا نشنبوتنا الشرقي ونشنبوتنا الغربي.

(2) المقصود على الأرجح وقف تمويل أمريكا للسد العالي في مصر والذي كان من نتائجه إعلان عبد الناصر تأميم قناة السويس الذي أدى إلى العدوان الثلاثي على مصر في 1956.

التعشيق، لكن المحرك توقف، فحاولت ثانية واشتغل. قال جاك: «لا يزال ثمة مشكلة في... في شيء ما. لا يبدو صحيحاً. كان هذا غباء مني. كان يجب أن أبقى في البلدة». أشعل سيجارة وأخفض نافذة السيارة.

قالت غلوري: «سنكون على ما يرام»، من دون أن يكون ثمة أساس محدد لهذه الثقة سوى أنهم وهم يقتربون من البلدة باتت البيوت أقلّ تناثراً. أهل القرى ربما تكون لديهم هواتف وربما لا، إنما بالتأكيد لديهم وقود، وإذا اضطر الأمر لذلك، فإن لديهم الخبرة في التعامل مع الآلات الحرونة. وهذا أكثر ما يخيف جاك، فكرت. أن يضطر إلى قرع باب أحدهم. ثمة في الخارج من قد يعرفه، من دون أن يكون على معرفة بوالده الموقر. حسناً، ستجنبه ذلك بطريقة أو أخرى. وكانت السيارة تمضي بصورة معقولة. وبدا والدها غافياً، وإن كان لا يزال التعبير الرصين على وجهه مما يعني أنه يمكن الاعتماد على ألا يزيد الأمر صعوبة بأن يبدو متنبهاً له.

حين أوصلتهم الدي سوتو إلى البيت، خرج جاك من المقعد الخلفي وتمطى، ثم فتح باب والده. خرج والده وقال: «سأتصل بآيمز»، قال، «بعد أن أنال قسطاً من الراحة». وناول جاك العكازة «من بعد إذنك عزيزي، فبدني متصلب بعض الشيء». أمسكه جاك من ذراعه، ثم بدا حائراً في كيفية مساعدته، لأن والده صرخ صرخة صغيرة حادة «أيّ»، ونظر جاك إلى غلوري، منهكاً.

قالت: «دعني أساعدك». أمسكت ذراع والدها الأخرى، وسارا به إلى البيت ببطء وحذر. ولم تخفّف مساعدتها من ألم أبيها، إلا أنها أعفت جاك من أن يكون السبب الوحيد له. نزعت ربطة عنق العجوز وحذاءه

ووضعته على مقعده. وذهبت إلى المطبخ لكي تجلب له الأسبرين وكوب ماء، وسمعت السيارة تدور وخرجت إلى الشرفة. رأت الذي سوتو الخوخية الرائعة تختفي في الحظيرة، ثم سمعت باب الحظيرة يقفل. حين عاد جاك، مد المفاتيح لها.

قالت: «إنها سيارتك».

«أعتبرها هدية لك». أخذ يهزّ المفاتيح «هيا، لا أريد هذه السيارة اللعينة».

«قل لي هذا بعد أسبوع وسأصدقك».

رمى المفاتيح على البيانو وابتسم لها «اياً كان ما تقولينه يا ذيل الخنزير».

قالت: «جاك، لا تستطيع الرحيل».

«حسناً، كما لا يمكنني البقاء، أليس كذلك». فرك عينيه وضحك «لا جدوى من ذلك. أتخيل نفسي مصطحباً حبيبتي بجولة في البيئة التي نشأت فيها. ليس أنه ليس لديها الكثير من الأوهام حولي. إلا أن القليل الذي تعرفه قد يكون حاسماً».

«ربما كان كذلك، من يعرف. لكن يجب أن نفكر بوالدنا. لا نريد أن نتسبب بمقتله».

«لا، لا نريد ذلك. وإذا كنا سنغادر سنتغرب إلى الأبد عن أختنا الصغيرة، التي صرنا فجأة نعتمد عليها».

«أجل سنفعل. ستفعل. وأعني ذلك يا جاك. إذا كنت قد عنيتُ شيئاً في حياتي».

«يا للشراسة»، قال وضحك وفرك عينيه. «شكراً لك. تهديد قوي يمكن أن يصوّب مسار الرجل. لكن ما هذا؟ الآن أنت تبكين!».

قالت: «لا تأخذ ببالك».

«أنت تسامحينني».

«بالطبع».

قال: «ثمة الآخرون جميعاً يا غلوري. سيحب العجوز وجودهم حوله، وسيكونون عوناً كبيراً لك أكثر مني بكثير، قد يكون هذا صعباً جداً كما تعرفين. فأنا لست ركيزة من القوة؟ وإذا ساءت أموري فيحسن أن يكون ذلك في مكان آخر. هذا أفضل لأبي. أظن ذلك فعلاً».

«أجل لقد فكرت كذلك لمدة عشرين عاماً، أليس كذلك».

ضحك. «في الحقيقة فعلت. وربما لم أكن مخطئاً يا غلوري. ليس مخطئاً تماماً».

«أنت تعرف ذلك أفضل مني. لكنك قلت إنك كنت تبلي حسناً طوال عشر سنوات».

«هذا صحيح. تقريباً عشر سنوات».

«إذن كان يمكنك على الأقل العودة لحضور جنازة أمنا»، ارتعش صوتها، «كان هذا ليعنيه كثيراً. أنا آسفة. لم يكن يجدر بي ذكر ذلك. لا أعرف لمَ فعلت».

ابتسم. «أنا نذل يا غلوري، لنترك الأمر عند هذا الحدّ». قال: «أنا آسف. عليّ الاضطجاع لبعض الوقت. رجاء اعذريني».

«انتظر». مضت إليه حيث يقف واضعاً يده على درابزين الدرج، ووجهه طافح بالتعب، وقبلته على وجنته. ضحك.

«شكراً لك»، قال، «كان هذا لطيفاً. قد يساعدني حتى على النوم».

أغفا، ثم نزل لمساعدتها على إعداد طاولة العشاء «يمكنني البقاء

لفترة. إذا كان لا يزال لا بأس بذلك».

قالت: «لا بأس به».

شاهد مباراة بايسبول على التلفاز مع والده حين انتهى من الأطباق.

صبيحة الأحد هبط جاك الدرج مهندماً حليق الذقن، لابساً جوربيه وحاملاً الحذاء بيديه، لكي يتفادى إيقاظ والده. نظر إليها وهز كتفيه كأنما يقول ماذا لديّ لأخسره، وناولته كوب قهوة. ارتشفه، مستنداً إلى الثلاجة. ثم ذهب إلى درج النقود وأخرج دولارين. «من أجل صينية التبرعات في الكنيسة»، قال هامساً، «أنا مدين لك». راح يحف يده بحافة قبعته :هل تمانعين لو استعرت ساعة يدك؟ عندئذ يمكنني القيام بنزهة صغيرة قبل بدء القدّاس». أعطته الساعة ونظر إليها ثم وضعها في جيب سترته. «حسناً»، قال، «ها أنا منطلق». ثم توقف على الشرفة لكي ينتعل حذاءه ويعدّل قبعته، وغادر.

بعد نصف ساعة سمعت والدها يتململ، وأخذت له صينية القهوة وصلصلة التفاح والتوست بالزبدة وأقراص الأسبرين مع كوب ماء. كان لا يزال بروبه وخفيه ويرتدي شبكة شعر. قال: «ألا تشعرين بخير يا عزيزتي؟ لا كنيسة اليوم؟ ربما عليّ ان أتصل بآميز وأخبره بأن علينا تأجيل العشاء إلى وقت آخر....».

«لا أبتاه، أنا بخير. لقد مكثت في البيت لكي يتمكن جاك من الذهاب».

«إلى الكنيسة؟ جاك؟».

«أمممم».

«جاك ذهب إلى الكنيسة؟».

«كنيسة آيمز، بادرة احترام، كما قال».

«أجل، حسناً، هذا جيد جداً. جون يقدم عظات جيدة. ذلك القس الشاب في كنيستنا الآن، لست أكيداً منه. قد أذهب إلى الكنيسة التجمعية بدوري، إذا ذهبت إلى أي مكان» ضحك، «هذا شيء مهم، يا له من يوم رائع».

جلس بصمت تام لدقيقة، مبتسماً في الهواء، «في اللحظة التي يوشك المرء فيها على الاستسلام كلياً! الربّ رائع!».

«ربما لا يجدر أن تتأمل كثيراً في الأمر يا أبي».

«أتأمل في الأمر! هذه حقيقة فحسب! حين يذهب المرء إلى الكنيسة يكون قد ذهب إلى الكنيسة!»، قال، «ظننت أنني جعلته ينفر من الأمر برمته. ظننت ذلك فعلاً. سمعت عن ذلك في عائلات الكهنة. أكثر من مرة».

«حسناً، يبدو أنه كان له علاقة ما بكنيسة ما في سانت لويس، قال لي إنه كان يعزف البيانو هناك».

«حقاً! ما كنت لأعرف ذلك. لا يكلمني كثيراً. لم يفعل يوماً». ضحك. «اعتادت امك أن تسألني لم! نستمر بدفع أجور دروس البيانو لهذا الصبي؟ لأنه كان يرفض أن يتمرن كما تعرفين. إذا حاولت إجباره، يخرج من الباب. لكنني قلت إن شيئاً ما قد ينتج من ذلك. سوف يذهب إلى الدروس مع تيدي. أجل. قلت لها أظن أن علينا معاملة جميع أولادنا بالطريقة نفسها، بمن فيهم جاك». جلس هناك مبتسماً، ووجهه وضاء بالبراءة «هذا رائع. يقوم المرء بخيار لا يمكنه حتى تفسيره وبعد سنوات... حسناً، كنت أعرف أنه ذكي. كان هذا جلياً لي. كان

دائماً يهتم أكثر مما يبدي. لكنني عرفت ذلك، علمت»، وضحك من فكرة ذكائه الخاص. «أجل».

قالت غلوري: «يبدو أن له أصدقاء في الكنيسة هناك».

«أصدقاء! حسناً، أفترض ذلك. هذا يحدث في الكنيسة فحسب، أليس كذلك. لم يكن له أصدقاء فعلاً في طفولته مع ذلك. لم يبدُ يوماً راغباً في تكوين صداقات. لقد صليت طوال حياتي أن يكون له صديق أو اثنان. غالباً ما فكرت كما تعلمين، بوحدته هذه. ولم يخطر لي، صدقاً لم يخطر لي أنه هناك في سانت لويس ستستجاب صلواتي! أوليسَ هذا شيئاً مهماً!»، هزّ رأسه «كان ذلك ليخفف من أعباء قلبي، أؤكد لك ذلك. كان يمكنني أن أوفر على نفسي بضع سنوات من الحزن، لو كان لدي بعض الثقة فحسب. ثمة درس في هذا». ثم قال: «أتساءل مع ذلك ما حدث، أعني الآن لا يفاجئني كرجل أنه يشعر بأن له أصدقاء. ثم يمكن أن أكون مخطئاً».

«لم يخبرني الكثير أنا أيضاً».

«حسناً، ها أنا أقلق، وهذا يوم رائع! عليّ أن أستنهض نفسي. أتمانعين بأن تمشطي شعري قليلاً يا غلوري؟ أشعر أنني أشعث بعض الشيء. إنني أتخيل ذلك على الأرجح». ضحك «أعرف أنه لم يبقَ الكثير من الشعر ، ومع ذلك».

فأحضرت والدها إلى المطبخ وأجلسته ووضعت منشفة على كتفيه ولفتها حول رقبته. أحضرت مشطاً ومقصاً وبدأت بالعمل. شعره اختفى، أو كان في نقطة التلاشي، ليس عبر التساقط الاعتيادي للشعر، بل بسبب تقصفه. كان جميلاً جداً، شديد البياض، بالغ الخفة، بحيث أنه حوّم في عقصات ناعمة. وكأن ريحاً هبّت عليه، فكرت. كانت

تكره أن تقصه، إذ بدا أن هناك القليل من الحظ بأن ينمو ثانية. كان الأمر أشبه بقص شعر طفل. إلا أن والدها ادعى أنه يتضايق من جماله. فونتلروي في شيخوخته[1]، قال.

فقصت شعره وشذبته، قاضية وقتاً أكثر مما يلزم لكي تشعره بأن تغييراً ما قد حدث، ممسدة إياه بالماء لكي يشعر بأنه أملس مشذب. قفا رقبته، خلف أذنيه، حيث الأثر البيّن لجهد حمل هذا الرأس البشري الكبير لعقود وعقود. قال أحد القدماء إن هذا ما يميزنا عن الحيوانات، أن عيوننا ليست منخفضة إلى الأرض. معظم الوقت. كان ذلك أوفيد. في نهاية جهد كبير إلى هذا الحدّ، بدا العنق واهناً إلا أن الرأس لا يزال مرفوعاً، والأذنان في موضعهما ما زالتا متشكلتين للإنصات، على الرغم من نعومتهما. كانت لتترك كل الشعر الجميل الذي بدا مثل ذهول محبب، تماماً مثلما بدا الرأس المرفوع والأذنان مثل انتظار الشيخوخة، مثل الثقة وقد شاخت.

«أجل»، قال والدها، «كلما تخيلته، أتخيله وحيداً، مثلما اعتاد أن يكون، وأتساءل أي حياة تراه يعيشها، من دون أحد يهتم بأحواله، وبحاجياته. أدرك أن الشيء الوحيد الذي ظننت أنني أعرفه أنه سيكون وحده»، ضحك. «أجل، لقد كلفني الكثير من الأسى، وأنا لم أفكر في التساؤل عن الأمر. صليت لذلك أكثر مما صليت لأي شيء آخر على ما أظن».

فتح الباب الشبكي ودخل جاك إلى الشرفة ثم إلى المطبخ. نظر إليها ورفع كتفيه. «شجاعتي خذلتني»، قال، «ظننت أنك إذا كنت مرتدية

---

(1) Little Lord Funtleroy: بطل رواية للناشئة من تأليف فرانسيس هودجسون بورنيت، نشرت عام 1885، وهو طفل شديد التأنّق والتهذيب.

ثيابك فيمكنك الذهاب متأخرة. آسف».

بعد برهة قال والدها: «اقترب يا بني»، ومدّ يديه له. وضع جاك قبعته على الطاولة واقترب من العجوز وتركه يمسك يديه: «كثر يجدون من الصعب الذهاب إلى الكنيسة إذا كانوا بعيدين عنها منذ زمن. لقد رأيت هذا كثيراً. وكنت أقول لهم، هذا لأن الأمر مهم بالنسبة إليكم. القرار مهم لكم. مثلما يفترض به أن يكون! إذن، أترى، ليس من سبب على الإطلاق لتشعر بخيبة الامل. لطالما قلت إن الأحد وفيّ. بعد أسبوع ستجده قد عاد ثانية»، وضحك، بحزن، وربّت يدي جاك.

نظر جاك إليه، نظرة رقيقة بعيدة، وقال: «الأسبوع المقبل».

غلوري أدخلت يدها في شعر والدها ثم قبلته حيث هو أشد بياضاً وأكثر رفعاً، في قمة رأسه تماماً. قالت: «انتهينا»، ونزعت المنشفة عنه.

قال جاك: «لا أظن أن وقتك يتسع لزبون آخر».

«بكل تأكيد يتسع»، كانت متفاجئة. لطالما كانوا حذرين تجاهه، شبه خائفين من لمسه. كان ثمة وحشة فيه أعمق من التواضع أو الانزواء. كان برياً، وهشاً. وقد فرض نوعاً من اللياقة الغريبة عليهم جميعاً، وحتى على أمهم. كان ثمة دائماً اللحظة التي يدكون فيها ذلك - لا عناق، ولا لعب عدوانياً يمكن أن يشمله. وحتى والده كان يربت كتفه باحتراز، بخجل وحذر. لماذا يجدر بطفل ان يدافع عن وحدته بهذه الطريقة؟ لكن دعوه على هواه، كان والدهم يقول، وإلا رحل. كان يبتسم لهم من بعيد، وتكون ابتسامته حزينة قاسية، وتعني انفصاله عنهم، حتى وهو معهم.

تفاجأ والدها أيضاً. قال: «حسناً سأبتعد عن طريقكما هنا». ساعدته غلوري لكي ينهض عن الكرسي «عليّ أن ألقي نظرة على الصحيفة،

إذا كان آيمز آتياً. يجب أن أكون مطلعاً على آخر الأحداث في حال بدأ بمناقشة السياسة». أجلسته عند النافذة، وحين عادت كان جاك ما زال واقفاً ينتظر.

قال: «أنت مشغولة على الأرجح».

«ليس بصورة خاصة، لكن عليّ أن أنذرك، لا أدّعي أنني حلاقة على الإطلاق. كل ما أزعمه أنني أحلق شعر أبي».

قال جاك: «إذا أمكنك أن تشذبيه قليلاً. كان يجدر بي الذهاب إلى الحلاق أمس. كنت شعرت أنني أقل... سوء سمعة».

«هذا الصباح؟ كان مظهرك جيداً».

«لا»، خلع سترته، ولفت المنشفة حول رقبته وكتفيه «يمكنني أن أشعر بهذا، كان مثل الحكة تحت جلدي. مثل الـ... ابتذال. فكرت أن ثيابي قد تكون السبب. أعني إنها تجعل ذلك جلياً. أكثر جلاء».

أجفل فجأة عندما لمسته. «سيكون عليك أن تجلس ثابتاً»، قالت: «أكان آيمز هو السبب؟».

«هو أيضاً. لكنني لا أستطيع القول إنها تجربة جديدة عليّ. لقد راودتني من وقت لآخر. إنها تستمر حقاً أكثر من بضعة أشهر»، ضحك، «ما كان عليّ أن أطلب منك ذلك. لست مضطرة».

«اجلس ثابتاً».

«لا يمكنك التعاطف معي، فأنت لم تشعري يوماً بأنك مبغوضة من الآخرين».

«أنى لك أن تعرف؟».

«ألستُ محقاً؟».

«أظن ذلك».

«أنا محق»، قال، «في حال كنت تتساءلين فالابتذال معدٍ. فاحذري. يجب أن أضع حزام الجذام. أظن أنه عليّ ذلك».

«إنك تتخيل».

«لا، إنني أبالغ فحسب».

«لم تدخل فعلياً إلى الكنيسة».

«حتى إنني لم أجتز الشارع إليها».

وضعت يدها تحت ذقنه ورفعت رأسه. ألمست وجهه يوماً من قبل؟

«لا أرى حقاً ما أفعله هنا. يجب أن تجلس مستقيماً».

«أظن أن آيمز العجوز رآني هناك، أتسكع، أتوارى عن الأنظار. وهو يطالع رعيته»، ضحك، «يا لي من مغفل».

«اثبت».

«سأفعل».

«سوف أقصّ حول أذنيك. يجب أن أجعل الشعر مستوياً».

وضع رجلاً على رجل وطوى يديه وجلس هناك بطاعة، بينما قصت الشعر في جانب، ثم في الجانب الآخر. رفعت رأسه إلى الأعلى لكي تحكم على النتيجة. رأت الدموع تجري على وجنتيه. أمسكت طرف المنشفة ومسحتها، وابتسم لها.

«هذا بفعل السخط»، قال، «إنني شديد السأم من نفسي».

طلب منها أن تقص شعره أقصر في الأعلى لكي لا يتهدّل فوق جبينه. قال: «أبدو مثل العاهر[1]».

---

(1) Gigolo: الشاب الذي يتقاضى مالاً من النساء، اللواتي غالباً ما يكنّ من المسنات، لكي يمارس الجنس معهن.

«لا، لا تبدو كذلك».

نظر إليها: «كيف تعرفين؟».

«أظن أنني ما كنت لأعرف».

هزّ رأسه: «عملت لفترة وجيزة كمدرب رقص. أحبتني العجائز. لكنني كنت أحتسي الكحول في تلك الفترة، فلم أتقن السامبا حقاً».

ضحكت: «هذه قصة محزنة».

«أجل، هي كذلك. فكرت أنني أبلي حسناً. إلا أن رب عملي أجفل من، تعرفين، الارتجال. قمت بخطوات مثيرة للاهتمام، لكن عليك أن تقومي بها ثانية، على الأقل مرة واحدة. هذا كان انتقاده الأساسي».

«آه جاك».

«جاك بكل تأكيد. أمضيت ذلك الشتاء في مكتبة. كان شتاء مزرياً فاستغللت الفرصة لكي أنمّي معارفي. أحبتني العجائز هناك أيضاً. رجل محترم يمرّ بأوقات عصيبة. عشت على كعك القمح والكعك الأبيض. لم يكنّ من النوع نفسه من العجائز. أقلّ أحمر شفاه، ولا يصبغن شعورهن».

«لاحظت مدى ثقافتك».

هزّ رأسه. «اعتدت على ارتياد المكتبات على مرّ السنين. إنه آخر مكان قد يبحث عنك أحدهم فيه. أعني نوع البشر الذين يأتون بحثاً عنك. أفضل بكثير من السينما. ففكرت أنني أستطيع أيضاً أن أقرأ ما كان يجدر بي قراءته في الجامعة، بقدر ما تسعفني ذاكرتي. عمل رتيب بصورة رهيبة، الكثير منه. ما كنت لأستمر أسبوعاً في الكلية لو لم يكن تيدي ليقوم به عني».

«أوه».

ألم يأتِ على ذكر هذا؟».

«ولا كلمة، ليس على حدّ علمي».

«ذلك النضج الخاص به؟ إنه نتيجة سنوات من القيام بواجباتي الدراسية. إنه مدين لي بعمق. ما كنت لأذكر هذا بالطبع، إلا لك».

«هذا جيد منك».

هزّ رأسه: «إننا شقيقان في نهاية المطاف».

«لكن عليك أن تجلس ثابتاً».

«أحاول».

«ربما عليك أن تهدأ قليلاً».

«اقتراح مثير للاهتمام»، قال، «فكرة جيدة بحق».

«لن ألمس شعرة من رأسك ما لم تجلس ثابتاً».

«منصف بما فيه الكفاية. فقط أعطني المقص وسأنهي العمل بنفسي».

«لا مجال أيها المشاكس».

ضحك.

«ليس بالمزاج الذي أنت فيه».

هزّ رأسه. «أنت محقة بأن تقلقي. أريد فقط أن أتخلص من هذه الغرّة. ماذا يقولون؟ أمسك بالقدر من غرّته؟».

«الزمن على ما أظن. إنه الزمن الذي له غرة».

«حسناً، شيء ما أمسكني من غرة شعري. لكنني أكيد بأنه ليس شيئاً موقراً مثل القدر. إذا كانت الغرة تزعجك فقصيها. آسف».

«إذن اجلس ثابتاً».

«أفكرت يوماً بمعنى هذا: 'إذا كانت عينك اليمنى تعثرك'[1]؟ وكأنها ليست جزءاً منك؟ ومع ذلك فهذا صحيح. أنا أسيء إلى نفسي - العينان، اليدان، التاريخ، الآمال...».

«أتناولت أي إفطار؟».

ضحك.

«لم تفعل. سوف أعد لك شطيرة. أنت قلق بشأن مقابلة آيمز الليلة ثمة على العشاء».

«أجل، حسناً، لقد بذلت قصارى جهدي لكي أجعل التجربة محرجة».

«هراء. حقاً. وإذا رآك في الشارع، فماذا يعني هذا؟».

«رأي سديد يا غلوري. المنظور. هذا ما نحتاج إليه هنا. أكان ليلاحظ انزعاجي من نفسي من تلك المسافة؟ حسناً، وإن يكن؟ إن المواطن الذي يلتزم بالقانون يحق له أن يشعر بالبؤس على رصيف عام صبيحة يوم الأحد. وحتى أن يقف كما يشاء. وقرب كنيسة أيضاً. ثمة شعر في ذلك، نوعاً ما».

«لا تعرف حقاً إذا كان قد رآك أم لا».

«أنت محقة».

«لحم مفروم بالبيض أم سلطة التونا؟».

«لحم بالبيض، مع بعض الكاتشاب فحسب».

بدأت بإزاحة سترته عن الطاولة فوقف وأخذها من يدها، مبتسماً.

---

(1) إنجيل متى، 5: 29، «إذا كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم».

كانت حساسية أخرى، مثل خصوصية الغرفة العارية المرتبة في الأعلى. لا بأس. أسفت لأنها نسيت ذلك. تحسس جيب سترته الأيسر، وهو ما لم تتساءل عنه، وارتدى السترة «سوف أنفض المنشفة»، قال، «ثم سأكنس الأرض قليلاً».

أحضر جاك مقعد أبيه إلى المطبخ لكي يكون حاضراً خلال تقشير التفاح وتحضير العجين. «لطالما استمتعت بهذا»، قال العجوز، «صوت السكين وهي تقص تفاحة»، طلب أن يلقي نظرة على الفطيرة قبل وضع القشرة العليا... «أكثر ضوءاً من زهرة!»... ونظر إليها بعد ذلك، حين تمّ تقريض الحواف وقصّت الزوائد. قال: «كانت جدتي تخرج لكي تجمع التفاح الذي أسقطته الريح. كان بستاننا أصغر من أن ينتج الكثير، لكنها كانت تقطف التفاح كلما وجدته ناضجاً وتجلبه إلى البيت وتكوّمه هناك أمام السقيفة، ويبقى هناك حتى يتخمّر، ثم تحوله إلى عصير تفاح. قالت إن هذا يفيد طبياً، ينشّط عظامها التي تؤلمها، كانت تقول. وكانت تذيقني إياه أحياناً. وكان طعمه رهيباً. لكن في الصباح البارد، كان البخار يرتفع من كومة التفاح تلك كالدخان. كومة من التفاح المدخن. وكان الدجاج يندسّ فيها طلباً للدفء». ضحك «وكانت القطط تنام فيها. كانت دوماً لها مشاريعها الصغيرة الخاصة. كانت تتناول الكبد حين يمكنها العثور عليه. اللسان. لحم الضأن. وفي الربيع تخرج إلى الحقول، وتمشي على طول الأسيجة، قاطفة الهندباء البرية ما إن تشرق الشمس. وتعود وقد ملأت مئزرها بالفرفحين. وكانت أمي تتحرّج من ذلك، وتقول 'يحسب المرء أننا لا نطعمها'. لكنها كانت تفعل دوماً ما تريد فعله». واصل الكلام بوتيرة واحدة مثل

إبريق يغلي. شذّب جاك الفطر الذي قطفه وغسله، ثم عاود غسله حتى تأكد من أنه لم يعد من تراب عليه. وقطع البصل. وبدأت رائحة الفطيرة تفوح في المطبخ.

«هذا رائع»، قال والده، «هناك الكثير يجري، وأنا في وسطه تماماً. أعوّق حركتكما أيضاً. كان لطيفاً منك أن تجلسني هنا يا جاك، أنت لطيف جداً معي».

ضحك جاك: «أنت تستحقّ ذلك».

قال والده: «أجل، مسرات الحياة العائلية حقيقية جداً».

«هذا ما أفهمه».

«حسناً، كنت لتتذكر ذلك أنت أيضاً يا جاك. كانت أمك دوماً تخبز شيئاً ما. كنا عشرة في البيت، ولم يكن يخلو المكان من الزوار أيضاً في تلك الأيام. كانت تشعر أنه يجدر أن يكون لديها أشياء شهية تقدّمها لهم. كانت الفتيات يساعدنها على تحضير الكعك والبسكويت. كل الكلام والضحك. والقليل من الشجار والجلبة من وقت لآخر أيضاً. لكنك كنت دائماً في الخارج في مكان ما».

«ليس دائماً».

«لا، ليس دائماً. هكذا كنت أشعر فحسب».

«آسف».

«لقد افتقدناك هذا كل ما في الأمر».

وها هو هنا الآن، فكرت غلوري، مكدوداً ومتردداً، ولم يتبق فيه من شبابه إلا القليل، ذلك التملص الملتوي، والسرية، التي يبدو في الحقيقة أنه يرتديها على جلده. توقف مستنداً على النضد طاوياً ذراعيه على صدره ينظر إلى والده بينما يتأمله الأخير، مبتسماً تلك الابتسامة القاسية

الشاردة ساخراً مما يعرف أن والده يراد، وكأنه يقول «طوال السنوات الماضية وفرتُ عليك معرفة أنني لم أكن أستحق أساك».

لكن العجوز قال: «اقترب يا بني»، وأمسك يدي جاك وربتهما ووضعهما على وجنتيه. قال: «إنها شيء قوي، العائلة».

وضحك جاك: «أجل سيدي، أجل إنها كذلك. أعرف ذلك الآن».

«حسناً»، قال، «على الأقل أنت في البيت».

بعد الانتهاء من إعداد الفطيرة، ووضع الديك الرومي في الفرن، وخبز البسكويت ووضعه جانباً، أغفا العجوز في دفء المطبخ، وصعد جاك إلى غرفته وجلست غلوري في الأسفل تقرأ قليلاً. أعدت المائدة، وكان المطبخ مرتباً إلى حدّ معقول، وكانت ليلى قد أخبرتها بأنها ستأتي بالسلطة.

سمعت جاك يغتسل، ويحلق ذقنه ثانية بلا ريب. هكذا كان يقوّي من عزيمته، بأن يحلق ذقنه ويلمّع حذاءه. كان يكوي قمصانه بنفسه، بحذر شديد، وإن ليس بالجودة نفسها التي كانت لتكويها هي بها. لم يسمح لنفسه البتة بأن يكون عبئاً عليها لو أمكنه تجنّب ذلك، ولا قبل مساعدة من دون أن يردها فوراً بالمساعدة. حين غسلت له قمصان والده، قام في المقابل بمسح أرضية المطبخ وتلميعها أيضاً. كان يفعل أموراً كهذه ببراعة وموهبة عزاهما دوماً إلى الخبرة العملية. حاولت أن تطمئنه إلى أنه ليس من الضروري أن يحافظ على هذه المشاركة الحذرة، إلا أنه رفع حاجبيه فحسب، وكأنه يقول إنه يعرف بهذا الشأن أكثر منها. أدركت أنه ليس الكبرياء فحسب بل أيضاً الحذر من قبل رجل

مثله، اعتاد بحكم العادة والخبرة، على أن يشك بأنه مصدر ترحيب. كان يريحه قليلاً أن يعرف بأنه مفيد.

وكان اكتفاؤه الذاتي احترازاً أيضاً، وكأن متاعه الشخصي قابلة للتفسير، أو كأنها، على الرغم من قلتها، ومن رثاثتها، كانت مشبعة بسمات حياته السرية ويمكن أن تؤدي إلى ازدرائه أو اتهامه، أو أن تكشف جرحاً قديماً، أو سعادة قديمة، الأمر الذي بدا - إلى حدّ ما - الشيء نفسه. ذات مرة، بعد أسبوع أو نحوه من عودته إلى البيت، خرجت لكي تعلق الغسيل في الخارج ووجدت اثنين من قمصانه على الحبل، وقد جفا. فأخذتهما لكي تكويهما بما أنه ستقوم بأعمال الكي على أية حال. القبة ثم محيط القبة ثم الكمين، كانت هذه الطريقة الصحيحة للكي، كما كانت تقول والدتها، ولم تخالف يوماً هذه القاعدة. وحين بدأت بكي أول الكمين، لاحظت أنه يتلألأ بالنجوم والأزهار، تطريز بخيوط بيضاء فوق بياض القميص، من طرف الكمّ إلى الكوع، مع وردة أخيرة قرب الكتف.

دخل جاك إلى الشرفة وتوقف فجأة عندما رأى ما تفعله وابتسم لها.

قالت: «عذراً، أظن أنني تطفلت ثانية».

قال: «حذارِ، هذا أفضل قمصاني».

«أنا حذرة دوماً. التطريز عليه جميل حقاً».

«صديقة لي قالت إنها سترتقه وهذا ما فعلته بدلاً من ذلك. كانت مزحة نوعاً ما».

«ومع ذلك فإنه جميل».

هزّ رأسه.

قالت: «يمكنك متابعة الكيّ. لقد وترتني».

هز كتفيه «أنا حسّاس. أعرف ذلك».

«لا، إنه تطريز رائع. أنت محق بأن تقلق عليه».

قال: «ما عدت أرتديه تقريباً. لكنني أضعت الحقيبة الأخرى». اقترب بما فيه الكفاية فقط لكي يلقي نظرة على الأزهار والنجوم، المضغوطة بنعومة، المشعة بنعومة مثل الدمسق. «لم أتوقع شيئاً من هذا القبيل. فعلت ذلك منذ سنوات. منذ سنوات طويلة». تلك كانت أول مرة تسمع فيها عن ديلّا.

نزل جاك لكي يساعد في تحضير والده للعشاء، بصمت، بما أن العجوز أغفا في أبخرة الأحد وعطوره. لمع حذاءه وفرّش سترته واختار من بين ربطات عنقه اثنتين، واحدة كحلية وأخرى بنية وياقوتية. لمست غلوري الثانية، فهزّ جاك رأسه وطرحها فوق كتف السترة. ثم بحث ثانية ووجد إبزيماً يشبه خنجراً على مقبضه صليب القديس أندراوس[1]، وزري كمّ القميص المناسبين. هزّت كتفيها. التلميح إلى إسكتلندا يوقظ في والدهما نقمة حزينة، وجهوزية للدفاع عن فرضية أن التاريخ بصورة عامة كان ينبغي أن يمضي على غير ما مضى، مع ذلك المثل الحزين كحالة إثبات. أما آيمز، بما أنه ليس إسكتلندياً ولا مهتماً بالتاريخ بعد نهب روما وقبل انعقاد مؤتمر فيلادلفيا[2]، فيسمعه بصبر يجده والدهما مرهقاً.

(1) يلقب في التقليد الأرثوذوكسي ببروتكليتوس، أي أول المدعوين، وهو أحد رسل السيد المسيح وشقيق بطرس الرسول، ويعتبره الإسكتلنديون قديسهم الحامي.

(2) Continental Congress: أو المؤتمر القاري، هو التجمع الذي التقى فيه ممثلون عن ثلاث عشرة مستعمرة بريطانية في أمريكا والتي شكلت الولايات المتحدة الأمريكية خلال حرب الاستقلال. وقد انعقد هذا المؤتمر للمرة الأولى عام 1774.

«ثم بمَ يهم ذلك؟»، يسأل والدهما الهواء، ما إن يخرج آيمز من الباب. فأعادهما جاك إلى نضد الزينة. وعاد مع زوج من الأزرار الماسونية، اللذين نقش عليهما شعار الشعيرة الإسكتلندية[1] بالطبع، إلا أنه تذكار على أن القوة والازدهار انتصرا رغم كل شيء. آيمز لم يكن ماسونياً كذلك، وبالتالي فإن تعهّد والدهما بالسرية يحظر عليه السجالات التي يمكن لولا ذلك أن تكون مضجرة. هزت رأسها موافقة.

أخرجت أفضل قمصانه الجديدة. تحسس جاك الكم وصفّر «رائع!»، لطالما قال والدهما أنه من الاقتصاد السيء شراء أشياء رخيصة النوعية، لأنه كان بطريقته الكهنوتية المحتشمة، متهندماً. من وقت لآخر، في طفولتهما، كانت تصل صناديق من شيكاغو، تتضمن بدلات وقمصان وربطات عنق، عادية بما فيه الكفاية لكي لا يلاحظها أحد، إلا أنها كانت تضفي على جسده الطويل الضامر هالة من الوقار والكياسة. ثوب جديد أو بدلة، دائماً تصل من شيكاغو أيضاً، كانت الهدية التي تقدّم للولد أو البنت الذي اكتسب الطول الأكثر قياساً بالآخرين أو الأخريات من الفصح السابق. بدأ ذلك كحيلة من أمهم لكي تدفعهم إلى تناول الخضار. كان احتساب النسب يضاف كإقرار بأفكار تيدي عن المساواة. كان هو من يفكر ملياً بحقيقة أن الفتيات يكبرن أقل من الفتيان بمعايير مطلقة. لم يشارك جاك يوماً في طقس قياس االطول هذه، الذي كان حدثاً صاخباً من الكعك والكاكاو والحسابات المثيرة للجدل. لكن في تلك السنة الوحيدة كانت البدلة من نصيبه على أية حال وحضر بالفعل قداس الفصح. بدا رائعاً جداً، قال والده حين ذكر ذلك.

(1) Scottish Rite: سلسلة من الشعائر التي يمارسها الماسونيون أو البناؤون الأحرار حول العالم.

إذن، قامت وجاك بنوع من المحاكاة التدريجية لوالدهما النائم. فلعب جاك الورق قربه في حين ارتدت غلوري ملابسها، ثم صعد إلى الأعلى في حين أنهت غلوري الخضار وصلصة اللحم. وقبل نصف ساعة من موعد وصول آل آيمز، أيقظت غلوري والدها وساعدته على ارتداء ملابسه، وغسلت له وجهه ومشطت شعره في فرق جميل أبيض يتناسب تماماً مع ربطة عنقه الرائعة والنظرة النزقة التي يتقمصها ليخفي سروره بضروب الاهتمام هذه بخيلائه.

قال: «جاك هنا»، وكأنما ليستبعد الاحتمال الآخر.

«صعد إلى فوق قبل بضع دقائق».

«سينزل ثانية وقت العشاء».

«أجل».

ثم وصل آيمز مع ليلى وروبي، ثلاثتهم بثياب الكنيسة، وأخذت والدها إلى غرفة الجلوس معهم، حيث جلسوا على الكراسي التي تصدر صريراً التي ما عاد أحد يجلس عليها. كان شبه منسي أنها ليست موجود هناك كزينة كئيبة فحسب، فقد لعبت دور الكراسي فقط بمعنى أن منضدة المصباح هي راعية غنم بحقّ. بدا الارتباك جلياً على آيمز بسبب الحسّ الرسمي الذي أسبغه والدها على المناسبة. كانت الحجرة مليئة بتلك الأشياء التي تبدو موجودة لمنع الأطفال من لمسها فحسب - طواحين هواء ومعابد بورسلانية وكلاب من الخزف - وقد أشرقت عينا روبي بالاهتمام المكبوت فيهما. استند على ركبة أمه، رافعاً رأسه لكي يهمس لها من وقت لآخر، ممسكاً ومجعداً حاشية ثوبها بيديه. علق الحضور على حال الطقس. ثم قال والدها: «سيكون هناك عواقب

على مصر»[1]، ثم مضت هي إلى المطبخ لكي تقلي الفطر بما أن جاك لم يظهر بعد.

حين بدأ غيابه يبدو مريباً وغريباً، ذهبت إلى غرفة الجلوس لكي تقول لهم إن جاك سينزل بعد دقيقة أو اثنتين. سمعوه يهبط الدرج، ثم ها هو، واقفاً بالباب. كان مرتدياً إحدى بدلات أبيه الداكنة القديمة الجيدة. ساد صمت ينم عن المفاجأة. نفض جاك كتف السترة وقال: «إنها خابية بعض الشيء. تبدو كالغبار». ثم لزم الجميع الصمت حتى قال والده: كنتُ رجلاً طويلاً بحق ذات يوم».

كان جاك يرتدي أحد القمصان قشدية اللون التي أنزلتها غلوري من العلية، وربطة العنق المقلمة الزرقاء، وكان شعره مفروقاً في وسطه ومصففاً جانباً. بدا شبيهاً كثيراً بوالده في شبابه، باستثناء السأم الواضح على وجهه، ذلك التعبير المعتدل غير البريء. واعياً للصمت، ابتسم ولمس الندبة تحت عينه. لكنه كان ليبدو متألقاً، مرتدياً بدلة قديمة الطرز رسمية، لو لم يكن جاك، ولو لم يفكروا، بالتالي، ما الذي يعنيه هذا؟ ما الذي سيفعله تالياً؟ وكان ثمة شيء مؤثر في حقيقة أن البدلة ناسبته بصورة شبه ممتازة، أو كانت لتناسبه لو لم يكن هزيلاً إلى هذا الحدّ. كان بمثابة قياس لهزال جسد أبيه، وربما أيضاً نذيراً بإنهاك جسده هو.

قال آيمز: «حسناً»، ونظر إليه لبرهة قبل أن يتذكر الوقوف.

لاحظت غلوري أن الرجال الذين تربطهم ببعضهم علاقة مضطربة يخطون خطوة واحدة قدماً، متكئين على مسافة بينهم وكأنه جرى التوصل إلى هذه المسافة من خلال معاهدة يمكن خرقها خلال البرهة التي تتطلبها المصافحة فحسب. قال: «جاك».

---

(1) تأميم قناة السويس.

قال جاك: «الموقر آيمز، السيدة آيمز»، ثم ضحك ومسّد طية سترته ونظر جانبياً إلى غلوري، كأنما يقول لها: «فكرة أخرى سيئة!»، كان يضع الإبزيم الذي على هيئة خنجر. وعكس الشحوب الذي اعترى وجهه قلقه. حين يكون قلقاً يستولي عليه صدق غريب. لقد فعل في حياته أموراً غير مفهومة، لأسباب غير مفهومة، مستجيباً بصورة مقلقة لتوقعات الآخرين تجاهه، وكأنما انكشف فيه الهيكل العظمي للسلوك الروتيني، حركة انقباض العضلات والأوتار وتمدّدها. وكان يدرك ذلك، ويشعر بالحرج منه، ويميل إلى تمريره، لو أمكنه ذلك، كسخرية، مما يزعج المعارف والغرباء، ويمكنها أن تتخيل أيضاً، أرباب العمل ورجال الشرطة.

قالت لضيوفها، مختلقة الألفة الخفيفة التي اختلقوها أيضاً «رجاء تفضلوا إلى حجرة الطعام. سيساعدني جاك في تقديم الطعام».

قال جاك: «أود جيد، كنت أشعر بأنني ضائع بعض الشيء». ثم قال لليلى: «لست موهوباً في أحاديث المجاملة، الأحاديث المهذبة. ولا أي موهبة».

ابتسمت ليلى: «وأنا أيضاً». كانت تتكلم بصوت منخفض بطيء مريح يوحي بمناطق أخرى، ويوحي أيضاً، عبر لطفه الخاص، بأنها تعرف عن العالم أكثر بكثير مما تفشيه. نظر إليها جاك باهتمام سار، بنوع من الامل، فكرت غلوري. ومن الواضح أن آيمز لاحظ ذلك أيضاً. جاك المسكين. الناس يراقبونه، ويعرف ذلك. كان ذلك جزئياً نابعاً من انعدام الثقة. لكن أكثر من ذلك، كان الرجل في شديد الغموض والشفافية في آن معاً. بالتأكيد شعروا بضرورة مراقبته.

تبعها إلى المطبخ. قال: «ربما يجدر بي تغيير ملابسي».

«لا، لا، أنت جيد هكذا. تبدو جيداً فحسب». وضعت الأطباق بيديه، «سوف آتي بالبهارات. عد لأخذ شرائح لحم الضأن».

حمل الطبق الخزفي الكبير المقلّم الذي لطالما احتلته شرائح لحم الديوك المشوية والخنزير في ذلك البيت، وبعد برهة من التردد، وضعه أمام والده، تماشياً مع ما كان يوماً تقليداً عائلياً. إلا أن العجوز كان مشدوهاً قليلاً بعض الشيء مع لمحة من الكآبة من جراء مشاهدته شبح شبابه النسبي. قال: «لا أعرف ما يفترض بي فعله بهذا. قد يكون لا يزال على الحافر بسبب كل الحظ الذي لي معه. أعطه لآيمز».

قال جاك: «أجل سيدي»، وبعد أن أعادت ليلى ترتيب الأطباق، وضع الطبق أمام آيمز، الذي قال: «سأبذل قصارى جهدي».

جلس جاك بجوار لوالده، ثم ترك روبي جانب أمه والتف حول الطاولة واستند إلى الكرسي بجانب جاك.

قال بخجل: «يمكنني الجلوس هنا؟».

قال جاك: «يمكنك بالتأكيد، رجاء تفضل»، وساعده على إرجاع كرسي عن المائدة. حملق آيمز من وراء طبق الروست.

قالت ليلى: «لقد تآلف معك. عادة لا يتصرف بهذه الودية».

قال جاك: «هذا شرف لي»، وكأنه يعني ذلك. ثم وقف وقال: «عذراً، دقيقة واحدة. نسيت شيئاً». سمعوه يغادر غرفة الجلوس.

هزّ والده رأسه: «أظن أنه ينوي شيئاً. لا فكرة لدي عما يمكن أن يكون».

جلسوا ينتظرونه، وبعد بضع دقائق عاد مع باقة من زهور البسلاء الحلوة[1] في كوب زجاجي، وضعه أمام ليلى «لا يمكن أن تكون السيدة

(1) Sweet Pea: تأتي بعدة ألوان منها الزهري.

آيمز ضيفتنا ولا يكون ثمة زهور على الطاولة»، قال، «ليست بالباقة الرائعة، لكنها أفضل بقليل من لا شيء على ما آمل».

ابتسمت ليلى: «إنها جميلة».

تنحنح آيمز: «حسناً أيها الموقر بوتون، بما أنني شرّحت اللحم، ربما يمكنك تلاوة صلاة المائدة».

قال بوتون: «كنت أفكر بذلك أيضاً».

صمت.

أخرج جاك قصاصة ورق من جيبه وقال: «في حال الطوارئ، أعني في حال وقع الاختيار عليّ، فقد دوّنت هذه الصلاة».

نظر إليه والده بشيء من الزجر: «هذا رائع يا جاك. ربما لن يكون هذا ضرورياً».

نظر جاك إلى آيمز الذي رفع كتفيه، وبدأ يقرأ: «أبتاه العزيز». توقف ونظر إلى الورقة مائلاً نحو ضوء الشمعة، «خط يدي سيء جداً. لقد حذفت بعض الكلمات «كرمك وصبرك يتجاوزان ما نستحقه»، تنجنح «تدعنا نأمل بغفرانك في حين لا نجد سبيلاً نغفر بها لأنفسنا. وتبارك حياتنا حتى حين نظهر أنفسنا غير شاكرين البتة وغير مستحقين للبركة. فلتمنحنا العزم، ولتجددنا، لكي نصبح اكثر استحقاقاً لبركتك، عبر هباتك من الخير والصداقة والعائلة»، ثم «باسم يسوع نصلي، آمين».

مجدداً ساد صمت. نظر إلى آيمز الذي هزّ رأسه وقال: «شكراً لك».

قال والده: «جاك، هذا كان جميلاً».

هزّ جاك كتفيه: «فكرت في أن أحاول. كان عليّ أن ألاحظ أنني

وضعت كلمة لا نستحق مرتين. لكنني فكرت أن كلمة خير جيدة»، وضحك.

بعد برهة قال بوتون لآيمز: «لقد تناقشت وجاك حول العائلة خلال الأيام القليلة الماضية وأظن أنه أوصل نقاشنا إلى نتيجة هنا. إنه مع العائلة أننا نشعر بنعمة الرب كثيراً. بإخلاصه. أجل».

هزّ جاك رأسه. ودمدم: «آمين».

مبتهجاً، شرع والده بعرض آرائه حول سياسة الاحتواء التي ينتهجها دالاس. قال: «إنها كناية عن تحد بكل بساطة ووضوح!». أجاب آيمز بأنه قد تتضح صوابية دالاس على المدى الطويل، وقال بوتون إن عبارة «المدى الطويل» ليست إلا ريشة وسادة تهدف إلى خنق الحجج.

ضحك آيمز: «كنت أتمنى لو عرفت ذلك قبلاً».

قال بوتون: «لطالما استمتعت بالسجال الجيد ككل إنسان آخر أيها الموقر».

سأل جاك والده ما إذا كان يظن أن العواقب طويلة المدى لأحداث العنف في مونتغومري، ستكون مهمة، وقال والده: «لا أعتقد أنه ستكون هناك أيّ عواقب تذكر. هذه الأمور تأتي وتذهب. صلصلة اللحم رائعة بالمناسبة». أخذ جاك يقلّب بشرود قصاصة الورق بين أصابعه. وحين لاحظ انتباه آيمز له ابتسم ومسّد الورقة ثانية ودسها في جيبه. قطع آيمز شريحة روبي، ودهن جاك قطعة من البسكويت بالزبدة في طبق الصبي.

أياً كانت توقعات والدها من الأمسية التي يمكن تحقيقها من خلال الضوع وضوء الشمعة وطقوس آل بوتون الاحتفالية على المائدة، فإن هذه التوقعات على الأقل، قد تحققت. كان لحم الضأن طرياً، والشمندر

بالسكر حريفاً، والفاصوليا الخضراء كما هي دائماً في وقت مبكر من السنة، معلبة. إلا أنها طبختها مع لحم الخنزير وجعلتها تبدو أقل شبهاً بنفسها. انتظرت تعليقاً ما من أحدهم على البسكويت، إلا أن صلصلة اللحم هي التي استقطبت الإعجاب وكانت فخورة بها أيضاً.

مع ذلك، كان لا يزال شيء متكلف في الأمر برمته، وكأن الزمن له ثقل آخر، كالهواء الرطب، أو كأنه بيئة كثيفة منيعة ضد الخفة التي كانت كل ما توقعوه وأملوه من أمسية كهذه، الآن بعد تلاوة صلاة الشكر. نظر والدها إلى جاك من وقت لآخر، متفرّساً فيه، وكان جاك واعياً لذلك. ارتعشت يده حين مدها ليتناول كوب الماء، وعادة كان العجوز، على جاري لطفه، ليشيح نظره. لكنه بدلاً من ذلك لامس كتف جاك وكمه. نظر آيمز، بتفهّم عميق، إلى صديقه وهو يستذكر شبابه الماضي.

قال جاك: «العشاء مع لعازر».

سحب والده يده عنه وقال: «عذراً يا جاك، لم أسمعك جيداً».

«لا شيء، مجرد فكرة خطرت ببالي 'وكان لعازر أحد المتكئين معه إلى المائدة'[1]. لطالما فكرت أن هذا لابدّ كان غريباً. على لعازر. لابدّ من أنه شعر ببعض... «النتانة»... ليست هي الكلمة المناسبة. بالطبع كان أمامه الوقت لكي ينظف نفسه قليلاً، ليمشط شعره. ومع ذلك...»، ضحك. «عذراً».

قال بوتون: «هذا مثير جداً للاهتمام، لكنني مع ذلك غير واثق من أنني فهمت ما تودّ قوله».

---

(1) إنجيل يوحنا، 12: 2، المقصود العشاء الذي أقيم على شرف السيد المسيح في بيت عنيا بعد إقامته لعازر من بين الأموات (م).

نظر آيمز إليه نظرة طويلة. يكاد يكون تجسيداً لشباب والده. كانت نظرة استنكار، وكأنه شك بأنه فهم ما يريد قوله وشعر بأن على المحادثة أن تسلك طريقاً أخرى. هزّ جاك رأسه «كنت فقط...»، قال، «لا أعرف بمَ كنت أفكر». نظر إلى غلوري وابتسم.

لبعض الوقت انتقل الحديث بلطف وبصورة متوقعة من أحوال العالم إلى البايسبول إلى أيام زمان. ثم ساد سكون، وحول جاك نظرته إلى روبي، الذي جلس قربه بهدوء، مستعملاً ملعقته لكي يبني حصناً أو سداً من البطاطا المهروسة في طبقه.

قال جاك: «روبي اختصاراً لروبرت».

هزّ رأسه.

«روبرت بي».

هزّ رأسه وضحك.

«بي تبعاً لبوتون».

هزّ رأسه.

قال جاك: «أظن أنه أفضل اسم في العالم».

قال آيمز: «لطالما أسمى والدك الناس على أسماء أناس آخرين. لم يكن له روبرت بين أولاده».

قال بوتون: «لا، أردنا أن نسمي غلوري بهذا الاسم، لكنها لم تأت صبياً».

نظر جاك إليها.

والده، خشية من أن يكون قد بدا فظاً، قال: «كانت الحصيلة ممتازة، أربعة من كل جنس».

هزّ جاك كتفيه: «فايث، هوب، غرايس وروبرتا...».

«لا، قال والده، «كان اسم شاريتي هو خياري الأول. إلا أن أمك عارضت ذلك. رأت أن ذلك سيجعلها تبدو يتيمة أو ما شابه. الكلمة هي في الحقيقة agape caritas باللاتينية. وهو ليس باسم مناسب لطفل».

قالت غلوري: «أظن أنه يجدر بنا أن نغير الموضوع».

«أرادت أمك أن تسميها غلوريا، اللفظ اللاتيني المعتاد، لكنني لم أستطع فهم ذلك، في حين جميع الأسماء الأخرى بالإنجليزية».

قال جاك: «فيدس، سبيس، جراتسيا، غلوريا».

قالت غلوري: «آه، النكات القديمة».

«أجل، كان تيدي من طلع بهذا الاسم»، قال العجوز «كانت لاتينية المدرسة الثانوية تملأ البيت لبعض الوقت، أليس كذلك»، نظر إلى جاك، «اتصل تيدي البارحة بالمناسبة».

هزّ جاك رأسه: «عذراً لأنه فاتني ذلك».

«أعتقد أنه بات معتاداً على ذلك. أظن أنه يحسن به ذلك».

ابتسم جاك لوالده: «أجل، حسناً، ثمة شيء آخر نسيته. إذا عذرتموني لدقيقة...». ووضع شوكته ونهض وغادر الطاولة والغرفة.

هزّ بوتون رأسه: «أولاً ذهب ليقطف الزهور. والآن ترك الطاولة وسط العشاء. أفترض لأنني ذكرت تيدي. لا أفهم ذلك. كانا مقرّبين في صباهما. على الأقل كان يكلم تيدي من وقت لآخر. أظن أنه كان يفعل. كان ذلك شعوري».

قالت غلوري: «لعلك تخفض صوتك قليلاً يا أبتاه».

«حسناً، أحياناً لا أفهم سلوكه فحسب»، قال بهمس بالغ «كنت

أظن أنه بعد كل هذا الوقت سيكون...».

لمست غلوري معصم والدها ودخل جاك إلى الصمت المتواطئ، أو هكذا رآه، مبتسماً مثلما فعل بمكر، رافعاً حاجبيه: «عذراً، إذا أحببتم يمكنني الانتظار في الردهة لدقيقة أو اثنتين حتى تنتهوا».

قال والده: «لا، يستحسن أن تجلس، لقد برد طعامك بما فيه الكفاية».

ابتسم جاك: «حاضر سيدي». كان يحمل كرة بايسبول بيده، وحين جلس رفعها أمام روبي، قائلاً: «ماذا لدينا هنا؟».

أجاب روبي: «إممم، فاستبال!».

ضحك جاك متفاجئاً ونظر إلى يده: «عوفيت!»، وقلب الكرة بين أصابعه: «وما هذه؟».

«ناكل بول».

«وهذه؟».

«إمم، كارف بول».

وقلّب الكرة مجدداً.

«إممم. نسيت هذه. دعني أفكر. سليبر[1]».

قال جاك: «حسناً، حين كنت صغيراً كنا نسميها سلايدر، الفكرة نفسها».

غطى روبي وجهه بيديه ضاحكاً: «لا، السليبر[2] تشبه الحذاء!».

هزّ جاك رأسه: «أظن أنك يمكن أن تقع في متاعب تحكيمية إذا كنت في الملعب تقذف الحذاء»، ثم نظر إلى الطفل باهتمام جذل حتى انتهى

(1) فاست بول وناكل بول وسليبر، أسماء تعبر عن وضعية الإمساك بكرة البايسبول تمهيداً لرميها.

(2) Slipper: أي الخف.

من الضحك «أظن إذن أنك تودّ أن تكون رامي كرات».

هزّ روبي رأسه: «أبي كان رامي كرات».

قال بوتون: «ورام بارع أيضاً، لا أظن أن الناس يلعبون هذه اللعبة بقدر ما كانوا يفعلون. إنهم يمكثون في بيوتهم مشاهدين التلفاز».

قال روبي: «علمني أبي كل تلك الرميات، ببرتقالة!»، ضحك.

قال آيمز: «كنا نتكلم عن البايسبول على الغداء قبل أيام وفكرت بأن أريه بعض الحركات فحسب».

قال جاك: «إنه سريع الاستيعاب».

هزّ آيمز رأسه: «يفاجئني بعض الشيء تذكره هذا كله».

قال روبي: «لدينا كرة بايسبول حقيقية، إلا أنها في مكان ما في العلية. أبي يكره الصعود إلى العلية».

قال آيمز: «حسناً، أرى أنني كنت مهملاً».

وضع جاك الكرة قرب طبق روبي: «هذه لك، إنها هدية. أعرف أنه لديك واحدة، بما أن والدك كان رامياً. إلا أن كرة إضافية يمكن أن تكون مفيدة».

نظر روبي إلى والدته. هزّت رأسها موافقة.

«شكراً»، قال. وأخذ الكرة بخجل وعناية.

«إنها جديدة تماماً، لذا عليك الاهتمام بها. أتعرف كيف تعتني بكرة بايسبول جديدة؟».

«لا، لكن أبي سيعلمني».

قال جاك: «الأمر بسيط تماماً. فقط تفركها بالتراب. تحمّيها قليلاً».

«افركها بالتراب...»، قال الفتى متشككاً، «أظن أنني سأسأل أبي على أيّة حال».

ضحك جاك: «هذه دوماً فكرة جيدة». ونظر إلى والده «أنا وأبي كنا نلعب الكرة قليلاً».

أومأ العجوز رأسه: «أجل، لقد فعلنا. كانت لنا بعض الأوقات الطيبة أيضاً، أليس كذلك؟». نظر إلى يده «يصعب تصديق ذلك الآن، وأنا لا أستطيع ربط شريط حذائي! أتذكر تلك الأزمنة، حين كنت رجلاً عادياً فحسب، ليس شاباً حتى، وهذا أشبه بتذكر أنني كنت الشمس والريح! أخطو خطوتين في آن معاً...!».

ضحك آيمز.

«حسناً، كل هذا بدا طبيعياً جداً، وكأنه لا يمكن أن ينتهي. كانت أمك تكون هناك في المطبخ، تعد العشاء، وتغني. وتعدّ لي كوباً من القهوة، ونتحدث قليلاً. ويمكنني أن أعرف من سماع كل تلك الأصوات من الموجود في البيت. ما عدا جاك بالطبع. فقد كان صموتاً».

قال آيمز: «الشمس والريح!».

«أوه أجل، يمكنك أن تضحك. وحش ضخم مثلك لن يعرف عما أتكلم. أظن أنني شخت نيابة عني وعنك في آن معاً».

«أرجو الاختلاف معك أيها الموقر. أشعر أنني دفعت نصيبي من الشيخوخة».

قال روبي: «قال لي إنه أكبر سناً من أن يلعب البايسبول».

هزّ آيمز رأسه: «وأنا كذلك. هذه حقيقة محزنة».

رأت غلوري أخاها يرمقها، وكأن نية ما بدأت تتشكل في رأسه، ثم أشاح نظره بعيداً وابتسم وحده.

تناولوا الفطيرة. «لقد أشرفت عليها!»، قال والدها. «جاك قص

التفاح وغلوري أعدت العجينة، وأنا تأكدت من أن يتمّ كل شيء طبقاً لمواصفاتي»، ضحك، «وضع جاك مقعدي هناك في المطبخ، في وسط كل شيء. كان ذلك رائعاً. استمتعنا بوقتنا نحن الثلاثة. قلت لك إنه أعاد تشغيل الدي سوتو تقريباً. أوقات طيبة. ويعزف على البيانو! يجب أن أقول إن هذا كان مفاجئاً».

قال جاك: «أجل، يمكنني العزف قليلاً الآن لو أحببتم». واستأذن القيام. سمعوه في الغرفة المجاورة، يحاول عزف ترنيمة ثم أخرى.. «جئت وحيداً إلى الحديقة، والندى لا يزال على الأزهار»، ثم «ساعة الصلاة العذبة! ساعة الصلاة العذبة! التي تنتشلني من عالم الهموم». أحضرت له غلوري كوباً من القهوة، «شكراً لك»، قال: «إذا كنت تلفظت بكلمات فارغة أو باطلة، إذا ما حدت عن طريق العوز أو الألم»، ضحك «إذا كنت أعرف فحسب كيف تفعل ذلك»، ثم «الحب الإلهي، على كل أنواع الحب يتفوق... كله فالس... ألاحظت ذلك؟». جاءت ليلى وروبي لكي يستمعا، وآيمز الذي تأخر قليلاً لكي يساعد بوتون قليلاً، في حال اعترف بأنه يحتاج إلى المساعدة.

قالت ليلى: «أحب الفالس». فانغمس جاك في عزف ترنيمة كلاسيكية مقتضبة «ثمة حديقة ينتظرني فيها يسوع».

نظر آيمز دونما تعبير على وجهه. وكان تعبير والدها وقوراً.

ثم عزف جاك: «أريد حباً شبيهاً بالأحد، حباً يدوم بعد ليلة السبت، نسيت الكلمات، أنا في طريق موحشة لا تقود إلى مكان. أريد حباً شبيهاً بالأحد».

قالت ليلى، بل دندنت تقريباً: «أحلم بأحلام الأحد، وكل تخطيطي ليوم الأحد، كل ساعة، كل دقيقة، كل يوم، آمل ان أكتشف حباً يريني الدرب».

قال جاك: «أحسنت! شكراً لك سيدة آيمز!»، وابتسمت.

قال والده: «فكرت بأننا سنستمتع بشيء أكثر قرباً من روح الأحد».

قالت ليلى: «لكنها أغنية جميلة».

«بعد إذنك يا جاك».

هزّ رأسه. عزف «إلهنا، عوننا في العصور الماضية» و«إيمان أسلافنا»، بنوع من الاحتفالية المرحة، وغنوا، ثم قال آيمز إنه متعب بعد يوم طويل وإنه لابدّ فات موعد نوم روبي أيضاً. كان الصبي قد جلس على مقعد البيانو قرب جاك متلمساً المفاتيح بخجل. ذهب جاك لكي يودع الضيوف إلى الباب، إلا أن روبي ظلّ يلعب بالمفاتيح. حين نادته أمه ونزل عن المقعد لاحظ أنه يمكن رفع غطائه، ففتحه وقال: «ثمة مال هنا!». أمسك آيمز بعفوية ذراع بوتون. قالت غلوري: «أوه، أنا أضعه هناك»، إلا أن والدها زحف نحو المقعد لكي يلقي نظرة وكأنه هوة فتحت. قالت غلوري: «إنه مال متبق فحسب من مصروف البيت. أخرجته من الدرج الآخر فحسب لكي أبقى متنبهة لما أنفقه»، إلا أن والدها، الذي يمسك آيمز بساعده، ظلّ يحدق بالمال. ونظر جاك أيضاً، ثم بدأ يضحك «محاولة جيدة يا غلوري. قصة تروى»، قال «لو كان هناك ثمانية وثلاثين دولاراً هنا لبدأت أصدّق... شيئاً ما»، وغطى وجهه بيده وضحك.

كان والده مشدوهاً إلى حدّ السخط: «هذا تعليق لا أفهمه ببساطة».

قال روبي: «ظريف أن تكون كل هذه الأوراق المالية هنا».

مسّد آيمز شعر الصبي «صحيح، إنه كذلك، أنت مصيب في ذلك،

الآن اذهب مع أمك. سوف أتبعكما عما قريب».

حين خرجت ليلى والصبي من الباب أغلقت غلوري غطاء البيانو بقوة شديدة جعلت الأوتار ترنّ. قالت: «الجميع يتجاهلني!». أجفلهم غضبها «مهلاً». مضت إلى غرفة الجلوس وعادت بالكتاب المقدّس الكبير. أقفلت المقعد ووضعت الكتاب المقدس عليه «والآن انظروا جميعاً»، وانحنت ووضعت يدها اليمنى على الكتاب المقدّس «أقسم بصدق، فساعدني يا رب أنني شخصياً وضعت المال في مقعد البيانو. يبدو أنني كنت أدخره هنا، لكنها كانت مجرد طريقة بليدة في تدبير الحسابات. هذا كل ما في الأمر. وأنا من فعلت ذلك، وليس أحد سواي. وإذا كنت أكذب فلتصرعني فوراً يا رب».

قال والدها: «هذه اللغة ليست ضرورية حقاً يا عزيزتي»، إلا أنه بدا متأثراً بوضوح، ومرتاحاً كذلك «أنت طيبة مع أخيك»، قال، وضحك جاك، فاستطرد والده: «كل ما قصدته...»، وبدا منهكاً جداً فأخذه آيمز إلى غرفته وساعده على الاستلقاء. قبل أن يغادر قال لهما وداعاً وصافح جاك ثانية. وبدت مودته ممتزجة كثيراً بالأسف وباستياء مكبوت. ومع ذلك كان جاك شاكراً بوضوح لذلك.

بعد رحيله قال جاك: «ما فعلته بالكتاب المقدّس كان رائعاً. لن أنسى ذلك». وضحك، ثم قال «لو لم تنقذي الموقف لكان كوارثياً، لكن كما حدث، فكرت، حسناً، لا أظن أنه كان كارثة بالإجمال». نظر إليها وكأنه طرح عليها سؤالاً.

كان مذهلاً، فكرت، إلا أنها قالت: «لا، مضى الأمر بصورة حسنة».

هزّ رأسه: «أظن ذلك. كانت توقعاتي منخفضة، وهذا منطقي ذلك في ظل الظروف. ومع ذلك. بدا أن ولده يحبني، والزوجة أيضاً. هذا الجزء مضى على ما يرام». صعد إلى الأعلى ونزل ثانية بأحد قمصانه وبدأ يساعدها على تنظيف الطاولة.

قالت: «جاك، أيمكنني ان أطلب منك شيئاً؟ لا، سأقول لك شيئاً. بدأت أظن أن حبيبتك ديلّا لا يمكن أن تستأهل كل هذا البؤس».

«ماذا؟ إنها تستحقه. لو أمكنني أن اكون أكثر بؤساً من ذلك، لكانت تستحقه أيضاً. عليك أن تثقي بي في ذلك».

«إنها لا تراسلك...».

ابتسم لها، ملدوغاً.

«آسفة، لا أعرف ما هي المشكلة».

قال: «هذا صحيح، لا تعرفين».

«لكنني أعرفك قليلاً الآن، وأنت لا تصعب مسامحتك كثيراً».

«شكراً لك»، ثم قال: «لكنك لا تعرفين كم عليها أن تسامح. لا يمكنك حتى أن تتخيلي ذلك. وهناك المزيد كل يوم لعين». نظر إليها. قال: «وأظن يكفي كلاماً عن ديلّا».

في اليوم التالي ذهبت غلوري إلى متجر الخردوات واشترت زوجين من السراويل القطنية البنية وثلاثة من القمصان الدنيم الزرقاء التي يرتديها الرجال المحليون حين لا يكونون يفلحون الأرض أو يصطادون السمك أو يؤدون واجب العزاء. كانت مطوية فوق الكرتون، متيبّسة وهي جديدة، لكنها ستغسلهما مرتين وتكويهما قليلاً وسيصبحان جيدين. خمّنت مقاس جاك تخميناً. جميع القمصان الطويلة بما فيه

الكفاية كانت عريضة جداً، إلا أنه عليه الانتفاع قدر المستطاع مما هو متوافر.

بينما كانت تعلقها على حبل الغسيل، جاء من الحديقة ووقف واضعاً يديه على خاصرته، ناظراً. قال: «هذه لي؟».

«إذا كنت تظن أنه يمكنك استعمالها».

ضحك. «أنا واثق من أنه يمكنني ذلك، شكراً لك غلوري»، ومدّ يده وتحسس كمّاً بصورة تقديرية. لم يكن ثمة سخرية في حركته هذه.

«ساكون مديناً لك على هذا».

«لست مديناً لي بأي شيء. أخرجت بعض المال من مقعد البيانو. فأنا لا أقلّ إفلاساً عنك».

«لقد فقدت تلك الحقيبة الأخرى».

«أعرف».

صمت لبعض الوقت. «كانت لديك وظيفة جيدة».

«أجل».

«وذلك الوغد أخذ مالك».

هزّت كتفيها: «أعطيته له. لا يهم. لم تكن لدي خطط جدية بخصوصه».

هزّ رأسه. «يظن العجوز أنك اضطررت إلى ترك التعليم لأنك تزوجت».

«وأنت تعرف غير ذلك».

«أجل. ليس من شأني». أخرج سيجارة من جيب قميصه وراح ينقرها بإبهامه.

«ماذا؟».

قال: «كثيراً ما فكرت، أعني، بحسب تجربتي.. أن النساء يمكن أن يكنّ بالغات اللطف. أكثر لطفاً مما قد يلحق بهن الضرر».

ضحكت: «فكرت كذلك أيضاً، من وقت لآخر».

«أنت لطيفة».

«وصلت الفكرة».

حملق بوجهها، رامشاً بسبب دخان سجائره. ثم قال: «أيمكنك مسامحته؟». وأشاح نظره. «عذراً. هذا لا يعنيني. لقد ذكرت الموضوع بالأمس. كنت أتساءل فحسب».

ابتسمت له.

قال: «فهمت، لا ترغبين بالحديث عن الموضوع».

سحرتها حقيقة أن أخاها، الوحيد الذي يملك تجربة دنيوية حقيقية بين كل أفراد عائلة بوتون، بدا يسألها نصحها، أو حكمتها، واقفاً هناك في شعاع الشمس والريح توشوش في ليلك طفولتهما الشاحب والغسيل يلوح على حبل الغسيل الذي كانت تعلّق عليه ثيابهم المدرسية. بدا أكبر سناً في الشمس. وكشف هذا نوعاً من الهشاشة الخشنة فيه. بيد أنه، واقفاً على مسافة قصيرة منها، مشيحاً نظره نحو لا شيء محدداً، كان ينطوي على نوع من المثابرة المترددة غير المباشرة التي تعني أنه جاد في كلامه، بقدر ما يمكنها أن ترى.

فقالت: «أيمكنني مسامحته؟ لست واثقة من أنني أفهم السؤال. لكن الجواب لا».

هزّ رأسه.

«لا أتمنى له أيّ سوء، ويسرني أنني لن أراه ثانية. لا أحب أن يذكّرني أحد به».

«عذراً. ما كنت لآتي على ذكر الموضوع، لكنك أنت ذكرته حين قلت إنه ليس من الصعب مسامحتي أو ما شابه».

«أكنتَ طيباً معها؟».

حاولت أن أكون كذلك». رفع كتفيه.

«إذن، إذا كانت امرأة لطيفة فستسامحك على الأرجح. بالطبع لا أعرف ماذا فعلت، وعلام يجب أن تسامحك».

ضحك ورمى سيجارته بعيداً «لستُ واثقاً من أنني أعرف أنا الآخر. هناك الكثير من الأشياء التي اضطرت إلى التعامل معها... إنها طبيعتي، ككل شيء آخر. ما لست أنا. لقد سئمت من المتاعب. كان عليّ أن أحميها أكثر على نحو ما». قال، «حاولت ذلك مرة. ذات مرة دافعت عن شرفها نوعاً ما. لم يكن امرأً حكيماً في ظل الظروف». ثم «لن يهم على الأرجح إذا كانت قد سامحتني فعلاً. ظننت أنها ستراسلني مع ذلك»، قال: «يعتاد المرء على اللطف. بعد فترة تبدأين بالاعتماد عليه. وتفتقدينه حين لا يعود موجوداً».

قالت: «أعرف القليل عن هذا أيضاً»، وأومأ برأسه، وخشخش الليلك، وسطعت الشمس بقوة، وكان صمت بينهما، تلك السكينة التي تتأتّى من اتفاق الفكر. فكان عليها أن تقول: «عليك ألا تفقد الأمل».

ضحك: «أحياناً أتمنى فعلاً لو يمكنني ذلك».

قالت: «أعرف بهذا الخصوص أيضاً».

لماذا لم تشترِ له الثياب قبل أسابيع؟ لأنه كان غريباً تخشى أن تشعره بالإهانة بأن تبدي اهتماماً شخصياً تجاهه إلى هذا الحدّ. لأن شراءها الثياب بالنسبة إليه سوف يعزى إلى فقره وسوف يشعره بالمهانة، لأنه قد

يبدو موضوع نميمة للناس الذين يرونها تشتري الثياب، وهذا سيحرجه ويهينه. لأنه كان متبطلاً، وخاصاً، ولأنه جاك. ولأن الثياب الرخيصة، ثياب العمل الخشنة، لم تكن من النوع الذي يظن أنه يجدر به ارتداؤه، ويمكن أن تشعره بالمهانة. لكنها في الحقيقة رأته يتفحّص القميصين على حبل الغسيل مرات عدة، وحين جفّ أحدها بما فيه الكفاية، أخذه وكواه، وارتداه. كان السروالان أثقل واحتاجا إلى وقت أطول حتى يجفا. رأته يتفحصهما أيضاً، ثم يمشي إلى البستان، ويحمل تفاحة ساقطة عن الأرض، ويرميها على سقف الحظيرة، وينتظر ويلتقطها حين وقعت ثانية، ثم يرميها ثانية. جميع إخوتها فعلوا ذلك في صباهم، وبدا جاك جامداً بعض الشيء، وكأنه يجرّب ممارسة هذه اللعبة الوحيدة بعد كل هذه السنوات. في ذلك الاحتراز الذي يميزه، ربما عنى ذلك إحساساً بالسعادة.

عرج آيمز عليهم تلك الليلة بعد العشاء، لكي يلعب الداما، كما قال، غير أنه جلس ووالدهما على الشرفة وبينهما الرقعة، وتحادثا بهدوء، على جاري عادتهما عندما يتعلق الأمر بتبادل النصح حول أمر ما. جلبت لهما غلوري الماء البارد وتركتهما وشأنهما. كانت لياقة من آيمز تجاه صديقه أن يسأله حكمته الرعوية، وإن كان يتمتع بحكمته الخاصة بعد كل هذه السنوات، وبما أنه كان، بحكم المزاج، الأكثر ميلاً إلى المساعدة بين الاثنين وبالتالي نادراً ما يحتاج إلى الحكمة، حكمته هو أو حكمة بوتون. رغم ذلك، كان يعرض مأزق نفس ما لكي يمعن والده النظر في أمرها، ثم يفكران معاً – مثلما اعتادا أن يفعلا في الأيام الخوالي – كيف يسكّنان ويؤاسيان ويوجهان تلك النفس المضطربة. كان بوتون

قد تقاعد من عمله قبل عشر سنوت، في ظل ظروف جعلت آيمز حذراً بصورة خاصة في إبداء الاحترام لآرائه. فأطفال مدرسة الأحد كبروا وبدأوا يتزوجون، والأزواج استقروا في حياة اعتيادية شاقة، والشيوخ والعجائز الرزينين الذين علموا أطفال مدرسة الأحد عن فرق الملائكة والمركبات الطائرة كانوا هم أنفسهم يعبرون نهر الأردن[1] واحداً تلو الآخر. فكان يساعد آيمز على التمحيص في أي سؤال يطرأ بين أبناء رعيته، الذين بات يعرفهم أكثر مما يعرف رعيته السابقة، من خلال تلك المشاورات الهامسة. «أجل»، يقول، «يتطلب التعامل مع هذا الرجل إلى الكثير من اللياقة»، ويجيبه آيمز، «هذا مؤكد». خلال تلك المحادثات يكتسي محيا والدها حصافته القديمة، ذلك المكر اللطيف لراعي الأرواح الخبير. «لكنني كنت لأخبره بحقيقة الموقف، لصارحته في هذا الشأن». وتتوهّج عيناه بفكرة الصرامة والصراحة، ذكرى تلك المسرات القديمة. كان آيمز ينظر إليه بنوع من الاحترام الذاهل الملهوف، وكأنه الآن الرجل الأصغر وصديقه قد شاخ أكثر منه واكتسب نوعاً من الوقار لن يكتسبه قط. يقول: «أجل، سأكون صريحاً بكل تأكيد».

جاء جاك في أثناء حديثهما. سمعته يحييهما، ويقول كلمة أو اثنتين، ثم دخل إلى المطبخ ومعه بعض القثاء من الحديقة. قميصه فضفاض وبنطاله ملموم قليلاً تحت حزامه، بيد أنها سرّت إجمالاً بهيئته ورأت أنه هو الآخر كان مسروراً. تمكن من أن يبدو أنيقاً بطريقة ما، وهو أمر

(1) تستحضر الكاتبة هنا مشهد انتقال النبي إيليا إلى بارئه (موته) مثلما يرد في الكتاب المقدس، سفر الملوك الثاني، الإصحاح 2: «وكان عند إصعاد الرب إيليا في العاصفة إلى السماء أن إيليا وأليشع ذهبا من الجلجال (...) ووقف كلاهما بجانب الأردن، وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبرا كلاهما في اليبس (...) وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار فصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء.

يحتاج إليه كبرياؤه. كانت تعرف أن هذا مصدر راحة له. غسل القثاء «تشبه رائحته رائحة المساء». قال «مثل قشعريرة البرد، أتحتاجين إلى أي مساعدة؟»، حين قالت لا، ذهب إلى البيانو وبدأ يعزف ترنيمة «برقة ونعومة»، وهي من الترانيم المفضّلة عند أبيه. عزفها بنعومة، فكرت غلوري، وبرقة شديدة. ذهبت إلى الردهة لكي تصغي وحانت منه نظرة جانبية نحوها، وكأن ثمة تفاهماً ما بينهما، لكنه واصل العزف بتأمل، من دون ما يشير إلى تنبّهه إلى حضورها. «عد إلى البيت، عد إلى البيت، أنت أيها المتعب، عد إلى البيت». صمت العجوزان «برقة يناديك المسيح، بشغف، يناديك ويناديني». غنى والدها ومعه آيمز. ثم «صخرة الأزمنة»، ثم «الصليب القديم الرث»، وحين انتهت تلك الترنيمة، كان قد هبط المساء. بدأت ترعد وتمطر، إحدى تلك العواصف التي تأتي بعد العتمة وتبدّل الطقس. جلس العجوز في مكانه، صامتاً لوقت طويل. أحضرت غلوري مظلة لآيمز، وبعد مدة سمعته يرحل. كانت تخشى أن البلل ربما يزعج والدها، لكنه طلب منها، بلطف شديد، أن تتركه وحيداً لبعض الوقت. قال: «قولي لجاك إنه عزف بصورة رائعة. كنتُ فخوراً به».

وجدت جاك في الغرفة، بابه مفتوح، وقد استلقى على السرير يقرأ كتاباً. قالت من الباب: «جاك، والدنا يقول إن عزفك لهما كان رائعاً. قال إنه فخور بك».

فكّر. «اكان آيمز ما زال هناك حين قال ذلك؟».

«لا، قاله لي. كان آيمز ليعرف ذلك على أيّة حال».

أومأ جاك برأسه: «أفترض أنه يعرف. هذا حسن. شكراً يا غلوري».

أمطرت بغزارة وبصورة مرضية طوال الليل. كان ثمة كلام عن الجفاف، وشتوة جيدة لن تنهي القلق، غير أنها صنعت فحسب صبيحة رائعة، مع نسيم لطيف عبق، وأشجار تتلألأ صاخبة بالطيور. كان جاك قد خرج باكراً من البيت. سمعت غلوري صرير الباب الشبكي قبل أن تشرق الشمس تماماً. اتخذ اضطرابه سمة الفضيلة، موقظاً إياه في العتمة لكي يخرج إلى الحديقة ويستهلك الطاقة المتخمرة جراء عجزه عن النوم. نزلت إلى المطبخ وبدأت بإعداد إبريق قهوة، وجلست على الشرفة التي أخذت تكتسب تدريجياً نوع العبق ودرجته الذي تفضله عائلتها دوماً. ثم سكبت كوباً لجاك. وجدته واقفاً أمام حبال الغسيل. شدّ حبلاً إلى الأسفل ثم أفلته فتطايرت منه نقاط المطر، رائعة في ضوء الصباح. وكرر ذلك مع الحبل التالي والتالي.

«شكراً»، قال وهو يأخذ منها الكوب. رأت أنه أخرج صفيحة الوقود من الحظيرة. قال: «سأعود بعد دقيقة»، ودخل إلى البيت وخرج ثانية حاملاً بدلته على علاقة وواضعاً منشفة صحون على كتفه. «سوف أقوم ببعض الغسيل على الناشف». صب الوقود في صفيحة قهوة فارغة ونقع قطعة القماش بها، ثم غسل كم سترته، أشبع البقعة المنتفخة عند المرفق والتجاعيد في الجهة الداخلية من المرفق، وسواها مستقيمة. نظر إليها «هذا ينجح على نحو ما، بعد قليل تزول الرائحة. هاك». وناولها السجائر وعلبة الكبريت «يمكن أن أسهو».

قالت: «سمعت أن الناس يفعلون ذلك. لم أرَ أحداً يفعله من قبل».

قال: «حياة آمنة».

عمل طوال الصباح على تنظيف بدلته. رأته أخيراً يخطو إلى الخلف

ناظراً إليها تتمايل في الريح ومن الواضح أنه قرر أن هذا كاف، بما أنه أفرغ كوب القهوة على الأرض وأعاد صفيحة الوقود إلى الحظيرة. ذهبت لكي ترى بنفسها، وبدا لها بالفعل أن علامات الاستعمال الشديد بدت أقلّ من السابق، وأنها بدت أقلّ إيحاء باستعمال شخص واحد محدّد لها، وقد أسبغ عليها النسيم شيئاً من الحيوية، وحتى بعض النشاط. لا عجب أنه كان مسروراً.

دخل إلى المطبخ وقد غسل يديه ووجهه وأعد لنفسه شطيرة من زبدة الفول السوداني، «أتريدين واحدة؟ سأعطيك نصف شطيرتي. كلها. لقد غسلت يدي»، قال «ماذا يسمون الساندويتش بالفرنسية».

«أنا متأكدة من أنهم يستعملون الكلمة نفسها».

هزّ رأسه. «كنت أخشى ذلك. إذن لا أعرف كيف أجعل هذا الشيء الغازي قليلاً أكثر جاذبية لك. لي، بالأحرى».

«الهلام؟».

«أكرهها. يمكن أن تكون جيدة في الدونتس». رفع قطعة الخبز ونظر تحتها «طعام بشع، زبدة الفول السوداني. لو أشعلت عود ثقاب ربما يمكنني أن أقدمها لك مشتعلة يا مدام. كما يقولون في المطاعم الراقية، يا مدموزيل».

«لا شكراً، سأتناول الحساء، أتريد بعضاً منه؟».

هزّ رأسه. «أنا جائع بصورة عامة. إنها التفاصيل التي تثنيني عن الأكل».

«إذن يحسن بك تناول شطيرتك».

«صحيح. أما زال لدينا قفاز البايسبول ذاك؟».

«أجل. وضعته في خزانتي. خشيت أن تجد طريقة لتستبدله بعصابة شعر».

هزّ رأسه. «كان ذلك حصيفاً منك، كنت أفكر أنه لو كان لا يزال لديك، فربما أستعيره ثانية».

قالت: «بالطبع. ما إن تنهي شطيرتك».

«أفعل هذا، فقط لأنني واثق من أنك تهتمين لصالحي في الصميم». تناول الشطيرة بثماني قضمات وشرب وراءها الماء «الآن أشعر أنني أطعمت الوحش»، قال «يجب أن يكفيني حتى العشاء. إنه وحش صبور بصورة غريبة، ذاتي الجسدية. أسميها رقاقة الثلج. بسبب، كما تعرفين، بياضها التام. وهي تنطوي على أشياء أخرى. ثمة إحساس ما كامن يرتبط بها. تذكرني بشبابي».

أحضرت له القفاز. قال: «الأطفال في عمره يضيعون الأشياء دوماً. فاشتريت طابة بايسبول ثانية. أعني، لطالما أضعت الأشياء، حين كنت في سنه».

«هذا جيد».

ارتدى القفاز ووضع الكرة في كفه بحركة سريعة من معصمه. تلك الحركة القديمة. «فكرت أن آيمز قد يقدر هذا... يجب أن يتعلم الفتى لعب الكرة. لقد كنتُ بارعاً في البايسبول. ظننت أنه قد يتذكر ذلك».

«فكرة جيدة جاك. لا أظن أنك بحاجة إلى القلق كثيراً حيال رأي آيمز بك».

«أعرف رأيه بي. ولا يمكن أن يزداد سوءاً. لذا هذا لا يقلقني».

«ما الذي يقلقك إذن؟».

«أنت محقة. إنني مختبّل بالأمل. أظن أنني فكرت أنه قد ينظر إليّ من نافذة مكتبه ويقول لنفسه: إنه محتال يفتقر إلى التهذيب، لكنني أقدّر اعتناءه بابني». ضحك: «لن يحدث ذلك. لا حاجة إلى القلق بشأنه. يا لها من فكرة بلهاء».

قالت غلوري: «كنت أنوي أن أطلب منك أن تأخذ عددي لايف وذي نايشن الجديدين إلى آل آيمز. إنهم غير مشتركين بهما. اسأل ليلى إذا كان روبي يودّ اللعب قليلاً. وإذا وافقت فإن الموقر لن يعارض».

أومأ برأسه: «حسناً، سأفعل ذلك. لا مجازفات ولا ما يحزنون».

بعد نصف ساعة مشت إلى الشارع مسافة كافية حتى تتمكن من رؤية جاك وروبي على الطريق أمام منزل آل آيمز، روبي مثقل بالقفاز الكبير القاسي، يجري وراء الكرة حين يرميها جاك، ويعاود رميها نصف الطريق بما يشبه الاتجاه السليم. «هذه هي الفكرة!»، نادى جاك. تأهب الفتى وضرب قفازه، مستعداً لأي شيء. الضربة التالية ارتدت عن حذائه. ضحك جاك، ضحكة رقيقة جداً، لم تسمعها منذ سنوات إذا كانت قد سمعتها يوماً. ركض إلى الأمام لكي يلتقط كرة روبي، وحين التفت إلى الخلف رآها، فلوح لها صائحاً: «أعود بعد قليل».

نادت: «لا داعي للعجلة»، متأسفة لأنها شوشته. بدا مليئاً بالرضى التام الذي يجعل حتى الحركة الاعتيادية مجيدة. بدا مسترخياً في شعاع الشمس. أملت أن يكون آيمز يراه فعلاً. ربما لمرة يراه بفخر مثلما رآه والده.

بعد نصف ساعة دخل جاك عبر الشرفة. ابتسم حين رآها. «كان هذا حسناً، يا له من ولد مرح لطيف. لا أعتقد أنني أحضّره للبطولة مع

ذلك». يريد أن يلعب في فريق ريد سوكس. لا أقول ليس من أمل له. يجب أن يكون المرء أسود حتى يكون معدوم الأمل».

«هناك جاكي روبنسون[1]».

«صحيح، جاكي روبنسون من فريق دودجرز. وهناك لاري دوبي، وويلي مايز وفرانك روبنسون وروي كامبينلا، وإيرني بانكس وساتشل بايج. سأعطيك قرشاً إذا قلت لي من منهم يلعب لفريق بوسطن[2]».

«أعترف أنني لم أنشغل كثيراً بالبايسبول مؤخراً».

«واضح. قلة في سانت لويس من يفكرون في شيء آخر سوى البايسبول. لطالما خضت نقاشات محمومة حول اللعبة».

نظرت إليه: «مع ديلا؟».

«نقاش او اثنان معها. إنها تعرف ما الأمور المهمة في الحياة».

ضحكت غلوري: «حسناً، أنا أكيدة من أنني لا أعرف. لقد هدرت وقتي بالقلق حيال التسرب الإشعاعي. الإسترونتيوم 90».

قال: «صدقيني، إنها تقلق بشأن ذلك أيضاً».

ترك جاك يوماً يمرّ ثم أخذ كرته وقفازه عصراً وقصد منزل آل آيمز مجدداً. حين عاد بدا مسروراً «الفتى يتطور. لقد التقط كرة بالفعل من أول ارتداد لها. كان هذا حسناً. حتى إنني دعيت للبقاء على العشاء. ليلى طلبت مني. لكن لا أظن أن الموقر عارض ذلك. لم يبد معارضاً».

(1) Jackie Robinson (1919–1972): أول لاعب أسود يلعب في دوري البايسبول في أمريكا، لعب في 1947 مع فريق بروكلين دودجرز.

(2) جميع اللاعبين الذين يعددهم جاك هم من السود إلا أنهم لم يلعبوا في الفرق الأساسية، أما فريق بوسطن، فالمقصود به فريق ريد سوكس الذي لم يدخل لاعباً أسود في فريقه حتى عام 1959 (أحداث الرواية تجري قبل ذلك)، وهو إليجا جيري غرين المعروف باسم بامبسي غرين.

«لماذا لم تبق؟».

رفع كتفيه وابتسم. «قالا ذلك من باب المجاملة».

«بالتأكيد، ولكن هذا لا يعني أن دعوتهما ليست حقيقية».

بعد برهة قال: «لقد تعلمت، في سياق حياتي السقيمة، أنه أكثر أمناً ألا يستغل المرء مثل هذه اللياقات. لقد أكلت الطعم مرات كثيرة حتى بتّ أعرف متى تنطبق المصيدة. من الأفضل الامتناع عن مسرات، تعرفين، اللحم المطبوخ والبطاطا المهروسة».

قالت: «تريد تحسين علاقتك بآيمز. كيف ستحقق ذلك إن لم تسمح له بأن يعاملك كصديق؟ أن يدعوك إلى العشاء؟ إنه أكثر شيء اعتيادي في العالم».

هزّ رأسه «هذه هي المسألة. منفاي الطويل من العالم الاعتيادي. عليّ أن أتعلم الأعراف، وأن أقنع نفسي على نحو ما بأنها تناسبني». نظر إليها «هنا يصبح الأمر دقيقاً».

«لا، عليك أن تسترخي قليلاً فحسب، وأن تتذكّر بأنك تتعامل مع عجوز بالغ اللطف».

قال: «الأمر بالفعل أعقد من ذلك بقليل غلوري. ذلك اليوم أعطيت ولده قفازي لكي يستعمله، فهرع إلى الأعلى وأحضر ذلك القفاز الذي يضعه آيمز على مكتبه وأحضره لي. أظن أنه كان يخص العم إدوارد الراحل منذ زمن بعيد. بدت لي حركة بريئة بما فيه الكفاية أن ألبسه. أعني لم يكن الأمر كأنني سألتقط به شيئاً. لكن كما تعلمين، فقد سرقته مرة. مؤقتاً. لا أعرف السبب. وآيمز يعلم أنني ذلك، لأن من سواي يمكن أن يهتم بسرقته. وكنت لص البلدة. لذا ذلك اليوم حين ظهر على الطريق آتياً من الكنيسة وجدني واقفاً أرتدي ذلك الشيء بيدي ولا

شيء أفعله سوى الوقوف هناك. نظر إليه ونظر إليّ ولم يبد أي تعليق حول الأمر ولا أنا قلت شيئاً، لكنني عرفت أنه تذكر كل شيء، شبابي المضطرب، وكان ذلك محرجاً. له أيضاً».

«أظن أنك تنسى أن هذا كله حدث قبل زمن بعيد».

«أجل، وها أنا هنا اليوم، جون آيمز بوتون، مواطن صالح. تحول عجائبي». ضحك. بدا شارد الفكر لبرهة، ثم قال: «لو اضطررت إلى فعل ذلك كله ثانية، أعني مراهقتي الإجرامية، فسأحاول أن أحصر نفسي بفعل أشياء قابلة للتفسير. أو على الأقل تبدو كذلك. أنا جاد. الناس ينزعجون من الأمور التي لا يفهمونها. كان العجوز يسألني: «لِمَ تفعل هذا يا جاك؟»، ولم يكن في مقدوري أن أجيبه بأنني أفعل هذا لأنني أشعر بالرغبة في فعله. وحتى هذا لن يكون صحيحاً. ما الذي أردته من قفاز بايسبول قديم؟ لا شيء. لكن لم يكن ثمة الكثير مما تمكن سرقته في هذه البلدة. كان من الصعب إيجاد أي شيء أرغب فيه، أي شيء يمكن أن يشكّل دافعاً. فكل اعترافاتي كانت على أساس عيوب الشخصية. لم تكن لدي مشكلة مع ذلك. لكنها مشكلة بالنسبة إلي الآن».

قالت غلوري: «إذا دعاك آيمز إلى العشاء ثانية، فوافق وابقَ. عدني بذلك».

ضحك: «سأفعل. بشرفي». قال «لديك حدس بهذه الأمور».

وفي اليوم التالي، بعد العمل بكدّ في رقعة الخضار ومساكب الزهور من الفجر حتى الظهر، وبعد أن شدّ مفاصل ثلاثة كراسي «أديروندداك»(1)

---

(1) Adirondack Chair: صمم توماس لي هذا النوع من الكراسي عام 1903 لكي تناسب للاستعمال الخارجي وذلك خلال إجازة كان يمضيها في جبال أديروندداك في وست بورك، بولاية نيويورك.

كانت دوماً موضوعة معاً تحت نافذة المطبخ كأنما لتكون جاهزة للاستعمال في حال أن شيئاً ما في الفناء بين البيت والحظيرة جذب النظارة إليه. وبعد أن أعاد شدّ حبال الغسيل، دخل إلى البيت، وكوى قميصاً، ولمع حذاءه. قال: «أشعر أنني مفيد. منتج. هذا مفيد للمعنويات. وكذلك السمرة». رفع كميه لكي يريها «ثمة خطّ واضح هنا».

«هذا صحيح». تعلمت أن تبدي اهتماماً بشأن هبّات العزيمة المحمومة تلك، وأن تعلم أنه لا جدوى من محاولة تثبيطها.

قال: «أعتقد أن اليوم الخميس. فغداً الجمعة إذن، وسيكون آيمز منشغلاً بالإعداد لعظته على الأرجح. ولن يرحّب بالمقاطعة. سوف أذهب على الأرجح إلى الكنيسة الأحد. يمكنني فعل ذلك. فبدلتي ما عادت تفوح توحي بأنها قابلة للاحتراق. فقط تذكّر برائحة السيارات قليلاً. لا أريد أن أقلق أحداً». ضحك.

كل هذا إذن كان تحضيراً لتناول العشاء عند آل آيمز، والذي لم يكن مدعواً إليه. إلا أنه غادر البيت باكراً في المساء، متوقفاً عند الباب، ملقياً نظرة إليها وهازاً كتفيه، وكأنه يقول تمني لي حسن الطالع. وحين لم يعد إلى البيت على العشاء قالت لوالدها إنها تظن بأنه مدعو عند آيمز وليلى.

«أجل»، قال والدها، «آمل أن يهتم به جون بعض الشيء. لطالما رجوت ذلك. حين يسمي المرء اسمه على اسم أحدهم يتوقع منه قدراً معيناً من العون. وقد كان آيمز مصدر عون لي بالتأكيد. ولكنه لم يكن كذلك بالنسبة إلى جاك. لا أقصد أن أنتقده. أظن أنني لم أكن مفيداً له أيضاً بهذا الخصوص».

أراد العجوز أن ينتظره على الشرفة، فجلسا هناك في الظلمة المعتدلة

الجوّ. «لا يمكنك رؤية الحشرات المضيئة عبر تلك الأبواب الشبكية»، قال «لا يمكنك رؤية النجوم، لكنك تحصلين على النسيم على الأقل. تسمعين صرّارات الليل».

وبعد قليل قال: «سوف يحتاج آيمز إلى الراحة. لا يستطيع المسنون تحمل السهر. آمل أن يدرك ذلك». ثم سمعا وقع خطى، وجاء جاك وصعد الدرج.

«ليلة لطيفة»، قال. كان صوته ناعماً هادئاً. عرفت غلوري أن والدها لاحظ ذلك أيضاً.

قال العجوز: «أجل، أمسية لطيفة».

قال جاك: «كانا بالغي اللطف. الفتى يحبني. ويبدو أن السيدة آيمز ترى أنه لا بأس بي».

«أفترض أنكما تكلمتما قليلاً في السياسة يا جاك؟».

«نعم سيدي، ستيفنسون[1] رجل جيد جداً، بلا ريب».

ضحك والده: «لا حاجة إلى إقناعه. سيوافق على كل ما تقوله. لكن عندما تحين الانتخابات سيختار أيزنهاور. أجل، أعرف ماهية ذلك. محاولة إقناعه بالمنطق فيما يخص السياسة. لم أره كثيراً مؤخراً. ربما كنت أبذل جهداً أكثر من اللزوم».

قال جاك: «تكلم قليلاً عن جده».

«صحيح، يحب سرد القصص القديمة. لم يكن آل بوتون هنا خلال معظم تلك الأحداث. غادرنا اسكتلندا في خريف 1870، ففاتتنا

---

(1) Adlai Ewing Stevenson II (1900–1965): سياسي أمريكي من الحزب الديمقراطي عرف بتأييده للقضايا الليبرالية، ترشح للانتخابات الرئاسية عام عامي 1952 و1956 وخسر أمام دوايت آيزنهاور (م).

الحرب[1] وكل هذه الأمور. كان هناك الكثير مما يمكنك أن تدعوه تعصباً هنا في تلك الأيام. حتى بين المشيخيين. ذلك العجوز كان في قلب المعمعة، بحسب لما سمعت. ثم في شيخوخته صار مجنوناً بقدر ما يمكن أن يبلغ المرء من الجنون، ومع ذلك ظل يجوب الشوارع. ما كنت لأسميك البتة تيمناً بجون آيمز ذاك. بالطبع كنا معتادين حضوره، وشعرنا بالشفقة عليه. لكنه كان مجنوناً حين عرفته، وقبل ذلك أيضاً على ما أظن».

جلس جاك صامتاً لبعض الوقت. ثم قال: «يبدو أن آيمز يكنّ له الكثير من الاحترام».

قال والده: «المستوطنون القدماء، كما تعرف، العوائل القديمة، كانوا يروون قصصاً يحسبونها رائعة فحسب، ثم أظن أنهم بدأوا يدركون أن العالم تغير وأنه ربما عليهم أن يعيدوا النظر في بضعة أشياء. استغرقهم ذلك بعض الوقت. كان آيمز محرجاً تماماً من العجوز في أثناء حياته. كان دائماً يكلم يسوع. أظن أنه لم يخبرك بهذا الشأن».

«لقد أخبرني. أخبرني قصة مغادرة جده ماين إلى كانساس لأن يسوع زاره في الحلم على هيئة عبد، وأراه كيف أن الأغلال حزّزت جلده. سمعت هذه القصة من قبل بالطبع. لطالما فكرت أنها تبدو مغبطة. أعني، فيها ذلك النوع من اليقين. من الصعب التخيل. يصعب عليّ التخيل».

«اليقين يمكن أن يكون خطراً».

«أجل سيدي، أعرف ذلك. لكن إذا كان يسوع هو... يسوع، يبدو أنه كان ليري أحداً أغلاله. أعني، في تلك الأوضاع».

---

(1) الحرب الأهلية الأمريكية التي انتهت في ذلك العام.

«قد تكون محقاً يا جاك. أنا واثق من أن جاك يوافقك على ذلك. لكن حين ترى إلى أين وصلنا، ونحن ما زلنا نحاول حلّ تلك المتاعب مع العنف، لا أعرف. إذا عشت بالسيف فبالسيف تهلك»[1].

تنحنح جاك: «الاحتجاجات في مونتغومري لا عنفية».

قال العجوز: «إلا أنها تتسبب بالعنف. كل هذا استفزاز».

ساد صمت طويل. ثم قال جاك: «هذا الأسبوع سأذهب إلى الكنيسة. سأذهب قطعاً».

«هذا رائع يا جاك. يا سلام».

ساعد والده على الرقاد، ثم عاد إلى المطبخ. قال: «كنت محقّة، لقد أبليتُ حسناً. تلوت صلاة المائدة، ولم أتكلم بما فيه الكفاية حتى أوقع نفسي في المتاعب. لا أظن أنني فعلت. لا أقول إن شيئاً قد تغير، لكن الوضع لم يكن كارثياً. تناولنا المعكرونة بالجبن. وقد أتيت على طبقي كاملاً». ضحك.

ثم أخذ جاك لآل آيمز بعض التفاح من بداية الموسم، وبعض الخوخ الذي قال إنه يمكن أن ينضج على عتبة النافذة، ولعب بعض الكرة مع الصبي، وحتى إنه ساعد ليلى على نقل مكتب الموقر وبعض كتبه إلى غرفة الجلوس في الطابق الأرضي، لكي لا يضطر إلى صعود الدرج وهبوطه. قال: «شيء فيه الكثير من سمات الجيرة، من الصداقة».

لم تكن غلوري مهتمة بذلك كله، إلا بسبب اهتمام جاك به. بدا أنه وظّف الكثير من التفكير في ذلك بحيث واقفاً على تخوم الأمل، الآن

(1) العهد الجديد، إنجيل متى، 26: 52، «فقال له يسوع ردّ سيفك إلى مكانه، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون»، سرى هذا القول مثلاً بمعنى أن طريقة عيشك تحدّد مصيرك في النهاية.

وقد رحّب به الموقر وعائلته قليلاً. يا ربي العزيز، فكرت. إنهم ألطف بشر على وجه البسيطة. لمَ أقلق إذن؟ كانت هي من أقنعته بالوثوق بهما، وهو أمر منطقي تماماً في أي ظروف أخرى. إلا أن تحفظاته كانت وليدة خبرته، وكانت خبرته وليدة كونه جاك، جاك دوماً، رغم تلك المحاولات المتفرقة المكثفة لكي يكون شخصاً آخر. يا رب السماء، لا أحد يعلم بقدره أن الاحتراز ضروريّ دائماً بالنسبة إليه.

جاء يوم الأحد ونهض جاك باكراً وجلس في المطبخ يشرب القهوة، ورفض تناول الإفطار، وفرّش بدلته وقبعته. نزل في العاشرة وربع بادياً أكثر احتراماً من أي وقت، نقر قبعته، وخرج من الباب. ساعدت والدها على النهوض وأخذته إلى المطبخ حيث جلس متوانياً يتناول البيض والتوست، ثم متصفحاً الصحيفة، ثم عدد مجلة «كريستيان سنشوري»، الذي قرأه قبل أسابيع، ثم الكتاب المقدّس. أخيراً غرق في تلك الحالة من الإغفاء أو الصلاة التي يلوذ إليها في أوقات الانفعال الشديد. عند الثانية لم يكن جاك قد عاد بعد، فقالت لوالدها النائم إنها خارجة لكي تلقي نظرة عليه. لم يكن في وسعها البحث عنه وكأنه طفل ضائع، أو شخص يعاني من فقدان الأهلية. لم يكن ثمة شيء يمقته، وبالتالي تمقته هي، أكثر من احتمال أن يكون قد تعرض للحرج بأي طريقة يمكن توقعها وتفاديها. يكفي أنه كان ثمة هالة من الاضطراب تغلفه كلما خرج من الباب، أو كلما استدعاه والده إلى إحدى تلك المحادثات المحبطة. أو وهو ينتظر البريد أو يشاهد الأخبار؟

ذهبت إلى الحظيرة ووجدته هناك، في مقعد السائق في سيارة الدي سوتو، مطرق الرأس إلى الوراء ومغطياً عينيه بقبعته. طرقت بإصبعها على النافذة، فأفاق وابتسم لها، بجهد. ثم مد يده وفتح باب الراكب

«اصعدي»، قال لها، «كنت أستجمع شتات نفسي فحسب. لم أكن قادراً على مواجهة والدك بعد». ثم قال: «آه يا أختاه الصغيرة، أولئك العجائز يلعبون بقسوة. يبدون مسالمين جداً، وإذا بك فجأة تتحسّسين عظامك المهشمة ثانية».

«ماذا حدث؟».

«لقد وعظ. كان النص هاجر واسماعيل، والمغزى نبذ الآباء المخزي لأطفالهم. وكان المثال ذاتي المتواضعة، وأنا جالس هناك أمام ابنه وعيون أهل جلعاد شاخصة نحوي. أظن أنني كنت مصعوقاً. لقد تقصّد ذلك، ولا ريب. أن يرعبني، أن يجعلني أشحب كما فعل. أكثر شحوباً».

قالت: «حسناً، أجد من الصعب تصديق هذا. لا يبدو ممكناً ببساطة».

«أجل، أجل، عجوز بالغ اللطف. لا أظن أنني سأطلب مشورتك في أي وقت قريب، يا ذيل الخنزير»، ضحك. «غادرت من باب مذبح الكنيسة. وخطر لي أن أغطي رأسي بسترتي». ثم قال: «يا ربي، إنني متعب. وها أنت تبكين الآن. لا تفعلي ذلك، أرجوك».

«إنها مجرد دموع»، قالت، «ليست مهمة. سأتركك وحدك إذا كنت راغباً في ذلك».

«لا»، قال، «لا تفعلي هذا أيضاً. ربما يمكنك مساعدتي على فهم المسألة».

كان صمت.

قالت: «حسناً، من جهة أعرف أنه لن يذكرك بالاسم. لن يفعل ذلك البتة».

«لم يقل جاك بوتون الآثم سيء السمعة الجالس في الصف الأول.

الرجل الذي تفوح منه رائحة الوقود، هذا صحيح».

«كما أنه حضّر عظته قبل أيام. أنا أكيدة من أنه لم تكن لديه فكرة أنك ستكون حاضراً هذا الصباح».

«نقطة ممتازة. في الحقيقة، فكرت بذلك أنا نفسي. لكن عبر أسوأ مقاطع العظة لم يكن يقرأ من ملحوظاته يا غلوري. الشيطان العجوز كان يرتجل..بمهارة بالغة، أستطيع القول أيضاً، بالنسبة إلى رجل في سنه. على أية حال، فقد كنت في فكره وهو يحضر العظة. كل هذا السلوك المبالغ في التحبب تحت نافذته مباشرة»، ضحك، ثم قال: «لا تبكي»، أخرج منديلاً من جيب سترته الذي وضع فيه أيضاً علبة جلدية صغيرة. أحد مناديل والدها الرائعة».

قالت: «لن أسامحه البتة».

نظر إليها: «أقدّر عاطفتك».

«أعني ذلك، يمكن أن يكون خرفاً على ما أظن. ومع ذلك لن أسامحه. لطالما كان بمثابة الأب لي».

«هذا محزن».

«هذا رهيب».

تنهد جاك تنهيدة طويلة. «فكري في وضعنا يا غلوري. شخصان في منتصف العمر بصحة جيدة، عاقلين ومتمدنين، وبصورة عامة ودودين تجاه العالم – ربما كنت أتكلم فحسب عن نفسي هنا – نجلس في سيارة دي سوتو مهجورة في حظيرة فارغة، سنوفلايك ليس بعيداً عن أفكارنا، نمعن التفكير في هزيمة أخرى متوقعة بالكامل وعديمة المعنى بالضرورة. ألا تصدمك غرابة ذلك؟».

ضحكت: «إنه أمر سخيف فحسب».

«لم تكن لدي خطط حين رحلت عن جلعاد، كان مقبولاً بالنسبة إليّ البقاء في شروط أستطيع إقناع نفسي بها. كان ذلك أوج طموحي. لا أتوقع الفشل. كنت أستيقظ في المزراب الاعتيادي من وقت لآخر، أقصد ذلك مجازاً بالطبع - وفكرت في نفسي أن القليل من الجهد فحسب سيحسّن الوضع بصورة كبيرة. فكان ثمة ذلك التفاؤل. ربما لأني كنت شاباً».

«كنت بخير طوال عشر سنوات».

«تقريباً عشر. سبع سنوات ونصف، إذا كنا نتكلم عن الإقلاع عن الكحول. تسع سنوات ونصف السنة إذا كان المقصود الانخراط السار أحياناً بالحياة».

«ديلا».

«ديلا».

صمتنا لوقت.

قال: «فكرت أحياناً بأن أدخل وإياها منسلين إلى جلعاد تحت جنح الظلام، ونرمي حصوة على نافذة آيمز، ويقول كل واحد منا: «أوافق»[1]، ونحصل على بركته. أو على الأقل توقيعه على...».

«أكنت لتطلب منه تزويجك؟».

رفع كتفيه: «إنه دائماً مستيقظ في ساعات غريبة».

«أظن أنك كنت لترفع قبعتك محيياً بيتك وأنت خارج من جلعاد».

«بلا شك. لم أفكر حقاً في النقاط الجيدة. كنت لأرفع قبعتي بالتأكيد».

«من الجيد معرفة ذلك».

---

(1) ما يعرف بتلاوة عهود الزواج.

ثم قال: «عدت مفكراً أننا نستطيع أن ننشئ حياتنا هنا، هي وأنا. لَم فكرت بذلك؟ عدت لأن كل شيء قد تداعى إلى أشلاء وهي فرّت إلى عائلتها». نظر إليها: «لم أكن مذنباً بصورة خاصة. أنا بالتحديد. لا تأخذي فكرة خطأ. لكنني كنت متعلقاً بقشة، بالمجيء إلى جلعاد. لا ريب في ذلك. لدي بعض الخبرة معه. أعني القش».

حانت منه نظرة جانبية نحوها. بدا حائراً، متفكراً، حزيناً، منهكاً.

«لم تكلم أبانا في هذا الأمر».

«بعض الأمور محرمة يا غلوري. أنت لم تكلميه البتة بشأن رسائل الحب القديمة»، ثم قال: «والدنا ليس رجلاً دنيوياً، يمكننا القول، إلا أنه بلا ريب كان ليفترض ان علاقة مدتها تسع سنوات مع ذاتي الملوثة قد تكون تضمنت درجة من... المساكنة الزوجية. أتمنى ألا أكون أزعجتك». نظر إليها. «قد، ومن دون أن يقصد ذلك، لكن بمجرد الإيحاء، يلقي بتعليقات جارحة. لا أعرف كيف يمكنني التعامل مع ذلك وأنا أحاول البقاء بعيداً عن الكحول».

قالت: «كيف تعرف أنني لم أفعل ذلك؟ المساكنة».

قال بلطف شديد: «اعتبريه مجرد تخمين».

تفضّل من قبله. فكرت إلا أن المقصد منه حسن. أخوي.

قال: «لا أوصي بذلك. ثمة قوانين. قد ينتهي الأمر بالإنسان بالشرطة على بابه»[1]. ابتسم.

«عذراً». جاك المسكين.

الحقيقة كانت أنها تمنت أن يكون هناك ما هو أكثر في زواجها المزعوم

(1) قبل السبعينيات من القرن العشرين كانت المساكنة تعدّ محظورة قانوناً في الولايات المتحدة الأمريكية.

طويل الأمد. ألا يكون هناك احترام خطيبها الفائق الموسوس تجاهها، حين تتذكر علاقتها به، الذي يزيد من مرارة إحساسها بالخديعة في الأمر برمته. ومع ذلك، تمنّت استعادة الرسائل، والخاتم. محرّمة، فكرت. من الغريب التفكير بالأمر بهذه الطريقة. من وقت لآخر قرأت النصف دزينة من الرسائل التي أثّرت بها، وحتى هذه بدت أحياناً اعتيادية إلى حدّ أنها كانت تخيفها، وكأنها أضاعت شيئاً ثميناً ولم تستطع العثور عليه، مهما فتشت. ثم تلاحظ عبارة ما، شيئاً ما عن الوحدة أو السأم أو المشهد من نافذة القطار، حميمية الاعتيادي، وينبض قلبها. لقد وسمت بعلامة الهوامش قرب هذه السطور لكي توفر على نفسها الشعور المدوّخ بأن ليس في تلك الرسائل ما يستحق الاحتفاظ به في البال، ثم حين تقرأها ثانية لا تستطيع دوماً ان تعرف لماذا اختارت تلك المقاطع وتخاف ثانية. كان في مركز حياتها، ومن كان في نهاية المطاف؟ لماذا يريحها أن تثق به؟ كانت الرسائل ثمينة جداً بالنسبة إليها، وما كانت؟ كانت مداهنة وركيكة، ثلاث من أربع رسائل كانت كذلك. لكن حين تؤثر بها، كانت تتورّد بهجة. لم يكن من كلمة أخرى لوصف شعورها. كانت تعرف أنها لو احتفظت بها، لكانت ظلت تعود إليها لكي ترى إذا كان فيها أي أثر للقوة العذبة التي انطوت عليها يوماً بالنسبة إليها، وأنها إذا لم تجدها، فستعاود قراءتها. حين تفكر بها، تضع جانباً كل المرارة والحماقة والوهم، كما لا يمكن لأحد آخر أن يفعل، لا أحد ممن يصغي إليها بتعاطف. التعاطف يفسد كل شيء رائع، تلك السرية وذلك النوع من الإحساس بالخزي اللذين احتفظت بهما لنفسها.

قالت: «تساءلت ما إذا كان سيكون أسهل العيش في مكان آخر. مكان أكون حرة فيه بحياتي على الأقل».

«تلك كانت فكرتي أيضاً. وقد منحت المكان الآخر محاولة كبيرة. وأنا الآن ثانية في البيت في أيوا، نجمة الراديكالية المشعّة[1]. إنه توق الفراشة الرثة نحو النجمة المشعة، ما أعادني إلى البيت يا أختاه الصغيرة».

قالت: «حسناً، أيوا ولاية كبيرة جداً».

ضحك: «أجل، لماذا أنا هنا في حين يمكن أن أكون في أنكني، أو أوتوموا[2]».

«هذا يفاجئني كسؤال منطقي».

«ربما لأنه لا أخت لي هناك».

«كنت لأزورك».

هزّ رأسه. «هذا لطف منك»، ثم قال: «عرفت أنني سأحتاج إلى مساعدة. فكرت أن العجوز قد يساعدني، لكنني لم أدرك أنه طعن في السن إلى هذا الحدّ. لم أستطع إيجاد عمل في بلدتي. فقررت أن أضع آمالي بالموقر اللطيف آيمز. وهو ما يعيدنا إلى اللحظة الراهنة». ثم قال: «وقد أردت فحسب العودة إلى البيت. حتى لو لم أستطع البقاء. أردت أن أرى المكان. أردت أن أرى أبي. كنت... حائراً على ما أظن». ضحك: «كنت خائفاً من العودة. كان أكثر ما تمكنت من فعله الصعود إلى الحافلة. والبقاء فيها. كنت ناجحاً كثيراً في ذلك بصورة إجمالية. مؤسف جداً. مؤسف جداً بالنسبة إلى العجوز. من المذهل بالنسبة إلي أنني ما زلت قادراً على أن أخيّب أمله. عرفت أنني سأفعل». تحسّس الندبة تحت عينه.

---

(1) الوصف الذي أطلقه الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية، عوليس جرانت، على ولاية أيوا.

(2) مدينتان في ولاية أيوا.

«حسناً»، قالت، «إنه قلق. تركته جالساً إلى طاولة المطبخ. وهو غير مرتاح على الأرجح. يحسن بي أن أعود إليه».

«ماذا ستقولين له؟».

«ماذا تريدني أن أقول له؟».

«أوه، دعيني أفكّر. قولي له إن حياتي هي ألم ومصاعب لا تنتهي لأسباب واضحة بلا ريب لكل من اصادفه في الشارع، لكنها غامضة عليّ، وأنني أجلس ذاهلاً في الدي سوتو، وسوف أدخل على الأرجح عند العشاء».

«سيكون الأمر أبسط لو دخلت معي الآن».

تنهد. «لا ريب في أنك محقة. وأنا أعرف بالفعل لمَ حياتي على هذا النحو يا غلوري. كنت أمزح بهذا الخصوص. لا أريدك أن تظني أنني لا أعرف. فقد خرجت للتو من موعظة حول الموضوع». نظر إليها.

قالت غلوري: «لن أسامحه البتة».

قال جاك: «شكراً لك. أنا متأثر»، ثم قال: «سأسامحه. ربما سامحته أصلاً». وحين نظرت إليه رفع كتفيه وقال: «ربما يعتبر ذلك علامة على حسن الشخصية. ربما يبدو كرماً او تواضعاً أو شيئاً من هذا القبيل. على أيّة حال، لا أنا ولا أنت يمكننا المجازفة بإقلاق العجوز عبر التمسك بضغينة ضد آيمز. أعني، ضغينة قد يكون هو أو آيمز واعيين لها». قال: «لقد فكرت بهذا بحذر تام. إما أن يصرّ كبريائي الرجولي على أن أواجهه، وهو ما لن أهبط إليه. وإما أن يجبرني ذلك على مغادرة البلدة، في نوبة غضب ما لكي أتفادى ذلك الانطباع اللئيم الذي حتى أنا أمقته. أو أتمسك بالخيار الوحيد غير المؤذي المتبقي لي، والذي أيضاً يتخذ مظهر الفضيلة على ما أظن».

«إذن أظن أنني مضطرة إلى مسامحته أنا أيضاً».

«سأقدّر ذلك. سيسهّل الأمور».

عادا معاً إلى البيت. كان والدها لا يزال جالساً إلى الطاولة، شاعراً بالمرارة إلى حدّ ما بسبب وضعه المضجر، الذي زاد من قلقه». «آه، ها أنتما»، قال وهما يدخلان من الباب «بدأت أفكر أن...»، ثم رأى وجه جاك.

ابتسم جاك. قال: «موعظة قوية. جعلتني أفكر كثيراً».

«حسناً، هذا جيد»، قال والده، «لا ضير من ذلك على ما أظن. أنا واثق من أن نيته كانت حسنة. لم أكن لأتوقع ذلك. يبدو أنه أهدر فرصة رائعة». صار صوته منخفضاً ونظرته أكثر تركيزاً مع ازدياد إدراكه.

قال جاك: «أرجوك لا تقلق بسبب هذا. لا يهم الأمر حقاً»، وصعد إلى غرفته.

مرت أيام دون كلمة من آيمز. قرأ والدهما وصلى وجلس مستكيناً، وكلما رن الهاتف قال: «إذا كان آيمز قولي له إنني مت».

عانى والدها صدمة رهيبة. كانت عادته أن يعتبر آيمز أناه الأخرى، لشتى الأسباب. وها هو ابنه، الذي صلى طويلاً من أجل راحته وسلامه الروحيين، تلك الصلوات التي كثيراً منها كان مسرحه مطبخ آيمز، وعلى مسمعه، وبثقة تامة بأن صديقه يؤيّد صلواته – ابنه وقف هشاً أمامه وتعرض للجرح والإهانة. أن جاك هو الجرح في قلب أبيه، الرقة الرهيبة، كان أمراً يعرفه آيمز تمام المعرفة، تقريباً بقدر ما يعرفه الرب. وها هو الصبي وقد ارتدى بدلة وربطة عنق، وحمل نفسه إلى الكنيسة، بحق السماء، رغم التردد، وحتى رغم الخوف، بالحكم من شدّة تردده.

أمكن غلوري سماع أفكار والدها وهم جالسون معاً على الإفطار صبيحة ذلك اليوم – النظرة الدفاعية، الثقة بأن الأمور ستعتدل بطريقة عجائبية. وقف في صدر كنيسته عاماً بعد عام، متأملاً ان يكون قادراً مجدداً على أن يعظ حول الرحمة وقلب يسوع المحب لابنه المنعزل، الوحيد بصورة لا نهائية. حين ابتسم لنفسه، كان يتخيل بالتأكيد نفسه في منبر الوعظ، مذهولاً وشديد الامتنان. من أفضل من والد جاك الثاني، نصف أبيها الثاني، ليستقبله بكلمات الترحيب والمؤاساة التي لم يستطع قولها بنفسه؟ لم يكن ليخطر بباله البتة أن آيمز لن يتكلم إلى الفتى كأنما من قلبه هو.

ثم خيبة الأمل هذه المستعصية على الفهم. تمتم العجوز وحملق، وعيناه تومضان متذكرتين اللطافة التي أبداها تجاه آيمز طوال السنوات الماضية، الثقة التي أولاه إياها. أجفل على نحو ما يفعل وهو يستعيد الأسى واللوم. ولا مرة منذ عواصف تقاعده الأشد قسوة رأته بهذا القدر من الكآبة.

على مر العقود جرت مباريات صياح فعلية بين آيمز ووالدها، وذلك حول مسائل مبهمة إلى حدّ أن أحداً لا يجرؤ على التفكير بها. ذات مرة، حين حاولت والدتها أن تقول شيئاً يلطف الأجواء حول عون القديسين، قال والدها، في حمى الجدال: «هذا كلام أحمق فحسب!»، وأرعبتهم جميعاً حين وضبت حقيبتها. أحياناً كان الأولاد الأكبر يحاولون تلطيف أجواء النقاش، أن يحدثوا السلام بين الرجلين، لكن في حقيقة الأمر كانت صداقتهما لا تتهدد بل تتعزز عبر وضوح متبادل عميق جداً إلى حدّ أنه يمكنهما من الاستمرار لأيام في جدل غير مفهوم لمن هم حولهم، وأن يتوقفا عنه حين يسأمانه، ثم أن يستأنفاه

من حيث توقفا سابقاً. لا أحد أمكنه أن يتنبأ متى يمكن أن يشتعل دفء مسرتهما بالجدل ويتحول إلى انزعاج متبادل، وإن كان السأم والطقس السيء عاملين مساعدين.

لكن طوال تلك السنوات لم يلحق أي منهما الأذية بالآخر. هذا الجرح بالذات، غير المتوقع بالمرة، من صديق، من أحبّ البشر على قلب العجوز - كانت بلا ريب الشعور الأفدح بين كل المشاعر، وبالتالي الأكثر قيمة على قلبه - كان يصعب تخيله. كان والدها في حداد، وبقي آيمز بعيداً، لا ريب ينتظر إشارة تدلّ على أنه لم يفقد آل بوتون إلى الأبد. لابدّ من أنه في حداد هو الآخر.

كان ينبغي فعل شيء ما. آيمز لديه نسختيهما من «لايف» و«ذي نايشن»، ولديه اشتراكه الخاص في «كريستيان سنشوري» و«بوست». بقدر ما تعرف غلوري، لم يكن من كتب في البيت أعارها لوالدهما، أو كتب قال إنه راغب باستعارتها. وكل الخضار والزهور في أرضهما تزرعها ليلى بوفرة اكبر. قررت غلوري أن تعدّ بعض البسكويت. إلا أن جاك نزل بنسخة قديمة من «لاديز هوم جورنال». ونقر على الملحوظة على الغلاف: أريها لآيمز. «صعدت إلى العلية بضع مرات. فيها أشياء شتى. وجدت في هذه المجلة مقالة عن الدين في أمريكا. مثير للاهتمام حقاً».

«1948. إنه قديم جداً فعلى الأرجح قرأه».

هزّ رأسه: «إنه قديم جداً فعلى الأرجح نسيه».

«حسناً، أظن أنني سأعد البسكويت فحسب».

«كما تريدين». وضع جاك المجلة على الطولة. ثم وقف ينظر إليها

واضعاً يديه على وركيه، وكأنه يتنازل عن شيء مهم. «بيد أنه مقال مثير للاهتمام».

قالت: «حسناً، سأحتاج إلى دقيقة لكي أصفّف شعري».

«أكيد»، ثم قال: «كانت فكرتي أن تعطيها للعجوز أولاً قبل أن تأخذيها لآيمز. وعندئذ يكون لديهما ما يتجادلان بشأنه. أعني المحادثة قد تكون متكلفة في ظل الظروف الراهنة. فظننت أن هذا يمكن أن يساعد». رفع كتفيه.

وضعت جانباً زبدية المزج وملاعق القياس. «أمن تعليمات أخرى؟».

«ليس في اللحظة الراهنة. حسناً، إنه صاح ومرتد ملابسه. فكرت أنه يمكنك أن تقرأي له المقال خلال الإفطار. لقد أكلت و...». وأومأ نحو الباب بطريقة توحي بأن لديه ما ينوي فعله. شفرة مجرفة تحتاج إلى شحذ. كان قد زيّت قبلاً قلادة الحصان.

قالت: «حسناً، هل أخبره بأنها فكرتك؟».

أجل. قولي له ذلك. قولي أنني أخشى من أن أكون قد أسأت لآيمز، وأريد إصلاح الأمور».

«لمَ لا تخبره بنفسك؟ أظن أنه سيرغب بسماع التفاصيل».

قال: «فتاة ذكية، شكراً غلوري». وغادر.

أحبّ والدها فوراً فكرة المصالحة. وبدا مرتاحاً لمجرد سماع الكلمة. لم يكن احتمالاً بعيداً بأن يكون جاك أخطأ بطريقة ما، وإن كان لا يزال – بعد التفكير ملياً في الأمر – لا تصوّر واضحاً لديه كيف يمكن أن يكون قد فعل ذلك. ربما حانت منه نظرة متشككة، لكن كان يجدر توقع

ذلك. فجاك هو جاك، ولم يكن من قبيل عدم الوفاء قبول أن جاك ربما يكون مخطئاً إلى حدّ ما، بما أن مسامحته كانت أعمق من العادة، بما أنها في حقيقة الأمر خلاصة الولاء وجوهره. أجل. العجوز دائماً يفسر أي انعطافة سارة في الأحداث وكأنه يبدأ بقراءة نص، مستمتعاً تماماً بكل الإيحاءات المطمئنة والعواقب الحسنة «لطف بالغ من جاك أن يعترف بدوره في الأمر، وأن يرغب في إصلاحه. خلق مسيحي منه. أظن أنه ربما يفعل ذلك لكي يرضي والده العجوز أيضاً. لكي يكون لديّ ما أفكر به والذي ما كان ليكون واضحاً لي لولا ذلك». ضحك: «تلك الموعظة كانت في صالحي. الرب رائع!». قال: «يقول آيمز العجوز إنه يتذكرني بالتنورة والقبعة المخرمة، وهذا يمكن أن يكون صحيحاً. لقد تولت جدتي رعايتي طفلاً وأطالت فترة طفولتي قدر المستطاع. بل أطول من ذلك على ما أظن. كانت نيتها حسنة. فلقد اعتلّت صحة أمي بعد ولاتي، وكان هذا رأي أمي على أية حال. لكن لا يستطيع الإنسان التخلي ببساطة عن صداقة سحيقة إلى هذا الحدّ!». كان يحبّ التأكيد على حقيقة أن الرحمة لم تكن يوماً استثنائية في نتائجها، كما هي الآن، عندما بإمكانه إرضاء ابنه بمسامحة صديقه «لهذا تسمى الروح»، قال، «الكلمة بالعبرية تعني الريح 'وروح الله يرف على وجه المياه'[1]. إنها نوع من البيئة الحاضنة». كان والدها يُفاجأ دوماً باستبصاراته حتى ليستحيل عليه أن يميز تلك المرتبطة باللحظة الراهنة من تلك التي وعظ بها مرات ومرات. جعله ذلك أقل تنبهاً بقليل مما يجدر به أن يكون تجاه المجازفة بتكرار أقواله. آه، حسناً.

---

(1) الكتاب المقدس، سفر التكوين، 1: 2، «وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرفّ على وجه المياه».

قرأت المقالة إذن لوالدها، وضحك عند سماع الفقرات التي من المؤكد أن تثير غضب آيمز، والتمعت عيناه بالسرور لمعرفته أنه كان والموقر، انسجاماً مع أهداف جاك، متفقين في الرأي «إنها حصافة من جانبه أن يجد هذه المقالة لنا»، قال.

حين انتهيا من قراءة المقالة، أخذت غلوري المجلة إلى منزل آيمز وتركتها مع ليلى، بما أن الموقر كان في الخارج في زيارة. مرّ نهار. جاء جاك من الحديقة لكي يسألها إذا كانت قد أوصلت المجلة، ثم لكي يسأل إذا كان ثمة رد. أخيراً، وقد أضناها القلق، عادت من دون هدية أو حجة لتجد آيمز في البيت. فتح لها الباب، وحين رآها هناك، دمعت عيناه أسفاً وراحة «ادخلي عزيزتي، تسرني جداً رؤيتك. كيف حال والدك هذه الأيام؟».

«في أحسن حال. جاك يساعدني على رعايته أو أنا أساعد جاك»، قالت، «لقد اشتقنا إليك».

مسح آيمز عينيه من وراء نظاراته «أجل أعرف أنه كان رائعاً بالنسبة إلى روبرت أن يجده في البيت ثانية». بدا متعباً ومتأثراً وكأنه يحتاج إلى الراحة، فقالت إن والدها طلب منها أن تطمئن على أحواله لكنها لا تستطيع البقاء.

«لم يكن نومي جيداً مؤخراً، ولن أكون نافعاً لشيء حالياً، فسأمرّ بكم غداً أو بعد غد»، قال «سلمي على جاك».

كان يبدو حيوياً جداً مقارنة بوالدها، مما جعل من الصعب عليها أن تتذكر أنه موغل في العمر هو الآخر.

في اليوم التالي جاء مصطحباً روبي الذي أخذ يجري في الشارع خلفه، أو أمامه، منقضاً على الجراد «مثل جرو»، قال والدها، «وعلى

كل شيء». دخلت غلوري لكي تعد الليموناضة وتترك للعجوزين المحترمين المجال لكي ينتهيا من مراسم الودّ المتجدد. نزل جاك إلى المطبخ ووقف مستنداً استند إلى المنضدة طاوياً يديه على صدره. ومعاً أصغيا لفترة إلى صوتي العجوزين، اللذين اكتسبا المزيد من الزخم مع تقدّم النقاش. استمعا إلى الضحك وصرير الكرسيين اللذين جلس عليهما الرجلان، وكان ثمة فترات صمت أيضاً، لكن لطالما كان هناك صمت. حين لم تعد غلوري تخشى مقاطعة أي شأن دقيق من شؤون ترميم العلاقة، أخذت لهما الليموناضة وجلست معهما قليلاً. وذهب روبي إلى الحديقة وعاد يحمل جراراً لعبة كان قد جلبه معه في الزيارة السابقة ونسيه هناك. راح يقوده في أرجاء الشرفة، تحت كرسي والده وحذاءه.

تحولت المحادثة إلى المقالة التي عثر عليها جاك «الدين والشعب الأمريكي». كانت المقالة تحطّ من شأن كل المؤسسة الدينية في أمريكا، لكنه كان مبنياً على الحجج بصورة غريبة، مما مكن القسّان العجوزان من الاستمتاع بدحضه. كانا قد كافحا لنشر الإيمان الحقيقي، الذي لم يبد يوماً أن له سمات أو حدوداً قومية. ولا شعرا أنهما متورطان مباشرة في أيّ عيوب أو مظاهر غريبة في الممارسة المحلية للدين يمكن أن يكونا ملزمين على التسليم بها.

خرج جاك إلى الشرفة مع كوب من الليموناضة وجلس على كرسي. ساد صمت قصير. قال: «أيها الموقر».

قال آيمز: «جاك، تسرني رؤيتك»، وأشاح نظره، نحو بوتون، ثم نحو الكوب الذي يحمله.

نظر إليه جاك لبرهة. ثم قال: «سمعتكما تضحكان بشأن تلك

المجلة. إنه مقال أحمق بالإجمال. أيمكنني أن أراه قليلاً؟ شكراً. أظن أنه يقول فكرة مثيرة للاهتمام هنا في مكان ما مع ذلك. يقول إن مصداقية التدين الأمريكي وضعت موضع الشك بسبب طريقة معاملتنا للزنوج. أظن أن لا شيء يمكن قوله للاعتراض على هذه الفكرة».

قال بوتون: «كان جاك يشاهد التلفاز».

«أجل كنت أفعل. وقد عشت في أماكن يعيش فيها الزنوج. إنهم مسيحيون صالحون، الكثيرون منهم».

قال بوتون: «إذن فإننا لم نسئ إليهم كثيراً، أليس كذلك؟ هذا هو الأمر الأساسي».

نظر جاك إليه، ثم ضحك: «أرى أننا أسأنا كثيراً إليهم. خاصة وفق المعايير المسيحية كما أفهمها». استرخى جاك في كرسيه وكأنه أكثر الرجال عفوية على وجه الأرض وقال: «ما رأيك أيها الموقر آيمز؟».

نظر آيمز إليه: «عليّ أن أتفق معك. لست مطلعاً جيداً على الأمر. لم أكن أتابع الأخبار عن كثب، مثلما كنت أفعل سابقاً. لكنني أتفق معك».

«ليست الأخبار بالضبط...». ابتسم جاك وهزّ رأسه «عذراً أيها الموقر»، قال. أحضر روبي الجرّار لكي يريه إياه، ويجعله يحرك المقود، ويجريه على ذراع كرسيه وقفاه.

قال بوتون: «لا أؤمن بالتشكيك بإيمان أحدهم لأن لديه بعض العيوب، نقطة عمياء أو اثنتين. هناك طريقة أفضل لمناقشة هذه المسائل».

قال آيمز: «ومع ذلك فإن جاك مصيب بوجهة نظره هذه».

«وأنا أيضاً. وجهة نظري هي أنه من السهل إطلاق الأحكام».

كان المقصود بهذا أن ينهي المحادثة، إلا أن جاك الذي كان يتأمل مكعبات الثلج في كوبه، قال: «صحيح. سهل جداً في هذه الحالة كما يبدو لي».

«وهذا سبب إضافي لمقاومة الانجرار وراء العاطفة!».

ضحك جاك، ونظر آيمز إليه، ليس بطريقة لائمة تماماً. أشاح جاك نظره.

قال بوتون: «إذا كان من أمر يعلمنا إياه الدين بوضوح فهو أننا جميعاً خطأة وندين لبعضنا بعض بالمغفرة والرحمة، أكرموا الجميع[1]، يقول الرسول».

«أجل سيدي. أعرف النص. لكن التطبيق هو ما يربكني قليلاً».

قال آيمز: «أظن أن والدك أظهر لنا مرات كثيرة كيف يطبق النص».

استوى جاك على كرسيه ورفع يديه علامة على الاستسلام: «أجل سيدي. أجل لقد فعل. ولديّ أسباب للامتنان على ذلك».

هز آيمز رأسه: «وأنا أيضاً جاك. وأنا أيضاً».

كان صمت. حوّل والدها نظره، وهو مفعم بالبراءة والتواضع الواعي.

جاءت ليلى عبر المدخل. رآها جاك أولاً وابتسم ونهض واقفاً. التفت آيمز ورآها ونهض أيضاً. حين دخلت من الباب الشبكي، أومأ بوتون نحو صديقه وابنه وقال: «كنت لأقف أيضاً يا عزيزتي لو استطعت».

قالت: «شكراً لك أيها الموقر، لا أستطيع البقاء. جئت فحسب لكي

(1) العهد الجديد، رسالة بطرس الرسول الأولى، 2: 17، «أكرموا الجميع. أحبوا الإخوة. خافوا الله. أكرموا الملك».

أخبر جون بأنني أعددت له العشاء. إنه شرائح لحم باردة وسلطة، فلا داعي للعجلة».

قال بوتون: «اجلسي معنا قليلاً. سوف يأتي لك جاك بكرسي».

قال جاك: «رجاء خذي كرسي سيدة آيمز. سوف أحضر واحداً من المطبخ». وأجلسها قرب والده بنبالة تجاوزت اللياقة بما فيه الكفاية ليجعل المرء يتساءل عن مغزاها.

فكّرت غلوري أنه يجدر بجاك أن يختلق عذراً ما، لكي ينتحي بها جانباً ويسألها سريعاً عن رأيها بمسار الأمور. كانت جاهزة لكي تخبره بأنه ربما آن أوان التحدث عن الطقس أو البايسبول أو حتى السياسة. إلا أنه لم يلتفت نحوها وخرج ثانية إلى الشرفة.

قال آيمز لزوجته: «كنا نتكلم للتو عن حقيقة أن طريقة فهم الناس لدينهم مرتبطة بولادتهم بصورة عامة، بالمكان الذي ولدوا فيه».

قال جاك: «أو باللون الذي ولدوا به. أعني، هذا موضوع المقالة. بصورة غير مباشرة، كما أراها».

لم يكن ممكناً استدراج ليلى حقاً إلى مثل هذه النقاشات، وإن حاول آيمز إشراكها فيها. بدت أكثر اهتماماً بحقيقة أن الناس يتناقشون بمثل هذه الأمور، أكثر مما بفحوى هذه الأحاديث، ورأت تيارات الحماسة تمرّ بينهم، متنبهة حين تراهم عازمين، وضاحكة حين يضحكون.

قال بوتون: «أجل، هذا مثير جداً للاهتمام». ثم بدأ يستعيد تجربته في مينيابولس، أقرب معادل بالنسبة إليه إلى السفر إلى خارج البلاد «كنت أزور بصحبة أمي المدينتين التوأم[1] من حين لآخر، ونرى

(1) مينيابوليس، كبرى مدن ولاية مينسوتا الأمريكية، وهي تقع بجوار مدينة سانت بول، عاصمة الولاية، والمدينتان معاً تلقبان بالمدينتين التوأم.

الكنائس اللوثرية منتشرة في كل مكان. في كل مكان حرفياً. هناك بعض الكنائس المصلحة الألمانية[1]، إلا أن اللوثريين يفوقونهم عدداً بنسبة عشرين إلى واحد على ما أظن. هذا مجرد تخمين. مينيابولس مدينة كبيرة. قد يكون هناك مشيخيون في مناطق لم نزرها».

قال جاك بطريقة مفاجئة: «أيها الموقر آيمز، أحب أن أعرف رأيك بعقيدة القضاء والقدر[2]. أعني، لقد أتيت على ذكر مصادفة الولادة»[3].

قال آيمز: «هذا سؤال صعب. إنه موضوع معقّد. لقد تصارعت معه شخصياً».

«دعني أطرح السؤال على هذه الشاكلة. أتظن أن بعض الناس وبصورة قصدية غير قابلة للردّ، محكومون بالهلاك؟».

«أخشى أن هذا هو الجانب الأصعب من السؤال».

ضحك جاك: «لابدّ من أن الناس يطرحون عليك دوماً هذا السؤال».

«هذا صحيح».

«ولابدّ من أنك تجيبهم على نحو ما».

«أقول لهم إن بعض الصفات التي ينسبها ديننا إلى الرب – العلم بكل شيء، كلي المقدرة، العادل والرحيم. نحن البشر لدينا معرفة قليلة

(1) هي الكنائس البروتستانتية التي ترتكز على العقائد الكالفينية وعلى أساس النظام الكنسي المشيخي، وقد بدأت بالانتشار في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن الثامن عشر، على يد المهاجرين الألمان.

(2) Predestination: أو الجبرية.

(3) The Accident of Birth: أو حادثة الولادة، ويقصد به أن حياة الإنسان بما فيها من سلبيات وإيجابيات، تتحدّد في البيئة التي يولد فيها، والتي لا سيطرة له عليها، وهو ما كان قد أشار إليه الموقر آيمز قبل قليل عندما تحدّث عن مكان الولادة.

جداً بالمقدرة والعلم، وفكرة بسيطة جداً عن العدل، ومقدرة قليلة جداً على الرحمة، مما يجعل أعمال مثل هذه الصفات العظيمة لغزاً لا نستطيع أن نأمل بالنفاذ إليه».

«تقول لهم ذلك بهذه الكلمات».

«نعم أفعل. أقل أو أكثر بهذه الكلمات عينها. إنه سؤال محفوف بالمحاذير وأنا محترز تجاهه. لا أحب كلمة الجبرية، لقد استعملت في سياقات فظة».

تنحنح جاك: «أرغب في أن تساعدني على فهم ذلك أيها الموقر».

استند آيمز إلى ظهر كرسيه ونظر إليه: «حسناً، سأبذل قصارى جهدي».

«لنقل إن أحدهم ولد في مكان معيّن في هذه الدنيا. وقد تلقى معاملة حسنة، أو غير حسنة. ولنقل إنه اكتسب من جميع المحيطين به الأخلاق المسيحية، أو غير المسيحية. ألن يكون لهذه الظروف تأثير على... حياته الدينية؟».

«حسناً، يبدو أن له تأثيراً، على وجه الإجمال، بيد أن ثمة استثناءات بكل تأكيد».

«ألا تؤثر هذه الظروف على مصير روحه؟».

«الرحمة»، قال والده، «رحمة الرب يمكن أن تشمل أي روح، في كل مكان. وأنت تخلط بين الأمرين هنا. الدين هو سلوك بشري. أما الرحمة فهي حب الرب. هذان أمران مختلفان».

«في هذه الحالة أوليست الرحمة هي نفسها الجبرية؟ الجانب الأكثر إشراقاً منها؟ لنفترض أن هناك من لا تطاولهم الرحمة، على الرغم من أن مكانهم في الدنيا يبدو مناسباً... لكي يجعل منهم مسيحيين، بطريقة

أو بأخرى، تبدو هذه جبرية».

كان جاك قد وضع كوبه من يده، وجلس باسترخاء، شابكاً ذراعيه على صدره، وتكلم بنوع من الإلحاح المتسم بالاحترام الذي يعني أن ثمة ما يدفعه إلى طرح السؤال.

قال والده: «لم أرَ يوماً أن المصير كلمة مفيدة».

«إنها مختلفة إذن عن الجبرية».

«كاختلاف الليل عن النهار»، قال والده بحسم. ثم أغمض عينيه.

ظنت غلوري أن المتاعب تلوح في الأفق. آيمز ووالدها تجادلا حول ذلك مرات لا تحصى، والدها جازماً بشراسة بأن الرحمة كافية تماماً، في حين يصرّ آيمز، باعتدال يجده صديقه مزعجاً، على أنه لا يمكن إنكار جسامة الخطيئة. أيعقل أن يكون جاك قد نسي ذلك؟ نهضت قائلة: «عذراً. أكره هذا النقاش. لقد سمعته ألف مرة وهو لم يؤدِ يوماً إلى أيّ نتيجة».

قال والدها: «أمقته كثيراً أنا الآخر، ولم أجده يوماً مجدياً. بيد أنني لا أسميه نقاشاً يا غلوري».

قالت: «مهلاً خمس دقائق». نظرت بتصميم إلى شقيقها. ابتسم. دخلت إلى البيت. ثم سمعته يقول: «كنت أفكر بموعظتك يوم الأحد الماضي أيها الموقر. موعظة جميلة. ويبدو لي أن نصاً آخر شديد الارتباط بموضوعك هو قصة داود وبتشبع»[1].

---

(1) ترد هذه القصة في الكتاب المقدّس، سفر صموئيل الثاني، الإصحاحان الحادي عشر والثاني عشر: واختصارها أن داود يهيم شغفاً بزوجة أحد رجاله أوريا الحيثي، وتدعى بتشبع، وهو اسم عبري يعني «ابنة القَسَم»، فيتحايل حتى يلقى أوريا حتفه، ويتخذ من بتشبع زوجة له، ثم تنجب له ابناً، غير أن الربّ يغضب من داود بسبب فعلته هذه ويعاقبه بأخذ حياة ولده. العبرة التي يرمي إليها جاك هنا أن الابن يعاقب بجريرة والده.

قالت غلوري في سرّها: يا ربّ السماوات.

ساد صمت في حين تأمل العجوز في كلام جاك. ثم قال آيمز: «روبي يحسن بك أن تذهب. امضِ وجد طوبياس. خذ جرّارك الآن واجرِ».

سادت فترة أخرى من الصمت. تنحنح جاك، ثم قال: «مثلما قرأت القصة فالطفل مات لأن والده ارتكب إثماً». فكرت غلوري أنها ميّزت حدة في صوته.

قال آيمز: «لقد ارتكب داود الكثير من الآثام الجسيمة. وهذا لا يجعل من عدلها أكثر وضوحاً».

«أجل سيدي، الكثير من الآثام الجسيمة. ومع ذلك لستُ أسأل عن عدالة الأمر. أسأل إذا كنت تعتقد بأن إنساناً يجب أن يعاقب بعذابات ولده. إذا كان يجدر أن يتعذب طفل معاقبة لوالده على آثامه. أو على سوء إيمانه. إذا كنت تظن أن هذا صحيحاً. يبدو لي أن هذا يرتبط بالسؤال الذي كنا نناقشه قبل قليل. الجبرية. مصادفة الولادة». تكلم جاك بصوت منخفض، وبحذر، ضاماً أطراف أنامله إلى بعضها بعض بطريقة رجل تداني عقلانيته الحياد الشخصي. فكرت غلوري، إما أنه نسي أن آيمز فقد طفلة قبل سنوات طويلة، وإما أنه يوحي بأن وفاة طفلته كانت عقاباً له، وأنه كان آثماً أيضاً. كان ميل جاك إلى التصعيد حين يتعرض للأذية مألوفاً بما فيه الكفاية، ودائماً يرتدّ عليه. سعلت في راحة يدها، إلا أنه لم ينظر إليها.

بعد دقيقة قال آيمز: «طفل داود عاد إلى الرب».

قال جاك: «أجل سيدي، أفهم ذلك. لكن ما يرجوه المرء حقاً هو أن تكون للطفل حياة. هذا ما صلى داود من اجله. ويأمل المرء بأنه سيكون آمناً. أنه سيعرف ما هو أكثر من... المرارة. أظن. يرجو المرء بأن الناس

سيكونون لطفاء معه». رفع كتفيه.

قال آيمز: «هذا صحيح. في معظم الحالات». بدت كلماته حادة.

ساد صمت.

ثم قال والدها: «أوه!»، وغطى وجهه بيديه. «أوه، أنا رجل آثم جداً!».

همست ليلى بنبرة مؤاسية: «أوه، أوه».

قال جاك: «ماذا؟ لا، أنا...». نظر إلى غلوري، وكأنها يمكنها أن تفسّر المتعذر اجتنابه، اليقينية التامة، النابعة من المفاجأة المؤلمة.

قال والده: «ليلة ولدت كانت رهيبة! صليت وصليت، مثل داود تماماً. وشاركني آيمز الصلاة. وظننا اننا أخرجناك، أنقذنا حياتك، أليس كذلك؟ لكن الأمر ينطوي على ما هو أكثر من ذلك بكثير».

ابتسم جاك بانشداه يرثى له.

مال آيمز وربّت ركبة بوتون. «لنضع اللاهوت جانباً يا روبرت، إذا كنت رجلاً آثماً، فتلك الكلمات لا معنى لها على الإطلاق».

قال بوتون، من وراء يديه: «أنت لا تعرفني حقاً!».

هذا أضحك آيمز. استعاد العبارة وضحك ثانية «أظن أنني أعرفك حق المعرفة. أتذكر حين كانت جدتك تجرك في الطريق في عربة أطفال. بالطبع كان ذراعاك ورجلاك يتدليان منها. ربما كنت في العاشرة أو الحادية عشرة في ذلك الحين. مع تلك الطاقية المخرمة على رأسك. كانت والدتي تقول إنه سيكون منطقياً أكثر لو كانت السيدة في العربة وأنت تجرها».

«أوه مهلاً، لم يكن الأمر بهذا السوء. أظن أنني خرجت من العربة حين كنت في السادسة تقريباً. كنت أهرب حين أراها. باركها الرب

مع ذلك. كانت حسنة النية».

جلس العجوزان يحدقان في لا شيء بصورة خاصة، مثلما يفعلان حين يتذكران أمراً مشتركاً. راح جاك ينظر إليهما، امتياز الصداقة القديمة يطوقهما مثل غلاف محسوس. «لقد أنجيناه معاً يا روبرت وها هو هنا. لقد عاد إلى البيت».

قال بوتون: «وهذا كثير لأكون شاكراً له».

بعد قليل قال جاك: «'ها كل النفوس هي لي. نفس الأب كنفس الابن. كلاهما لي. النفس التي تخطئ هي تموت'»[1]، هذا حزقيال. إلا أن موسى يقول إن الرب 'لن يبرئ الآثم، وسوف يلقي بتبعات إثم الآباء في الأبناء، وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع'[2]، تساءلت إذا كان يمكنك أن تفسّر لي هذا التناقض».

ساد صمت. ثم قال بوتون: «إنه يعرف الكتاب المقدس».

«صحيح».

تنحنح بوتون «إذا اطلعت على قانون حمورابي، أظن أن دافيس[3]...».

أومأ آيمز مؤكداً: «إنه دافيس».

«... سوف تقرأ أنه إذا قتل رجل ابن رجل آخر، فيجب أن يُقتل

---

(1) سفر حزقيال، 18: 4. بيد أن الإشارة التي يرمي جاك إليها، كنوع من الحجة المضادة لكلامه السابق، هي في الآية السابقة: «ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل قائلين الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون. حيّ أنا يقول السيد الربّ لا يكون لكم من بعد أن تضربوا هذا المثل في إسرائيل.

(2) الكتاب المقدّس، سفر الخروج، 34: 7. يسبق هذه الآية القول إن الرب «حافظ الإحسان إلى ألوف. غافر الإثم والمعصية والخطيئة».

(3) إشارة إلى كتاب و. و دايفس الصادر عام 1906 بعنوان «قانون حمورابي وشريعة موسى»، والذي يرى فيه أن شرائع موسى مستمدة من قانون حمورابي.

ابنه. ذلك كان العقاب. كان حزقيال يكتب في بابل، مخاطباً أولئك المنفيين هناك. فأظن أنه على الأرجح كان يشير إلى الطريقة التي كان معمولاً بها في ذلك البلد، من قبل البابليين».

قال آيمز: «حزقيال يذكر بالفعل هذا المثل بين الإسرائيليين، الآباء يأكلون الحصرم وما إلى ذلك».

«إلا أن لغة المثل لا توحي بحد ذاتها بأن أي أحد ينبغي أن يطالب بمعاقبة الأبناء. أظن أنه في الوقت الذي كتب فيه حزقيال، لابدّ من أن هذا المثل كان يُفسّر بطريقة تبرر الممارسة البابلية». كان بوتون ينتعش حين يقيم حججاً من هذا النوع، متكلماً بلغة الحياة القديمة، ويضجر إلى حدّ السأم إذا استمر النقاش طويلاً.

قال آيمز: «صحيح أيها الموقر، ربما كانت هذه هي الحالة».

قال جاك: «شكراً لك. إذن لا يستطيع القانون معاقبة ابن على خطايا ابنه، إلا أن الرب سيفعل».

قال والده: «هناك فقرة في إنجيل يوحنا، الإصحاح التاسع، الذي يقول فيه الرب 'لا هذا أخطأ ولا أبواه'[1]، متكلماً عن الرجل الذي ولد ضريراً».

«أجل سيدي. لكن كيف نعرف أن ما يقوله الرب ليس محدداً لتلك الحالة؟ أو ما يعنيه هو أن الخطيئة لا يمكن دوماً أن تستدل من سوء الطالع؟ لا يقول حقاً أنه إذا أثم الأبوان، فلن يعاقبا بابنهما. كما أقرأ قوله هذا».

صمت مجدداً. ثم قال آيمز، وقد بدا الانزعاج عليه بجلاء: «صحيح

---

(1) إنجيل يوحنا، الإصحاح التاسع: 1–3: «وفيما هو مجتاز رأى إنساناً أعمى منذ ولادته. فسأله تلاميذه قائلين يا معلم من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى. أجاب يسوع: لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه».

أن الأولاد يعانون حين لا يكون آباؤهم صالحين. يستطيع أيّ كان رؤية ذلك. هذا المنطق السليم. إنه خطأ جسيم على ما أظن، تفسير عذاباتهم كفعل من أفعال الرب، بدلاً من أنه عاقبة لسلوك آبائهم نفسه».

قال بوتون: «حاولنا أن نعاملها[1] بالطريقة الصحيحة. أعرف أنه كان علينا أن نفعل أكثر من ذلك».

ابتسم جاك. قال بصوت شديد الانخفاض: «أنا رجل آثم حقاً. وفقاً لمعاييرك»، رفع كتفيه: «ووفقاً لمعاييري».

لوح بوتون بيده في إيماءة تعبر عن رفضه الاستفاضة في الموضوع. ساد صمت طويل. ثم قال: «هراء. لا علاقة للأمر بذلك».

«ولا أعرف لم أنا آثم. لا بهجة في ذلك. لي على الأقل. ليس الكثير من البهجة على أيّة حال».

غطى بوتون يديه بوجهه.

قال آيمز: «أظن أن والدك متعب».

إلا أن جاك أكمل، بنبرة منخفضة جداً: «أنا الهاوي هنا. لو كان لي تاريخكما مع هذا السؤال لكنت مللت منه أيضاً بلا ريب. حسناً لدي تاريخ معه. لقد تساءلت من وقت لآخر إن لم أكن مثلاً على الجبرية، نوعاً من الدليل. وإن لم أختبرها في شخصي. كان هذا ليكون مثيراً للاهتمام، لو لم تكن العواقب مؤلمة جداً. على أناس آخرين. لو لم أبدُ وكأنني أنشر عدوى من نوع ما. من سوء الطالع. أيمكن ذلك؟».

قال آيمز: «لا. لا يمكن. على الإطلاق».

«لا»، قال والده: «ليس كذلك فحسب».

ضحك جاك: «كم هذا مريح. لأن ارتباط البلايا بالآثام يبدو أنه

---

(1) الإشارة إلى ابنة جاك التي توفيت طفلة.

يصف شيئاً ما. والمعادلة تصحّ بصورة عكسية أيضاً. آثام الأبناء تحلّ بلايا على آبائهم».

كان صمت. ثم قال آيمز: «'إن لامتنا قلوبنا، فالله أعظم من قلوبنا'. هذا من رسالة يوحنا الأولى»[1].

هزّ جاك رأسه: «إنه يخاطب 'الأحباء'[2]، الكنيسة لا أستمتع بشرف الانتساب إلى هذه المجموعة».

«لا أعرف لَمَ تريد الإصرار على ذلك»، قال والده، «لَمَ تريد أن تعزل نفسك هكذا. لقد عمّدت ومنحت التثبيت الديني كأي شخص آخر. كيف يمكن أن تعرف هذا القدر من الكتاب المقدس في حين كل ما تفعله هو أنك ترفضه؟».

قال آيمز: «إنه لا يرفضه على وجه الدقة يا روبرت، لكن من الواضح أنه يفكر فيه ملياً».

«مع ذلك. يبدو لي هذا أقرب إلى الغرور».

قال جاك: «أنا آسف. لا أقصد قلة الاحترام. سؤالي هو، أثمة أناس يولدون شريرين ببساطة، ويعيشون حيوات شريرة، ثم يذهبون إلى الجحيم؟».

نزع آيمز نظاراته وفرك عينيه: «الكتاب المقدس ليس واضحاً حقاً بهذا الخصوص. بصورة عامة سلوك المرء يتوافق مع طبيعته، أي أن سلوكه متوافق. وهذا التوافق هو ما أعنيه حين أتكلم عن طبيعته».

ضحك بوتون: «هل ألمح شيئاً من المداورة في منطقك أيها الموقر أيزنهاور؟».

(1) رسالة يوحنا الرسول الأولى، 20:3.

(2) إشارة إلى الآية التالية مباشرة: «أيها الأحباء إن لم تلمنا قلوبنا فلنا ثقة من نحو الله».

قال جاك: «الناس لا يتغيرون إذن».

«بلى، وذلك بوجود عامل آخر، فلنقل الكحول. يتغير سلوكهم. ولا أعرف إذا كان هذا يعني أن طبيعتهم قد تغيرت».

ابتسم جاك: «بالنسبة إلى كاهن، فأنت محترس تماماً».

قال بوتون: «كان يجدر بك أن تراه قبل ثلاثين سنة».

«لقد رأيته».

«إذن كان يجدر أن تكون منتبهاً».

«كنت كذلك».

كان من الواضح أن آيمز بدأ ينزعج. قال: «لن أعتذر على حقيقة أن ثمة أشياء لا أفهمها. سأكون مغفلاً إذا حسبت أنه ليس من أمور كهذه. ولن أحول أمراً ملغزاً إلى هراء، لمجرد أن الناس يفعلون ذلك دوماً حين يتكلمون عنه. دائماً. ثم يحسبون أن الأمر الملغز هو هراء في ذاته. نقاش من هذا القبيل أسوأ بكثير من العبث برأيي».

قالت غلوري: «لم تنته دقائقك الخمس بعد». نظر إليها جاك بلطف، غير مبتسم تماماً، ضاماً أطراف أنامله معاً وكأنه ليس في العالم ما يسمى تلميحاً. فذهبت إلى الردهة وشغلت المذياع وحملت كتاباً وحاولت أن تقرأ، وحاولت أن تكف عن الرغبة في فهم كلمات كانت تبذل جهدها لكي لا تسمعها. الكنيسة المشيخية. الخلاص. كارل بارث. قرأت صفحة واحدة أكثر من ثلاث مرات من دون أن تمنحها أي اهتمام كاف لكي تتذكر أي شيء منها، وكان المذياع يبث مقدمة أوبرا وليم تل[1]، فوضعت الكتاب جانباً وذهبت لتقف بالباب.

قالت ليلى: «ماذا عن أن يجد المرء الخلاص؟». تكلمت بصوت

(1) من تأليف جواكينو روسيني.

شديد الانخفاض وتضرج خداها حمرة، وهي مطرقة نحو يديها المطويتين في حضنها، إلا أنها تابعت: «إن لم يكن المرء يتغير، فلا يبدو أن هناك جدوى من فكرة الخلاص. ليس هذا ما قصدت قوله حقاً».

ابتسم جاك: «بالطبع أنا نفسي حضرت عشرة اجتماعات كمتفرّج فضولي فحسب. لم أكن لأرغب بأن أجد خلاصي على ضفة نهر طيني في منتصف الليل. نصف الناس يذهبون إلى هناك لنشل بعضهم بعضاً، أو لكي يبيعوا الهوت دوغ...»[1].

قالت ليلى: «الفوشار بالكراميل...».

ضحك: «... غزل البنات. والجميع يغني...»، ضحكا معاً.

«... على إيقاعات أوكورديون قديم أو ما شابه...». قالت، من دون أن ترفع رأسها البتة.

«وكلهم يأتون من أجل يسوع. إلاي بالطبع». ثم قال: «من المذهل كيف لا يبدو العالم أفضل رغم هذا كله. إذا كان يحقّ لي أن أحكم».

«لقد أبدت السيدة بوتون رأياً سديداً جداً»، قال بوتون، بجدية. استشعر حزناً في آيمز كلما فكّر في الحياة الماضية التي لا يعرفها عن زوجته والتي ستعيشها بعده. «أجل، لقد قلقت زمناً طويلاً في المصالحة بين لغز الجبرية ولغز الخلاص».

«لا خلاصات؟».

«لا شيء أتذكره الآن»، قال «يبدو وكأن الخلاصات ليست مهمة قطّ كالأسئلة. أعني، ليست ما تتذكره». أغمض عينيه.

أخيراً نظر جاك إلى غلوري، وهي تقرأ في كتابها واجداً في ذلك،

---

(1) بعض الكنائس الأمريكية اعتادت التبشير من خلال جمع الناس على ضفاف الأنهار في طقس اجتماعي ديني، تنشد خلاله التراتيل وما إلى ذلك.

من الواضح، ما يقلق أو يزعج، لأنه قال: «أنا آسف، أظن أنني استفضت في هذه المسألة كثيراً. سوف أتخلى عن الموضوع».

قالت ليلى من دون أن ترفع بصرها عن يديها: «أنا مهتمة».

ابتسم جاك لها. «هذا من لطفك سيدة آيمز. لكنني أظن أن غلوري تريد أن تشغلني. لطالما قال أبي أن أفضل طريقة لإبعادي عن المتاعب هي جعلي مفيداً في عمل ما».

«انتظر لدقيقة فحسب»، قالت، وعاود جاك الجلوس في كرسيه، وشخص نحوها، مثلما فعلوا جميعاً، لأنها بدت تستجمع نفسها. ثم رفعت رأسها وقالت: «يستطيع الإنسان أن يتغير. كل شيء يمكن أن يتغير».

نزع آيمز نظارته وفرك عينيه. شعر بنوع من العجب حيال زوجته، بطرق كثيرة مجهولة من قبله، ويمكنه أن يتأثر فجأة بالماحة ما لم يرها من قبل عن أيام شبابها أو وحدتها، أو عن هواجس روحها.

قال جاك بإلحاح شديد: «شكراً لك سيدة آيمز. هذا كل ما أردت معرفته».

في الصباح التالي وصل البريد باكراً، فرأته أولاً، وكان جاك في الطابق العلوي. في السابق كان ينتظر في مكان ما، يتلبث لساعة حتى قبل الموعد المحدد لوصول البريد، بيد أن ذلك الرجاء الحاد القديم يبدو أنه خبا قليلاً. رسالتان لها من أختيها. وأربعة من رسائل جاك المعنونة إلى ديلا في ممفيس. كانت غير مفتوحة، وعبارة يعاد إلى المرسل مكتوبة على كل واحد منها، بخط عريض تحته خط توكيدي. وضعت المظاريف بالمقلوب على منضدة الصالة وذهبت إلى المطبخ لكي تسيطر على انفعالاتها.

بدأت غلوري تكره ديلا هذه. يجدر أن يكون لدى هذه المرأة فكرة وافية عن البؤس الذي تتسبّب به، إذا كانت تعرف جاك على الإطلاق. إذا سلمنا أنها ليست ملزمة بأن تقع في غرامه، لكن ببساطة لأنه هو مغرم بها. مع التسليم بأن إلحاحه قد يكون مزعجاً، وغير مرحب به لهذا السبب - فقد أوضحت ذلك حتى الآن بوضوح تام. لكنها قرأت معه روايات فرنسية، وطرزت أكمام قمصانه بالورود، بحق السماء. لا تضحكي وأنت تدخنين، قال لها، إذا كنت تحملين كعكة عيد ميلاد. لقد غسّل نفسه بالرماد. ثم كل هذا كان التطريز الملون شديد الدقة، الذي لم يكن رتياً بل تذكاراً. علام كانا يضحكان معاً؟ أياً تكن ديلا، فقد عرفته بما فيه الكفاية حتى تعامله بهذه الطريقة. أمكنها تجاهل رسائله لو أرادت. لكن هذه كانت قسوة.

بما أن غلوري رأت الرسائل، كان عليها أن تخبره بأنها أعيدت. فكرت في وضعها ثانية في صندوق البريد لكي يجدها بنفسه. لكن ما جدوى هذا كله؟ قد يفكر أنه يمكنه أن يبقيها سراً عنها، بما أن هذا كان ميله الأول، وعندئذ لن يمكنها التكلم معه عنها، وهو ما ظنت أنها يجب أن تفعله، على الأقل لكي تؤاسيه، إذا أمكنها التفكير بأي مؤاساة تستطيع تقديمها. أربع رسائل! لو عاد المزيد من الرسائل هكذا، فستحرقها. الفكرة وصلت. فكرت بأن تأخذ ثلاث من هذه الرسائل أو اثنتين وتخبئهما في مكان ما وتحرقهما عندما تسنح لها الفرصة، بما أن اثنتين ستكونان كافيتين لما تريد ديلا إيصاله. اثنتان ستكونان واضحتين إنما غير مهينتين على هذا النحو.

قد تقول له، ما أدراك بأن ديلا هي من أعادتها؟ لعله والدها. فالكتابة

على المظروف كانت عريضة جداً، تسمح بمثل هذا الاستنتاج. كان انطباعها عن ديلا أنها شخص ذو لمسة أخف، أنها تتمتع بقدر من الرقة التي لن تتخلى عنها ولو من باب أنها هي نفسها ليست واعية تماماً لها. لكن ما الذي تعرفه عن ديلا، سوى أن جاك ارتبط بها بعلاقة غرامية وكأنها سيدة فاضلة في كتاب قديم؟ شعر. زهور. بلا ريب. كل هذا مع حلاقة جديدة وحذاء ملمع وذلك الجو من السخرية المعتدلة التي يكتسيها كلما أحرجه صدقه.

هبط جاك الدرج وخرج إلى علبة البريد، ثم عاود الدخول ثانية. ذهبت إلى الرواق، وجد الرسائل حيث وضعتها. كان ظهره نحوها، إلا أنه أمكنها رؤية الصدمة تنتقل صعوداً إلى جسده. ثقل جسده على عقبيه، وضعية ركبتيه، ثم انتكاس كتفيه. قلب الرسائل بيديه. علم أنها تراه وقال: «أهناك المزيد من الرسائل المرتجعة؟».

«لا».

«لن تخفيها عني لو حصل ذلك».

«لا لن أفعل، أتمنى لو يمكنني ذلك».

هزّ رأسه.

قالت: «أردت أن أفكر قليلاً قبل أن أعطيها لك».

هزّ رأسه. «أي اقتراحات؟».

«حسناً»، قالت، «لم تخبرني الكثير عن هذا كله، لكن مما أخبرتني به، فكرت أنه ربما لا تكون ديلا من يعيدها. ربما كان والدها أو شخص آخر من عائلتها. أخبرتني بأنها تعيش مع عائلتها. هذا السلوك لا يبدو حقاً من شيمها، كما هو انطباعي عنها على أية حال».

هزّ رأسه: «وهذا انطباعي أنا أيضاً». وضع الرسائل على المنضدة

ثانية. التفت وابتسم لها «ليس هناك الكثير مما يمكن فعله، أليس كذلك».

قالت غلوري: «كنت أتساءل إذا كان لديكما صديق مشترك تستطيع مراسلته. ربما يستطيع الصديق أن يرسل الرسالة من قبلك، وعندئذ تقرأها. أعني، إذا كان والدها أو سواه يحول دون اطلاعها على رسائلك، قد تكون هذه طريقة للوصول إليها. قد يستحق الأمر المحاولة».

هزّ رأسه: «سأفكر قليلاً في الأمر.. لا ألومها مع ذلك. لا ألوم والدها، إذا كان هو من فعل ذلك. أفهم الأمر. إنهم أناس طيبون. عليّ فقط... أن أحترم أحكامها. أو أحكامه. لقد بتّ معتاداً على هذه الفكرة»، قال «لقد أرسلت رسالتين أخريين، وأظن أنهما سترجعان أيضاً. فإذا أحرقتهما أكون شاكراً لك».

«هل أحرق هذه؟».

هزّ رأسه. لمس المنضدة وكأنها ذكرته بشيء كان يهتم به يوماً، ثم رفع كتفيه: «لا أعرف حقاً ماذا أفعل بنفسي. أيّ اقتراحات؟».

خلال الأيام القليلة التالية أعيدت ثلاث رسائل أخرى. أضرمت ناراً متواضعة من قطع حطب صغيرة في المدفئة وراقبتها حتى احترقت جميع الرسائل تماماً. رآها جاك منحنية هناك. كان قد استعاد عادة ارتداء البدلة ثانية، فاتحاً السترة ومرخياً ربطة العنق في حرّ نهاية الصيف. تفرّج من الباب، ابتسم وهزّ رأسه لها، وابتعد حين حاولت أن تكلمه. كان لا يزال يتصرف بكياسة، وقد اكتست من جديد جوهرها، أي الخوف واليقين من أنه غير مرحب به، من أنه مصدر إزعاج، خارج مكانه.

ارتد إلى العزلة، عادته الأقدم. وكأنه عرف أن اضطرابه يجعله يبدو بعيداً، صار يغادر البيت في الصباح ولا يعود حتى المساء، متأخراً جداً على العشاء إنما في الوقت المناسب لكي يوفر على أبيه أسوأ مخاوفه. تركت بسكويت على النضد برجاء أن يضع بعضاً منه في جيبه، وفعل ذلك. وضعت كعك دقيق الشوفان الصغير والبيض المسلوق. وتركت له القهوة في تيرموس وبجانبه فنجان، الذي كان يغسله ويعيده إلى مكانه. بينما هو في الخارج كانت شديدة الانتباه للاهتمام بكل ما كان يساعدها به، لكي لا يضطر إلى الاختيار بين حرج التطفل عليها والألفة المفروضة لرفقتها. وصلّت له، هي ووالدها، تلك الصلوات الطويلة التي تنتهي بالامتنان عند سماعه يدخل من الباب.

خلال العشاء في الليلة الثالثة قال والدها: «لا أعرف ما الامر يا غلوري، لا أعرف ماذا جرى».

قالت: «إنه مغروم بامرأة يعرفها في سانت لويس».

«حسناً، لقد تصورت ذلك. كل تلك الرسائل».

«أوه». نزع نظاراته ومسح وجهه بمنديله. بعد برهة قال بصوت مبحوح: «فكرت أن هذا شيئاً من هذا القبيل يمكن أن يحدث. فهو بلا عمل. ولا أعتقد أنه تخرج يوماً في الجامعة. وليس يافعاً، ومن غير المرجح أن يغير حياته، ولا أظن أنها كانت حياة جيدة جداً. يمكنني أن أفهم لمَ المرأة قد...». تنحنح «حسناً، لا يمكنني القول إنني متفاجئ».

«لقد عرفها لسنوات. تلك السنوات العشر التي يتكلم عليها. يقول إنها ساعدته».

نظر إليها والدها. «ولم يتزوجا على الإطلاق؟».

«لا أعرف»، قالت. بدا والدها مكتئباً. وإذا ألقت على مسامعه

كذبة سيئة فهذا يعني أن شكوكه صحيحة، وهي على الأرجح لم تفلح يوماً في الكذب عليه. في الحقيقة الكذب في تلك العائلة يعني فحسب أن الكذاب يقدّر الكتمان. إذن، شفافية كذبة ما كانت تندرج في هذا السياق. لقد تجنّبت الحرج الذي يخصها والذي قد ينشأ من طرح الأسئلة عليها، من خلال بضعة شروحات كانت خاطئة بوضوح، ولم تختبر أو يعاد طرحها لهذا السبب. كنوع من اللياقة كانوا يعاملون أكاذيب بعضهم بعض كحقائق، وهو ما كان مختلفاً عن الخداع أو التعرض إلى الخداع. في الحقيقة كان جزءاً مهماً من نسيج التفاهم المتبادل الذي جعل أفراد عائلتهم متقاربين.

قالت شيئاً من الحقيقة في هذه الحالة لأنها شعرت بالمهانة نيابة عن جاك في حال أوحت أنه قد رمى نفسه ببساطة على امرأة ورفضته، وكأنه لم يكن يعي بأسف كما يمكن أن يكون أي شخص سواه بلا أهليته المطلقة. لابدّ من أنها حبيبته ديلا التي أبقته على قيد الحياة وعلى أية حال من جعلت العالم مكاناً محتملاً لزمن بالنسبة إليه، على نحو ما عجزوا هم عن فعله. أخبرها جاك بأنه كان قلقاً من افتضاح أمر علاقته بديلّا، وبأنه حاول الدفاع عن شرفها، وأدركت غلوري – حتى وهي تفعل ذلك – أنها ما كان يجدر بها أن تأتي على ذكر تلك السنوات العشر لوالدها. ومع ذلك كان يجدر بها أن تدافع عن جاك لكي لا يظهر بمظهر المغفّل. وديلا، أياً تكن، لم تعرف قيمته أخذاً في الاعتبار لقدراته، بحق السماء. يكفي هذا القدر من الكلام عنها.

كانت تعرف أنها ارتكبت خطأ جسيماً بمنح أسباب قلق والدها بعض الأساس من الواقع. فقالت: «السيدة ابنة كاهن».

هزّ والدها رأسه: «وجاك ابن كاهن»، ثم قال: «ليس من أطفال

بينهما»، كان هذا تصريح من النوع الذي يعني أنه لا يريد أن يسمع ما يناقض رجاءه.

«لا»، قالت. من حين لآخر تساءلت هي الأخرى حول ذلك.

استقرّ وجهه على تلك السيماء الحزينة التي تسيطر عليه حين يشعر بأنه مطلوب منه بعض التدخّل الأخلاقي. كانت سيماء حزن، بل حتى مرارة، لأنه الافتقار إلى أيّ مقاربات أخرى أو إخفاقه فيها هو فحسب ما يجعله يرتد إلى هذه الحالة، ولأنه يعرف أن نتيجة ذلك لم تكن يوماً إيجابية بصورة تامة. ربما كانت المشكلة أن جاك لم يستطع الإيفاء بالتزامات معينة. وإذا كانت هذه المسألة، فعلى عائلته التصرف حيال أولئك الذين التزم تجاههم. خاصة وأنهم هم أيضاً عائلة. كان على والدها أن يعرف طبيعة الوضع الذي يتعامل معه هنا، وإن كان أكيداً بأن جاك قد تأذى. أسئلته ستبدو اتهامات بصورة حتمية. يا للبؤس المتمثّل فقط في معرفته ما لا يريد أن يعرفه.

لو تزوج جاك تلك الفتاة ذات الوجه المنمّش، أو لو تمكنا على الأقل من الإتيان بها وبطفلتها إلى منزلهم، لعاد عندئذ إلى الجامعة ولأنهت الفتاة المدرسة وذهبت إلى الجامعة هي الأخرى في حال رغبت في ذلك. «تبدو ذكية بما فيه الكفاية»، قالت والدة غلوري. كان ذلك تفسيرها لعدوانيتها الشموسة السابقة لعمرها تجاه آل بوتون والذي لم يتزعزع بأي لطف أبدوه تجاهها. كانت فتاة صعبة، مفعمة بالكبرياء، عبوسة، وربما كرهتهم جميعاً على نواياهم الخيّرة، التي انطوت بالتأكيد على تفضّل، والتي تعكس وعيهم بأنه يمكن تحسين ظروفها، وأنها قد تستفيد فحسب من توجيهها بلطف إلى الطريقة المناسبة لرعاية طفلتها،

وإن تضمن ذلك التحكّم بها.

مرة أقنعت غلوري تلك الفتاة المنمشة بالمجيء إلى بيتهم لقطاف التفاح، كما قالت، وخبز فطيرة. كان اسمها آني. آني ويلر. خرجت إلى بوابة بيتها مرتدية على نحو ما ترتدي فتيات المدرسة أيام السبت، بالزي المدرسي والقميص الفضفاض، حاملة الطفلة على خاصرتها. ومضتا إلى جلعاد، من دون أن تبدي هي أي متعة في المشوار على متن سيارة مكشوفة السقف في عصرية مشرقة، أو في التوقف لإحضار أكواز الآيس كريم لكي تتناولاها أثناء الرحلة. الطفلة خربت كوز الآيس كريم الخاص بأمها داسة يدها فيه. قالت أمها: «انظري إلى نفسك الآن!»، ولحست لطخة من الآيس كريم عن ذقن الفتاة وعن راحة يدها.

كانت تلك فكرة غلوري. كان والداها قد ذهبا ليوم إلى حفل زفاف في تابور. لم تكن قد أخبرتهم بخطتها. وقادت بحذر شديد.

خرجتا إلى البستان، ووقفت الفتاة بصمت حاملة الطفلة على خاصرتها، متفرجة على غلوري وهي تقطف التفاح. حين قالت إنها قطفت ما فيه الكفاية للفطيرة لكنها ستقطف المزيد للفتاة كي تأخذه معها إلى البيت، أجابت الفتاة: «لدينا تفاح». حسناً، بالتأكيد يمكن أن يكون لديهم. كان ثمة أشجار تفاح في كل مكان لو فكر أياً كان في زراعتها مثل أجمات الليلك والكشمش والزيتونية والروند. دخلت والفتاة إلى البيت ووضعتا الطفلة في شعاع الشمس على أرض المطبخ. أعطتها أمها دمية أخرجتها من جيبها، وهي كناية عن «أزرار على خيط»[1]، وقالت: «في البيت لديها زجاجة حليب». فسكبت غلوري

(1) لعبة بسيطة يمكن صنعها في المنزل وهي كناية عن زرّ أو أزرار توضع في وسط خيط ويروح الطفل يبرم الأزرار بالخيط.

نصف ليتر من القشدة في كوب ماء وغسلته ووضعته على الأرض قرب الطفلة. انحنت الفتاة قربها وسكبت الأزرار المربوطة بالخيط من يدها في الزجاجة، ثم أخرجتها، فضحكت الطفلة وفعلت أشياء غريبة لمدة مع الدمية، وبدأت غلوري تعدّ العجينة، متكلمة بصوت عال وكأنما لتذكر نفسها بالنواحي الإيجابية من العملية، الحاجة إلى المقاييس الدقيقة. جلست الفتاة إلى الطاولة ترشف جعة الجذور.

ثم بدأ ظهر الطفلة يحدودب بفعل ثقل رأسها، ووقعت جانباً وبدأت تركل وتحدث جلبة. قالت غلوري: «آه الطفلة المسكينة!»، وحملتها وهدهدتها وقبلت وجنتيها الدامعتين. وأخذت الطفلة تكافح باكية تريد الابتعاد عنها بقوة ووزن فاجآها، مادة ذراعيها إلى أمها. أخذتها الفتاة ووضعتها على خاصرتها، وألقت الفتاة رأسها على كتفها وأخذت تمصّ يدها، متنهدة بارتياح. قالت الفتاة: «لستِ أمها فحسب، لا جدوى من المحاولة». لم تقدم أي إشارة بأن جهود غلوري بالتقرّب منها كانت أكثر من مجرد إزعاج حتى ذلك الصباح حين اتصلت بها وقالت لها: «أتمنى أن تأتي إلى منزلي. ثمة أمر ما بخصوص طفلتي». كانت قد مشت ثلاثة أميال لتجد من تستطيع استعمال هاتفه.

كان التهاباً، وكان ليشفى ببعض البنسلين، إلا أنه لم يكن هناك بنسلين في ذلك الحين، ولسنوات بعد ذلك. لم يكن خطأ أحد فعلاً. شيء مثل هذا كان يمكن أن يحدث حتى لو جاءت الطفلتان للعيش في جلعاد. كل عائلة لديها قصة ما يمكن أن تنتهي بصورة مختلفة لو كان هناك بنسلين. حزن خرافي – أحياناً يكتسب هيئة الشعور بالذنب، أحياناً يكتسب صفة اللوم، وفي أحيان أخرى فكرة أن كل هذا كان يمكن أن يحدث بصورة أخرى.

لكن كيف ورّط جاك نفسه مع الفتاة؟ كان هنا مكمن الخطأ، غير المفهوم، النهائي حتى على المسامحة. انتهاك رهيب لأي فكرة عن الشرف، قال والدها، ولا يزال يبدو لها كذلك، وله، بعد كل تلك السنوات. أعادتها ذكرياتها إلى المرارة القديمة، والمرارة ترقرقت في عينيه نصف المغمضتين وهو يفكر بحتمية خيبة أمله.

في وقت متأخر من المساء سمعا جاك يدخل إلى الشرفة. ربما توقع أن يكون والده في الردهة، قارئاً على مقعده الموريس. في الأمسيات الأخرى كان يكلم غلوري في أثناء مروره، ويحيي والده تحية المساء ويصعد إلى غرفته. ولكن هذه الليلة أبى العجوز مبارحة الطاولة. «سوف أنتظره. سوف أبقى هنا».

حين وجد العجوز ما زال في المطبخ حين دخل، توقف جاك، مستقرئاً الوضع مثلما يفعل دوماً، مدركاً أنه وقع في شبكة هزيلة من التصميم. نظر إلى غلوري، ثم وقف هناك ببساطة، القبعة بيده، وانتظر، بعيداً، مبدياً الاحترام متردداً.

«جاك»، قال والده.

«سيدي».

«أظن أننا نحتاج إلى التحدث معاً».

«التحدث».

«أجل، أظن أنه من الأفضل أن تخبرني عن أوضاعك».

هزّ جاك كتفيه: «أنا متعب. آمل أن أنام».

قال العجوز: «أنت تعرف جيداً ما أعنيه. أريدك أن تخبرني إذا كان ثمة التزامات معينة تحتاج إلى مساعدة عائلتك. أمور قد تكون حدثت

هناك في سانت لويس ولم تخبرني بشأنها. أمور تقلقك».

نظر جاك إلى غلوري. ها هو، مهما كان لطيفاً، حسن النية، التشهير الذي يمقته. غطى وجهه بيده، وقال بصوت شديد الانخفاض: «مرة أخرى».

«اجلس يا بني».

ابتسم: «لا»، ثم قال: «أخشى أن التزاماتي هي مسؤوليتي». كان حزنه الذي جعله بعيداً على نحو صبور.

قال والده: «إن التزاماتك هي مشكلتك إذا تمكنت من الوفاء بها. وإلا فإنها تصبح مشكلتي. يجب الاهتمام بالأمور. هذا لائق فحسب».

الولاء للأقرباء، متخيلاً كان أم حقيقياً، وحمايتهم، أكان ذلك ممكناً أم لا، كان فخر والده، أقوى غرائزه، وأكبر مصدر للاعتزاز عنده، والإحباط والقلق. استوى مستقيماً في جلسته لكي تتمتع كلماته بالقوة والإجلال اللذين أرادهما، بيد أن عينيه كانتا مغمضتين وفمه مرتخ، وجلوسه مستقيماً كشف كتفيه الضيقين ورقبته المتهدّلة. نظر جاك إلى والده وكأنه طيف كل الأسى والإنهاك اللذين كلفه إياهما، وهو لا يزال شجاعاً في ضعفه، مستعداً لأن يبتلى بالحزن مجدداً، لأن يثقل كاهله من جديد.

«لا، لا سيدي، في وقت آخر».

«تعرف أنه لن يكون هناك وقت آخر. إنك تخطط للرحيل الآن».

«قد لن أبقى هنا طويلاً. أحاول اتخاذ بعض القرارات».

مال والده جانباً. وقال: «كلي أمل بأن تقرر البقاء. أن تبقى لبعض الوقت».

قال جاك: «هذا لطف بالغ منك».

«لا، هذا أملي فحسب. سيكون لطفاً منك أن تفكر به قليلاً إذا كان في مقدورك ذلك. والآن ساعديني يا غلوري على الذهاب إلى السرير».

في صباح اليوم التالي غرز العجوز ملعقته في زبدية الحبوب قليلاً، ثم قال: «أريد أن أتكلم إلى آيمز. يمكنك أخذي إلى هناك بالدي سوتو».

كانت السيارة تعمل بصورة جيدة بما فيه الكفاية في المشاوير الصغيرة، وقد استعملتها غلوري لكي توصل آل آيمز إلى النهر لنزهة عيد ميلاد. لم يشعر والدها بأنه على ما يرام بما فيه الكفاية لكي يرافقهم في ذلك اليوم، وحين ذكرت الأمر لجاك ضحك من الفكرة «et ego in Arcadia»[1]... لكن على الأقل كل شيء مضى بخير بخصوص السيارة مما شجعها على استعمالها مرة أخرى. فكر والدها كثيراً بالدي سوتو، التي عنت له وعداً مفتوحاً بالحراك، مقدرة يمكن أن تكون هدية أيضاً لصديقه الحميم. لذا فإن تفكيره فيها كان منعشاً وسخياً ومريحاً. إلا أنه لم يستنسب ركوبها منذ اليوم الذي اصطحبهما فيه جاك بها إلى الريف.

قال: «ستكون السيدة آيمز والصبي هناك».

«سوف أصحبهما إلى السينما».

«جيد جداً».

رتبت غلوري برنامج اليوم وفقاً لما يناسب والدها، وبعد الغداء

(1) بالأصل باللاتينية، بمعنى أنا أيضاً كنت في أركاديا (أنا أيضاً كنت سعيداً وبريئاً)؛ وأركاديا هي منطقة في اليونان، عرفت في الأزمنة السحيقة بتلالها الخضراء وحدائقها الغنّاء، وقد اتخذت بعداً أسطورياً من خلال قصيدة فرجيل التي يصفها فيها وصفاً يوتوبياً.

ساعدته على هبوط الدرج وإلى السيارة. كان ثمة وحشة رنانة في البيت بوجود جاك بعيداً دوماً في مكان ما، وبدا مناسباً لها أن تخرج لبعض الوقت، وأن تبعد والدها عنه. مرت به بالكنيسة وبنصب الحرب التذكاري وتركته يتأمل الحدائق والأشجار، ثم أخذته إلى منزل آيمز وساعدته ثانية على الخروج من السيارة، والسير في الممشى، وصعود الدرج. بدا آيمز مجفلاً حين رآه ببابه.

قال العجوز: «أجل، ظننت أننا يمكن أن نعتني بواحدنا الآخر بينما تذهب الامرأتان إلى السينما. جئت إلى هنا بالدي سوتو».

جرّ آيمز كرسياً من الطاولة: «إلا إذا كنتَ تحبّذ الجلوس في مكان آخر».

قال بوتون: «لا، لطالما كان هذا كرسيي، أليس كذلك. مقعدي الكنسي». جلس وعلق عكازته على طرف الطاولة وأغمض عينيه. نزلت ليلى وروبي، الذي صفّف شعره وتوردت وجنتاه من الاغتسال. أخذتهما غلوري إلى صالة السينما الصغيرة البالية، حيث شاهدوا انتصاراً جيداً على الشرّ عبر مسدس وحفنة من الرجال: «اتلُ صلوتك!»، قال الشرير للمواطن المسالم العالق أمام جدار قناة. وفي اللحظة التي تسامح فيها مع أسيره، جاءت الجياد تخب خلفه وأجبر على إلقاء سلاحه. ذهل روبي واستمتع بهذا التحول في الأحداث، وهو كل ما كانت تأمله غلوري. مع إعلانات العروض المقبلة ونشرات الأخبار وبرنامج رسوم متحركة وفيلم قصير ثان ينتصر فيه الخير مجدداً، مرت أكثر من ساعتين لدى خروجهم يرمشون إلى ضوء الشمس ثانية.

كان العجوزان ما زالا جالسين إلى الطاولة، وكان جاك معهما. نظر إلى غلوري وابتسم: «لم أجد أحداً في البيت ففكرت أن خطباً ما

قد حدث. جئت إلى هنا...». لم تكن قد رأته منذ ثلاثة أيام، إلا حين يمر بها في طريقه من الباب، من دون أن يقول شيئاً، ناقراً قبعته وهو يغادر، أو يعبر المطبخ في طريقه إلى غرفته، قائلاً تصبحين على خير فحسب. لم يدر بخلدها قط أنه سوف يبحث عنهما. لو أنهم كانوا هناك لكانت ربما بداية أوقات أفضل. وحدها الفكرة أشعرتها بشيء من الفرح المكبوت. أرادت أن تنظر إليه، أن تطمئن إلى حاله، بيد أنه قابلها بابتسامة باردة. حسناً، لقد خانته. يا ربي، لم تقصد ذلك، وبمَ عاد يهم ذلك، ما دام والدها هنا يفضي بمكنوناته لآيمز ثانية، ويصارحه في إطار ختم الصداقة القديمة الذي يربط بينهما بشكوكه ومخاوفه، تماماً مثلما فعل في الماضي الموجع الذي لا ينتهي. كان الأمر سيئاً بما فيه الكفاية ليلة البارحة، الطريقة التي تكلم فيها إلى جاك، والآن هذا. إذا كان من بارقة أمل أخيرة فقد علمت أنها تتمثل في أن يجد طريقة ما يتكلم فيها مع آيمز نفسه، وحده. كانت مسرورة جداً بأن تخرج والدها من البيت وتمنحه راحة زيارة مطبخ آيمز - كم مضى من الوقت على آخر مرة؟ لم تفكر في الأمر. جلس والدها هناك فحسب مغمض العينين.

كان آيمز مرتاحاً بجلاء لرؤيتهم الثلاثة. روبي تسلق ركبته مليئاً بالطاقة المستجدة التي ولدها الفيلم للتو فيه. «يجب أن تذهب يا أبتاه. كان يجب أن تشاهده». نقر أسفل علبة «الكراكر جاك»(1) فوقعَ بعض الفتات الملتصق بها على الطاولة أمام والده «إنني أدخره من أجل توبي». ثم قال: «هاك»، ونزل عن حضنه وذهب إلى جاك وأخرج

(1) Cracker Jack: صنف من الوجبات الخفيفة الأمريكية يتكون من الفشار والفول السوداني المكسوين بالكريما.

بعض الفتات له «يفترض أن يكون ثمة جوائز هنا»، قال: «أترى أيّ جائزة؟».

أخذ جاك العلبة وهزها أمام الضوء ونظر فيها. قال: «أظن أنك لابدّ قد أكلتها».

ضحك روبي: «لا، لم أفعل».

«كنت مهتماً كثيراً بالفيلم فلم تنتبه. ربما كانت الجائزة دولاراً فضياً وأراهنك أنك ما كنت لتلاحظه».

«لا بل كنت سأفعل، سألاحظ دولاراً فضياً!».

«ربما كانت أفعى مطاطية على الأرجح. أراهن أنها كانت رتيلاء».

«لا، لم تكن كذلك»، قال روبي»، «دعني أر»، لكنّ جاك أبعد العلبة عنه واسترق النظر إليها، ثم أخرج شيئاً بين إصبعيه: «أنت فتى حسن الطالع حقاً، أودّ الحصول على واحدة من هذه».

«ما هي؟ ماذا؟».

«وضع جاك دمية صغيرة على الطاولة: «هذه»، قال، «إنها عدسة مكبرة».

نظر إليها جاك: «ليست كبيرة جداً».

«عليك أن تبدأ في مكان ما».

«أبدأ بماذا؟».

«بالبحث عن الأدلة. هاك. أظن أنني لمحت لطخة على كمّ قميصي. كيف تبدو لك؟».

أخذ روبي يحدق بها من خلال العدسة الصغيرة، ثم قال: «تبدو لطخة فحسب».

هزّ جاك كتفيه: «هاك إذن. أقفلت القضية».

ضحك روبي، وكذلك ليلى.

قال آيمز: «روبي، لِمَ لا تذهب وتجد طوبياس. سوف يرغب برؤية ما حصلت عليه». تردّد الفتى ثم غادر.

التفت جاك لكي ينظر إلى آيمز، نظرة رقيقة سئمة تعني: «أفهم لِمَ تفعل ذلك، لِمَ ترسل ولدك بعيداً».

لا ريب في أن آيمز وبوتون قد صليا للتو من أجل روحه، مغتابينه على الأرجح أمام السماء حول الحياة التي عاشها وخسرها، والتي يغرق في الحزن بسببها، راثيين هذه الحياة باسم الخطيئة أو كلمة ألطف اتفقا عليها. الإثم. الخزي. الالتزام الذي لم يوفّ. كان قد قاطع هذه الصلاة التي تستهدفه في الضوء البارد لشكوك والده، البريئة الجاهلة، وبالتالي المبالغ بها بكل تأكيد لكي تؤكد ضرورة شفاعته. دخل جاك بفكرة طاغية عن نفسه، مثل لعازر الذي ما زال يكتنفه أثر الكفن مهما حلق ذقنه أو صفف شعره.

قال: «سيدة آيمز، هل استمتعت بالفيلم؟ لقد رأيته بضع مرات أنا أيضاً. بيد أنني وجدت نشرة الأخبار مثير للاهتمام. غريبة بعض الشيء بالنسبة إلى عرض صباحي».

قالت ليلى مخاطبة بوتون وآيمز: «كانت رهيبة. رأينا قنبلة ذرية تنفجر وكل المباني التي يمكن أن تدمر بتأثيرها. كان ثمة دمى في الداخل، مثل عائلات تتناول العشاء. لا يجدر بهم عرض ذلك أمام الأطفال».

«لم يكن يجدر بهم صنعه في البداية»، قال بوتون «إنهم يحبون هذه القنابل. كل هذه الضوضاء». لم يكن قد فتح عينيه بعد. «جون فوستر دالاس».

قال جاك: «أجل دالاس. إنه رجل مشيخي محترم، كما فهمت».

أصدر بوتون صوتاً ساخراً: «هذا ما يقوله هو».

كان جاك جالساً طاوياً ذراعيه على صدره، كما يفعل حين يبدو مسترخياً. قال: «يصعّبون تربية الأطفال هذه الأيام. تصعب حمايتهم على ما أظن. ذرات ناتجة من الانفجار النووي في الحليب الذي يشربونه. يتوقع المرء ان محترماً مشيخياً كان ليراعي أكثر هذه الأمور. في سانت لويس قاموا بدراسة أسموها الأسنان الساقطة. أسنان الحليب الخاصة بالأطفال. وجدوا مواد إشعاعية فيها. كان ذلك مخيفاً. بالنسبة إلى أشخاص يحاولون تربية أطفالهم. هذا ما قرأته».

نظر آيمز إلى جاك، بنوع من اللوم: «ليس من دفاع يقدمه والدك عن جون فوستر دالاس. ولا أنا».

تمتم بوتون: «لكنه سيصوّت لآيزنهاور».

بعد برهة تنحنح جاك: «بعد الإقرار بأنني أنا نفسي لم أكن مثالاً للمسؤولية...».

فتح والده عينيه. وتابع جاك: «وبعد التسليم بأنني كنت خيبة أمل. بل أكثر من خيبة أمل. فمع ذلك».

نظر إليه والده: «لا، لم تكن كذلك. ما الذي تريد قوله؟».

قال ليلى: «أعرف قصده. الأمور غير منطقية. من الصعب على المرء أن يعرف من يجدر به أن يتخذه مثالاً. هذا صحيح».

«أجل. لا أقصد قلة الاحترام. لكنني أشعر أنني يجب أن أقول شيئاً دفاعاً عن الهامشيين بيننا. بسبب مسالمتهم النسبية. لأنهم ممثلو أنفسهم الوحيدون، بالطبع»، ابتسم، «لست أختلق الأعذار. لكن أولئك منا الذين يأخذون دقيقة من حياتهم الشائنة لكي يقرأوا الأخبار يمكنهم أن يجدوها كلها مضللة. وهذا خطأنا بلا ريب»، ثم قال: «أيها الموقر آيمز،

أرغب في سماع أي تبصّر يمكنك تقديمه لي».

نظر إليه آيمز وكأنما ليقدّر مدى جديته، وكأنه فوجئ باحتمال أن تكون أصلية، وقال: «هذا كثير للتفكير به».

«كثيراً ما يطرح الأمر. بين أناس أعرفهم. أناس يعيشون في أحياء ضيقة، وليس لديهم ما يفعلونه...»، ضحك.

ساد صمت. كان بوتون قد أغمض عينيه مجدداً. وأطرق رأسه. وبعد برهة قالت غلوري. «أظن أن البابا صار متعباً».

«أنا هنا. يمكنك أن تسأليني. ما زلت موجوداً بصيغة المخاطب».

«أأنت متعب؟».

«أجل. سوف أرغب بالعودة إلى البيت عما قريب. ليس الآن فحسب». لم يقل أحد شيئاً لدقيقة، ثم رفع العجوز رأسه: «أجل، يجدر بنا الذهاب إلى البيت».

توقعت غلوري أن يذهب جاك معهم، أملت بذلك، لكنه بقي في مكانه، وكأنه مرتاح على كرسيه، ولم ينظر إليها في عينيها. أخذت والدها إلى السيارة وساعدته على الركوب، مع ليلى، التي رافقتهما لكي تساعده على الخروج من السيارة وارتقاء درج بيته. وبعد أن وضعت العجوز في السرير لنيل قيلولة، اتصلت غلوري بآيمز لتقول له إن ليلى ستبقى وتساعدها على إعداد العشاء. العشاء سيكون جاهزاً بعد نحو ساعة، لكنه يستطيع المجيء وجاك متى رغبا في ذلك. وبعد نصف ساعة دخل آيمز بمفرده. قال إن جاك سيأتي بعد قليل، وانتظروا العشاء حتى برد قليلاً، وأكلوا بصمت.

سأل والدها: «أتحدثت وجاك أي نوع من الحديث؟».

قال آيمز: «ليس حقاً. أظن أنه أراد أن يتكلم لكنه لم يستطع دفع نفسه

إلى قول ما يجول في خلده. بقي بضع دقائق فحسب بعد عودتكم إلى البيت».

«ألم يعط أيّ إشارة إلى المكان الذي سيذهب إليه؟».

«قال إنه قد يتأخر».

أصاخت غلوري السمع طوال الليل علها تسمع صوت الباب وهو ينفتح، وارتدت روبها مرتين وخرجت لتلقي نظرة على الحظيرة، والسيارة، والسقيفة، والشرفة، إلا أن والدها سمعها ونادى، نادى جاك، ظاناً بلا ريب أنه سمع صوت جاك. من الأفضل تركه يظنّ ذلك. تسللت إلى غرفتها وبقيت فيها حتى الصباح.

قال لها والدها ألا تزعج نفسها بتحضير الإفطار، إلا انها أعدت له القهوة ووضعت التوست بالمربى والصحيفة على منضدة المصباح قرب سريره، وكأن هذا واحداً من الصباحات الاعتيادية. بذلت قصارى جهدها لكي تجعله مرتاحاً. كان مضطرباً بسبب تأخّر جاك.

قالت: سوف أذهب قليلاً»، وهزّ رأسه. لم يسألها شيئاً، مما يعني أنه يعرف كل شيء.

قال: «يحسن أن تذهبي».

لبست ثيابها وفرّشت شعرها. ثم ألقت نظرة على غرفة جاك، فوجدت سريره مرتباً وكتبه وملابسه وحقيبته ما زالت هناك. وجدت مفاتيح السيارة حيث تركتها، على حافة نافذة المطبخ.

فكرت أن جاك قد يكون وجد طريقه ما للخروج من البلدة، مستوقفاً إحدى السيارات العابرة، وإذا لم تجده في جلعاد، فسوف تبحث عنه وصولاً حتى فريمونت، فقط لترى إذا كان هائماً في الشارع.

وإذا تأخرت فستتصل بليلى وتطلب إليها أن تعتني بوالدها. ساعتان لكي تصل إلى هناك وتعود، كحد أقصى. سيكون والدها صبوراً قدر ما يستطيع، خاصة وأنه يعلم بسبب مغادرتها.

دست المفاتيح في جيبها وخرجت إلى الحظيرة. فتحت الباب ودخلت إلى المكان الرطب نصف المعتم. وإذا به هناك، يقف مسنوداً على السيارة، وقبعته منسدلة فوق وجهه، ضاماً طيتي سترته بإحدى يديه. مدّ يده باتجاهها، بترو، عند مستوى خاصرته تماماً، وقال: «قرش سيدتي؟». كان يبتسم، وقد طفا على وجهه ملمح سحر فاسق، سحر منهك، سحر ذليل، صدمها.

«هذا أخوك»، قال «أخوك جاك من دون قناع».

«أوه يا ربي العزيز! أو يا رب السماء»، قالت.

قال برقة: «لا حاجة إلى البكاء حول ذلك. مجرد مزحة صغيرة. نوع من المزحة».

«أوه ما الذي سنفعله؟».

رفع كتفيه. «كنت أتساءل أنا أيضاً حول ذلك. لا يمكن أن يراني هكذا. أعرف هذا على الأقلّ».

«حسناً، أين قميصك؟».

«أعتقد أنه مع جوربي. يبدو أنني حشوتهما في عادم السيارة. القميص يتدلى منه، الكمّان. ما عاد يناسبني الآن».

قالت: «أحتاج إلى الجلوس». سمعت صوتها وهي تنتحب، ولم تتمكن من التقاط أنفاسها. استندت إلى السيارة طاوية ذارعيها على السقف وأخذت تبكي، بقوة شديدة بحيث أنه لم يمكنها سوى الاستسلام لهذا البكاء، وإن منعها ذلك حتى من التفكير بما تفعله بعد

ذلك. أخذ جاك يحوم بثبات على مسافة منها، ممتلئاً بالأسف الثمل.

«أرأيت، كنت محقاً بأنني أعطيتك المفتاح»، قال، «أظن أنني حاولت تشغيل السيارة من دونه. وقد تسببت ببعض الضرر. أنا مسرور لأنني لم أزعجك لأخذ المفتاح. لا أتمتع دوماً بالتفكير السليم. حين أشرب».

قالت: «سوف أضعك في المقعد الخلفي، ثم سآتي ببعض الصابون والمياه وغيار من الملابس، لكي نتمكن من إعادتك إلى البيت. يمكنك التمدد هنا وانتظاري. ابقَ هنا الآن. سأعود بسرعة».

كان منصاعاً بحرج وسأم وارتياح. تمدد على المقعد ورفع ركبتيه لكي تتمكن من غلق الباب.

حين دخلت إلى البيت ناداها والدها: «هل جاك هنا؟».

«أجل أبي إنه هنا». لم تتمكن من السيطرة كلياً على صوتها.

كان صمت «أظن إذن أننا سنراه على العشاء الليلة».

«أجل، أظن ذلك». صمت آخر. كان العجوز يمنحهما وقتاً، مهلة، كابحاً فضوله وقلقه وغضبه وراحته أيضاً، حتى تعالج الوضع، أياً يكن هذا الوضع. أخذت ملاءة وبطانية ومنشفة صغيرة لمسح الجسد وأخرى كبيرة من خزانة المناشف في أعلى الدرج وأخذت دلواً من خزانة المكانس، وشطفته، وملأته بالمياه الحارة. خشيت أن يسمع والدها حركتها الطارئة هذه، إلا أنه من الواضح استجمع شجاعته على الصبر – مرة أخرى، يا ربي العزيز، فكرت. رمت لوح صابون الغسيل في الماء وحملت الأشياء التي جمعتها إلى درج الشرفة.

والآن ماذا. جرت واحداً من كراسي «أديرونداك» من جانب الفناء إلى خلف الحظيرة. كانت مخفية عن الجيران بأجمة الليلك، كانت الشمس ساطعة هناك، بيد أن الطقس معتدل بما فيه الكفاية. أخذت

الملاءة معها إلى الحظيرة عبر الباب الجانبي.

«جاك»، قالت، «جاك أريدك أن تخلع ملابسك وتلف نفسك بهذه الملاءة وتأتي إلى الخارج. سوف ننظفك. أسمعت ما قلته».

تأوه وأنهض نفسه ونظر إليها مغمضاً عينيه نصف إغماضة.

قالت: «سأساعدك. سأحضر لك غياراً. سوف تشعر بأنك أفضل حالاً بكثير».

هزّ رأسه: «أظن أنني أفسدتُ ملابسي».

«سوف أهتم بهذا الأمر. لكن عليك أن تعطيني إياها. ثم سأحاول تنظيفها».

نظر إليها. «ما زلت تبكين».

«لا تقلق بهذا الشأن».

«أنا آسف. آسف جداً».

«لا يهم». أخذت ذراعه وساعدته على النهوض، وأسندته على جانب السيارة. «أعطني معطفك»، تحت المعطف كان عاري الصدر. صلب ذراعيه وضحك بنوع مرير من الحرج.

«ربما يجب أن أحصل على قسط من النوم». همّ بفتح باب السيارة.

أقفلته ثانية «ليس لدي اليوم بطوله. عليّ التفكير بوالدنا. إنه قلق حتى الموت. أمسك هذه». ناولته طرف الملاءة ولفّت البقية حوله، تحت ذراعيه تماماً «الآن سوف أنتظرك في الخارج. وضعت كرسياً لك في الخارج حيث لن يراك أحد».

«أفلحت في أن تفوح مني رائحة الموت على الأقل»، قال، «هذه تبدو مناسبة جداً. ماذا تسمى؟ كفناً».

«أوه»، قالت «ماذا يجب أن أفعل بك؟ قل لي ماذا أفعل!».

«أتمنى أن تكفي عن البكاء»، قال «أمهليني قليلاً هنا. أعرف أنك تريدين مساعدتي يا غلوري».

خرجت وانتظرت، وظهر بعد قليل، حافي القدمين، يرمش أمام الشمس، شاحباً تماماً وهزيلاً. جلس على الكرسي وأحضرت له الدلو والمياه المختلطة بالصابون وقطعة القماش وبدأت تغسله ابتداء من شعره ووجهه ورقبته وكتفيه، عاصرة قطعة القماش مرة بعد مرة، فاركة ذراعيه ويديه، اللتين تلطختا بالشحم وتجرّحتا. سوف يلاحظ والدها ذلك.

«الخزامى»، قال.

أمالته إلى الأمام لكي تغسل ظهره. ارتخى رأسه فوق صدره. قال: «عملت ذات مرة في براد للموتى، لفترة وجيزة».

قالت: «هذا جيد».

«أجل. لم أنزعج من ذلك. كان الجو هادئاً».

«لست مضطراً إلى التكلم».

«ثم أحضروا أحد الموتى. كان ملفوفاً بملاءة. غريب تماماً. وكان ثمة ورقة ملصقة في إصبع قدمه بشريطة حمراء. كانت إشعاراً بالدين واسمي عليه. توقيعي. الناس يبيعون هذه الإشعارات لقاء جزء من قيمتها». نظر إليها: «أسمعت عن هذا؟ شخص آخر لديه توقيعك. لا تعرفين ممن يجب أن تخافي».

«هذا مخز»، قالت بما أنه بدا آملاً بأن تشاره إحساسه بالجرح.

ضحك: «لم أعرف حتى بكم كنت مديناً. في تلك الأوراق. لم أكتب واحدة يوماً وأنا صاح. لا يمكن أن يكون المبلغ كبيراً. لم أكن كما تعرفين موضع رهان كبير».

«على الأرجح لا». يجب أن تحاول أن تحلق له ذقنه التي تجعل وجهه يبدو شاحباً، وشحوبه يجعل ذقنه تبدو داكنة».

قال: «أظن أنهم رغبوا فحسب بأن يخيفونني.. أنا عصبي المزاج. لا يجب أن تدعي الناس يعرفون ذلك عنك. لكنهم يتصورونه على أية حال».

قالت: «كان عليك أن تأتي إلى البيت».

ضحك «ربما»، قال: «لقد أخفقت في الحياة الوضيعة. لكن ليس بسبب الافتقار إلى... عيشها».

«أنا أكيدة من ذلك».

اجلسته مستقيماً ثانية على الكرسي وجففته ولفته بالبطانية، ووضعت إحدى قدميه ثم الأخرى في دلو الصابون «هذا أفضل ما يمكنني فعله حالياً. أأنت مرتاح؟ أيزعجك الضوء؟».

«لا بأس بي. أفضل بكثير. ربما كأس ماء؟».

«أجل، سأجد بعض الثياب لك. سيكون عليّ الدخول إلى غرفتك، موافق؟».

بدا أنه يغيب عن السمع ثم يجفل مستيقظاً «سترتي...»، قال.

«إنها هنا». جاءت بها وعلقتها على ظهر الكرسي. ثم أخرجت العلبة الجلدية الطويلة من جيب صدر السترة وبعد أن جففت المكان جيداً، وضعتها على ذراع الكرسي.

قال: «شكراً لك غلوري»، وغطاها بيده وأغمض عينيه ثانية.

«سوف أحضر بعض ملابسك من غرفتك فحسب، إن لم يكن لديك مانع».

قال: «ربما لاحظت زجاجة أو اثنتين هناك»، ضحك «كنت أفتح مقعد البيانو مؤخراً».

«ابقَ هنا، سوف أعود فوراً».

كانت قد توقفت عن البكاء، لكنها احتاجت إلى الجلوس على الشرفة. وضعت رأسها بين ركبتيها. تخيلته في تلك الحظيرة الباردة القديمة في منتصف الليل، حاشياً جوربيه البائسين في عادم الدي سوتو، ثم، لكي ينجز العمل جيداً، حاشياً قميصه. كان يرتدي قميصه المفضّل، ذلك الذي طرّز كمّه بذلك التطريز الرائع. كل الرثاثة الثملة والإحباط، يداه الرثتان، كل ما يمكنه الوصول إليه في المحرك، قام بنزعه. عليها ألا تتركه وحده أكثر من خمس دقائق، لكن والدها بحاجة إليها أيضاً. تستطيع استدعاء ليلى. ليس بعد. كانت عائلتها أبطأ في مسامحة الإخفاق في الكتمان أكثر مما في معظم الأشياء المحظورة فعلياً في الكتاب المقدس. إذا كانت أفكار جاك عن الخصوصية لا تختلف كثيراً عن السرّية، فهذا سبب إضافي لكي تحاذر إهانته.

أهذا ما كانوا يخشونه دوماً، أن يرحل حقاً، أنه سوف يضع نفسه أبعد من متناول العون والأذية، أبعد من الوعي بالذات وكل إذلالاتها، من كل تلك الوحدة والغضب المكبوت وكل ذلك الخزي المضطرم، ومن ولائهم الذي لا يكلّ ولا ينتهي تجاهه؟ يا ربي العزيز. لقد حاولت أن تعتني به، أن تساعده، ومن وقت لآخر أوهمها أنها أفلحت في ذلك. عادتها القديمة تلك، بأن تسرّ نفسها من فكرة أنها يمكن أن تكون مخلصته، حين لا يكون هناك سبب كبير للاعتقاد بأن الخلاص يحوز على أي جاذبية خاصة في عينيه. ذلك الوهم القديم أنها يمكن أن تساعد والدها حيال الأسى الذي تسبب به جاك، الأسى الذي هو جاك، في

حين أبعد من متناول يديها بكثير أن تسكّن أو تلطّف أمراً جللاً وكأنه خيانة يهوذا الإسخريوطي. كانت وحيدة مع والديها حين رحل جاك، وكانت وحيدة مع والدها حين عاد. كان ثمة تواز في ذلك ربما بدا لها مقدّراً وأمدها بالإيحاء بأن قدريهما متداخلين فعلاً. أو أن عودتها إلى ذلك البيت الصامت قد تعيدها ببساطة إلى حالة عقلية تنسجم أكثر مع نضوجها. تلميذة وحيدة في الثامنة والثلاثين. الآن، كان ثمة فكرة مؤلمة.

تذكرت لحظات معينة أمكنها فيها أن ترى أن جاك انسحب منها وأخذ ينظر عبرها أو إلى ما بعدها، مقدّراً من جديد مسألة الثقة بها، ربما، أو مدى فائدتها، أو ببساطة فاقداً فجأة الاهتمام بها، جنباً إلى جنب أي شيء حدث حينذاك فحسب لكي تكون حاضرة ومباشرة. لم تجد تلك اللحظات ثابتة على إيقاع واحد، لا شيء يمكنها تحليله. كان هو ذاته. هذا ما قاله والدهم دوماً، قاصداً به أن جاك حشر في تيار تصميهم ونيتهم الطيبة، عاداتهم ويقينياتهم، ولم يكن يوماً جزءاً من ذلك فعلاً. لقد أكل من طعامهم ونام تحت سقفهم، وارتدى ملابسهم، وتكلم بلهجة العائلة الدينية المحبة لنفسها بعض الشيء، وعلى حدّ علمهم، لم يكن يقصد أي تهكّم حين صار كبيراً بما فيه الكفاية وبات قادراً ممارستها، وأن يكون موضع ارتياب بسبب ممارسته لها. لقيط، فكرت، وإن أبصر النور في ذلك البيت بعد ولادة كانت خطرة عليه وعلى أمه، مما سبب الرعب لأختيها الكبريين منها إلى درجة أنهما لسنوات خشين الحياة الزوجية. أوه، كانت وحشته تلك التي لم يستطع أحد منهم نسيانها، تلك المسافة المتهكمة، وكأنه مسكون بجرح ناشئ من حقيقة أنهم كانوا جميعاً متجذرين في حياتهم بطريقة لا يسعه أن

يعيشها. كانت تشعر بشبه خيبة أمل لأنها لم تستطع أن تغضب منه. كاد يتسبّب بنهاية رهيبة لشيخوخة والده. كان ذلك سيكون مصدر أسى رهيب ودائم للعائلة كلها، أن يرتد كل صبر العجوز وأمله عليه بهذه الطريقة عديمة الرحمة. كم أنها ولا ريب مستسلمة لغرابة جاك المستحكمة حتى تسامحه على أمر بالغ الخطورة، أن تسامحه كلياً وتقريباً على الفور. جميعهم فعلوا ذلك، وقد فهم لماذا، وضحك، وأخافه ذلك. فكرت، لن أسامحه لساعة أو اثنتين.

أخذت له كوبه من الماء. كان شبه غاف في شعاع الشمس، يتصبب عرقاً. فتح عينيه، قليلاً فحسب، بيد أنها رأت فيهما وميضاً من يأسه المألوف الساخر من نفسه: «لقد نسيت كم أنني أتعرق. هذا مقرف».

وضعت قدمه على المنشفة وسكبت المياه المتسخة من الدلو وعادت إلى المنزل وملأته. وجدت إسفنجة. أخذتها مع الدلو إلى الخارج وبدأت تحممه ثانية، شعره، الذي بدا خفيفاً بصورة مفاجئة وهو مبلل، ووجهه – وجهه المحبوب المفجوع. آه جاك، فكرت. بدا أشبه بمعدم، كأحزن التخيلات التي راودتها عن أسوأ شيء يمكن أن يحدث له، إلا أنه كان يتنفس ويتعرّق، متوتراً قليلاً جراء لمسها له.

قال: «يمكنني فعل ذلك، لست مضطرة إلى ذلك».

فناولته الإسفنجة وذهبت إلى الداخل وأتت بالشفرة ومعجون الحلاقة «عذراً»، قالت، ورفعت ذقنه. دلقت الرغوة في يدها ومسحت بها حنكه.

تأمل وجهها: «أنت غاضبة».

«هذا صحيح».

«لا يمكنني القول إنني ألومك».

«لا تتكلم».

أشاح ناظريه. كان ثمة حزن على محياه، نوع من الذهول. أيمكن أن يكون متفاجئاً؟ أم أنها ليست إلا صدمة إيجاده نفسه في هذا العالم، وقد دمرت كل دفاعاته وبدت صديقته الوحيدة تائهة عنه؟

قالت: «افعل ذلك الشيء بشفتك». فشدّ شفته فوق أسنانه وحلقت الشعر فوقها. «الآن ذقنك». وفعل الأمر نفسه. رفعت ذقنه وحلقت له حلقومه. ثم مسحت الرغوة بالإسفنجة وأخذت تنظر إليه.

«جيد بما فيه الكفاية»، قالت. كان مريحاً أن تراه أكثر شبهاً بنفسه. رفعت شعره عن جبينه. بدت رقة هذه الحركة كمصدر راحة له. فقبّلت وجنته.

قال: «ما كنت لأفعل ذلك قطّ لو كنت صاحياً. لا أتذكر حتى... أي شيء...». نظر إلى يديه وكأنما ليؤكد لنفسه أنه حدث.

«انتهى الآن».

ابتسم لها وكأنه يقول، لا لم ينته، ولن ينتهي. قال: «أنا آسف لأنك رأيتني على هذا النحو».

«يسرني أنه لم يكن أسوأ».

هزّ رأسه «الآن أنت تعرفين... نواحي أخرى من شخصيتي».

قالت: «دعنا لا نتكلم».

«حسناً».

«لم أجلب بعد الملابس لك. لقد جعلتني متوترة من دخول غرفتك. هلا أعطيتني الإذن؟».

ضحك: «أجل أعطيك الإذن».

دخل إذن إلى الحظيرة وارتدى ملابسه وخرج بسروال والده الأسود وقميصه القديم الرائع، طاوياً كميه بسبب عدم وجود أزرار لهما. انزعجت لنسيانها إحضار جوربين له. سارا معاً إلى الشرفة، هو خلفها، وكلاهما بلا ريب لا يشبهان البتة شخصين عاديين لم يعيشا ساعات من القلق والإنهاك معاً. هذا لو رآهما أحد، لا سمح الله. أصاخت السمع لصوت تنفسه وخطوه على العشب، وأياً منهما ما عاد يمكنها أن تأخذه كأمر مسلم به، إذا كانت قد فعلت يوماً.

سمعا أصواتاً آتية من الطريق. فتوقف واستدار كأنما لكي يواجه محنة أخيرة لا تخطر على البال. «لا علاقة لهذا بنا»، قالت، وأومأ برأسه وتبعها ثانية على الدرج إلى الشرفة.

«أهذا جاك معك؟»، نادى والدهما، وقالت: «نعم أبي»، وابتسم جاك لها وهزّ رأسه. كان صاحياً بما فيه الكفاية لكي يعرف أن التكلم ليس شيئاً يمكنه المجازفة به. صعدا الدرج، وفتحت ستارة نافذته وجلبت كأساً من الماء لتضعه على النضد قرب السرير. وجدت جوربين في منضدة الزينة ووضعتهما بجانب الماء. نام على بطنه ولفّ وجهه بالوسادة. كان مرتاحاً للاستلقاء على سريره، وكأنه يعود إلى البيت بعد زمن طويل إلى نوع من الراحة التي تعني: كل ذاك قد انتهى الآن، أو الآن على الأقل أعرف أنه سيكون منتهياً لبعض الوقت.

غسلت وجهها، ومشطت شعرها، وبدلت ملابسها ونزلت إلى الأسفل لكي تعتني بوالدها. قالت: «إنه ينال قسطاً من الراحة».

كان العجوز شديد التيقظ. عرفت أنه جلس هناك، مفسراً الأصوات، مفسراً حركتها العجولة وتطميناتها المجهدة، ثم خطوات جاك البطيئة على الدرج، خلفها. وكان ليحلل عينيها المحمرتين أيضاً لو نظر إليها.

سألها: «أهو بخير؟».

«أجل، كل شيء بخير».

أغمض عينيه. كان ساكناً وكأنه استهلك آخر رمق في حياته وهو يستجمع نفسه لقبول هذا الصليب. كان حنكه مرخياً قليلاً، وفكرت للحظة رهيبة أنه ربما فارق الحياة، إلا أنه حرك يديه فوق اللحاف وعرفت أنه نائم فحسب.

لم تقو على النوم في ظلّ تعبها ذاك. شعرت بالوحدة، بالوحشة. وجدت علاقة معاطف في الخزانة الأمامية وسوّت السلك بشكل مستقيم، وخرجت إلى الحظيرة. أخرجت قميص جاك من العادم. كان قد تمكن من حشو طرفه فحسب، وتدلت بقيته على الأرض، التي هي طين شحمي من الرطوبة الدائمة وفضلات الحيوانات ورشح الآلات، الحياة القديمة والاستعمال القديم الذي استمرت آثاره أكثر من ذكراه. أخرجت بالسلك جورباً ثم الثاني. إذن، فالدليل على ما انتواه قد أزيل، وأراحها ذلك، وكأنها الآن يمكنها الكفّ هي نفسها عن تصديق ما جرى برمته. وضعت الجوربين في المدفئة، فأضرما ناراً مكبوتة. ثم ملأت المغسلة بالمياه وراحت تحف القميص، محاذرة لئلا تفسد التطريز. وجدت أنه من الأفضل نقعه لبعض الوقت. ارتقت الدرج بأكبر قدر من الهدوء، ودخلت إلى غرفة جاك. وجدت زجاجتين من الويسكي في الدرج السفلي، كما قال لها. حرك رأسه ورفعه ونظر إليها، منزعجاً، إلا أنه كان نوماً مضطرباً، لا صحواً. أخذت الزجاجتين إلى البستان وأفرغتهما على الأرض ثم وضعتهما في السقيفة. ثم عادت إلى البيت الصامت. ذلك القميص. يجب إبعاده عن الأنظار. عصرته من الماء

ووضعته على علاقة، وحملته إلى السقيفة حيث علقته على مسمار في الجدار وراء الباب.

كيف تعلن عن عودة الارتياح والسعادة إلا بطبخ شيء ضوّاع. هذا ما كانت أمها تفعله دوماً. بعد كلّ مصيبة ذات وزن ما، كانت تملأ جو البيت بلفافات عجين القرفة أو البراوني، أو بالدجاج والزلابية، وهذا يعني أن هذا البيت له روح تحبنا جميعاً، في أية حال من الأحوال. يعني السلام إذا كان ثمة عراك، والصفح إذا كانوا في مشكلة ما. كان يعني يمكنك المجيء إلى العشاء الآن، ولن يتفوه أحد بما يزعجك، إلا إذا نسيت أن تغسل يديك. وكان والدها يتلو صلاة المائدة المحتومة مع تغييرات صغيرة، شاكراً الرب على كل الوجوه الرائعة التي يراها حول الطاولة.

تمنت أن يكون يعني أكثر حبهم، هم الثلاثة، لبعضهم بعض. أو أن يعني أقل، بما أن الإحساس بالذنب وخيبة الأمل بدا يتغذى على الحب. ها هما والدها وشقيقها طريحا الفراش بفعل الأسى، وكأنه مرض، وليس لديها ما تفعله لهما أفضل من الدجاج والزلابية. إلا أن فكرة أنها تستطيع التواصل معهما في نومهما المضطرب عبر ذكرى الراحة، رفعت معنوياتها قليلاً. ثمة دجاجة صغيرة في الثلاجة، وجزر أيضاً، وإكليل الغار في الخزانة. وخميرة الخبز. وسوف ترسل لها ليلى مع روبي كل ما تفتقر إليه، أكثر وعياً من أن تسأل لمَ لا تذهب غلوري أو جاك إلى المتجر بنفسهما. ليلى الطيبة. ربما تعرف وصفة ما بسيطة شائعة لما بعد الثمالة، يد باردة على جبين جاك توقظه من النوم المتعرق، وكأنه يمكن تنحية توبة أحدهم بغفران آخر له. لو كان ثمة شيء كهذا، لكان جاك يعرفه ولطلبه منها، إلا إذا كان البؤس هو الطريقة التي يكلّم فيها نفسه،

إلا إذا قصد أن يجند جسده كله في عمل البؤس. سيكون ثمة صواب أن يطاول الأسى كل عصب من أعصابه. مهما تكن تجربتها قليلة، فهي تعرف ذلك حقاً. وتعرف أنه سينام لساعات ويصحو مستغلقاً كئيباً.

فغسلت الدجاجة ووضعتها في الماء مع الجزر وبصلة وإكليل الغار. الحيوان الصغير المسكين. هذه الحياة على الأرض شأن غريب.

جلست بجانب المذياع المدمدم، محاولة أن تجد في نفسها ما يثير اهتمامها في رواية «العالي والجبار». دخلت إلى المطبخ لكي تقلب الدجاجة على بطنها، ورأت سيارة شيفروليه صفراء تتوقف في ممر السيارات. هذا تيدي. بالطبع فهذا أوان مجيئه. شعرت بالقلق، وبالراحة، وبالاستياء. لو أنه جاء حتى قبل أسبوع، لوجد كل شيء أفضل حالاً بكثير، جواً آخر في البيت. بدلاً من ذلك فإنه يأتي إلى الإخفاق والخزي. كانت لتتصل به قبل أسابيع، وتطلب منه المجيء في حين لا يزال والدها مفعماً بالحيوية، وجاك لا يزال بخير، وحتى – فكرت – بحال صحية حسنة. على الأقل ليس بمثل هذا التردّي الصحي، ليس مزرياً. كانت تشعر، وقد أدركت الآن، أنها تحافظ على سلام عائلي... هش قطعاً، ولهذا بالذات فهو أشدّ أهمية. جاك الذي لم يثق يوماً بأحد منهم، يثق بها. ليس طوال الوقت، ولا كلياً، ولا بلا تحفظات من النوع الذي لا يفشيه ولا يمكنها الاعتراض عليه. ومع ذلك، حتى تيدي كان ليغبطهما على الأحاديث والمزاح في اللحظات القريبة من البراءة، الأوقات التي كانا فيها شبه مسترخيين مع واحدهما الآخر. كانت فخورة بذلك كله، سعيدة بأن تصدق أنه من حسن الحظ أنها موجودة، وقد تذوقت هي بنفسها للتو

رواسب التجربة، وتعرفت على شيء أكثر كآبة من الإخفاق الاعتيادي - كان تدبير إلهي عذب الذي أعادها إلى البيت إلى مسرح ذلك النزاهة التامة واللامتناهية، حيث الكفاح الجاد يؤدّي بصورة متوقعة جداً إلى النجاح، وآل بوتون ينجحون في ذلك، ذلك الميل اللطيف لأن يكونوا نصف متوارين وراء قسوة المزيد من الكفاح الصادق. ليس أنها كانت قادرة كلياً على نسيان مرارة كدرها، ولا أنها تفضل المنعطف الذي اتخذته حياتها على ذلك الذي كانت تتخيله. إلا أنها شعرت حقاً بأنها أُنقذت من خزي الهزيمة الصرف، عبر وقوفها بجانب شقيقها.

جاء تيدي من الشرفة إلى المطبخ، عانقها، وقبلها على جبينها «مرحى حبيبتي»، قال، ناظراً إلى وجهها نظرة سريعة، ملاحظاً التعب فيه ومتجاهلاً إياه «تسرني رؤيتك! كيف الأحوال! أتمانعين لو قمت ببعض الاتصالات الهاتفية؟»... كل هذا بصوت هامس جداً، بما أنه يعرف أن والده نائم على الأرجح. وقف مستنداً إلى جدار الرواق، ناصحاً أحد المرضى ومطمئناً إياه، ومجرياً ثلاث محاولات للاتصال بشخص لا يرد. ثم أقفل السماعة وعاد إليها، عانقها ثانية، مؤاسياً إياها، وإن لم يقل شيئاً. كان تيدي بطول جاك تماماً، وأكثر متانة منه بقليل، من دون التردد الذي يجعل جاك دوماً يبدو كأنه يتراجع خطوة إلى الوراء. فكّرت أن تيدي يبدو أطول الآن، لا ريب بتأثير التصميم الهادئ الذي يبدو عليه من جهة، والتملص والتردد المعمم من جهة أخرى. مرة أخرى تملّى وجهها. لقد عانت الجزع مؤخراً فحسب، وكانت حزينة، ومتعبة جداً، وكان من المؤكد أن هذا كله جلي له. «آمل ألا أكون قد جئت في وقت غير مناسب»، قال «كان من الصعب البقاء مبتعداً. أخيراً استسلمت».

«هذا وقت جيد. كأي وقت آخر على ما أظن». أي عذر هنالك لإبقائه، لإبقائهم جميعاً، بعيدين بينما والدهم يمضي ما تبقى له من عمر نائماً، وإن لم يطلب منها العجوز أن تتصل لإحضارهم؟ كان بوسع تيدي أن يلومها لتركها الأمور تتدهور من دون أن تتصل به. كان كبرياء، أو ربما مجرد خزي، ما جعلها ترجو أن يستجمع جاك شتات نفسه بما فيه الكفاية لكي يدع الآخرين يرون أن الأمور جيدة بينهما. لكن هناك والدهما أيضاً. لم ترَ أي غضب أو اتهام في سلوك تيدي. رجل هادئ دمث يمارس عمله كطبيب بموضوعية دقيقة وحزن، فهو يرى ما يكفي من البؤس في حياته اليومية حتى يتجنب أن يضيف إليه، إلا حين يجبر على ذلك على أسس طبية.

«أهو هنا؟».

قالت: «إنه فوق».

«هل سيمانع لو حييته؟».

قال: «ولمَ يمانع؟»، وضحكا، بأسف. «سأخبره أنك هنا».

كان جاك مضطجعاً على ظهره، متقياً بذراعه الضوء المتسلل من الستائر المفتوحة. حين سمعها بالباب أدار نفسه عنها.

قال: «ماذا، ماذا هنالك».

«تيدي هنا».

ضحك. «كنت أتساءل متى ستصلين إلى هذه النقطة. الاتصال بتيدي».

«لم أطلب منه المجيء. جاء وحده، على حدّ علمي».

التفت لكي ينظر إليها. «أنت تهمسين. لا بدّ إذن أنه في الأسفل».

«أجل».

«لم أسمع صوت سيارته. أظن أنني كنت نائماً».

«حسناً، إنه يودّ رؤيتك».

«أأخبرته؟».

«لا، أيجدر بي ذلك».

«أرجوك لا. لا تفعلي غلوري. لن يتكرر هذا ثانية، أقسم لك».

فرك وجهه. «سيكون عليّ أن أغتسل. ما كان عليّ النوم بهذا القميص. يمكنني الإفادة من حبة أسبرين». نهض وجلس على حافة السرير «أين تركت حذائي؟»، فرك عينيه «تيدي»، قال، «هذا ما أنا بحاجة إليه الآن».

أحضرت له قنينة الأسبرين وكوب ماء. ثم جلبت له قماشة ومنشفة.

«شكراً لك».

«سأخبره بأنك ستنزل بعد دقائق. سوف أعدّ بعض القهوة».

«أجل، القهوة»، قال، فاركاً وجهه وعينيه، ثم وجهه ثانية قال: «آسف، آسف على هذا كله».

نزلت إلى المطبخ. كان تيدي على الشرفة ينظر إلى الحديقة. قال: «قمت بالكثير من العمل هنا».

«جاك قام بمعظمه».

نظر إليها، لكي يخمّن ما إذا كانت تقول الصدق أم أنها تعبر عن ولائها تجاه جاك، مستعداً للابتهاج بأي منهما، راغباً في المعلومات فحسب. «إذن لابدّ من أنه يبلي حسناً».

«إنه كذلك منذ بعض الوقت».

«فهمت».

تيدي بشعره الأشعث ويديه الرقيقتين، وكنزته البنية الناعمة ونظاراته ذات الإطار السميك. كان لطيفاً ومريحاً بكل السبل الممكنة، بحكم طبيعته وعاداته وسريرته. كان ثمة أثر من الكحول فيه، خفيف جداً، مما يجعله يعرف حكماً أنه توحي بالمرض أو بالطوارئ وقد مسحها ليزيلها بعناية شديدة قدر ما يمكن. ومن هنا الكولونيا التي يعطر نفسه بها، انفصاله الوحيد عن البساطة المحتشمة. بعد بضع دقائق قال: «يمكنني المغادرة، إذا كان هذا ما يريده. أعرف أنه ما كان ليكون سعيداً جداً بمقابلتي. يمكنك أن تخبريه بأنني لن أبقى طويلاً».

«أعطه بضع دقائق أخرى. سوف ينزل. على الأرجح أنه يريد أن يغتسل قليلاً».

ضحك تيدي: «ويلمّع حذاءه على ما أظن. أتغيّر كثيراً؟».

«لا أعرفه بقدر ما تعرفه أنت. لا يزال جاك».

«أخبرني أبي أنك وهو منسجمان معاً. كان قلقاً بهذا الشأن».

هبط جاك الدرج لابساً جوربيه، ومرتدياً أحد قمصانه، وهو لا يزال يحاول أن يزرّر أحد الكمّين. وقف بالباب، ونظر إلى غلوري وابتسم. طوى الكم مرتين، ثم فك الكم الثاني وطواه أيضاً.

قال أخوه: «جاك».

قال جاك: «تيدي».

«كيف حالك جاك؟ تسرني رؤيتك».

استند جاك إلى النضد وطوى ذراعيه. كان واضحاً تماماً كيف حاله. ومع ذلك تمنّت غلوري لو لم يكن شديد الهزال، ولو أنه ارتدى قميصاً أفضل، ولو لم يكن من الصعب جداً عليه رفع عينيه. «أنا بخير»، قال.

ابتسم ورفع كتفيه «كنتُ أبحث عن عمل».

تنهّد تيدي: «أنا شقيقك يا جاك! بحق الرب!».

ضحك جاك.

«أعني لا بأس إذا كنت تبحث عن عمل. لكن هذا لا يعنيني أليس كذلك»، ثم قال: «هاي، جاك، ألا يمكننا أن نتصافح على الأقل».

هزّ جاك كتفيه: «بالطبع».

اقترب تيدي من أخيه وأمسك يده بيديه الاثنتين. «إذن هذا صحيح. أنت هنا فعلاً. الآن وقد رأيت ذلك بأم عيني. كنت بالكاد مصدقاً ذلك».

ضحك جاك: «يمكنني أن أريك الجرح في خاصرتي لو أحببت»، ثم «آسف». وأطرق رأسه، وكان أسفاً حقيقياً. كان شديد السأم من نفسه.

لم يمعن تيدي النظر إليه، تماماً، وإن كان ثمة شيء من الطبيب في اهتمامه بالغ اللطف. كانوا يغيظونه بهذا الخصوص. مرة، حين نظر بتركيز شديد في عيني هوب، أخفضت شفتها السفلة لكي تتوافق مع فحصه الطبي. والآن لم يكن قادراً على ألا يلاحظ لون جاك، ومدى نحول يده، وارتعاشها. كيف يمكنه ألا يلاحظ هذه الأشياء، وكيف يستطيع جاك ألا يتراجع إلى الوراء أمامه، بابتسامة تنمّ عن الانزعاج؟

«أنت رجل طيب تيدي، أذكر أنك قلت لي في لقائنا ذاك في سانت لويس إنك لن تعود باحثاً عني. وأنا أقدّر ذلك».

«حسناً، الحقيقة هي أنني فعلت. لكنني لم أجدك فحسب. عدت ست مرات بالإجمال. وكانت المرة الأخيرة قبل عامين». قال: «ذات مرة ظننت أنني عثرت على الفندق الذي تقيم فيه. قال لي موظف

الاستقبال إنك تنزل هناك. كان هذا قبل زمن طويل. في رحلتي الثالثة على ما أظن. تركت مغلفاً مع رسالة وبعض المال. أظن أنه لم يصلك قط».

هزّ جاك رأسه «لا»، ثم قال: «أكانت عين هذا الرجل معطوبة؟»، وتحسس وجهه.

قال تيدي: «رهيبة، أقابلَ طبيباً بخصوصها؟».

ابتسم جاك: «لا أعرف. الوغد طردني. آسف».

«حسناً، وعدت بتركك وشأنك، ثم بذلت جهداً لا بأس به لكي أنكث بوعدي. أحياناً كنت أشعر أنني بحاجة إلى مقابلتك ثانية فحسب، فكنت أذهب إلى سانت لويس. وفي مرتين اتصلت بالبيت من الطريق لكي أخبرهم بمكاني. ظننت أنني سأملأ خزاني بالوقود ووجدت نفسي متجهاً إلى ميزوري».

قال جاك: «لقد جشمتك الكثير من العناء».

«لا، لا. فقد كان البحث عنك ثاني أفضل شيء بعد إيجادك. جعلني أشعر أننا ما زلنا أخوين، على ما أظن».

قال جاك: «للصراحة... رأيتك هناك مرة. كنت تخرج من سيارتك. شيفروليه سوداء. كنت ترتدي كنزة بنية في ذلك اليوم أيضاً. دخلت إلى متجر سيجار، وانتظرت حتى قدت السيارة مبتعداً. كان عليّ شراء مجلة لأنني قرأت معظمها. هذا لم يكن منطقياً لي لكنه كان كذلك بالنسبة إلى البائع. كلفني ذلك آخر ربع دولار معي».

ضحك جاك: «أوكي»، وانحدرت الدموع على وجنتيه «أظن أن هذا لا يفاجئني». نزع نظارته ومسح عينيه.

قال جاك بهدوء: «لا أريدك أن تهتم بأمري. أي واحد منكم. لم أرد

ذلك يوماً». نظر إلى غلوري وكأنه يعتذر ثم ساد صمت. ضحك: «يا له من كلام سخيف. أنا آسف حقاً. بيد أن هذا يثبت شيئاً».

هزّ تيدي رأسه: «هناك من الواضح قدر كبير من الصحة في ما تقول».

«لست أكيداً من أنني أفهم نفسي. لا أعرف لماذا تحملتموني. أنا».

قال تيدي: «هذا سؤال مثير للاهتمام. لوقت آخر».

ضحك جاك. وقف منتصباً. وحين نظر كلاهما إليه قال: «سآتي بالقهوة، أتريدين المزيد غلوري؟ تيدي؟ أخذ فنجان غلوري وصحن الفنجان، إلا أنهما ارتعشا في يده فوضعهما ثانية «سوف أحضر الإبريق». حين انتهى من تقديم القهوة عاد واستند إلى النضد.

قال تيدي: «أنا لا بأس بي أيضاً. متماسك. لا مشكلات كبيرة في الوقت الحالي، على حدّ علمي».

قال جاك: «يسرني سماع هذا».

ثم نادى والدهم: «أهذا تيدي! أظن أنني سمعت صوت تيدي!». كان صوته مفعماً بالارتياح والفرح.

قال تيدي: «أنا هنا يا أبتاه، إنني آت». ذهب إلى غرفة العجوز، وجلس على حافة السرير، وعانقه. عانقه العجوز، وأسند رأسه على كتفه، وبكى. «أنا مسرور جداً لمجيئك يا تيدي!»، قال. حاول التكلم بصوته الأبوي المتماسك، إلا أنه كان متحشرجاً بالبكاء. «كان ذلك صعباً يا تيدي، عرفت أنه سيكون. لكنه كان شاقاً جداً!»، وبكى، «إنني موغل جداً في العمر»، قال.

ربت تيدي ظهره وشعره: «لا بأس. سيكون كل شيء على ما يرام».

نظر جاك إلى غلوري وابتسم. كان شديد الشحوب. «ما الذي كنت أفعله؟»، قال: «يا لي من مغفّل...». وصعد إلى الطابق الأعلى. سمعت الباب يغلق.

قال العجوز: «لقد كانت غلوري عوناً كبيراً لي. إنه لا يكلمني، لكنه يكلمها. أحياناً أسمعهما يضحكان، وهذا جيد جداً، لكنني لا أظن أنها تستطيع اللجوء إلى لغة العقل معه. أعرف أنني لا أستطيع».

قال تيدي: «تركت حقيبتي في السيارة. سوف آتي بها وأفحصك قليلاً، سوف أستمع إلى صدرك، ثم يمكننا أن نقلق بشأن جاك». كان الطبيب الوحيد الذي يسمح والده له بأن يقترب منه، بما أن الطبيب المحلي اقترح أن البراندي قد يخفف من انزعاجه، ثم أعطاه تونيك أقسم العجوز أنه معدّ من الويسكي وعصير الخوخ.

«لا، لا تيدي، لا يهمني أمر قلبي، هذا لطف بالغ منك. ما أريده فحسب هو أن أراكما أنتما الاثنان معاً. هل جاك هنا؟ أتمنى أن تجده هنا، لأنه يبدو لي أنني لا أراه حتى. إذا أمكنك ماسندته فحسب، أعتقد أن هذا قد يساعدني. إنني أستريح طوال الوقت، لكنني لا أستطيع استجماع قوتي. ففكرت أنك قد تساعدني».

«بالطبع أبي»، خرج تيدي إلى الرواق ونادى إلى الأعلى: «جاك، هل يمكنك المجيء لدقيقة». حين لم يكن هنالك ردّ رفع صوته: «هاي جاك، انزل إلى هنا. يريد أبونا أن يراك». مرت دقيقة ونزل جاك على الدرج. قال تيدي: «يريد أبونا أن يرانا معاً».

قال جاك: «أأنت آتية يا غلوري؟»، ووقف لكي يدعها تسبقه. كان لديه ذلك المحيا البعيد المتحفّظ، في غياب التفكّر الذي تعلمت أن تميّزه بوصفه أملاً. بدا أن والدها قد نسيها، وأراد جاك وجودها

هناك، وكأنها بطريقة ما تدعمه أو تدافع عنه. لكن كان ثمة مراعاة في هذه الحركة لاحظها تيدي أيضاً، وقرّب لها الكرسي من سرير والدها، وكأنما ليظهر أنه لم يقصد تجاهلها.

«يا سلام»، قال والدهم، «هذا رائع. هلا اقتربت قليلاً جاك؟».

رفع كتفيه: «بالطبع إذا كان هذا ما تريده».

«أجل، الآن أراكما معاً». تفرّس بوجه جاك، ثم أشاح نظره، «أريد صورة لكما في عقلي، معاً على هذا النحو». وبعد برهة قال: «كثيراً ما تذكرتكما في صباكما، وكان الناس يسألون إذا كنتما توأمين، كان هناك الكثير من الشبه بينكما. هذا يتغيّر مع الوقت بالطبع».

ضحك جاك.

قال تيدي: «على نحو ما، احتكرتُ أنا الشعر الرمادي».

«المسؤولية تسبّب بذلك»، قال العجوز، «لطالما كنتَ من يتحمل المسؤولية. أكثر بكثير من حصتك».

قال تيدي: «كنتُ دائماً من يقلق».

«أجل، سيان. لقد قلقت بدوري ويعلم الرب ذلك. وقد استغرق ذلك الكثير من حياتي مثلما أدرك بالنظر إلى الوراء».

وضع جاك يده على ظهر كرسي غلوري.

«الآن عليّ أن أضع هذا كله جانباً وأن اكفّ عن تعذيب نفسي بفكرة أنني أستطيع فعل أيّ شيء حول أيّ شيء. أجل. إلا أن الرب يحقق مشيئته عبر البشر، عبر العائلات». تنحنح «جزء من الأمر هو الاهتمام، وجزء آخر هو قبول الاهتمام. وهذا الجزء الثاني صعب ومهم جداً. أعلم أنني كنت عبئاً على الجميع منذ سنوات وسنوات، وكنتم جميعاً طيبين معي. وقد استمتعت بذلك، وإن لم أستمتع قطّ بالمعاناة

واللا فائدة العامة اللذين جعلا ذلك ضرورياً. وآمل ان أكون أوضحت أنني أشكر الرب عليكم، على أنكم كنتم نعمة كبيرة لي. منذ جاء إلى البيت أظهر جاك لطفاً بالغاً تجاهي. وغلوري أيضاً بالطبع، أجل».

أغمض عينيه، وقطّب جبينه مبدياً العناية التي شكّل بها خلاصة كلامه هذه.

قال: «هذه هي الغاية من العائلة. يقول كالفن إنه من قبيل التدبير الإلهي أننا نعتني بأولئك الأقرب منا. فهي إرادة الرب إذن أن نساعد إخوتنا، وهذه بقدر مساو إرادة الرب أن نقبل عونهم وأن نقبل البركة الكامنة في ذلك. وكأنها تأتي من الرب نفسه. وهذه حقيقة الأمر. إذن أريدكما أيها الولدان أن تعداني بأن يساعد واحدكما الآخر».

ضحك جاك.

«وأن تقبلا المساعدة أيضاً. أريدكما ان تتصافحا وتعدا بذلك أيضاً».

مدّ تيدي يده، وأمسكها جاك ثم تركها.

قال تيدي: «أعدك بذلك».

قال جاك: «حسناً».

نظر إليه والده: «ما كان هذا يا جاك؟ حسبتني سمعتك تقول حسناً، أعتذر لكن هذا يبدو مراوغاً بعض الشيء».

قال جاك: «أجل سيدي أظنه كذلك. لا أرى فحسب كيف يمكنني الإيفاء بجانبي من هذا الوعد. كيف أستطيع مساعدة تيدي؟».

«إذن هذا ما أعنيه بقبول المساعدة. لقد قطع تيدي وعداً بالمسؤولية تجاهك، وعليك السماح له بذلك، وهذا لأن سعادته تعتمد على سعادتك. إذن اللطف الأعظم الذي يمكنك إظهاره له كان قبول الخير

الذي يكنه لك. أنت مدين له بهذا القدر. وأعني المساعدة الروحية أيضاً. لاسيما المساعدة الروحية».

ابتسم تيدي لجاك ورفع كتفيه، آسفاً على صراحة والده، وعلى عجزه عن إنهاء الموضوع. قال: «لقد أحببت جاك فحسب. وأحببت رفقته. وهو غير مدين لي بشيء».

«أوه»، قال والدهم، «لست في مزاج للمجادلة». تهدّج صوته «لقد وعدت جاك بأن يعد، ورفض ذلك. لا أريد سماعك تقدم التبريرات عنه. لقد حدث هذا مرات كثيرة جداً برأيي». كان يبكي.

قال جاك: «لا، لقد طرحت سؤالاً فحسب. سأعدك. أعني أعدك حقاً».

لم يفتح والده عينيه، لكنه قال بكبرياء كبيرة: «أعتقد أنني توقعت سؤالك يا جاك، وأظن أنني أجبت عليه. والآن أنا متعب». واستدار نحو الجدار.

اقترب تيدي منه وأبعد شعره عن وجهه، وبرقة شديدة واعتيادية وجسّ بأطراف أنامله جبينه وصدغه وشريان رقبته. أخرج منديلاً من الدرج الذي يحتفظ به والده بالمناديل ومسح الدموع عن وجه العجوز، رافعاً له رأسه لكي يجفف الجانب السفلي الأكثر بللاً. ثم، وهو لا يزال ممسكاً رأسه، أدار البطانية على الناحية الجافة. رفع الملاءة والشرشف لكي يسويهما، ونظر إلى جسد والده النحيل المتقوس.

قال العجوز: «أين سماعتك؟».

«إنها في السيارة».

«مكان جيد لها. سيفعل قلبي ما يريد فعله، ولديه إذني. والأمر نفسه ينطبق على رئتي». ثم قال: «ربما تلقي نظرة على آيمز».

وقف جاك هناك، مربتاً بخفة شعر العجوز ووجهه بالمنديل: «ما رأيك ببعض الأسبرين؟»».

«لا ضرر منه على ما أظن».

قال جاك: «اظن أنني استعملته للتو. أعني، أنهيته».

«لا مشكلة، لديّ بعض منع في حقيبتي. سوف أترك زجاجة لك».

غطى جاك وجهه بيديه وضحك: «لا أصدق أنني فعلت ذلك».

«لا يهم». نظر إلى جاك، ولاحظ امتقاع لونه، وارتعاش يديه المخدوشتين: «هناك ما يكفي للجميع».

خرجت غلوري إلى السيارة، ووجدت الحقيبة السوداء المنتفخة في مقعد الراكب الأمامي، وحملتها إلى المطبخ. حين فتحها تيدي فاحت منها بقوة رائحة الجلد والكحول. كان ثمة كرات قطن ومخفضات لسان، وموازين حرارة، وحبوب متنوعة ومراهم وأشربة والسماعة والعديد من قناني الأسبرين. حين جاءت غلوري بكوب الماء وحبتين نظر إليهما تيدي وقال: «هاك». وشاهدها ترفع والدها لكي تساعده على البلع. ثم عاودت وضعه على مخدته، وقالت: «ستشعر بالتحسّن بعد قسط من النوم».

ذهب إلى المطبخ، ملأ كوب ماء، ووضعها على الطاولة مع ثلاث حبات أسبرين قربها. «أستعمل الكثير من هذه الحبوب أنا أيضاً»، قال ورفع يده اليمنى. بدأت أصابعه تتضخم عند البراجم وتلتوي.

قال جاك: «هذا صعب».

هزّ تيدي رأسه: «أتمنى لو اقتصر الأمر على يديّ. صحتك بخير؟».

«حتى الآن».

«غلوري؟».

«يبدو أنني كذلك».

«حسناً، على الأقل أعرف كم عانى العجوز طوال هذه السنوات. لا عجب في أن يحرد. كيف طعامه؟».

قالت غلوري: «ليس جيداً جداً مؤخراً».

هزّ تيدي رأسه: «ماذا تعدّين يا غلوري؟ الدجاج والزلابية؟ سوف يستمتع بهذا، إذا كان ثمة في العالم ما لا يزال يمتعه. ثمة طبيب آخر حلّ مكاني، لكن حين يكون الناس في مشكلة يرغبون في رؤية وجه أليف. لذا يحسن بي العودة إلى العمل». عانق غلوري، ومد يده نحو جاك. «سررت برؤيتك»، ثم «حقاً».

قال أجل: «أجل، شكراً»، ثم «تيدي، أتعرف، أودّ أن أسألك شيئاً، إذا كانت لديك بضع دقائق. ربما يكون على الإرجح هدراً لوقتك. أعرف أنك مضطر إلى المغادرة».

وضع تيدي حقيبته على الكرسي وجلس ثانية إلى الطاولة. «أتمزح؟ أستطيع توفير الوقت! أرى المرضى كل يوم من حياتي. أما رؤيتك... فاستثنائية جداً»، ثم قال «سوف أجري بعض الاتصالات الهاتفية فحسب».

جلس جاك إلى الطاولة قرب أخيه، لكي يتمكن من التكلم بصوت منخفض. قال: «ما الذي يريدني ان أقوله له؟ أعني، أعرف ماذا يقصد، لكن كيف أقوله»، نظر إلى تيدي: «المشكلة هي أنني سأكون أكذب. كنت أظن أن هذا مهم. حسناً، أظن أنه مهم. وإلا كنت عرفت ماذا أقول»، ضحك «لقد أطريت نفسي بأنني كنت متردداً. لكن كل ما

فعلته أنني تسببت بالأسى للعجوز المسكين بلا طائل. غير أنني لم أعرف كيف أنهي ذلك. ألاحظ ذلك الآن. قالت غلوري إنه سيكون لا بأس أن أحاول، تعرف، التكلم إليه».

نزع تيدي نظارته وفرك عينيه: «إذن تريد إراحته بشأن وضعك الروحي. هذه فكرة جيدة على ما أظن».

ضحك جاك: «ربما كان هذا أكثر مما أرجوه. أودّ أن أخبره أنني أؤمن بـ شيء ما. ربما ليس بالبعث وقيامة الجسد والحياة الأبدية. إنما بشيء ما».

«حسناً»، تحسّس تيدي بنظارته. ثم تراجع إلى الخلف «تعرف، فكرت في الكهنوتية لفترة. بجدية شديدة. لكن كان عليّ مواجهة حقيقة أنني لست جيداً جداً في مناقشة هذه الأمور. لم تكن هذه دعواي، كما يقولون. أتكلمت مع آيمز؟».

قال جاك: «لقد حاولت، مرتين. لا يهم. فكرت فحسب أن أسأل».

«لا، لا أعني أنه يجدر بك التخلي عن هذا. إنني أذكرك فحسب بقدراتي المحدودة. سيتطلب هذا بعض الجهد».

«عليك الذهاب».

هزّ تيدي رأسه: «هذا من أجل راحة العجوز. وهو قلق مشروع طبياً».

«حسناً، شكراً لك».

كان صمت.

قال تيدي: «ربما من المفيد أخذ بعض الملحوظات». مدّ يده تحت سترته وأخرج قلماً وورقة وصفات طبية من جيب قميصه. وعاود

وضع نظارته. صمت آخر. ثم كتب في الجهة العليا إلى يسار الورقة «المعتقدات: مال جاك نحوه لكي يقرأ ماذا كتب، وضحك. مزق تيدي الورقة وكوّرها في كرة صغيرة «كانت فكرتي»، قال، «أنك إذا وجدت شيئاً يمكنك قوله له بصدق، فهذه ستكون بداية. يكون لدينا ما نبدأ به».

قال جاك: «هذه فكرة»، ثم قال: «ماذا كنت لتقول لو كنت في مكاني؟ أعني، هو لم يطالبك يوماً بأي تطمينات، أليس كذلك؟».

هزّ تيدي رأسه «لم أغادر الكنيسة البتة. أظن أن هذا كان تطميناً كافياً».

«لكنك ما زلت، أعني، أنت...».

«بالطبع. لدي مرضى في مشفى شلل الأطفال. أحياناً أصلي بقدر ما أتنفّس».

«هذا يساعد...».

«يساعدني. يمكنني من القيام بعملي».

هزّ جاك رأسه.

قال تيدي: «خلال السنوات الأخيرة كان الأمر صعباً بالفعل. لكن لم يعد هناك الكثير من الحالات الجديدة والحمد لله».

«أجل، لقد قرأت عن ذلك اللقاح الجديد».

قالت غلوري: «ليلى تخشاه. قرأت مقالاً يفيد بأن هذا اللقاح يسبب أحياناً شلل الأطفال».

«حسناً، في حالات قليلة أجل. على الأرجح من الأفضل لها أن تنتظر عاماً آخر، حتى يطوّروه. لم أطعّم أولادي بعد. أرسلهم إلى الريف هذا الصيف، إلى أهل كورين. وهم هناك الآن».

قال جاك: «إذن من الأكثر أمناً إخراجهم من المدينة».

«أظن ذلك، في الوقت الحالي».

حمل جاك الورقة المجعدة ولواها متأملاً.

قال جاك: «لكننا خرجنا عن الموضوع الآن».

«أوه آسف. أظن أنني شردت قليلاً».

«أتريد أن نتابع؟».

قال جاك: «نعم، فلنتابع». رأت غلوري سمات التحفظ على وجهه ثانية، ذلك الرجاء الخالي من الأوهام.

بعد برهة قال تيدي: «يجب أن أحصل على بعض المساعدة في هذا الخصوص».

«آسف»، تنحنح جاك «أفكرت في إحضار أولادك إلى جلعاد؟ أيكون هذا مكاناً جيداً لهم؟».

«بالتأكيد. إلا أنه ليس بالوضع الجيد، وأبي على حاله هذه».

هزّ جاك رأسه. بدا يفكر قليلاً. ثم تمطى وأدخل أصابعه في شعره: «أتمنى من الرب لو كنت متديناً يا تيدي. هذه حقيقة يعرفها الرب».

قال جاك: «هذه تبدو بداية».

«أجل. لو كنت متديناً لربما كانت بعض الأمور أسهل. ممكنة على الأقل».

تحت تمنيات بأن يكون متديناً، كتب تيدي «لجعل الأمور أسهل».

نظر جاك إلى الورقة وضحك. «لست أكيداً من أن هذه بداية. تبدو لي نوعاً من الهرطقة».

مزق جاك الورقة وجعدها. «لم أعرف أننا سنقلق حول ذلك. مثير للاهتمام». ابتسم جاك ورفع كتفيه.

«حسناً»، قال تيدي: «أمن شيء يمكن أن يكون أسهل؟».

«من الصعب التكلم إلى الناس، أعني إلى المتدينين تحديداً».

«أبي على سبيل المثال».

«على سبيل المثال».

«أنا».

ضحك جاك «مثل آخر. آيمز».

«أجل. أيمكنك أن تقول لي لماذا هذا صعب؟ لم أفهم ذلك يوماً».

قال جاك: «أحياناً أشعر أنني في عالم وأنتم في آخر. أنتم جميعاً»، رفع كتفيه. ثم نظر إلى غلوري، وكأنه يريد أن يعتذر.

تأمله تيدي لبرهة بموضوعية لطيفة: «منذ متى يراودك هذا الشعور؟».

«حسناً دكتور بوتون، لطالما كان هذا شعوري. إذا كان يمكنني الوثوق بطفولتي الصاخبة».

«عذراً».

«لا تعتذر. هناك أمور أظن أنها كانت لتساعدني. لتساعدني على الفهم لقليلاً. هناك أكوان منفصلة. وحدث أنني أعيش في كون خاص بي. وهناك أكوان أخرى. على الأقل أعرف ذلك».

بعد برهة قال تيدي: «حسناً، حين بدأنا الحديث قلت إنك كنت تنوي أن تكذب على الموقر. كانت هذه كلمتك، تكذب. وقلت إنني أحترم هذا القرار، في ظل الظروف الراهنة. وأيضاً أحترم حقيقة أنه كان قراراً يصعب عليك اتخاذه. أحترم ذلك حقاً. ثم عقدت الأمور حين اقترحت أننا يمكن أن نجد ما تقوله ولا يكون... خاطئاً بصورة إجمالية. والآن أظن أنه سيكون من الأفضل له فحسب أن تخبره بأنك تؤمن

بالرب. وأنك فكرت بالأمر بجدية، وأنك اقتنعت بحقيقة الكتاب المقدس. شيء من هذا القبيل. موجز وفي صلب الموضوع».

هزّ جاك رأسه: «أتعتقد أن ثمة أي فرصة في أن يصدقني؟».

«أعرف أنه سيرغب في أن يصدقك».

ابتسم جاك: «ربما هذه ليست فكرة سديدة. لا أبدو أنني فعلاً اغتسلت مؤخراً بدم الخروف[1]، أليس كذلك؟ هو يعرف على الأرجح... الحالة التي كنت فيها قبل بضع ساعات. على الأرجح لديه فكرة ما».

«حسناً، أظن أن علينا أن نتذكر، كما تعرف، أن الوقت قصير. بعد أسابيع قليلة ربما لا يعود قادراً حتى على سماع ما تقوله له».

قال جاك: «حسناً، أجل. أؤمن بالرب واقتنعت بحقيقة الكتاب المقدّس. بعد تفكير متعمق. يمكنني فعل ذلك. بعد أن أحصل على قسط من الراحة».

نهض تيدي. «لا أعرف إذا كنت قد شكّلت أيّ عون لك. لكن عليّ الذهاب حقاً. إن لم يكن ثمة ما نحتاج إلى التكلم عنه بعد».

«يساعدني أن أعرف أنك لا تجد مانعاً في أن أكذب عليه».

هزّ تيدي رأسه: «أظن أنه لطيف منك أن تفعل ذلك، في ظل الظروف الراهنة. هناك مغلف على الثلاجة عليه عنواني وأرقام هواتفي. في البيت والمكتب. إذا أردت البقاء على اتصال. القيام بزيارتنا».

«إذن تريد أن يظهر العم العجوز جاك على بابك يوماً ما».

«لا شيء سيسعدني أكثر من ذلك».

---

(1) العهد الجديد، سفر الرؤيا، 7: 14، «فقلت له يا سيد أنت تعلم. فقال لي هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وقد غسلوا ثيابهم وبيضوا ثيابهم في دم الخروف».

نظر جاك إلى غلوري وابتسم «ربما».

«أعرف انك لن تفعل»، قال تيدي. حملق في وجه أخيه. «أظن أنني لن أراك ثانية. في هذه الحياة. كنت لأقول لك اعتن بنفسك، لكنني أخشى أنك لن تفعل ذلك أيضاً. حسناً، لا تتردد البتة...». مد يده. حين صافحها جاك، لمس كتفه ثم عانقه.

كان جاك صبوراً مع هذه الإلفة. قال: «كنت أتمنى لو كانت الأمور بيننا أفضل طوال السنوات الماضية. أتمنى حقاً. ثمة الكثير مما أنا نادم عليه».

قال تيدي: «أعرف، لا بأس. الآن يمكنك أن تحصل على قسط من النوم».

خرج جاك إلى الشرفة معه. بقي هناك بعد أن خرجت سيارة جاك إلى الشارع. ثم قال لها «أتظنين أنه هكذا يبدو المحيط؟». كانت الريح تطير الوريقات عن شجر البلوط، والتي كانت كثيفة بما فيه الكفاية لكي تهدر وتنحسر ثم تهدر ثانية. «حين كنت صغيراً كنت أحب أن أظن ذلك».

«لوقا يقول إنه كذلك».

هزّ رأسه «لوقا يعرف».

أخذ جاك مغلف تيدي عن الثلاجة وحمله لكي يريها سماكته. «ماذا تظنين في داخله؟ أتريدين أن تخمني؟». رفع طرفه وأراها حافة رزمة من الأوراق النقدية. اتجه إلى مقعد البيانو ورفع الغطاء ووضع المغلف فيه. «الآن تعادلنا. أعني فيما يخص المال. إنه محق، يجب أن أخرج من هنا. سأفعل». توقف على الدرج «لكنني الآن سأكتب رسالة»، ثم قال:

«غلوري، أعرف أنني لم أبدأ حتى بـ... لا يحق لي أن أفعل هذا بك. لقد كنت بالغة اللطف معي، في حين... لكن عليك أن تخرجي تلك الزجاجتين من منضدتي. الآن إذا لم يكن لديك مانع. الدرج السفلي. يجب أن تضعي هذا المال في مكان ما أيضاً. كله».

قالت غلوري: «انتظر يا جاك. أقال تيدي إن عليك أن ترحل؟».

«قال إن العجوز لم يعد لديه الكثير من الوقت. سيعود إذن بعد أسابيع قليلة، تعرفين أنه سيفعل. سيكونون جميعاً هنا. «إذا أرسلت الرسالة إلى الصديقة المشتركة وأرسلتها إلى ديلا وراسلتني ديلا هنا، فيمكن أن يستغرق ذلك... اثني عشر يوماً، ربما أسبوعين. فسأبقى هنا إذن لأسبوعين آخرين، ثم ستتخلصين مني».

«هل ستعطيني عنوانك، في حال احتجت إلى أن أرسل لك شيئاً من الرسائل التي تصل؟».

ضحك. «حين يصبح لدي عنوان يا أختاه الصغيرة، ستكونين أول من يعرف».

بعد قليل نزل جاك حاملاً الرسالة. أخذ مغلفاً وطابعاً بريدياً من الدرج، وجلس إلى الطاولة.

«أتمانعين؟»، سألها. كانت عيناه محمرتين، وبدا وجهه أشبه بالشمع قليلاً، أو بالطين، يتجعد بعمق حين يبتسم. لو لم تكن تعرفه لحسبته كئيباً غاضباً. نظر إليها، وكأنه يعرف أنه لا يبدو هو نفسه في ناظريها، وكأنه قام باعتراف رهيب وغفر له وشعر بالارتياح والخزي في آن معاً.

«بالطبع لا أمانع».

قال: «يداي ليستا ثابتتين تماماً. ربما هذا يعطي الانطباع الخاطئ.

أريدها أن تفتحها على الأقل». فكتبت العنوان كما أملاه عليها. بلل لسان المغلف بلسانه وأجفل «سنوفلايك»، قال، وضحكت، وضحك. ألصق الطابع البريدي بعناية. ثم أخرج ورقة مطوية من جيب قميصه ووضعها على الطاولة. قال: «هذه لك».

أخذت الورقة وفتحتها. كانت كناية عن خريطة: رسم نهر وطريق، وبينهما سياج وحظيرة وأشجار، ومنزل مهجور، كلها مرسومة ومصنفة بعناية، وثمة فسحة بين الأشجار، وفي الحافة العليا من الفسحة حرف أكس وكلمة «فطر الموريل». وفي الجانب السفلي الأيمن بوصلة، وميزان من مئة درجة، وفي الزاوية اليمنى العليا رسم تنين ملوي الذيل ينفث دخاناً من منخريه.

قالت: «هذا جميل جداً».

هزّ رأسه: «بل دقيق. رسمت هذه الخريطة حين كنت صاحياً تماماً. استغرقتني أياماً وتطلبت عدداً من المسودات».

قالت: «الآن بتنا متعادلَين فعلاً».

ضحك: «هذا صحيح». كان وجهه رائقاً وصوته منخفضاً بفعل الإنهاك، لكنه من الواضح تأثر لمزاحها معه وشعر بالارتياح.

«إلا أنه ليس مذكوراً هنا أين تقع هذه الغابة، هناك الكثير من السياج والحظائر هنا».

«يا ويلي، يا له من سهو». وابتسم لها.

«حسناً، سوف أتجاهل ذلك. إنه رسم جميل، سوف أضعه في إطار».

«أنت طيبة يا غلوري».

«أجل، أنا كذلك».

«الدجاج والزلابية».

«أجل».

«ظننت أنك على الأرجح بحاجة إلى قسط من الراحة. يمكنني الانتباه على الأشياء ريثما تنامين قليلاً».

«لا، أنا بخير. لو لم تمانع رفقتي».

«أنا ممتن على هذه الرفقة يا غلوري». ضحك: «لا فكرة لديك عن مدى امتناني».

قالت: «أتريد الصحيفة؟ لقد حللت الأحاجي، وأنا ممتنة على الرفقة أيضاً».

هزّ رأسه: «لطيف منك قول ذلك».

ثم سمعا اهتزاز رفاصات السرير، ثم خطو والدهما الهويني بخفيه وطرق العكازة على الأرض. وبعد قليل ظهر والدهما عند الباب ببيجامته، شاحباً، أشعث الشعر، إنما رابط الجأش بهيبة. نظر أولاً إلى غلوري ثم إلى النافذة، وأخيراً، وكأنه استجمع شجاعته، نظر إلى جاك. «أوه»، قال، «بصوت عفوي آسف. ثم استدرك «حسبت أنني قد أستمتع بمحادثة صغيرة. سمعتكما تتكلمان هنا وجئت لكي أنضم إليكما. أجل».

ساعده جاك ممسكاً بيده. قال: «أظنني كنت حَرِداً».

قال جاك: «استحققتُ ذلك».

قال والده: «لا، لا، لم أرد الأمور على هذا النحو. وعدتُ نفسي ألف مرة، إذا عدتَ إلى البيت فلن تسمع مني كلمة لوم لأيّ سبب كان».

«لا أمانع، أنا أستحق اللوم».

قال العجوز: «عليك أن تدع الرب يقرّر ما تستحقه. أنت تشغل بالك كثيراً بهذا الأمر، بما تستحقه. أظن أن هذا جزء من المشكلة».

ابتسم جاك: «أظن أنك ربما كنتَ مصيباً».

«لا أحد يستحق شيئاً، سيئاً كان أم جيداً. هذه كلها رحمة. إذا تقبلت ذلك، لأمكنك أن تسترخي قليلاً».

قال جاك: «على نحو ما لم أشعر يوماً بأن الرحمة تشملني على وجه الخصوص».

قال والده: «أوه، هراء! هذا مجرد هراء!». أغمض عينيه وسحب يده. ثم قال: «ها قد حردت ثانية».

ضحك جاك: «لا تقلق بهذا الشأن بابا»[1].

بعد برهة قال العجوز: «لا تناديني هكذا».

«عذراً».

«لا أحبها على الإطلاق. بابا. تبدو سخيفة. ليست بكلمة حتى».

«لن أقولها ثانية البتة». تمطى جاك وابتسم لغلوري، رافعاً حاجبيه وكأنه يقول: أقدّر منك المساعدة.

فقالت: «أتريدني أن أحضر لك البرنس يا أبتاه؟».

«أنا بخير كما أنا. يظن المرء أننا نعيش في كلونذايك[2]»، ثم قال: «جئت إلى هنا من أجل حديث قصير فإذا بكما تتوقفان عن الكلام».

ساد صمت. «حسناً»، قالت غلوري، «إنني أعدّ الدجاج والزلابية، وصفة الماما».

قال: «هذا يمكن أن يكون رائعاً، إذا لم تكن الزلابية رطبة. ثقيلة.

---

(1) Dad.

(2) Klondike: منطقة في إقليم يوكون في كندا، إلى الشرق من ألاسكا.

اضطررت إلى تناول زلابية رهيبة في حياتي». ثم، وعيناه ما زالتا مغمضتين، قال: «لا أستطيع النظر إلى يدي جاك. لا أريد أن أعرف ماذا فعله بهما».

تنحنح جاك. «إنه في الأغلب شحم المحرك فحسب الذي لم أمسحه بعد. لقد خدشتهما قليلاً على ما أظن». طوى ذراعيه لكي يخفيهما، وابتسم.

نظر إليه والده بحدة: «لا أعرف ما الذي جرى. جرى شيء ما ليلة أمس».

«لم يكن بالشيء الجيد. لن ترغب حقاً في أن تعرف، لا جدوى من ذلك سيدي».

«إذن، هل سيزورنا مأمور الشرطة؟».

«لا سيدي، لم أفعل شيئاً قد يثير اهتمام مأمور الشرطة». كان صوته منخفضاً حزيناً.

«أبتاه، جاك بخير، كل شيء على ما يرام. إلا أنه متعب الآن»، قالت غلوري، «أظن أنه يجدر بنا التكلم عن شيء آخر».

هزّ العجوز رأسه «جميعنا متعبون الآن»، ثم قال، «مرات كثيرة، على مرّ السنين، حاولت أن أحبك كثيراً. ولم أصل بذلك إلى أيّ مكان، لكنني حاولت. كنت أقول، إنه لا يهتم البتة لأمرنا. يحتاج إلى قليل من المال من وقت لآخر، وهذه حدود اهتمامه. ومع ذلك، ظننت أنك قد تعود إلى البيت لحضور جنازة أمك. كان ذلك وقتاً عصيباً جداً عليّ. كان مجيؤك ليكون عوناً كبيراً. لماذا ظننت أنك قد ترجع إلى البيت؟ كانت تلك حماقة مني. لطالما قالت أمك، إنك تتخيل أن سعادة ما ستنتج عن هذا كله، كل هذا الانتظار والأمل، لكن هذا لن يحدث.

فحاولت أن أضع حداً لذلك. لكنني لم أستطع».

ابتسم جاك وتنحنح. «ربما يمكنك الآن. ربما يجدر أن أخبرك ماذا كنت أفعل طوال تلك السنوات. ربما هذا يضع نهاية لذلك».

هزّ العجوز رأسه: «لن يكون أسوأ مما تخيلت. لقد استحضرت كل الأمور الرهيبة خلال أرق الليالي يا جاك. لكن هذا جعلني أبتئس عليك فحسب. وعلى نفسي، بما أنه لم يكن ثمة راحة يمكنني تقديمها لك».

قال جاك: «حسناً، لا أريدك أن تفكر... أعني... رهيبة كلمة قوية. هناك حيوات أسوأ من حياتي. أعرف أن هذا ليس سبباً كبيراً للفخر. ومع ذلك».

قالت غلوري: «جميعنا أحببناه يا أبتاه، جميعنا، وكان ثمة أسباب لذلك».

«أيمكنك التوسع قليلاً يا غلوري، قال جاك، «يهمني سماع ذلك».

قال والده: «حسناً، هذا طبيعي فحسب. ما أحب ان أعرفه هو لماذا لم يحبنا هو. هذا ما حيرني دوماً».

بعد لحظة قال جاك: «لقد أحببتكم. لكن لم يكن ثمة الكثير مما يمكنني فعله حيال ذلك. كان صعباً عليّ أن أكون هنا. لم أستطع البتة... أن أثق بنفسي. في أي مكان. لكن هذا جعل الأمر أصعب هنا».

هزّ والده رأسه. قال: «الكحول».

ابتسم جاك: «وهذا أيضاً».

«أجل، حسناً، ربما كانت نكتة، لا أعرف. ليلة أمس كانت سيئة كأسوأ ليلة عشتها على الأرض. وظللت أفكر، سائلاً الرب، لمَ عليّ أن أهتمّ إلى هذا الحدّ؟ بدت لي لعنة وبلاء. أن أحب ابني. كيف يعقل

ذلك؟ لقد تساءلت حول الأمر مرات كثيرة».

قال جاك: «أنا آسف. لا أستطيع أن أكون أكثر أسفاً. لكنك تعرف على الأقل لمَ بقيت بعيداً كل هذا الوقت. لم يكن يحق لي العودة إلى البيت. ولا يجدر بي أن أكون هنا الآن».

«لا حق في العودة إلى البيت!»، قال والده، وارتعش صوته. «إذا كنت سأموت من دون رؤية وجهك ثانية، لشككت بطيبة الرب»، نظر إلى جاك «كان هذا خوفي. فكنت سعيداً جداً، كما تعرف، هناك لفترة».

قال جاك: «ما شعورك الآن حول طيبة الرب؟ لا أظن أن اسم الرب الطيب يجب أن يعتمد على تصرفاتي. أنا لست كفوءاً لهذه المسؤولية أيضاً، بالطريقة التي كنت أكلمك فيها هنا...».

«لا يهم. عرفت معظم الشيء على أية حال».

تفكّر والده قليلاً: «لقد علمت، ولم يشكل هذا فرقاً ولو قليلاً. كان عليّ أن أدرك ذلك. أظن أنني أدركته».

دفع جاك كرسيه إلى الخلف ونهض «أجل، حسناً، من بعد إذنكما...».

قالت غلوري: «لا يا جاك، اجلس. لقد قلقنا عليك بما يه الكفاية».

كانت نظرته إليها متعبة، وحتى ذاهلة «فكرت بالذهاب إلى غرفتي فحسب».

«لا». لمست كتفه. أمكنها أن تراه وهو يتخذ قراره بأن يثق بها، على الأقل بألا يسيء إليها. جلس ثانية.

قال والده: «اللطافة تتطلب قوة أكبر مما لدي الآن. لم ألاحظ كم

من الجهد كنت أضع فيها. إنها مثل كل شيء آخر على أية حال. على ما أظن».

قال جاك: «لا أستطيع الرحيل الآن بعد. لكنني سأرحل في أسرع وقت ممكن».

«أوه أجل، لقد جئت لأسبابك الخاصة، وسترحل لأسبابك الخاصة. وحصل فحسب أنني كنت هنا، أنني لم أمت بعد».

قالت غلوري: «عذراً أبي، لكن هذا طالَ بما فيه الكفاية».

هزّ العجوز رأسه: «ربما أكتشف أنني لست رجلاً طيباً بقدر ما ظننت. بما أنني الآن لا أملك القوة على... الصبر يستنفد المرء كثيراً. الأمل أيضاً».

قال جاك: «أظن أن الأمل هو أسوأ شيء في العالم. أظن ذلك حقاً. فهو يجعل منك مغفلاً ما دام قائماً. ثم حين ينتهي، يكون ذلك وكأنما لم يبق منك شيء على الإطلاق. باستثناء...». رفع كتفيه وضحك «باستثناء ما لا تستطيع التخلص منه».

قال والده: «أنا آسف أنك اضطررت إلى معرفة ذلك يا جاك. والآن ها هي غلوري تبكي».

هزّ جاك كتفيه وابتسم لها: «آسف».

قالت غلوري: «لا تقلق. لا ضرر في ذلك».

تنهّد والدها. «أجل، حسناً، أتمنى لو في وسعي سحب ما قلته، كلّ الكلام الذي قلته تواً. إلا أنني أفترض أنك تعرفه سلفاً. ومع ذلك، إنه مختلف حين تقول الأمور بصوت عال هكذا. وقد بدأ يبدو منذ الآن أنني لم أقصده. الآن أعرف أنني سأتمدد في سريري وأقلق حول ذلك فحسب، وأتمنى لو استمررت في سلامي، لقد فعلت ذلك طويلاً جداً».

قال جاك: «لقد فعلت. لطالما كنت بالغ اللطف».

هزّ العجوز رأسه: «آمل أن هذا ما زال يعني شيئاً».

«إنه الشيء الوحيد المهم».

«شكراً لك جاك. وأعرف أنك تريد التخلص مني الآن، لقد أنهكتك وأنهكت نفسي. سأدعكما تعودان إلى حديثكما».

ساعدته غلوري على الذهاب إلى غرفته والرقاد في سريره، وحين عادت، كان جاك مرتمياً على كرسيه واضعاً رجلاً على رجل، يفرد أمامه أوراق اللعب.

قال: «أمرّ يوم لم تفكري به؟».

«من؟».

«من! العجوز. من تظنينني عنيت. السيد 452 رسالة حب؟».

قالت: «أنت غيور فحسب».

ضحك. «صحيح. هذا غير منصف. فأنا لم أتلقَ رسالة واحدة. أمس في «البوست» لمحت قصيدة للسيدة ليندبرج[1] لن أمانع بإرسالها بالبريد. أفضل من لا شيء. وإن تعلمت أن لا شيء أيضاً له سحره. إنه شيء مختلف قليلاً فحسب عن يعاد إلى المرسل على سبيل المثال».

قالت: «أشك في أنني أمضيت يوماً كاملاً من دون التفكير في أبي. أنا أكيدة أنه كان ثمة ساعات أمضيتها هنا وهناك».

«لقد تذكرت هذا المكان مرات كثيرة جداً. في فتوتي كنت أتمنى العيش هنا. كنت أتمنى لو بإمكاني فحسب أن أدخل من الباب مثل

---

(1) Anne Morrow Lindbergh (19006–2001): كاتبة وشاعرة وطيارة أمريكية، زوجة الطيار المعروف تشارلز ليندبرج.

بقيتكم، وتعرفين، أن أجلس إلى الطاولة وأقوم بواجباتي المدرسية أو ما شابه».

«لِمَ لم تكن تفعل؟».

رفع كتفيه. «في الحقيقة حاولت ذلك مرة أو اثنتين». ثم قال: «أعرف لِمَ كان يراقبني الناس. لست واثقاً حتى أن هذا ما جعلني مضطرباً. أظن أنه جعلني أشعر أكثر أماناً أحياناً. كنت أختبره، أتسبب ببعض المتاعب لكي أتأكد من أن العجوز ما زال مهتماً لأمري. أحياناً أكون في الحظيرة، في مخزن الغلال، أصغي إلى البيانو وجميعكم تغنون عزيزتي كليمنتين وأفكر ربما نسوا أمري تماماً، وأشعر كالموت، بطريقة ما»، قال، «كنت عادة أقرب إلى البيت مما فكرت أنني كنت. حيث لا أحد يبحث عني». نظر إليها «لا تبكي أرجوك، إنني أخبرك فحسب كيف كان الأمر». ضحك «كيف هو»، ثم قال «هناك زجاجتان في مخزن الغلال إذا أردت إنزالهما، فسوف أمسك لك السلم».

«تدمع عيناي. لا أستطيع منعهما. لا أقصد شيئاً بذلك».

«إنها لطيفة في الواقع. لكي أكون صادقاً، أظن أنني أخبرك قصصي الحزينة لكي أتأكد مما إذا كانت حزينة حقاً. وبالفعل تبدأ الدموع بالانهمار، وأستطيع الاسترخاء حيال الأمر. أعني، ليس من شيء محزن في أن ينال المرء ما يستحقه. هذا ما قيل لي. أشعر أنني بريء نوعاً ما حين تبكين».

«لا أعرف. ربما أن ينال المرء ما يستحقه هو الأمر الأكثر حزناً في العالم».

«أحقاً؟ أفكر في آني ويلر الصغيرة، لا - عروس فترة لا- شبابي». نظر إليها «هذا محزن. ترين، إنني أذكر اسمها فحسب وإذا بالدموع

تنهمر»، ثم قال «أنا آسف حقاً. كان عليّ أن أكون أكثر انتباهاً».

بعد فترة قالت غلوري: «لا أمانع أن تتكلم عنها. أفكر بها أيضاً».

تنحنح. «أتعرفين أين هي؟ ليس عليك أن تخبريني. أعني، لا أظن أنها ستفيد مني البتة. هناك الكثير من المتشردين في شيكاغو. فقط تساءلت إذا كنت تعرفين».

«إذا كانت عائلتها تعرف، فقد رفضوا إخبارنا». البابا تكلم معهم حول الأمر مرات كثيرة، مفكراً أنهم ربما سمعوا عنها. كان قلقاً عليها».

قال جاك: «لقد ألحقت به الخزي حقاً».

«كان وقتاً عصيباً».

راح يخلط رزمة الورق، قاطعاً إياها، مرة بعد مرة. «آخر مرة تكلمت معه فيها قبل أن أغادر، علمت أنني فعلت شيئاً لا يمكنه اغتفاره. ظنّ أنه يستطيع مسامحتي. وقال إنه سامحني حقاً، إلا أنه كذاب رهيب. صدمني أنني أستطيع أن أؤذيه إلى هذه الدرجة. أخافني ذلك. كان ما توقعته، إلا أنه أخافني. كان مثل القفز عن جرف. وكان شيئاً مريحاً أيضاً. فكرت، لقد حصل ذلك أخيراً. كنت أعرف أنه سيحدث». ضحك «أظن أني بقيت ثملاً خلال السنوات الثلاث التاليات. وجد تيدي نداءه الداخلي لمهنة الطب من خلال محاولة إنقاذ حياتي. المسكين، حين أفكر بما عاناه معي. في التاسعة عشرة، كان يحاول أن يدرس، وأن ينضم إلى فريق البايسبول في الجامعة، وأن يجعلني أذهب إلى الصف. قبضوا عليه يغش مرة. أخذ مكاني في امتحان. أظن أن حسّي بالنزاهة قد تحرك لفترة وجيزة، لأنه كان آنذاك حين رحلت إلى سانت لويس. من الواضح أن العميد قرر أن تيدي انتهك قانون الشرف لأسباب مشرفة، لا أعرف.

لكن كان هذا ليمنعه من إكمال دراسته، وليشوّه سجله، ويمنعه من دخول كلية الطب». قال «كانت سانت لويس بمثابة القفز عن جرف آخر. وكان هذا مريحاً كذلك».

خلط الورق، ثم وضعه، وجمعه ثانية، وعاود خلطه، «كل هذا بلا معنى»، قال، «إنه بشع تماماً. فكرت لبعض الوقت أنني وصلت إلى النهاية. لا، كنت أعرف أفضل من ذلك. عرفت أفضل، قال، «والد ديلا استعلم عني. أراد... معلومات عن شخصيتي». ابتسم.

«أنا آسفة».

«أخبرني بضعة أشياء عن نفسي كنت قد نسيتها. أراني رسالة كتبها لديلا. قال إنه لن يريها لها لو تركتها وشأنها. لم يكن بمقدوري فعل ذلك. لكنها بقيت معي. كان ذلك صعباً».

«لكنك كنت بخير حينئذ، حين كنت مع ديلا».

«أيغير الإسكتلندي جلده أو الفهد رقطه؟ فأنتم أيضاً تقدرون أن تصنعوا خيراً أيها المتعلمون الشر[1]. كان يحاول فحسب حماية ابنته. أحترم ذلك. في حقيقة الأمر إنه يشبه كثيراً والدنا الموقر الذي يحاول دوماً حماية الجميع». وضع أمامه الورق «على أيّة حال أشعر أنني أشبه بنفسي الآن. أريد، أرجو... الأمر أشبه بما قاله العجوز، هذه الأمور تستنفد الكثير منك. لكن هذا... هذا يمكنني فعله».

«سوف ترسل لها رسالة».

هز رأسه. «لا جدوى من إرسالها. في المقابل، لَم نضيع الطابع؟»، نظر إليها «غلوريا دولوروسا. من اللطيف منك أن تهتمي إلى هذه الدرجة أيتها الرفيقة. إنه كذلك حقاً».

---

(1) الكتاب المقدس، سفر إرميا، 13: 24، إلا أنها في الأصل الأثيوبي لا الإسكتلندي.

انتظرت حتى تخثّرت الزلابية ثم سكبتها في الدجاج المطهو. هي أيضاً تناولت بعض الزلابية الرهيبة. فكرت أن تتساءل إذا كانت جيدة يوماً بالمعنى الاعتيادي، إذا لم تكن في أفضل حال مألوفة فحسب، غير سيئة. كانت غير سيئة أكثر من اللازم فحسب. ربما كانت تحب كلمة زلابية أكثر من الأكلة نفسها.

قالت: «لديّ فكرة يا جاك. يمكنني الذهاب إلى ممفيس، والتكلم إليها. إذا أصلحت السيارة، يمكننا الذهاب معاً. سوف نتصل بتيدي، وسيأتي للاعتناء بوالدنا لبضعة أيام. سيفعل ذلك لو طلبناه منه. ثم سأذهب ببساطة إلى بيتها. أو إلى كنيستها. لن يلاحظني أحد، وربما أتمكن من التكلم إليها».

«هذا لطيف. لكن فلنفترض فحسب أنهم لم يلاحظوك» ضحك، «أنا واثق من أنهم سيفعلون. لكن إن لم يفعلوا. ما الذي ستقولينه لها؟ أنه ليس ثمة من يرضى بمنحي وظيفة، وأنني عاودت الشرب، وأنني أخفقت مؤخراً في إشعال النار في الدي سوتو والذهاب إلى الجحيم؟ أنني المسؤول ميتافيزيقياً عن القبر الصغير الأكثر إزهاراً في جلعاد؟».

«لا تقل ذلك».

«ما الذي كنت لتقولينه يا غلوري؟ ها قد تبيّنت وجهة نظري».

«كنت لأقول لها إنك تنتظر في السيارة».

«مع دزينة من الورود، والمحرك يعمل».

«وعلبة شوكولا».

أشاح جاك نظره وابتسم. ثم قال، بصوت شديد الانخفاض: «لا تفعلي يا غلوري، عليّ أن أتعامل مع الواقع. أو على الأقل أن أقبل حقيقة أن الواقع يتعامل معي». تلمّس وجهه، «أنا وغد أقسى مظهراً مما كنت

عليه حين وصلت إلى هنا. وحتى حينذاك كنت متفاجئاً أنك سمحت لي بالدخول. لا أظن أنني أريدها أن تراني الآن».

«ستكون أفضل حالاً بعد يوم او اثنين. ثم يمكنك أن تقرر».

ضحك: «هذه خطة رهيبة. لا أستطيع أن أصف لك كم هي سيئة».

«ولكن هلا فكرت بها».

«أجل»، قال، «من الجميل التفكير بها. أودّ أن أريهم من أي عائلة لطيفة جئت. لو استطعت تشغيل المذياع، لاستمعنا إلى بعض الموسيقى في الطريق إلى ممفيس. وقد ألقي نظرة على ذلك المحرك على أية حال. كنت تستفيدين بعض الشيء من العربة القديمة. سوف أحاول تشغيلها ثانية»، ثم قال: «أما زال قميصي هناك؟».

«لا، أحضرته هذا الصباح. جربت صابون الغسيل ولم يجد ذلك كثيراً. وأشك أن المبيض سينفع أيضاً. فكرت بأن أسأل ليلى. لكن ذلك الكم ليس ملطخاً كثيراً»، قالت «بدلتك معلقة على الشرفة. وقد أحرقت جوربيك».

نظر إليها «الدموع مجدداً»، ضحك «الأسف هدرٌ عليّ يا غلوري. أنا أفعل ألعن الأشياء، ولا أمل يرتجى. لقد احتفظت بهذا القميص طويلاً جداً. لا أستطيع حتى الاحتفاظ بالأشياء».

قالت: «لم أستسلم بعد. إن لم أستطع إزالة تلك اللطخات، فسوف أخيط الكم إلى القميص الآخر. لن يكون هذا صعباً».

«لا تفعلي»، قال، «دعيني أعتد الأمور كما هي. هذه أكبر خدمة يمكنك أن تسديها لي غلوري»، ابتسم، «لكن شكراً. أنت فتاة طيبة».

«أجل. في الصباح سوف آخذ رسالتك إلى مكتب البريد».

«حسناً، لقد أخرجت حقاً تلك الزجاجتين من منضدتي؟».

«في أثناء نومك».

«جيد. من الخطأ الوثوق بي. آسف على هذا».

في حين اعتنت بوالدها حضّر جاك المائدة. أحضرت العجوز إلى المطبخ وأجلسته. قال، «أجل»، وأحنى رأسه وظلّ صامتاً لبعض الوقت، ثم «من بعد إذنك غلوري».

«حسناً، إلهنا العزيز، بارك لنا هذه النعمة وباركنا لنكون في خدمتك، ولا تنسنا حاجات الآخرين. آمين».

«أجل، لطالما اعترضت على هذا الدعاء. لو كان أسهل قليلاً فحسب معرفة ما هي حاجات الآخرين. مطلوب أكثر بقليل من التنبّه فحسب. تلك كانت تجربتي قطعاً».

قدّم جاك الدجاج والزلابية بشيء من اللياقة الساخرة للأيام السابقة، إنما بصمت وهدوء، وقد زال التوتر السابق الآن. كانت الزلابية لزجة من الخارج ومعجنة من الداخل، لكن ربما هكذا تكون فحسب، فكرت غلوري. لطالما كانت كذلك. قال والدها: «ممتاز»، وتناول نصف قطعة.

قال جاك: «ليس هناك ما هو أروع من الزلابية الجيدة».

قالت: «إلا الزلابية السيئة».

ضحك. «صحيح، إنهما متشابهتان». ثم نظر إليها، «آه الدموع».

قال والدهما بحدة، «لا ينبغي أن تغيظ أختك. أنتم الفتية تحسبونها لعبة ما، لكنني لا أحبها. الرجل المحترم يراعي دوماً النساء. لقد قلت هذا مرات كثيرة. وهذا يشمل شقيقاتك أيضاً، حتى الصغيرات. هذا مهم

جداً. أتمنى أن تفكر فيه». لم يبد ناعساً وإن كانت عيناه مغمضتين.

قال جاك: «حاضر سيدي»، لكي يهدّئ خاطره، ثم جلس يحملق به، مستوعباً ما قاله العجوز للتو.

«كنت أشير لأمك حول ذلك الليلة الماضية فحسب. لا يجب أن نسمح بهذه الإغاظة».

أدركت غلوري فجأة أن تعب الليل والنهار سيطرا عليها، وأن أملها بالراحة لا علاقة له بالطريقة التي تحدث بها الأشياء فعلاً في العالم. كان والدها جاثماً في كرسيه، يكاد ذقنه يلامس طبقه، ناعساً ومتكلماً من منطقة لا يمكنها أن تأمل إلا بأن تكون حلماً، وكان شقيقها ينسحب إلى استسلام تام، وكأن التوهج القديم قد استهلكه قبل أن ينطفئ. إلا أنه جلب لها منشفة شاي لكي تجفف دموعها، ثم ساعد والده على العودة إلى غرفته.

أيقظها حرّ الصباح، فعرفت أنها نامت حتى وقت متأخر. لم يكن من أصوات في البيت، ولا رائحة قهوة. شعرت بالتيبّس في جسدها، وكأنها بذلت مجهوداً منهكاً، وكانت دائماً فكرة أنها يمكن أن تفوت بريد الصباح التي تحثها على الاستيقاظ وغسل وجهها وتنظيف أسنانها وارتداء ثيابها، وجعل نفسها لائقة المظهر لأي مار أو عامل قد يراها على غير هذه الحال ويتساءل أي دراما جديدة حصلت في منزل القس العجوز. كانت قد وضعت الرسالة في منضدة الزينة الليلة الماضية، في حال غيّر جاك رأيه واختار ألا يرسلها بداعي اليأس. هبطت الدرج بكلّ هدوء تستطيعه وخرجت من الباب.

وها هو العالم، فكرت، تماماً كما تركناه. سماء بيضاء حارة ونسائم

ناعمة، ودمدمة بين الأشجار، الصرير الحاد لبضعة زيزان. كان ثمة أكواز على الطريق، بعضها داسته السيارات العابرة. وقد بدأ الأقحوان قد بالتبرعم. وحبيبات القرع الصفراء غمرت رقع الخضروات وسويقات الطماطم أثقلت بأحمالها. صيف آخر في جلعاد. جلعاد التي تتنفّس لعنة الرتابة والسبات. كيف يمكن أن يرغب أيّ كان في العيش هنا؟ كان ذلك السؤال الذي طرحوه على بعضهم بعضاً، حين لا يكون والدهم على السمع، لدى عودتهم من الجامعة، أو من العالم. لمَ قد يرغب أيّ كان بالبقاء هنا؟

في الجامعة درسوا جميعاً التأثيرات المزعومة للاقتلاع وهي القلق والتشظي، ضروب الرعب البليدة تلك في العالم الحديث. وقد أجابوا عن أسئلة امتحانات حول الموضوع، وراجعوا فلسفات كئيبة منذرة في أوراق البحوث، وقد فعلوا ذلك بالإرجاء الجاد للشك الذي يبتلى به من يملكون قابلية عالية للتعلم. ثم عودتهم إلى مسقط رأسهم، حيث أشجار الصفصاف القديمة نفسها تكتسح المرجات الرثة نفسها، وحيث البراري عينها تبرز وتتبرعم كلما سمح التجاهل بذلك. البيت. أي مكان ألطف منه في العالم، ولماذا يبدو لهم جميعاً كالمنفى؟ أوه، أن يكونوا مارين مجهولين أمام الطبيعة المجردة! أوه، ألا يعرفوا كل جذل شجرة وكل حجر، ألا يتذكروا كيف كانت تبدو، حقول «شريط الملكة آن»، في السعادة الطفولية التي قدموها لآمال والدهم. باركه الرب.

عليها التكلم إلى الجيران في حدائقهم، إلى المعارف الذين تلتقيهم على الرصيف. قد يلاحظ الغرباء في مدينة كبيرة باردة الحزن في عينيها، وربما يتذكرونه لساعة او اثنتين مثلما يتذكرون لوحة أو صورة فوتوغرافية، إلا أنهم لن ينتهكوا خصوصيتها. أما هؤلاء الناس الطيبين

فيمكن أن يقلقوا بشأنها، يذكرونها، ويطلقون التخمينات بين بعضهم بعض بشأنها. أيها الرب العزيز، رأت قلقاً في عيونهم، أسفاً. المسكينة غلوري، لم تكن حياتها جيدة. فتاة لطيفة جداً، وذكية. ذكية جداً.

تلك القابلية الغريبة على الإحساس بالافتقار، وكأننا بطبيعتنا يجب أن يكون لدينا أكثر بكثير مما تمنحنا إياه الطبيعة. وكأننا عراة بصورة صادمة حين نفتقر إلى الرضى المتمثّل في الحياة الاعتيادية. في الافتقار، حتى للشعور أو الهدف، يكون الإنسان اكثر بشرية بصورة أكثر إقلاقاً وهشاً أمام اللطافة لأنه ثمة الإحساس أن الأشياء يجب أن تكون مختلفة، ثم هناك فكرة ما هو العوز وما يمكن أن تكون الراحة، وكيف ستستكين الروح. تستعاد. تسكن. لكن النفس تجد موطنها الخاص إذا كان لها موطن على الإطلاق.

كان روبي وطوبياس في الدكان يخرجان حبتي بوظة من الثلاجة الصندوقية التي يتصاعد منها البخار. كل واحد منهما يحمل قطعة نقدية تساوي عشرة سنتات كسبه كسباها من اقتلاع الأعشاب الضارة في حديقة ليلى. أرياها قطعتيهما. وضعت رسالة جاك في الصندوق، وسمعت آراء البائع عن الطقس، وسارت عائدة إلى البيت، والصبيان يمشيان وراءها، متقافزين ودائرين حولها ومتراجعين بضع خطوات، غير مستسلمين بعد لسأم المشي فحسب. قسم كل منهما قطعته مثلما يجدر قطعها، وقدم لها طوبياس بكل رضى نصفها، وقالت لا شكراً لك وهو ما أفرحه. قال روبي: «سوف أوفر النصف الخاص بي للسيد بوتون».

قالت غلوري: «يمكنك مناداته جاك. لن يمانع».

هزّ روبي رأسه: «قال والدي إنه يجدر بي مناداته سيد جاك».

مشى بجانبها مستغرقاً في عود البوظة، محاولاً الإسراع عندما بدأ الثلج يذوب على العود. وحين وصلوا إلى الناصية حيث يقع بيت طوبياس، مضى هذا إلى بيته وأكمل روبي الطريق معها. قال: «تحب أمي أن أساعدها. وأبي أيضاً، إلا أنه يتفرج فحسب. يجلس على الشرفة».

أخبرتها ليلى مرة أن الفتى عليه أن يتعلم قيمة العمل. أدركت غلوري أنها عنت أن ذلك سيكون دعمه الوحيد في نشأته، وأن الحياة ستكون صعبة عليهما. قالت: «سنرحل في وقت ما، ليس من شيء يبقينا هنا». وذلك حين كانا على النهر في عيد ميلاد آيمز، وذهبتا لكي تشطفا الصحون، وتوقفتا لتشاهدا روبي وطوبياس يرميان وريقات أشجار في دوامة بين نتوءين رمليين. قالت: «نأمل أن يتذكر شيئاً من ذلك». ثم رأت غلوري المكان بوصفه المكان الذي ترغب فيه أم كذكرى لطفلها، وكان ذلك تماماً، النهر حيث يتسع وحيث يصير ضحلاً، والتشابكات على ضفته التي تشكّل جداول صغيرة من المياه البطيئة، وذلك التبرعم على الجزر الصغيرة الأكبر، والفراشات المنتشرة في كل مكان، والأشجار التي تتشابك فوقه، مظللة إياه، كاشفة قاعه حينما يكون التيار هادئاً. جميعهم أحبوا النهر، كل الأجيال، وجاك أيضاً. انحنت وغمست يديها بالماء ووضعتهما على وجهها، لكي تخفي حرجها من الدموع، إنما أكثر من ذلك، لأن النهر كان ببساطة نقياً، وهي حقيقة قلما تُدرك. عندما عاشت بمفردها كانت تتذكره أحياناً.

كان جاك جالساً على العتبة الأمامية، واضعاً كوعيه على ركبتيه،

بانتظارها. وحين رآهما نهض ورمى سيجارته ودخل إلى البيت. قال روبي: «حسناً أيمكنك أن تعطيه هذه؟»، وناولها نصف حبة البوظة، التي ذابت في غلافها.

قالت: «ليس مرتاحاً اليوم».

هزّ رأسه: «لا يرغب في أن يلعب معي الكرة».

«لا، لا يرغب في ذلك».

«إذن ربما يفعل أبي».

«صحيح»، قالت. كان أمله برؤية جاك ما حدا به إلى مرافقتها. والآن استدار ولوح مودعاً وهرع إلى البيت.

وجدت جاك جالساً إلى طاولة المطبخ، يلعب الورق.

قال: «عذراً، لست في مزاج لمحادثة خفيفة».

«طلب مني أن أعطيك هذه».

«عظيم. فتى رائع».

تبعها إلى الحظيرة وفتح لها الباب. قال: «ابقي هنا». ثم جرّ قفصاً فارغاً من الجدار، ووقف عليه، وأمسك حافة مخزن الغلال بيد واحدة، وباليد الأخرى سحب السلم الموضوع على أرضية السقيفة بعيداً عن الأنظار. حين ارتطم أسفله بالأرض، كان ثمة صوت مزعج للخشب والمسامير الناتئة. قال: «كنت هنا ليلة أمس حين جئت بحثاً عني. أردت أن أقول شيئاً. لكنني.. لم أفعل». رفع كتفيه: «لم أكن هائماً في شوارع جلعاد، إذا كنت قد قلقت بهذا الشأن. لم ألحق الخزي بالعائلة».

أمسك لها السلم القديم المتزعزع في حين تسلقته هي إلى سقيفة الغلال. كانت رائحتها تذكر بالروائح في الهواء الطلق، ومثل الحشيش أو الخيش والخشب الجاف، كانت مكاناً ذا تاريخ من المطر والحرّ، وقد

هجرها الاستعمال البشري منذ زمن طويل. كان إخوتها وأخواتها الأكبر يخبرون قصصاً عن اللعب فيها، إلا أن والدهم منعهم من اللعب هناك لسنوات قبل أن تولد بسبب شظايا الخشب على ألواح الأرضية، والمسامير التي برزت من الألواح الخشبية في السقف المنخفض، وقد أبعد السلم لكي لا يقعوا في الغواية. ومع ذلك، فقد استنبط الصبيان من وقت لآخر أن يرفعوا بعضهم بعضاً إلى ذلك المكان السري المحظور لكي يختبئوا ويكمنوا فيه، وهو دافع لم يكن في وسع حتى تيدي مقاومته. لم يخطر لهم يوماً أن يصحبوها معهم لأنها ظلت لسنوات سيئة السمعة بوصفها واشية، منذ أن فاقتهم نضوجاً. فكانت هذه أول مرة تضع قدمها في المكان المتخيل.

كان جاك قد مدّ حبل غسيل من عارضة إلى أخرى لكي يقيم خيمة منخفضة في زاوية الأرضية والسقف. انحنت ونظرت إليها. كانت الزوايا مثبتة بالمسامير بحرص. وكان قد وضع صندوقاً خشبياً على جانبها ليستعمله كمنضدة ورف، ومصباحاً يدوياً، وبضعة كتب، ومرطبان مايزنيز فارغ فيه حفنة من الكعك. والصورة المؤطرة للنهر. كوب زجاجي وزجاجة خمر غير مفتوحة، فرغ ثلاثة أرباعها. كانت الحجرة الصغيرة المعتمة فوّاحة برائحة الويسكي والعرق. بدت شبه منزلية، ومع ذلك فقد احتوت على قدر من الوحدة كأنما روح قائمة تقيم فيها، روح قد ارتجلت هذه الخيمة لكي تحل مكان الملاذ الآخر، الجسد. فكرت ماذا لو نجح في أن يقتل نفسه، ثم وجدت هذا، مصنوعاً بعزم ودقة من لاشيء قد يريده أيّ كان، مع النفس الحاد للحزن ما زال فيه، البطانية ما زال يظهر عليها أثر الاستعمال.

قال جاك: «أأنت بخير؟ أنا آسف. ما كان عليّ أن أطلب منك...».

قالت: أنا بخير». عرف من صوتها أنها تبكي، إلا أنها كان عليها أن تقول شيئاً ما، وكان يتوقع أن تبكي بالتأكيد. سحبت البطانية من الخيمة، فسحبت زجاجة فارغة معها. وضعت الزجاجة جانباً وطوت البطانية وأعادتها. ثم سحبت القفص نحوها وأخذت القنينة والكأس ووضعتهما جانباً. كانت الكتب: «حال الطبقة العاملة»، «العالي والجبار»، ونسخة صغيرة بالية من الكتاب المقدّس. كان المصباح اليدوي قد فرغت بطاريته، بيد أنها أطفأته ووضعته بجانب الكتب وأعادت القفص إلى مكانه. بدا من قبيل الورع والكفارة تسوية الفوضى التي تسبّب بها هذا الرجل شديد الترتيب في ارتباكات أساه.

قال: «أظن أنه يوجد زجاجتين فحسب فوق. أنا واثق من ذلك».

هذا عنى أنها استغرقت، بالنسبة إليه، أكثر من الوقت اللازم. وسيكون محرجاً أنها رأت سريته ولمستها، تلك السرية الشبيهة جداً بالخزي، بالألم، إلى درجة أنه يستحيل تمييزها عنهما. قالت: «أنا آتية»، وبقيت في مكانها، منحنية هناك، مذهولة مما تراه، وكأنه الإشارة الأكثر تواضعاً على لغز عظيم، وهو يأتي من منطقة حيث الوحدة والأسى هما الزمن والطقس.

أسندت الزجاجتين إلى خاصرتها بيد، وباليد الأخرى أمسكت السلم ونزلت.

قال جاك: «أنا هنا»، وأمسك السلم لها. ثم ابتعد إلى الخلف واضعاً يديه على خاصرته، ناظراً إليها بتعبير متردد بعيد يعني أنه يشعر أنها تقوم

بتقييم جديد له. قال: «غريب بعض الشيء، أليس كذلك؟ بائس قليلاً؟ عذراً».

قالت: «لا يهم، أظن أن هذا كل شيء».

هزّ رأسه.

«لقد سكبت الزجاجتين الأخريين في البستان».

قال: «جيد، صنعت هذه لكي أبقي الخفافيش بعيدة حين أقرأ على ضوء المصباح. الخفافيش تنجذب إلى الضوء، أتعرفين ذلك؟ معلومة مفيدة. كما أنها وقتني من المطر. هذا السقف بلا فائدة تقريباً. فكان ثمة جدوى ما من ذلك. بالنسبة إلي».

انتظرها وحين عادت من البستان والسقيفة ومشى إلى البيت معها، متلبثاً وراءها بضع خطوات. قال: «سوف أزيل هذه الخيمة غداً. كوخي. سوف أنظف الأمور هنا قبل أن أرحل. لقد خربت الكثير من الأشياء».

«لا يزال الوضع أفضل بكثير مما حين جئت».

فتح الباب الشبكي لها. قال: «سوف أحاول أن أزيل بعض هذه اللطخات عن يديّ. لا أستطيع أن أساعد كثيراً في رعاية والدنا قبل أن أفعل ذلك. أظن أنه خائف مني، على نحو ما أبدو الآن».

«لا، إنه يكره فحسب فكرة أنك ألحقت الأذية بنفسك».

هزّ رأسه: «يمكن للمرء كره الأفكار. هذا مثير للاهتمام. أكره معظم أفكاري». فتح الخزانة التي تحت المغسلة ووجد الفرشاة.

قالت غلوري: «ربما يمكنك فرك يديك بالدهن. هذا سيزيل الشحم على الأرجح. الفرك سوف يتسبّب بتهيجها». أخرجت الصفيحة من

الخزانة، وسكبت ملء ملعقة ووضعتها في راحة يده. قالت: «أتذكر حين كلمتني عن روحك؟ عن إنقاذها؟».

رفع كتفيه: «أظن أنك ربما تخلطين بيني وبين شخص آخر».

«وقلت لك إنني أحب روحك كما هي».

«الآن أنا أكيد من أنك تخلطين بيني وبين شخص آخر». ظلّ منكباً على فرك يديه.

«فكرت بمَ كان يجدر بي قوله وقتذاك، ولم أغير رأيي البتة. ولهذا السبب أحرجني ذلك، لأنه سيكون شديد الغطرسة مني... لست واثقة حتى ما الذي يعنيه»، ثم قالت: «ما هي الروح؟».

رفع رأسه. ابتسم وتملى وجهها: «لمَ تسألينني؟».

«يبدو لي فحسب أنك قد تعرف».

رفع كتفيه. «على أساس علمي وخبرتي الواسعتين ،يمكنني القول... إنها ما لا يمكنك التخلص منه. الإهانة، الحرمان، العنف المباشر- 'إذا فرشتَ في الهاوية فها أنت'[1]، وما إلى ذلك، 'إن أخذت جناحي الصبح، وسكنت في أقاصي البحر'.

«اقتباس مناسب».

«خطر ببالي. لا تستنتجي الكثير منه».

«حسناً، روحك تبدو جيدة بالنسبة إلي. لا أعرف ما الذي يعنيه هذا أيضاً. على أية حال إنه صحيح».

قال: «شكراً أيتها الرفيقة. لكنك لا تعرفينني. حسناً، تعرفين أنني سكير».

(1) الكتاب المقدّس، المزامير، 139:8، «إن صعدت إلى السموات فأنت هناك، إذا فرشت في الهاوية فها أنت». أما الاقتباس التالي فهو من الآية التالية.

«ولص».

ضحك: «أجل سكير ولص، وأنا أيضاً جبان رهيب. ولهذا السبب أكذب كثيراً».

هزت رأسها: «لاحظت ذلك».

«بلا مزاح. ما الذي لاحظته أيضاً؟».

«لن أذكر النسوة الهشات».

قال: «شكراً، كرم بالغ منك في ظل الظروف».

هزت رأسها: «أظن ذلك».

قال: «أنا مغرور بطريقة لا يمكن تعليلها، رغم كل شيء، ولدي نزعة للأذية لا تقف عند حدّ الجهود العقيمة للدفاع عن النفس».

«لقد لاحظت ذلك أيضاً».

هزّ رأسه: «لا أظن أن هناك شيئاً حاذقاً في ذلك».

أحضرت قطعة قماش وبدأت تمسح برقة الدهن الداكن عن يديه. أخذ منها القماشة.

قال: «إذن، يجب أن نعد قائمة بخطاياي العرضية[1]».

«لا يؤمن المشيخيون بالخطايا العرضية».

«أنا واثق من أن وصف مشيخي لا يناسبني».

«أوه، اصمت!».

ضحك. «حسناً. خطاياي الأصغر. ليس أن المشيخيين يؤمنون بذلك أيضاً. أتريدين قائمة بالخطايا الكبيرة؟ تلك المميتة؟».

«ليس حقاً».

---

(1) Venial Sins: هي الخطايا التي لا تؤدي إلى الموت (الروحي)، تقابلها الخطايا المميتة التي يحكم بمرتكبها باللعنة الأبدية.

قال: «هذا جيد، الموقر مايلز، والد ميلا، وكاتب سيرتي، أخبرني أنني كناية عن متاعب فحسب. شعرت بالحقيقة في ذلك، أنني لست بشيء حقاً»، نظر إليها «إنني لا شيء له جسد. أخلق نوعاً من الفراغ حولي وأنا أعبر العالم، ومن المنصف تسمية ذلك بالمتاعب. هذا لغز على ما أظن»، قال «ولهذا أنكفئ على ذاتي. حين أستطيع ذلك. آه. والآن الدموع».

«ألا تظن أن الجميع يشعرون هكذا أحياناً، مع ذلك؟ أنا بالتأكيد شعرت كذلك. حين كانت معك ديلا لم تشعر كذلك. لو لم تكن وحيداً إلى هذه الدرجة، أعني، والدنا محق بهذا الشأن. لو تدعنا نساعدك فحسب».

قال: «حين توفيت أمنا كان قد مضى يومان على خروجي من الحبس. فكنت قادراً على العودة إلى البيت. أتكلم بصراحة. لكن يتطلب وقتاً للتخلص من هذا كما تعرفين. لغسله عنك. لكي تشعري أنك قادرة على الاختلاط بالمشيخيين. والعجوز لا يفوته شيء. لم أكن راغباً في أن يراني. كنت مرتعباً من الفكرة. فاستعملت الحوالة المصرفية التي أرسلها لي لكي أشتري بعض الثياب الجديدة. علمت ماذا سيفكر بي حين يعلم أنني صرفت الحوالة». ابتسم لها: «كنت شاكراً على ذلك. كنت حقاً. لم أكن في الفندق الذي أرسل إليه المال منذ مدة. وفوجئت بأن الرسالة عثرت عليّ. لم يفتحها حتى. أنفقت جزءاً من المال في حانة. ما تبقّى منه».

قالت غلوري: «لست مضطراً إلى أن تخبرني شيئاً لا تريد أن تخبرني به. ليس أن هذا يهم. لا يهمني أنك كنت في الحبس».

قال: «حقاً؟ لقد أثار ذلك انطباعاً كبيراً عندي. أظن أنه مكان

متناسب تماماً مع كوني لا شيئاً كما أنه لا رجاء عندي بالعثور على مكان أفضل منه». ضحك: «في الحبس، يسمون ذلك حسن سير وسلوك. وهو أمر لم أكن متهماً به كثيراً». قال: «السجن عزّز طباعي الغريبة. أنا واثق تماماً من ذلك».

«مضى أكثر من عشر سنوات على وفاة أمنا. إذن كنت بحال حسنة منذ خروجك من الحبس».

«أجل، كنت كذلك. والآن أعرف أن تلك الفترة كانت شاذة في سياق حياتي. لا شيء يمكنني تحمله وحدي. اكتشفت أنني ما زلت غير قادر على الوثوق بنفسي. فإذن أنا عائد إلى حيث بدأت»، ابتسم «بما أنك تسامحين كثيراً، فعليك مسامحتي على هذا أيضاً. حسناً، أظن أنك غير مضطرة لذلك».

«تعرف أنني سأسامحك».

بعد برهة قال: «لعلك تتساءلين على الأرجح أي نوع من النسوة هي ديلا، التي تحيا مع رجل مثلي».

«تقرأ الفرنسية وتطرز. وتغني في كورس».

«هناك أمور لم أخبرك بها بشأنها».

هزّت كتفيها: «بعض الأشياء خاصة».

ضحك: «أجل بالضبط». مسح يديه. ومدهما نحوها لكي تراهما. «ليستا بالغتي السوء على الأقل. أتمنى لو كان ثمة ما يمكنني فعله بوجهي».

«يمكنك الحصول على قسط من النوم».

«ليست فكرة سيئة. من بعد إذنك. ثمة أشياء نويت فعلها اليوم».

«نم لساعة أو اثنتين أولاً».

قال: «أجل، سأفعل ذلك، شكراً لك». توقف في منتصف السلم. «أخبرتك قبل قليل بأنني كنت في الحبس. كان عليّ أن أقول السجن[1]. كنتُ في السجن». ثم نظر إليها لكي يرى ردة فعلها.

قالت: «لا يهمني أنك كنت في السجن»، إلا أن قول ذلك كلفها بعض الجهد، وسمعها وابتسم لها لبرهة، متملياً إياها لكي يتأكد من أنها تعنيها.

قال: «أنت فتاة طيبة».

كان وقت العشاء حين نزل جاك ثانية. قال: «نمت مدة أطول مما نويت. عذراً». بدا بالفعل أكثر شبهاً بنفسه، فكرت. عبارة غريبة، بما أنه لطالما كان نفسه، وربما بصورة خاصة خلال اليومين الأخيرين. كان يرتدي ملابس والدها القديمة وربطة العنق الزرقاء المقلمة، وكان مصفف الشعر حليق الذقن. ويضع عطر أولد سبايس. وقد زرر الزر الأعلى في السترة، وفكها ثانية، ثم نزع السترة قائلاً: «هكذا أفضل على ما أظن»، ونظر إليها لكي يحصل على موافقتها.

قالت: «في هذا الحر».

«أجل، لكن ربطة العنق مناسبة».

«تبدو جيدة».

كان من الواضح أنه ينوي شيئا ما. كان هذا على الأرجح جيداً بالإجمال. كان ثمة نوع من رباطة الجأش المشوبة بالتوتر فيه، وبدا أقرب إلى ارتفاع المعنويات. قال: «ماذا سنتعشى».

(1) على الرغم من استعمال كلمتي Jail و Prison بمعنى واحد أحياناً، غير أن لكل منهما معنى قانوني مختلف عن الآخر، فالأولى تعني الحجز لمدة قصيرة، في حين أن الثانية تعني المكان الذي يسجن فيه أولئك المحكومين أحكاماً طويلة.

«الدجاج بالصلصة. من بواقي الطعام. لا زلابية هذه المرة. لكنني أعددت فطيرة أيضاً».

قال: «حسناً، ظننت أننا سنأكل في حجرة الطعام. إذا كان لا بأس بذلك. مع الشموع. يبدو الضوء قوياً جداً هنا. لأولئك منا الذين يخشون الضوء ويحبون العتمة». ضحك.

فكرت، لا يريد أن يتألم والدنا من رؤيته بوضوح. بالطبع. قالت: «كما تريد. سوف أفتح النوافذ وأضع المروحة هناك. يصير الجو خانقاً في هذا الطقس».

«سوف أهتم بذلك».

ذهبت إلى غرفة نوم والدها ووجدت العجوز مستلقياً هناك صاحياً يتفكر. حين كلمته قال: «أحب سماع كل هذه الأصوات. كانت تقول أمك إن هذا البيت أشبه بكمان قديم، الأصوات التي يصدرها، وأظن أن ذلك صحيح. إنه بيت رائع». كان لا يزال منهكاً من الليل الطويل، فكرت، وهو لا يزال نصف نائم.

«أترغب في النهوض الآن يا أبتاه؟ لقد أعددت العشاء. جاك حصل على قسط من النوم بعد ظهر اليوم، وهو الآن يعدّ المائدة».

نظر إليها: «جاك؟».

«أجل، إنه أفضل حالاً بكثير».

«لم أعرف أنه كان مريضاً. أجل، يحسن بي أن أنهض». كان قلقاً إلى حدّ أنه نسي وهن جسده، وفوجئ حين وجد نفسه يكابد للجلوس مستقيماً.

قالت: دعني أساعدك».

نظر إليها بقلق: «لقد حصل شيء ما».

«انتهى الآن. إننا جميعاً بخير».

«ظننت أن الأطفال هنا. أين هم؟».

«إنهم في البيت بقدر ما أعلم يا أبتاه».

«إلا أنهم هادئون جداً!».

قالت: «لحظة واحدة يا أبي. سوف أطلب من جاك أن يعزف لنا شيئاً بينما نستعد للعشاء».

«جاك هنا إذن».

«أجل إنه هنا».

خرجت إلى غرفة الطعام وطلبت من جاك أن يعزف، وعادت لكي تساعد والدها «برقة ونعومة»، قال العجوز «أغنية رائعة. أهذه غرايسي؟».

«لا، إنه جاك».

قال العجوز: «لا أظن أن جاك يعزف على البيانو. لعلها غرايسي».

جاءت بوالدها إلى الرواق. وقف على مسافة من البيانو، وترك ذراعها، ووقف ينظر إلى جاك بفضول حائر. همس «إنه يعزف جيداً. لكن لماذا هو هنا في بيتنا؟».

قالت غلوري: «لقد جاء إلى البيت لكي يراك يا أبتاه».

«حسناً، هذا رائع جداً على ما أظن. لا ضرر فيه».

عزف جاك الترنيمة حتى النهاية، وتبعهما إلى غرفة الطعام. كان قد عاود ارتداء سترته. ساعد والده على الجلوس. ثم ساعد غلوري ثم جلس قرب والده. نظر إليه العجوز وكأنه تصرف على راحته، ليس بعدوانية إنما بصورة مفاجئة بجلوسه معهما. قال: «غلوري، من بعد إذنك».

«اجل، حسناً»، أغمضت عينيها «أبانا في السماء، كن في عوننا. يا ربنا العزيز، كن في عون كل أحبائنا. آمين».

نظر إليها جاك وابتسم: «شكراً لك»، قال.

هزّ العجوز رأسه: «هذا يلخص الأمر جيداً جداً».

ابتعد شقيقها عن ضوء الشمعة وهي تقدم الطعام. دفع كرسيه إلى الخلف ورتب ربطة عنقه أمام قميصه، ثم طوى يديه في حضنه وكأنه تذكر أن يقيهما بمنأى عن النظر. من وقت لآخر حانت نظرة جانبية من والده إليه، إلا حين سألت غلوري إذا كانا يرغبان بالمزيد من أي شيء. لم تقرأ الصحيفة منذ أيام أو تستمع إلى المذياع أو تشاهد التلفزيون. فلم تجد طريقة تفتح فيها موضوع آيزنهاور أو دالاس أو البايسبول أو مصر، الأمور التي تثير اهتمام والدها، وتخرجه من أحلامه. على الأقل كان هو وجاك يأكلان.

أخيراً تنحنح جاك. مع ذلك كان صوته همساً منبعثاً من الحلق «سيدي»، قال، «هناك أمور أردت أن أقولها لك. إذا كان هذا الوقت المناسب. فكرت أنه ربما يكون مناسباً كأي وقت آخر».

ابتسم والده بلطف: «لا داعي أن تكون رسمياً إلى هذا الحدّ. لقد كنت متقاعداً منذ سنوات. نادني روبرت فحسب».

نظر جاك إليها.

قالت: «أبتاه أتريد بعض القهوة؟».

«ليس لي، شكراً. قد يرغب صديقنا ببعض منها».

بعد قليل قال جاك: «إذا كان بإمكاني التكلم إليك حول أمر ما. أردت أن أخبرك بعد تفكير معمّق، بعد التفكير كثيراً في المسألة...»، نظر إلى غلوري وابتسم.

هزّ والده رأسه: «هل تفكر بالالتحاق بالكهنوت؟».

أخذ جاك نفساً عميقاً وفرك عينيه: «لا سيدي».

«ثمة عودة إلى الكهنوت هذه الأيام. شبان كثيرون ينجذبون إليها. هذا رائع. ربما ترغب في التفكير في ذلك».

قال جاك: «أجل سيدي». أخذ يقلّب بيديه كوب الماء، متفكراً. ثم: «لقد بذلت جهداً، لعدد من الأسباب. لكي أؤمن بشيء ما. قرأت الكتاب المقدّس لا أعرف كم مرة. وفكرت في ذلك. بالطبع كنت في أمكنة لا يوجد فيها إلا هذا الكتاب، وحيث ليس هناك الكثير من الأمور للتفكير بها. التي قد ترغب في التفكير بها». نظر إلى غلوري «لقد حاولت مع ذلك. ربما يجعلني هذا متغطرساً فحسب. أليست هذه هي الكلمة؟ لا أعرف لَمَ أنا ما أنا. كنت أرغب في أن أكون مثلك لو أمكنني ذلك».

نظر إليه والده، بمهابة، غير فاهم.

قال جاك: «أردت أن أقول لك إنني، بعد تفكير مطول، اقتنعت بحقيقة الكتاب المقدس. قال لي تيدي إنه سيكون لا بأس بأن أقول ذلك. أردتك أن تكف عن القلق عليّ. لكن كل ما يمكنني قوله حقاً هو إنني حاولت أن أفهم. وحاولت حقاً أن أعيش حياة أفضل. لا أعرف ما الذي سأفعله الآن. إلا أنني أحاول».

نظر إليه العجوز بتصميم. ثم قال: «هذا جيد يا عزيزي. هل تكلمنا من قبل؟ لا أظن ذلك. ربما كنت مخطئاً».

استند جاك إلى ظهر كرسيه وطوى ذراعيه. نظر إلى غلوري وابتسم، هامساً: «الدموع!».

قالت غلوري: .«جاك يريد التكلم إليك يا أبتاه. إنه يحاول أن يقول لك شيئاً».

«أجل، قلت إن جاك هنا. هذا سيكون مفاجئاً. إنه لا يأتي إلى هنا إطلاقاً».

بعد أن أخذ نفساً طويلاً قال: «أنا جاك».

استدار العجوز برشاقة في كرسيه لكي يتملى ابنه. قال: «أرى شبهاً». مد يده بصعوبة وأمسك الشمعة، لكي يقربها من جاك، الذي وضع يده على وجهه وضحك. قال والده: «ثمة شبه. لا أعرف». قال: «لو يمكنك أن تزيح يدك عن وجهك...».

أنزل جاك يده إلى حضنه وعانى من حملقة والده به، مبتسماً من دون أن يرفع عينيه.

قال العجوز: «حسناً. ما الذي توقعته. أن حياته ستكون صعبة. كنت أعرف ذلك»، وسقط في حال من الإغفاء «كنت أخشى ذلك، وصليت، وحصل على أية حال. إذن ها هو جاك»، قال: «بعد كل هذا الانتظار».

ابتسم جاك في الطرف المقابل من المائدة وهزّ رأسه. فكرة أخرى سيئة. لا شيء يمكن فعله حيالها الآن.

قالت غلوري: «كان صعباً عليه المجيء إلى هنا. يجب أن تكون أكثر لطفاً معه».

مرت دقيقة، وتحرك والدها من إغفاءته. «ألطف معه! لقد شكرت الرب عليه كل يوم في حياته، بصرف النظر عن مقدار الأسى، وعن مقدار الأسف... وفي نهاية كل شيء ثمة المزيد من الأسى فحسب، والمزيد من الأسف، وحياته ستستمر على هذا النحو، لم يعد ممكناً فعل شيء الآن. ترى شيئاً جميلاً في طفل، وتكاد تحيا من أجله، تشعر وكأنك ستموت من أجله، لكنه ليس ملكك لكي تحافظ عليه أو تحميه.

وإذا صار الطفل رجلاً لا احترام لديه لنفسه، تكون ذاته مدمرة حتى بالكاد يمكنك أن تتذكر أنها كانت أشبه...»، قال: «أشبه بطفل يموت بين ذراعيك»، نظر إلى جاك «وهذا ما فعلته».

«أوه، لم أعرف ذلك. لم...». وضع يديه على وجهه.

قالت غلوري: «لا، هذا رهيب، لن أسمح بحدوث هذا».

قال جاك بصوت منخفض: «دعيه يحدث، ليس لديّ ما أخسره».

وأسقط يديه، مثل رجل يتخلى عن كل دفاعاته.

كان العجوز يتلمس بحثاً عن محرمته، التي سقطت أرضاً. ناوله جاك إياها «شكراً عزيزي»، قال، وقد تهدّج صوته بالدموع، ومسح وجهه به.

قالت غلوري: «لم يكن ذلك خطأ جاك، تعرف أنه لم يكن كذلك».

قال والدها: «إذن لم صفعت ويلر العجوز. لقد فعلتُ ذلك. صفعته. لأن بيته لم يكن مناسباً لطفل، لهذا السبب. أشياء محطمة، أشياء صدئة على الأرض في كل مكان. في كل مكان فحسب! كان يمكننا الإتيان بها إلى البيت! لو جاء جاك من أجلها على الإطلاق. كان يعرف أي مكان هو ذاك»، قال بمرارة: «لقد كان هناك».

جلس جاك مستقيماً على كرسيه وغطى عينيه بيده.

قالت غلوري: «كان هذا منذ زمن بعيد، ألا يمكنك نسيانه يا أبتاه؟».

«أنسيته أنت؟ ظننا أنك لن تتمكني من تجاوزه قط. أخاف أمك حتى الموت الطريقة التي بكيت فيها على الطفلة».

قالت: «لكن جاك هنا الآن. كانت حياته شاقة. كانت حزينة. وهو

في البيت الآن. لقد عاد إلى البيت».

«أجل»، قال العجوز، «وهو يقول لنا الوداع. تعرفين ذلك. يقول إنه قرأ الكتاب المقدّس. حسناً، أيّ مغفل يمكنه رؤية ذلك. يعرف أفضل مما أعرف منه. لمَ يهتم بأن يخبرني بذلك. لكي أفكر بأنه يحلّ مسألة خلاصه. حسناً، ربما كان كذلك. أرجو ذلك. لكن ليس هذا السبب الذي دفعه إلى محادثتي بشأنه. يظن أنه لا يستطيع تركي هنا قلقاً على روحه. لديه بضع مهمات عليه أن ينجزها في المكان. سوف يرمي للعجوز تطميناً أو اثنين، ثم يخرج من الباب».

ضحك جاك. قال بصوت شديد الانخفاض: «لم أفكر بالأمر بهذه الطريقة تماماً». تنحنح «لكنني سأغادر على الأرجح. هذا صحيح».

بعد برهة قال جاك: «لن ترغب في بقائي هنا. مذكراً إياك في أمور تفضل نسيانها». كان صوته لا يزال بالكاد يتجاوز الهمس.

«لم أنسها يوماً. مهما حاولت. إنها حياتي». نظر إلى ابنه «وأنت أيضاً».

هزّ جاك كتفيه وابتسم: «آسف».

مدّ والده يده وربت يده «يقلقني ذلك أحياناً. لا أعرف إلام آلت حياتي». ثم قال وهو يداعب كم جاك، بنبرة اعتراف حزينة: «لقد خسرت كنيستي كما تعلم».

قال جاك: «حسناً، علمت أنك تقاعدت».

هزّ العجوز رأسه: «هذه زاوية للنظر إلى الأمر». كانت شعل الشموع قد بدأت تهتز في الهواء المسائي. تلاعب الهواء بالقطرات الكريستالية المتدلية من الشمعدان. قال: «أضعت حياتي».

أشاح جاك وكأنه يترقّب توبيخاً آخر، إلا أنه والده هزّ رأسه فحسب:

«لَمَ توقعت أساساً الاحتفاظ بأي شيء؟ الحياة ليست هكذا. أنا... قلق بصورة رهيبة على آيمز. فلديه ذلك الصبي الصغير. لا أعرف». بعد برهة رفع نظره «لقد تركت البيت لغلوري. البقية جميعهم مستقرون. ثمة بعض المال الذي سيحصل كل منكما على بعضه، وثمة بعض منه لطفل آيمز. ليس بالكثير. أعرف أن غلوري ستسرّ برؤيتك إذا فكرت بالعودة ثانية إلى البيت».

ابتسم جاك قبالته على المائدة: «من الجيد معرفة ذلك».

أغمض العجوز عينيه: «لا يمكنني الاستمتاع بفكرة الجنة مثلما يجدر بي، تاركاً الكثير من الأمور العالقة هنا. أعرف أن من الخطأ التفكير بأن أمكما ستسألني عنها». صمت لوهلة، ثم قال: «كنت آمل أن أتمكن من إخبارها أن جاك عاد إلى البيت».

جلس جاك متفرّساً في والده، وكان ثمة شيء في وجهه أكثر حسماً من اللطف أو التعاطف، شيء مطهر من كل الكلمات التي يمكن أن تصفه. أخيراً قال، همس: «أتمنى أن تبلغها بحبي».

هزّ العجوز رأسه: «أجل سأفعل ذلك بالتأكيد».

بعد أن أرقد والده في السرير خرج جاك إلى المطبخ. قال: «أتشعرين برغبة في لعب بعض الداما؟ لا أستطيع أن أتخيل حقاً الإيواء إلى النوم الآن».

«ولا أنا».

قال: «آسف على ذلك يا غلوري. هذه الأمور لا تزول البتة كما أتوقعها. قد تظنين أنني تعلمت أخيراً ألا أرجو».

«كانت نيتك حسنة».

«أظن ذلك».

«كانت كذلك».

«صحيح»، قال وهزّ رأسه، وكأنه ثبّت نفسه ضدّ هذا اليقين الصغير «سألت تيدي، وكانت هذه فكرتك أيضاً».

«كلاكما رأيتما أن الأمر يستحق المحاولة».

«لم أحاول مع ذلك. ألاحظت ذلك؟ أن أكذب عليه. فقدت الجرأة».

«هذا على الأرجح جيد أيضاً».

رفع كتفيه: «لن أعرف».

لعبا ثلاث جولات بصمت، وكان جاك شديد الشرود ففازت غلوري رغم كل جهودها بألا تفعل. فكرت، لابّد من أن يكون ثمة اسم لهذا. داما بوتون. داما غاندي.

قال: «لعلك ترغبين بنيل قسط من النوم».

«حسناً جاك، لقد عرف للتو أنني سأرث هذا البيت. لم تكن نيتي البتة البقاء في جلعاد. أعني قررت الرحيل بصورة إيجابية عنها. لا أريد أن أبدو جاحدة إلا أنني... مرعوبة كلمة قوية أكثر من اللزوم، لكنها الكلمة التي تخطر ببالي. فأشك أنني سأستطيع النوم لو أردت ذلك».

جلس جاك مستقيماً على كرسيه وراح ينظر حوله، بطريقة شبه موضوعية: «إنه بيت جميل لائق. خال من الديون. يمكنك فعل ما هو أسوأ».

قالت: «هذا كابوس راودني مئات المرات. أن ترحلوا جميعاً وتبدأوا بحيواتكم وأنا أترك في بيت فارغ مليء بالأثاث السخيف والكتب التي لا تُقرأ، منتظرة أن ينتبه أحدهم إلى أنني غير موجودة، ويعود من

أجلي. ولا أحد يفعل».

ضحك: «ذيل الخنزير المسكينة»، ثم قال: «حين يراودني ذلك الكابوس، أرى نفسي مختبئاً في الحظيرة راجياً أن يجدني أحدهم، ولا يفعل أحد».

«حسناً»، قالت، «سوف أهدم هذه الحظيرة. إذا ورثت ها المكان، هذا أول ما سأفعله».

«جيد. هل أعدّ بعض القهوة؟».

«أجل».

ملأ جاك الغلاية. ثم استند إلى النضد «إنها حظيرتك بالطبع، إذا جعلت أحدهم يرمم السقف قليلاً، فيمكنها أن تدوم بضع سنوات أخرى. هذه مجرد فكرة. الطلاء يمكن أن يساعد».

ضحكت: «إذن تريدني أن أحتفظ بالحظيرة. بمَ عليّ أيضاً أن أحتفظ؟».

«ما الذي تخططين أيضاً للتخلص منه؟».

«أوه، الحصر، والستائر وورق الجدران والمصابيح والكراسي والكنبات... وبضع الأطباق الهدايا. والتماثيل الصغيرة».

قال: «جيد».

«بعض رفوف الكتب. وكتب جدي اللاهوتية القديمة. لابدّ من أنة هناك خمسمئة منها».

«سوف تحتفظين بكتب أدنبره على ما أفترض».

«أجل سأحتفظ بها».

«بعض ما يتبقى منها يمكنك وضعه في القبو فحسب. يمكنني نقل بعض الأشياء لكي أفسح في المجال هناك».

«هذه فكرة».

ذهب عبر الصالة إلى غرفة الطعام وأشعل الضوء ووقف في الباب، واضعاً يديه على خاصرته «أفهم ماذا تعنين».

«يبدو شيئاً خارجاً من كتاب متجر التحف القديمة[1]».

«صحيح». إلا أنه ظل يجيل نظره حوله، المنضدة والخزانة بقوائم الأسد والمخالب، التي تبدو الناجية الوحيدة من جنس موبوء سيء الخلق. حوامل المصابيح الجدارية وهي كناية عن براعم لوتس وضعت لمبات مكان سداتها[2]. فكرت، يا إلهي، إنه يفتقد هذا كله مسبقاً. فكرت، ما دام حياً في هذا العالم، أو ما دام لا أحد يعرف عنه عكس ذلك، فسوف أضطر على الأرجح إلى الاحتفاظ بكل خشب الجوز هذا الكئيب البالي البغيض الأسود. تلك الحصيرة الأرجوانية. وإذا مات فسأظل مضطرة إلى الاحتفاظ بها، لأنني رأيته ينظر إليها على هذا النحو.

قالت: «أتريده أن يبقى على حاله».

«ماذا؟ لا، لا. لا يهمني ذلك. ربما سأعود إلى هنا أحياناً»، قال، وكان واضحاً من نبرته أنه يشك في ذلك. أنه يبدي هذا الشك فقط من باب التهذيب. قال: «كنت أتذكر هذا المكان من وقت لآخر»، ورفع كتفيه. انتهت القهوة وقدم لها كوباً وملأه، ثم سكب واحداً لنفسه.

قالت: «لا أحد سيريدني أن أغير شيئاً. حين يرحل والدنا سيأتون إلى هنا مرتين في العام أو مرة أو قد لا يأتون البتة، إلا أنهم سيرغبون في أن يجدوا كل شيء على حاله».

هزّ رأسه: «يمكنك بيعه. دعي شخصاً آخر يهدم الحظيرة. دعي

(1) The Old Curiosity Shop: رواية لتشارلز ديكنز نشرت عام 1941 وتحكي قصة فتاة وحيدة تعيش مع جدها في متجر لبيع التحف.

(2) السداة: العضو الذكري في الزهرة.

ذكرى سنوفلايك تختفي مرة وإلى الأبد. سيكون ذلك على الأرجح الأفضل للجميع». عرف أنه كان يقترح شيئاً غير وارد، وابتسم.

«آه!»، قالت، وألقت رأسها على ذراعيها: «لا أريد أن يحدث ذلك. على نحو ما كنت أعرف دائماً أن هذا سيحدث لي».

«ليس ضرورياً أن يحدث. يمكنك فحسب أن تطفئي الأضواء، وأن تخرجي. دعي الآخرين يتعاملون مع الأمر. لن يلومك أحد. لن ألومك أنا على أيّة حال».

«لا، لا أستطيع فعلاً فعل ذلك».

«عذراً»، قال، ثم أضاف: «من المريح معرفة أنك تشعرين هكذا يا غلوري. أعرف أنه لا يحق لي قول هذا، ولكن هذا يريحني. بالطبع يمكنك دوماً أن تبدّلي رأيك». أحضر رزمة الورق وبدأ يلعب «السوليتير».

حين ذهبت أخيراً إلى غرفتها وتمددت كأنما لتنام، أخذت تعمل فكرها في حقيقة أنها وعدته تقريباً بأنها ستبقى في جلعاد وتحتفظ بالبيت على حاله، الأرضيات على حالها، إلى هذا الحدّ أو ذاك، أعشاب ضارة، إلى هذا الحدّ أو ذاك، غير مشذبة، إلا أنه سيبقى نفسه من حيث الجوهر. حتى وإن لم يكن سيراها ثانية البتة. كل المساعدة التي قدّمها في البيت، الآن وقد فكرت في الأمر، إنما كانت ترميماً. تجديد رقعة السوسن الخاصة بأمها، إصلاح كراسي «الأديرونداك»، استبدال النعلات في درجات سلم الشرفة الخلفية. كان الأمر أشبه بإعادة العائلة إلى الحياة ثانية لكي يكون هناك، مشغولاً في المكان على نحو ما كان والدها. في بداية عودته إلى البيت، جزعاً على نحو ما كان، من أن يكون قد صار

غريباً، ظل يأتي إلى باب المطبخ، عادته القديمة تلك.

فكرت في هدم الحظيرة لأن أسوأ ساعات حياته عاشها فيها بالتأكيد. ولم يكن في مقدورها الدخول إليها من دون التفكير بما كان يمكن أن يحدث، ما كان يمكن أن تجده، ثم المشكلة الرهيبة، الكارثة التي كانت لتقع على والدها بصرف النظر مهما فكرت بقوله أو فعله. الاضطرار إلى إخبار تيدي. كان ليكون الإهانة الأخيرة، الانتهاك الذي لا يغتفر لكل شيء تمكنوا على نحو ما من الاعتزاز به فيه. يا رب السماوات. ثم ذلك المخبأ الذي صنعه، مستمداً الراحة في الاختباء كما عهده دوماً. أو إخفاء وحدته، أو تجسيد اغترابه، جعله مرئياً. كان شيئاً قد يفعله صبي، لعبة الاختفاء القديمة في مخزن الغلال. كان يفعل ذلك في صباه وتذكره، وربما جعله ذلك يشعر بألفة العودة. لكانت هدمتها بنفسها، وما تركتها له ليفعل ذلك. كانت عادة عميقة جداً عدم التطفل على شأن من شؤونه بحيث أنها بالكاد كان يمكنها دفع نفسها لفعل حتى ما طلبه منها. تساءلت إذا ما كان قد أزال الخيمة أو إذا كان غادر البيت حين صعدت إلى غرفتها وعاد إلى ذلك المكان في هذه الليلة بالذات. ثم تساءلت ما إذا كان يخفي قنينة أخرى في مكان ما. في الدي سوتو مثلاً. كان عليها العودة والبحث بعد الظهر في أثناء نومه. كانت مشوّشة الفكر.

ماذا تغير في نهاية الأمر؟ لقد أخزى نفسه أمامها، جاعلاً إياها تغطي على عجزه الرهيب، على انكشافه التام. ليس أنها يمكن أن تأخذ ذلك ضده، إلا أنه لن ينسى ما قد رأته. عرفت ذلك من الطريقة التي بات ينظر فيها إليها الآن، ومن خلال الانخفاض المهذب في نبرة صوته. لقد قام بمحاولة سخيّة لكي يكذب على والده وأخفق في ذلك، وفي محاولته

ذلك رمى حجراً في بئر سحيقة من الأسى. وظلت التفاصيل الرهيبة تعود إليه بعد زمن طويل من ذلك، وبلا سبب سوى أن والده المسكين يبدو قد نسي كل شيء آخر في حين تذكر هذه التفاصيل بمرارة أكبر. وعدها جاك بأنه لن يحاول ثانية إنهاء حياته، إلا أنه قال لها أيضاً إنه فعل ذلك بسبب معاقرته الخمرة فحسب، وهذا يعني أنه إذا كانت لديه زجاجة أخرى في مكان ما...

بمرور الوقت أعتم الوميض الباهت في السماء المضاءة الستائر وسمعت جاك يتحرك في غرفته. ثم أغفت أخيراً، وبالتدريج أفاقت ثانية على رائحة لحم الخنزير المقلي والقهوة.

كان جاك قد أعاد بدلته من الشرفة، حيث علقتها غلوري للتهوئة، وكان يفرّشها ويكويها. لم تعد علامات الشحم واضحة ما عدا بقعة واحدة فوق جيب البنطال وقليلاً منها في داخل طيتي السترة في الموضع الذي شدّهما فيه بيده إلى بعضهما. لابدّ من أن اهتمامه المفرط بهذه البدلة قد ترسّخ عميقاً فيه إلى درجة أنه كان حذراً بعض الشيء تجاهها حتى في أسوأ الأوقات. لو تذكر أن يبقي السترة مزررة لكي يخفي لطخة البنطال، لبدت جيدة المظهر كما كانت دوماً. كان ذلك مريحاً بجلاء له. طلب منها إبرة وخيطاً وقام بشدّ زرّ مرتخ. استمتعت بالجدية الظريفة التي يقوم بها بمثل هذه الأمور، تلك التدبيرات والكفاءات التي تعرف أنها حظيت بامتياز مشاهدتها. ومع ذلك، كان ثمة شيء محموم قليلاً في حركته هذه ذلك الصباح، شيء ينمّ عن عزم مقلق.

علق البدلة على الباب وخطا إلى الخلف لكي ينظر إليها. «ليست سيئة جداً أخذاً في الاعتبار الظروف، أليس كذلك؟».

«ليست سيئة على الإطلاق».

«ثمة توست في الفرن، وقد قليت بعض اللحم. يمكنني أن أقلي بيضة لو رغبت».

«أنت لطيف جداً».

هزّ رأسه: «اتصلتُ بتيدي».

استغرقها الأمر برهة لكي تفهم ما قاله: «اتصلتَ بتيدي؟».

«أجل. أوقظته. لكنني فكرت أنه من الأفضل أن أقوم بالاتصال قبل أن يخبو تصميمي».

قالت: «التوست فحسب سيكون جيداً».

«كما تريدين». وضع قطعة توست في صحن ووضعه أمامها، والمربى والزبدة وفنجان قهوة. قال: «دخلت لكي أطمئن على العجوز هذا الصباح، ولم يعرفني. لم يعرف نفسه أيضاً. لا فكرة لديه. كان مهذباً جداً حيال ذلك». استند إلى النضد «ففكرت أنه يحسن بي التكلم إلى تيدي. وسوف يتصل بالآخرين. قال إنه سيكون هنا بحلول الثلاثاء». وعند قوله هذا نظر إليها مباشرة والتقت عيناه عينيها.

«حسناً، سيكون عليّ تجهيز البيت. تحضير الأسرة. وسأحتاج إلى بعض الخضروات».

قال جاك: «سأكون هنا لمساعدتك في ذلك. حتى الثلاثاء، ثم سأكون بعيداً عن الطريق».

«ماذا؟ لكنك قلت إنك ستبقى كم.. عشرة أيام أخرى. بانتظار الرسالة».

ابتسم: «لن تصل الرسالة. لا أعرف ما كان ذلك... مزحة. لا تطلبي مني البقاء هنا غلوري حين يحدث هذا كله. تعرفين أنني لا

أستطيع الوثوق بنفسي. يمكنني أن أفعل شيئاً غير... مستحب. يمكنني جعل الأمر برمته أكثر سوءاً». قال هامساً، «لا يمكنني فعلاً التعامل مع فكرة أنه سيموت». ثم قال: «الدموع والمزيد من الدموع. لكنني لن أتركك هنا وحدك. قال تيدي إنه سيتصل من الطريق، من فيرمونت وسأبقى حتى يتصل. لن تكوني وحدك».

«آه»، قالت، «لكن من سيعتني بك؟».

«سيكون الأمر بخير، أفضل لي على أية حال، أفضل للجميع، تعرفين ذلك».

«لكننا لن نعرف حتى بمكانك جاك».

قال: «بمَ يهم ذلك؟».

«أوه، كيف تسأل هذا السؤال؟ كيف يمكن أن تسأل؟ لا يمكنني التعامل مع... أعرف ما الذي تخشاه. هذا يفطر قلبي».

رفع كتفيه: «لا يجدر بك أن تقلقي إلى هذا الحدّ. لدي تاريخ مؤثّر من الإخفاق. بقدر ما يهم ذلك. ولا يستطيع الناس أن يتصرفوا بلياقة مفاجئة حيال ذلك. الشرطة. الراهبات. جيش الخلاص. النسوة الهشات».

الت: «لا تجرؤ على المزاح معي».

ابتسم: «كنت أخبرك بالحقيقة فحسب».

«إذن لا تخبرني بالحقيقة. لقد أخفتنا حتى الموت. لقد أخفتنا جميعاً حتى الموت. لكن هذا التصرف هو تحفتك فعلاً».

ثم نظر إليها، وجهها شاحب وحزين وآسف، وعرفت أنه لم يعد هناك ما يقال، وأنها ما كان يجدر بها أن تقول ما قالته، لأن الأسى الذي يحمله معه دوماً هو أكثر ما يمكنه احتماله. قال: «لقد اعتنيت به.

أعددت طبقاً من الحبوب وأطعمته. وقد نظفته وغيرت ملاءاته وقلبته، وأظن أنه أغفا مجدداً. الليلة الماضية كانت صعبة جداً عليه. بسببي».

«لا. كنت تحاول مؤاساته. وكان هذا سيحدث. كنا جميعاً نعرف ذلك».

هزّ رأسه: «أظن ذلك. شكراً. شكراً لك غلوري. سأعود إلى الاهتمام بذلك الشيء في مخزن الغلال. لن يستغرقني طويلاً».

ذهبت غلوري لتطمئن على والدها. وجدته مضطجعاً على جانبه الأيمن، ووجهه هادئ، منكب على النوم. كان شعره كناية عن غيمة بيضاء ناعمة، مثل نفس مسالمة، مثل سديم نشر عبر العمل الذي لا ينتهي للأحلام.

ذهبت لكي تتكلم إلى آيمز، لكي تخبره بأنه طلب إلى العائلة المجيء إلى البيت. عانقها وأعطاها منديله وقال: «فهمت، فهمت، أجل، سأمر لكي ألقي عليه نظرة بعد أن ينال قسطه من النوم. لدي بضعة أشياء عليّ الاهتمام بها في الكنيسة أولاً. وكيف حال جاك؟». فأخبرته، وإن لم تكن تلك نيتها، أن جاك مغادر. قالت إنه يصعب عليها رحيله في هذا الوقت بالذات، وقالت ذلك بكل شغف قلقها وأساها، إلا أنها لم تسمح لنفسها بانتهاك السرية التي أقسمت عليها، إلى هذا الحدّ أو ذاك. لم تذكر خوفه من أن يفعل شيئاً قبيحاً. آه، جاك.

«أجل»، قال آيمز، «لرغبَ والده في أن يبقى هنا مع العائلة. سيكون من المؤسف أن يرحل الآن».

«أجل»، قالت غلوري.

ثمة القليل من المؤاساة التي يمكن الحصول عليها من الإفشاء الناقص،

شكرته غلوري ومضت قبل أن تجد نفسها تستسلم للعادة والحزن وتفشي بمخاوفها المتعلقة بجاك، وهو أكثر ما يسوءه مما فعلوه طوال طفولتهم وطفولته. هذا ما فعله والدها بلا ريب في زيارته الأخيرة إلى مطبخ آيمز. كانت تعرف، لأساها الكبير، أنها تركت آيمز بانطباع أن جاك يتصرف بصورة سيئة، أنه وغد يخذل معايير التمدّن. آه حسناً. لا شيء يمكن فعله سوى العودة إلى البيت والبدء بالتحضير لمجيء الأشقاء والشقيقات.

دخلت إلى المطبخ ووجدت جاك هناك يرتدي بدلته وربطة عنقه، وينظف بالفرشاة لطخة على طرف قبعته. قال، مفسراً: «لدي وميض أمل أخير، بارقة تفاؤل صغيرة. أريد أن أتأكد من أنها انطفأت قبل أن أغادر البلدة». ضحك: «لم أقصد ذلك كما بدا. أعني، أشكّ بأن يكون ثمة حياة في هذه البارقة، إلا أنني فكرت، كما تعرفين، بأن أستقصي لكي أتأكد. سوف أتحدث إلى الموقر آيمز ثانية. فكرت بأن أقوم بمحاولة أخيرة». هزّ كتفيه.

قالت غلوري: «أجل، جيد، لقد رأيته للتو. أخبرته بشأن أبي وقال إنه سيكون في الكنيسة هذا الصباح، ثم سيأتي إلى هنا. يمكنك أن تنتظره وتتكلم إليه حينئذ».

«لا أظن أنني سأمشي إلى الكنيسة»، قال، «هكذا تخيلت الأمر. سيكون ذلك النوع من الحديث. سيكون هناك قدر من الاعتراف فيه. يمكنني فعل ذلك». ابتسم «لا تقلقي إلى هذا الحد، لن أسمح له بأن يؤذي مشاعري هذه المرة. أعني على الأقل لن يباغتني».

أوه، قالت في سرها، يا ربي العزيز، ليكن هذا صحيحاً! كيف تنذره. كيف تنذر أياً منهما. سيكون جاك يمشي إلى إحراج قد مهدته هي له.

حين قال آيمز لها سيكون ذلك مؤسفاً، كان في صوته لمسة من نفاد الصبر الذي لطالما ميز سماعه لقصص جاك الفضائحية. وكان جاك معتاداً على التنازل عن أرض لا يمكنه الدفاع عنها، متخذاً وضعية الإذعان المتهرب حين يشعر أنه سينظر إليه كشخصية ملتبسة، الذي عنى أنه سينظر إليه حكماً على هذا النحو، أياً يكن حذاؤه لماعاً. ابتسامته السئمة تلك، وكأنه يعرف أنه بينه وبين أي شخص يتكلم إليه ليس ثمة أي قدر من الثقة التي تقيم محادثة اعتيادية، وكأنه ثمة بينه وبينهم سوء فهم متبادل شاق يكاد يتجاوز الكلمات. الحميمية السئمة في افتراضه إلى هذا الحدّ بدت تجفل الناس. ومع ذلك، فهو مضطر إلى أن يطمئن نفسه أن بارقة أمله الأخيرة قد تلاشت، فتفحّص عقدة ربطة عنقه وعدّل من وضعية قبعته فوق رأسه وخرج لكي يقابل آيمز في الكنيسة.

اطمأنت غلوري على والدها وإذ وجدته نائماً صعدت إلى غرفتها، وركعت، وصلت بإخلاص بالكلمات الوحيدة التي خطرت لها «ربنا العزيز في السموات، أعنه. ربنا العزيز في السموات، احمه. أرجوك لا تدعه يعاني بسبب حماقتي، يا ربي العزيز، أرجوك». ثم اضطجعت على سريرها وأخذت تفكر. أكثر دقة، راحت تتذكر شيئاً كانت قد منعت نفسها تقريباً من أن تتذكره. شيء يبدو الآن أنها تخلت عنه أخيراً بالكامل، وإن لم يكن يخصها. بيت متواضع مضاء بشعاع الشمس، كل شيء فيه متوفر ويعمل، مبهج. ليس من شيء مهيب فيه على الإطلاق. أمام نافذة مكونة من لوح زجاجي واحد تطل على حديقة، وفناء في الخلف. المطبخ سيكون فسيحاً مضاء بالشمس، مع طاولة بيضاء اللون، لا بل ركن للإفطار، يسقط عليه شعاع الشمس. أحياناً تكلمت عن هذا البيت مع خطيبها، وكانا متفقين تماماً، ، بحيث بدا ذلك رائعاً

لهما. لا أطر مذهبة، لا كورنيش ناتئاً. ذكرت الأطفال، وقال إنهما سيضطران إلى أن يكونا عمليين جداً خلال السنوات الخمس الأولى، ثمة ما يكفي من الوقت للتفكير بالأطفال. فتخيلت الأطفال يلعبون بهدوء، يدخلون على رؤوس أصابعهم آتين من الفناء من وقت لآخر لكي يهمسوا سراً أو يفتحوا يداً لكي يروها حصاة مميزة، ثم يخرجون ثانية بهدوء شديد، لأنه لا ينبغي إزعاج البابا. لا ينبغي أن يعرف أنهم هناك على الإطلاق. لديها أسماء لهم جميعاً، وهي تتنقل بينهم، وتتغير، كما بعض ملامحهم وأعمارهم وأجناسهم وأعدادهم. لبضعة أسابيع واحد أو آخر منهم يتأتئ، لأنها في المدرسة تكلمت إلى طفل يتأتئ، طفل عذب. لكن عندئذ يعودون أطفالاً رضعاً، لا تكون لهم ملامح محددة بعد، سعداء بأن تحملهم بين يديها. يرتدون البيجامات كل ليلة باردة، وفي خيالاتها تغني لهم أغنية الأطفال الضائعين «طيور أبو الحناء شديدة الحمرة جلبت وريقات الفراولة واضطجعت عليها». سيكون بين يديها ويحبونها أكثر، لأنها ستبقيهم آمنين إلى الأبد من الهجران ومن مرارة الخسارة. قد يكون لديها شكوك حيال بثّ هذه السحابة من الحزن في قلوبهم إذا كانوا أطفالاً حقيقيين، وإن لم تأسف هي نفسها يوماً لأن شقيقاتها غنين لها، مشعرات إياها برعاية عائلتها الدائمة والثابتة، في حين الريح الجبارة تهب في الأشجار وتهزّ النوافذ. تلك الريح التي عرفوها جميعاً، يمكنها جرف بلدة ونشرها هنا وهناك، البيوت والماشية والأطفال. طيور أبو الحناء شديدة الحمرة. الكلمات كانت ناصعة جداً كنقطة دم.

كانت لدى الخطيب عادة الجلوس ضاماً قدميه معاً وقد جحظت أصابعهما إلى الخارج. كان هذا يصحّ أكثر حين يريد أن يبدو راضياً أو

مغتبطاً. لم يكن بوسعها ألا تشعر أن هذا يعني شيئاً مثبط العزيمة فيه ولا يتمّ إصلاحه لو قالت له أحياناً أنه يستطيع أن يضع قدميه بطريقة أكثر لباقة وانصاع لذلك. لو أعطته فنجان قهوة، كان يميل هناك، مسنداً مرفقيه على ركبتيه، ممسكاً بالصحن تحت الفنجان، وينظر إليها، وتبدو قدماه تقلدان النظرة، التي كانت مفرطة في حدّ ذاتها. قال لها إنها كانت مغرورة بعائلتها، وكان ذلك صحيحاً. وليس بلا سبب. فجميعهم كانوا أناساً كيسين على طريقتهم المتثاقلة، وما كانوا يكشرون.

الحقيقة أنها كانت رغم كل شيء لتتزوجه، وأنها لسنوات لم تكن لها نية أخرى، إلا عندما كانت تبرز الشكوك محولة النية إلى أمل. كم كان مزرياً أن تتذكر، وكم كان مزرياً الإحساس بالراحة حين تصل رسالة، أو يرن الهاتف، أو تسمع قرع الباب. كان رجلاً حسن المظهر، متيناً مفعماً صحة، وله عينان زرقاوان صافيتان وشعر أحمر مشعث. لو لم يكن يعكس عن كثب الفكرة التي استقتها عنه من رسائله، فقد كان مقبولاً بما فيه الكفاية. أحياناً كان يضحكها. وكانت تحب ان تعرف تقريباً كم من المال أعطته، فقط لكي تقيس عمق ولع بدا بعيداً جداً بالنسبة إليها الآن. كان من أجل الأطفال والبيت المضاء بالشمس أنها كانت تبذل جهداً لرؤية فضائلها وكبت شكوكها حياله، مستعدة للتخلي عن مالها إذا كان ذلك يزيل العوائق أمام سعادتها او إذا كان ذلك يقي فكرة السعادة بمأمن مما يعطّلها. باركه الرب، لقد فهم جاك ذلك كله وضحك، ضحكة مؤلمة إنما ودودة، وكأنهما يعدان الخسارة معاً، مخبرين قصصاً عما أوصلهما إلى هناك، إلى الضجر المحبط والخوف مما قد يأتي تالياً. فكرة الأطفال وشعاع الشمس العذبة التي رعتها في بالها سراً كانت الآن قد زالت كلياً. لا، أرادت أن تكلم جاك عنها، لكي

تطردها، وكأنها أرواح من النوع الذي يختفي نهاراً. لكن لهذا السبب لم تستطع ولن تستطيع خيانتها. فليغمرها بعض نسيان النوم، أخيراً.

إذن ستعيش غلوري بقية حياتها في مكان يسميه الآخرون بيتاً، مكان سينوون العودة إليه أكثر مما سيفعلون حقاً. لو تكلمت بكتمان إلى مدير الثانوية وأخبرته أن الزواج الذي انتوته لم يحدث حقاً، لكانت هذه المعلومة اجتاحت البلدة وهضمت ولن تعود مصدر اهتمام خاص. يمكنها أن تعاود التعليم.

سمعت جاك يدخل إلى المطبخ، يضع قبعته على الثلاجة. سمعته يمشي إلى الصالة ويكلم والده، ثم يعود لكي يملأ كوباً من الماء ويأخذه له. بعد بضع دقائق ذهب إلى البيانو وبدأ يعزف ترنيمة. «حين جميع محني ومتاعبي تنتهي، وأصحو على ذلك الشاطئ الرائع». لابدّ من أن الأمور مضت بطريقة جيدة بما فيه الكفاية، الحمد لله. فنزلت إلى الأسفل.

حين انتهى من الترنيمة التفت ونظر إليها. «لم يكن اللقاء سيئاً»، قال بصوت منخفض: «كان بالغ اللطف. لم يستطع أن يفعل شيئاً لي، إلا أنه عاملني بلطف بالغ. كان الأمر على ما يرام. أفضل مما توقعت حقاً. قلب آيمز يخذله، قال لي، فلن يعيش طويلاً. ظننت أنه سيشهد، لا أعرف، لصالحي. يساعدني على تجاوز سمعتي. لكن عليّ مغادرة المكان على أية حال. لا أعرف لِمَ أزعجته». رفع كتفيه.

قالت: «يسرني أنها كانت محادثة جيدة».

«هزّ رأسه: «ناديته أبتاه وهذه المرة أظن أن ذلك ربما حتى أسرّه قليلاً». ابتسم لنفسه، ثم قال: «أخبرته كل شيء تقريباً وحين انتهيت قال، أنت رجل طيب، تخيلي ذلك».

«حسناً، أنا كنت لأخبرك أنك رجل طيب. لقد قلتها بكلمات كثيرة بكل تأكيد».

ضحك: «أنت حكم غير صالح على الشخصية. على شخصيتي بالتحديد. غير موضوعية على الإطلاق».

حين سمعا والدهما يتحرك ويفيق، حمله جاك إلى كرسيه على الشرفة وغطاه باللحاف وقرأ له قليلاً من الصحيفة في حين أعدّت غلوري حساء البطاطا تقريباً بالطريقة التي يحبها دوماً، من دون البصل، لكن مع الزبدة المذابة فيها و«الكراكرز» مسحوقة في أعلاها. أطعمه جاك، وأمسك له الكوب. تقبل العجوز هذا الاهتمام من دون تعليق. ثم ارتدى جاك ملابس العمل وذهب إلى الحديقة، حيث يراه والده، حتى بدأ ينعس. وبعد قليل عاد جاك ووجده نائماً وحمله إلى السرير ثانية، مخرجاً الجسد الملتوي من الروب بحذر شديد. بدا لها، ان ثمة سلام فيه جاء مع الاعتراف، غير مشوش بما هو محتمل، وغير مدرك وغير محسوم بعد. عمل على إصلاح الدي سوتو، ثم جلس على الشرفة وقرأ حتى غربت الشمس. خرج لنزهة، فقط لكي يلقي نظرة على البلدة، قال، وعاد بعد ساعة، صاحياً تماماً. ربما كان ذلك اليوم الأكثر حزناً في حياتها، وأحد أكثر أيامه حزناً. إلا أنه، بالإجمال، لم يكن يوماً سيئاً.

ثم جاء يوم الأحد وذهب جاك إلى الكنيسة. كان يريد أن يظهر احترامه لآيمز، كما قال، تقديره. طلب منها دولارين من أجل التبرع للكنيسة، بما أنه طلب منها أن تضع المال بعيداً عن متناوله، وحتى إنه، على الرغم من قيمتها العاطفية أعطاها بضع دولارات كان يخفيها منذ سنوات في

صفحات كتب إدنبره، نتائج سرقات الشباب التي وضعها في مكان يعرف أن أحداً لن يجدها فيه. اثنا عشر دولاراً موزعة داخل صفحات «الحكم الوحشي للنساء»، وتسعة عشر دولاراً في «حول المحن». من كتاب «هند أنلووزد» الذي قال لهم والدهم أن يوقروه ككتاب عظيم، أخرج بعض التقارير المدرسية القديمة ورسالة إلى والده من أستاذ التربية المدنية الذي لم ير سوى أكثر الغيوم دكنة في مستقبله الأخلاقي والتعليمي، وطالب بصورة عاجلة الاجتماع به. هزّ رأسه: «أظن أنني كنت فتى متهكماً جداً»، قال، وضحك. اقترحت عليه غلوري أن يضع المال في طبق التبرعات كنوع من الكفارة، إلا أنه فكر أن المبلغ كبير بما فيه الكفاية لإثارة الشكوك. «حين يأتي مني سيكون كذلك على أية حال».

بقيت مع والدها الذي فكرت أنه تفاعل مع خبر ذهاب جاك إلى الكنيسة ببهجة وجيزة مؤقتة. عاد إلى البيت هادئاً كما حين غادره، مما أراح والده بوضوح، وحين سألته عمّ كانت الموعظة، ضحك وقال: «لم تكن عني». ثم قال: «حسناً كانت عن الوثنية، عن عبادة الأشياء، من جهة هناك العالم المادي على طريقة العقلانية العلمية، ومن جهة أخرى هناك الممتلكات كالمقاعد والطاولات والستائر الأرجوانية القديمة على طريقة آل بوتون والطوطميين. لقد دفعني ذلك بالفعل إلى التفكير».

قالت: «لا تقلق، لن أغيّر شيئاً».

«إذا أردت ذلك فلك حرية التصرف».

«بالطبع».

أعدّت شرائح لحم العجل المقلية واللفافات في حين عمل جاك في العلية، مفسحاً في المجال لأيّ قرار قد تقسّي قلبها وتتخذه بإبعاد

الأشياء عن ناظريها. مجدداً كان ممتلئاً بالعزم. صورة النهر عادت إلى مكانها القديم، فنظرت عبر باب غرفته المفتوح ورأت كتب كيبلينج على المنضدة بين سنادات كتب لنكلن. لا شيء ليقال. لا شيء ليفعل. والدها، الذي بالكاد تكلم، شاهدهما - بانزعاج وارتياب - وهما يأتيان ويذهبان. قدّمت العشاء في المطبخ، محاذرة إيقاظ الذكريات إذا أمكنها تجنبها. وبعد أن جلسوا وتلت صلاة الشكر، جلس والدها نافد الصبر طاوياً يديه في حضنه حتى عرض عليه جاك أن يطعمه البطاطا المهروسة وصلصلة اللحم. خلال هذه الأيام القليلة الماضية كان لطفه صادماً بصورة خاصة لها. ولَم ينبغي أن يكون كذلك؟ لطالما علمت أنه يستطيع أن يكون لطيفاً. ستقول للآخرين في حال نسوا، لكي يأملوا جميعاً ذات يوم أن يعرفوه عن هذا الكتب كما عرفته. ثم إذا التقى أياً منهم يمكن أن يكون مصدر ترحيب عميق وفوري، بصرف النظر كم يمكن أن يكون أو أن يبدو سيء السمعة. أخيراً أشار والدها إلى الوجبة التي أعدتها وقال: «أظن ان هذا الوداع».

قال جاك: «ليس بعد».

هزّ العوز رأسه: «ليس بعد»، قال بأسى، «ليس بعد».

«سيأتي تيدي عما قريب».

أنا واثق من ذلك»، سقط رأسه «مع السماعة. وكأن هذا يحلّ شيئاً».

تنحنح جاك: «سررت بالعودة إلى البيت. سررت حقاً».

رفع والده عينيه وحملق بوجهه «لم يكن لك اسم لي. ليس واحداً تناديني به في وجهي. لم ذلك؟».

هزّ جاك رأسه «لا أعرف أنا نفسي. جميعها كانت تبدو خاطئة

حين ألفظها. لم أستحق أن أتكلم معك كما يفعل الآخرون».

«أوه»، قال والده، وأغمض عينيه «هذا ما كنت أنتظره. هذا ما أردته».

نمّت غلوري في نفسها تقديراً جديداً ليوم الأحد لانه اليوم الذي لا يصل فيه أيّ بريد. ذلك الأحد انقضى برقة حزينة، شعرت أن والدها أقوى قليلاً، وأن جاك مفعماً بالقلق عليهما معاً، آسفاً إنما غير متشكك البتة، محرجاً بإرادته الصارمة بأنه راحل. سمعته صبيحة الاثنين في غرفته، يصنف الأشياء في منضدته، واضعاً على حدة، كانت أكيدة، كل ما أعطته إياه من أشياء والدها، لكي يتناسب ذلك مع أفكاره القوية بصورة غريبة عما يخصه. لم تعرف لصاً آخر، لذا لا تستطيع التعميم، إلا أنها فكّرت أن اللصوصية تتعلق ببعض الخلط بين ما يخصّ أو المرء وما يخصّ سواه. بعض العجز عن رؤية الخطّ الفاصل. ويعزى لذلك رفضه مغادرة البيت بجوربين أو أكثر من جوارب أبيه. صرامته في ذلك فطرت قلبها. مناديل اليد التي استعارها كانت مغسولة ومكوية في درج والدها. كان يعود ثانية إلى جاك الذي ظهر أمام باب المطبخ زاعماً أنه أضاع حقيبته.

لا، كان هناك ذلك اللص الآخر، ذلك الذي احتفظ بسجل للمال الذي أعطته إياه، ربما معتقداً حتى أنه قد يعيده لها. هناك ما يكفي من الوقت للتفكير بالأطفال، قال لها، وهزت رأسها، عارفة أن ذلك غير صحيح. كان يحتاج إلى القليل من المال، المزيد من القليل من المال، لأنه لديه مشروع مع زميل قديم من زملاء الجيش. لم يكن يطيق صبراً حتى يلتقيا، لكي تحبه – على سبيل القول، هاها. كانت تعطيه

المال لكي يتوقف عن الكلام، وربما حتى لكي يرحل. ربما عرف ذلك. أنه سيذهب ويتركها مع أفكارها عنه. تلك الأشياء الصغيرة لا تزال تدفعها إلى التذكر، كيف أمسك يدها. كان لوقا ودانيال وفايث هناك في الردهة ينتظرون، يوم جاءت به إلى البيت. كانوا ودودين تماماً، وغير متفاجئين بصورة جلية. كانت واثقة تماماً أنهم لن يلقوا بالتعليقات الساخرة حين يغادر خطيبها الغرفة معها. لم يكن ثمة إشارة إلى أن لديهم أي شكوك معينة حول شخصيته أو نواياه. ومع ذلك كان ثمة ومضة من التوتّر في الطريقة التي نظر فيها إليها. ثم أمسك يدها.

كانت تفكر في هذا كله حين وصل البريد. رسائل من لوقا وهوب ورسالة لجاك من ديلا مايلز. ذهبت وجلست في المطبخ. أصبحت معتادة على فكرة أن لا شيء ذا عاقبة أكبر سيحدث بعد عودة الرسائل الأخيرة التي أرسلها جاك إليها. إلا إذا كانت المرأة التي تدعى لوراين - التي وجهت إليها غلوري الرسالة - اتصلت بديلا وقرأت لها رسالة جاك - لا، كان هذا ليصل أسرع من ذلك. هذه مرسلة من ممفيس، لا بالبريد الجوي. كانت تشعر بدوار. من الرهيب أن الرسائل يمكن أن تكون مهمة إلى هذا الحدّ. فكرت في إحراقها. وحتى إنها فكرت في فتحها. وحينئذ تحرقها إذا لزم الأمر. لا، بعض الأشياء سرية، وحتى خاصة، هذا الأمر الجارح - جارح، أنى لها أن تعرف ذلك؟ عرفت ذلك. صعدت السلم ونادت جاك لكي ينزل، وهو ما فعله من دون إبطاء. ربما اعتقد أنها بحاجة إلى مساعدته للعناية بوالده. حين رآها قال: «ما الأمر؟».

«لا شيء، وصلت هذه الرسالة لك».

كانت قد تركتها على الطاولة. حملها ونظر إليها «يا إلهي»، قال، «يا إلهي».

«أتريدني أن أتركك وحدك؟».

«أجل»، قال، «من بعد إذنك، شكراً لك».

فخرجت إلى الردهة وجلست قرب المذياع، وانتظرت أي إشارة إلى أنها قد تكون مطلوبة أو ثمة حاجة إليها. كان صمت فحسب. أخيراً دخلت إلى المطبخ. نظر إليها جاك وابتسم. قال: «هذا لا يغير شيئاً فعلاً». تنحنح «ليست سيئة. أنا بخير»، ثم قال «ابكي إذا شعرت بالرغبة في ذلك أيتها الرفيقة».

جلست غلوري معه، مستعدة للخروج إذا قدم لها أي إشارة إلى أنها يجدر بها ذلك. من وقت لآخر كان ينظر إليها، وكأنه يفكر بقول شيء ولم يفعل، أو كأنه عرف أنها تفكّر مثله وإن لم يتكلم كلاهما. أخيراً قال: «ما زلت أخطط للبقاء حتى يتصل تيدي. لن أكون مفيداً كثيراً»، وقال: «أي شخص في العالم قد يرغب في كأس الآن». وحين سمعا والدهما يتحرك ذهب معها للاعتناء به. رمش العجوز ناظراً إلى جاك وقال: «الآن كانت تبكي. لا أعرف ماذا أفعل بهذا الخصوص. لم يضطر المسيح إلى أن يكون عجوزاً». إلا أنه تركهما يحممانه ويلبسانه ويحلقان له، وترك غلوري تصفّف له شعره. أحضر جاك عطر «أولد سبايس» ورشّ منه على وجنتيه. ساعداه للخروج إلى الردهة، إلى مقعده الموريس. سلقت غلوري بيضة ووقف جاك مستنداً إلى الباب وشاهدها وهي تطعمه.

ثم سمعا قرعاً على باب المطبخ، ودخل آيمز، حاملاً العلبة الصغيرة التي يأخذها معه حين يزور المرضى. عثرت عينا والدهما عليه وبقيت مثبتة عليه في حين سلّم آيمز وعلق على حال الطقس. عرفت غلوري

أنهم في حال مزرية بوضوح، ثلاثتهم، وأن آيمز لاحظ ذلك، بالحكم من رقة صوته فحسب. نقر والدها بأصابعه على ذراع الكرسي على نحو ما يفعل حين يكون نافد الصبر. قال له آيمز: «روبرت، آمل أن أتشارك القربان المقدس معك»، وهزّ العجوز رأسه. فوضع العلبة الصغيرة على رف المدفئة وفتحه وأخرج كوباً فضياً. ملأ الكوب من قارورة، ثم طلب من غلوري قطعة خبز. أحضرت له رغيفاً من عشاء الأحد في منديل كتاني. وضع المواد على الذراع العريضة لمقعد بوتون. كان صامتاً لوقت ثم قال: «ربنا يسوع في الليلة التي تعرض فيها للخيانة أخذ خبزاً وشكر وكسر، وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم، اصنعوا هذا لذكراي». قال بوتون: «أجل، 'وكذلك الكأس أيضاً'[1]، أجل، تخبرون بموت الرب حتى يجيء»[2]. وصمت العجوزان. لقد قالا هذه الكلمات مرات كثيرة. كسر آيمز الخبز وأعطى قطعة لبوتون، ولغلوري، وقدمه لجاك الذي ابتسم وابتعد. ثم حمل الكوب إلى شفتي بوتون، وأعطاه لغلوري وشرب منه هو نفسه. جلس العجوزان صامتين لبعض الوقت معاً.

حين أغفا بوتون، جاء آيمز إلى المطبخ. لم يبد أن ثمة ما يريد قوله لهما، إلا أنه جلس على كرسي حين عرض عليه وقبل فنجان قهوة. كانت عنايته بوالدهما، القربان المقدس، تعزيزاً للصمت الحزين لذلك اليوم. إلا أنه بقي، وحاول إجراء محادثة. جلس جاك مستقيماً على كرسيه شابكاً ذراعيه على صدره وأخذ ينظر إليه، سئماً أكثر من أن يستمر بالمحادثة. ذهبت غلوري لتطمئن إلى أن والدها مرتاح وجلبت

(1) العهد الجديد، رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنتوس، 11: 25.

(2) المصدر نفسه، 11: 26، «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب حتى يجيء».

لحافه، وحين عادت، كان آيمز يخرج من الباب وقد بدا محرجاً قليلاً ومغتماً.

قالت: «ماذا حدث؟».

«حسناً، لقد حاول أن يعطيني المال. لكي أرحل. فقلت له إنني راحل على أية حال، ولا حاجة إلى أن يزعج نفسه».

«آه جاك».

«تعلمين أنه يريدني أن أرحل. يرى ما فعلت. بأبي».

«أقال ذلك؟».

«الموقر آيمز الطيب؟ بالطبع لا. قال إنني ربما أرغب في الذهاب إلى ممفيس».

«إذن، لم لا يفكر بذلك؟ فقد تكلمنا أنا وأنت عن رحيلك إلى ممفيس».

فكر قليلاً، ثم قال: «لقد تكلمنا عن ذلك فعلاً. يبدو هذا قبل مليون عام. في حياة أخرى»، قال: «معك حق. العجوز المسكين يحاول التخلي عن مال لا يملكه. أيّ مغفل أنا». فرك عينيه «كان ذلك وداً، أليس كذلك. كان عليّ أن أفكر بذلك. لقد بدأ يحبني على ما أظن».

مرّ اليوم. أرادت غلوري أن تقدره وإن لم يكن يمكنها الاستمتاع به بالطبع. فقد لا ترى شقيقها ثانية، كما قال تيدي. يا يسوع العزيز، فكرت، أحب هذا اللص أيضاً. بعد فترة نهض جاك ومضى لينجز العمل الذي حدّده لنفسه، في ترميم الأشياء. ثبّت بالمسامير لوحاً مرتخياً في جدار السقيفة، وقطع بعض العيدان الميتة من سياج الليلك. وقطع كومة من الحطب. ثم دخل وطلب منها مفاتيح السيارة. قال: «أظن أنني أصلحتها جيداً. سوف أجرب أن أشغلها». ذهبت إلى الشرفة وسمعت

صوت المحرك يعمل ثم يتوقف. فتح جاك باب الحظيرة، وأخرج الدي سوتو إلى ضوء الأصيل. فتح باب المقعد المجاور له «فكرت بأن نذهب في جولة، وأن نأخذ معنا العجوز». فدخلا إلى البيت وأمسكا والدهما من ذراعيه وحملاه إلى السيارة. ثم انطلقوا مارين بالكنيسة، التي كانت، في فكر والدهما، موضع الكنيسة القديمة. ومرّ بهما بالبيت الذي عاشت فيه السيدة سويت، ثم ببيت تروتسكي العجوز، والثانوية، وملعب البايسبول، ثم إلى أطراف البلدة، حيث البلدة تفسح المجال للريف وكانت ظلال نهاية اليوم زرقاء بين صفوف الذرة وعلى الجانب المسائي من الأشجار وعلى الأعشاب المتموّجة وفي شفا الغدير. وحملت الريح رائحة الحقول اليانعة والمياه والماشية والمساء. «يا سلام»، قال والدهما «كان هذا رائعاً. أذكر الآن».

حين عادوا إلى البيت، ابتسم جاك وناولها المفاتيح. أرقدا والدهما، وجلسا معاً في المطبخ محاولين القراءة، ثم محاولين لعب السكرابل. كان من عادتها أن تصحو ما دام جاك صاحياً، مفكرة أنه سيكون أكثر تردداً في الخروج من البيت إذا عرف أنها واعية لذلك. أخيراً صعد إلى غرفته وبعد نصف ساعة تبعته إلى غرفتها. أمضت الليل مصيخة السمع قلقة، خائفة من غيابه، لأن التفكير بذلك جعل حياتها تبدو طويلة بشكل لا يحتمل. فكرت، إذا أنا أو أبي أو أي من آل بوتون تمكن من استجلاب عطف الرب، فسيكون جاك على ما يرام. لأن هلاكه سيعني هلاكنا جميعاً.

نزلت عند الفجر وكان جاك في المطبخ مرتدياً البدلة وربطة العنق، وواضعاً حقيبته عند الباب. قال: «آمل أنني لم أكن مصدراً كبيراً للمتاعب. هنك الكثير مما أنا آسف عليه». قال ذلك لحظة دخولها إلى

الغرفة، وكأنه الأمر الوحيد الذي اعتزم قوله، الأمر الوحيد الذي أرادها أن تعرفه.

قالت: «آه جاك»، وضحك.

«حسناً، لم أكن ضيفاً ممتازاً. يجب أن تسلمي لي بذلك».

«كل ما أأسف عليه هو أنك راحل».

هزّ رأسه: «الحمد لله. كان يمكن أن أتسبب لك بأكثر من ذلك مما يؤسف عليه. ولي أيضاً. لقد ساعدتني حقاً».

«الآن تعرف إلى أين تأتي حين تحتاج إلى المساعدة».

«أجل. أيها المتعبون عودوا إلى البيت»[1].

«نصيحة سديدة جداً».

قال: «لست واثقاً من أنك ينبغي أن تبقي هنا يا غلوري. عديني أنك لن تدعي أحداً يقنعك بذلك. لا تفعلي ذلك من أجلي. لم يكن عليّ أن أكلمك عن ذلك مثلما فعلت».

«لا تقلق، إذا احتجت يوماً إلى العودة فسأكون هنا. اتصل أولاً لكي تتأكد فحسب. لا لن تضطر إلى الاتصال. سأكون هنا».

هزّ رأسه. «شكراً لك».

ساعدها على تحميم والدهما وإلباسه وإطعامه، وعند الثامنة رنّ الهاتف. كان تيدي يقود طوال الليل لكي يعوض عن اتصال طارئ وبداية متأخرة. كان في فيرمونت، حيث توقف لاحتساء القهوة. قال جاك: «سأضطر إلى أن أطلب منك بعض المال للسفر. ليس بما فيه الكفاية لكي يوقعني في المتاعب. فقط ما يكفي لإخراجي من البلدة».

---

(1) من ترنيمة «برقة ونعومة»، «برقة ونعومة ينادي يسوع... عودوا إلى البيت... عودوا إلى البيت، أنتم أيها المتعبون».

كانت قد وضعت جانباً مغلف تيدي ووضعت فيه الدولارات العشرة التي أعطاها إياها حال وصوله، والمال الذي كان مخبئاً في كتب إدنبره.

حمل جاك المغلف مقدراً وزنه ثم أعاده لها «هذا كثير. أتعرفين كم من الكحول يمكن أن يشتري هذا لي؟ الهلاك بالتأكيد. إلا إذا كنت محظوظاً وقتلني أحدهم بسببها».

«أوه، يا رب السماء، جاك. كم يمكنني أن أعطيك إذن؟ ستون؟ هذا كله مالك. لن تكون مديناً لي بفلس».

«أربعون تكفي. لا حاجة إلى القلق. هناك دائماً صحون إضافية تحتاج إلى غسل، والمزيد من البطاطا لتقشيرها. إلا في جلعاد».

«سوف أحتفظ بالبقية لك. اتصل بي. أو راسلني».

«سأفعل». حمل حقيبته، ثم وضعها ثانية وذهب إلى الردهة، حيث كان والده جالساً على كرسيه الموريس. وقف هناك، حاملاً قبعته بيده. نظر إليه العجوز، كالحاً بجهد الانتباه، أو بالغضب الصامت.

رفع جاك كتفيه. «يجب أن أرحل الآن. أردت أن أقول وداعاً». ذهب إلى والده ومدّ يده.

وضع العجوز يده في حضنه وأشاح نظره. «سئمت من ذلك!»، قال.

هزّ جاك رأسه. «وأنا أيضاً، سئمت حتى العظام». نظر إلى والده برهة أطول، ثم انحنى وقبل جبينه. عاد إلى المطبخ وحمل حقيبته. «وداعاً ايتها الصغيرة»، مسح دمعة عن خدها بإبهامه.

«يجب أن تعتني بنفسك»، قالت، «عليك ذلك».

نقر قبعته وابتسم: «سأفعل».

ذهبت إلى الشرفة لكي تراه يبتعد على الطريق. كان شديد النحول

وثيابه بائسة بائسة. لم يكن فيه شيء من الشباب، فقط بقية عزم رجل ينفذ قراراً اتخذه بعد أن رفض إعادة التفكير فيه أو الندم عليه. لا، ربما كان ثمة أثر من قوة الشكيمة القديمة. من يتجشم عناء أن يكون لطيفاً معه؟ رجل مفعم بالألم معتاد على الأسى، واحداً من الرجال الذي يخفي الناس وجوههم عنه. آه، جاك.

وصل تيدي إذن واستقر وصار هو من يجلس قارئاً على الشرفة، من يحمم والده ويلبسه ويقلبه، ومن يساعد على التحضير لمجيء البقية، ومن يذهب لشراء الخضروات. لم يسألها الكثير عن شقيقهما ولم تعرض قول الكثير عنه، إلا أن تقول إنه كان لطيفاً ومصدر عون لها. جاك كان جاك. لم يكن هناك الكثير مما يمكنها قوله من دون أن يكون أشبه بالخيانة، وإن عرفه تيدي جيداً بما فيه الكفاية حتى يشكّل فكرة جيدة عن الشروط التي أنشأها مع العالم. في الوقت المناسب ستقول المزيد، حين يخفت قليلاً الإحساس بوجوده.

ذات مرة انحنى تيدي قرب مقعد والده لكي يساعده على تناول العشاء، ومدّ العجوز يده لكي يمسد شعره، ووجهه. قال: «لقد ودعتني إلا أنني عرفت أنك لا تستطيع أن ترحل». وكان ثمة ومضة من البراءة في عينيه.

في اليوم التالي لمغادرة جاك كانت غلوري في الحديقة تنظف رقعة القثاء وتقطف الطماطم الخضراء. حدث تغير مفاجئ في الطقس، صقيع خفيف. لمحت سيارة تمشي ببطء على الطرف القصي من الشارع. أخذت تنظر إليها، مفكرة أنه لابدّ من أن يكون أحد من

الكنيسة، صديق ما أو أحد المعارف جاء يسأل ما إذا كانت الشائعات حقيقية، أن والدها يحتضر حقاً وأن العائلة عائدة إلى البيت. إلا أن سائقة السيارة كانت امرأة سوداء وكان ذلك أمراً مثيراً للاهتمام. لم يكن من سود في جلعاد. انكبت غلوري على عملها ثانية، وعادت السيارة على الطرف القريب من الشارع وتوقفت. رأت امرأتين سوداوين في المقعد الأمامي وطفلاً في المقعد الخلفي. أخذت المرأتان تنظران إلى البيت من السيارة لبضع دقائق، كأنما تقرّران ماذا ستفعلات تالياً، ثم خرجت المرأة الجالسة إلى جانب مقعد السائق واقتربت على الرصيف. كانت نحيلة ترتدي بزة رمادية. وكان شعرها مرفوعاً إلى الخلف تحت قبعة رمادية. بدت مدينية جداً هنا في جلعاد، وواعية لذلك، وكأنها شعرت أن أفضل انطباع يمكن أن تحدثه هو واحد سيميزها بحدة فوراً. التفتت وخاطبت الطفل: «روبرت، أنت ابقَ في السيارة». فوقف الفتى على طرف العشب واضعاً إحدى قدميه داخل السيارة. كان يرتدي ثياب الكنيسة، بدلة زرقاء وربطة عنق حمراء.

خرجت غلوري من الحديقة لكي تلاقي المرأة على الرصيف. قالت: «مرحباً، أيمكنني مساعدتك؟».

قالت المرأة: «أبحث عن بيت الموقر روبرت بوتون». كان صوتها ناعماً وحزيناً.

«هذا بيته»، قالت غلوري «إلا أنه مريض جداً. أنا ابنته غلوري، أثمة ما أستطيع فعله من أجلك؟».

«أنا لآسفة لسماعي بمرض والدك. آسفة جداً»، صمتت. «إنه ابنه الذي كنت آمل التكلم إليه، السيد جاك بوتون».

قالت غلوري: «جاك ليس هنا حالياً. لقد رحل منذ صباح الأمس».

التفتت المرأة لتنظر إلى الصبي. هزت رأسها فعاد إلى السيارة. التفتت ثانية إلى غلوري: «هل تعرفين إذا كان ينوي العودة؟».

«لا، لا أتوقع عودته. ليس في وقت قريب. لا أعرف خططه. إذا كانت لديه أي خطط. لا أعرف إلى أين كان ذاهباً».

أخذت المرأة تمسح قفازيها محاولة إخفاء خيبة أملها. ثم أشاحت نظرها عن غلوري «ظننت أنني سأجده هنا، بما أن والده مريض. أظن أنه سيعود على الأقل». ألقت نظرة على البيت، المكسو بالنباتات، ذي النوافذ الضيقة العالية. ثم قالت: «حسناً، شكراً لك، على تجشمك العناء»، وعادت باتجاه السيارة. مسح الصبي خده بطرف يده.

كان ثمة وقار غير مصدق في سلوك المرأة، إحساس بأنها تكلمت همساً من مسافة غير محددة. إلا أنها حملقت بوجه غلوري وكأنها كادت تتذكرها.

قالت غلوري: «مهلاً! انتظري رجاء»، وتوقفت المرأة والتفتت «أنت ديلا أليس كذلك، أنت زوجة جاك».

لوهلة لم تتكلم. ثم قالت: «أجل أنا كذلك. أنا زوجته وأنا أرسلت له تلك الرسالة! والآن لا أعرف حتى أين أجده، لكي أتكلم إليه». كان صوتها منخفضاً، متهدجاً بالأسى. نظرت إلى الفتى الذي ابتعد بضع خطوات عن السيارة ووضع يده على جذع شجرة بلوط.

قالت غلوري: «لا أعرف... لم يثق بي جاك بما فيه الكافية لكي يخبرني بشأن الأمور التي تهمه. لطالما كان الأمر كذلك. هناك الكثير مما لم أخبره به. ربما نحن هكذا فحسب».

«إلا أنه لطالما أخبرني في رسائله كم أنك لطيفة معه. أريد أن أشكرك على هذا».

«كان لطيفاً معي أيضاً».

هزّت ديلا رأسها «إنه لطيف». كان صمت. قالت: «هذا المكان يبدو كما وصفه لي تماماً. تلك الشجرة وتلك الحظيرة والبيت الطويل الكبير. كان يخبر روبرت عن تسلقه تلك الشجرة».

«لم يكن يفترض بنا فعل ذلك. حتى الأغصان الأكثر انخفاضاً كانت عالية».

«قال إنه كان ثمة أرجوحة تتدلى منها، وكان يتسلق حبالها إلى الأغصان العالية. ويختبئ هناك، كما قال».

«حسناً، أنا مسرورة لأن أمنا لم تعرف بذلك. كانت دوماً قلقة عليه».

هزت ديلا رأسها. نظرت خلفها إلى الحديقة المشذبة، إلى حبل الغسيل ومجدداً إلى الشرفة مع أصص البطونية على السلم. رقّت عيناها. كان المشهد أشبه برسالة تركت لها، رسالة حزينة ومرحة ومحببة في حميميتها.

تخيلت غلوري أن جاك ربما رسم لهم خريطة للمكان، البستان والمرجة والسقيفة. ربما كان ثمة حكايات مرتبطة بكل شيء اعتيادي، قصص أخرى مختلفة عن التي سمعتها، عما سمعها أيّ منهم. ذكر لسنوفلايك. قالت: «أترغبين في الدخول؟».

«لا، لا، لا يمكننا فعل ذلك. شكراً لك لكن علينا العودة إلى ميزوري قبل الظلام. خاصة وأن الأمور على ما هي عليه الآن. لدينا مكان نقيم فيه هناك. تلك أختي التي تقود السيارة وقد وعدتها بأن الأمر

لن يستغرق سوى دقائق معدودة. لقد تهنا ونحن نبحث عن البيت، والأيام لم تعد طويلة جداً. والصبي معنا. لن يرغب والده بأن نقوم بأي مجازفات».

قالت غلوري: «أخبرني جاك أنه سيتصل بي أو يرسل عنوانه. هذا لا يعني أنه سيفعل. ربما يتصل بأخيه تيدي، فسأخبره إذن أنك جئت إلى هنا. هذا مفاجئ جداً. آمل أنني لا أنسى شيئاً».

رأت ديلا دموعها وابتسمت. شيء آخر كان تقريباً أليفاً لها.

«هذا يحصل لي»، قالت غلوري ومسحت خديها. لكن لا يسعني أن أقول لك كم كان ليسرّ بمرآك. كلاكما. كان ليكون ذلك رائعاً. فقط لو تمكنت من إبقائه قليلاً بعد».

قالت ديلا: «سوف نعود إلى سانت لويس. ربما يذهب إلى هناك، إلى الحي القديم». ثم قالت: «هل غادر بسبب رسالتي؟ لأنه كما تعرفين سأكون قلقة جداً بهذا الخصوص». كان صوتها أشبه بالهمس.

«كانت صعبة عليه. لكنه قال إن الرسالة لم تكن غير لطيفة. وكان راحلاً على أية حال. كانت لديه أسبابه الخاصة. وهو لا يلومك على شيء».

«شكراً لك، باركك الرب»، قالت ديلا. ثم قالت: «يحسن أن نغادر الآن. كان لطفاً بالغاً من أختي أن ترافقني إلى هنا، ولا أريد أن أزعجها. هي لا ترى أنها فكرة جيدة. عائلتي كلها لا تراها فكرة جيدة».

«مع ذلك لو أمكنك فقط البقاء دقيقة أخرى. يجب أن أعطيك شيئاً تأخذيه معك، بما أنك قطعت كل هذه المسافة إلى هنا... رجاء انتظري». دخلت إلى البيت، وكانت هناك كل الكتب، والركام الذي لا ينتهي من الأشياء الصغيرة. كانت تقصد أخذ أي شيء. رأت الصبي

الصغير يضع أكواز الصنوبر في جيبه. أي شيء سيكون تذكاراً. تمثال معبد. إوزة. لكن كل التحف الصغيرة كانت قديمة وسخيفة. ولا واحد من الكتب الكبيرة سيفي بالغرض. صعدت إلى الأعلى إلى غرفة جاك كصبي ونزعت صورة النهر عن الحائط وأنزلتها معها. وحين أعطتها لديلا قالت: «لطالما أحب جاك هذه. لا أعرف لماذا حقاً. لكنه أبقاها في غرفته».

هزت ديلا رأسها: «شكراً لك». جاء الصبي لكي يرى ما الذي حصلت عليه أمه. أعطتها له وحدق بها. قالت: «هذه صورة للنهر».

انحنت غلوري نحو الطفل ومدّت يدها وأخذها وقالت: «أنت روبرت أليس كذلك؟».

«نعم سيدتي».

«أنا غلوري، أنا أخت والدك».

«نعم سيدتي». ثم نظرة طويلة، وكأنه يتذكر أو يستعد للتذكر.

كان لجاك طفل رائع، ابن رائع، في مرحلة ما سيصير شبيهاً بآل بوتون، لا ريب، ويفقد وسامته ليكتسب ما يسمونه ملامح مميزة.

سألته: «أأنت لاعب بايسبول أيضاً؟».

ابتسم: «نعم سيدتي، ألعب الكرة قليلاً».

قالت أمه: «يظن أنه سيصبح قساً». ومسدت شعره. فتحت أختها الباب من جهة السائق وخرجت من السيارة لكي تحدق عبر السقف بهم. قالت ديلا: «علينا أن نرحل الآن».

«أجل، هل سيعرف جاك كيف يصل إليك؟ إذا اتصل هنا».

وضعت ديلا الفتى في المقعد الخلفي ثم أخرجت مغلفاً من مقصورة القفازات وكتبت عليه بعض الأرقام وبعض الأسماء. كانت أختها

قد شغّلت السيارة. ناولتها ديلا الملحوظة «سررت بلقائك. أتمنى أن تتحسّن صحة والدك. إذا تسنت لك الفرصة لإيصال هذه لجاك، فسأكون شاكرة». ثم أقفلت الباب، ومضت سيارتها مبتعدة.

جلست غلوري على درج الشرفة. فكرت، لو كان جاك هنا، لكان شعر بصدمة الفرح الرهيبة تلك - لا أسوأ من الفرح، السلام - الذي يتدفق إلى الداخل كما يندفع الدم في عضو يتوق إليه، مثل إنقاذ معجز، مؤلم ورائع يغمر المرء بالتواضع - ومذل على نحو ما تذكرته لأنها كانت شديدة العجز أمامه. لكن تلك كانت الزوجة. ديلا كانت زوجة جاك، قالت لنفسها، وشكل ذلك الفرق برمته. كانت ديلا قد نظرت إلى عالم حياته القديمة برقة، وثمة كل التفاصيل لتؤكد ذلك، برهاناً على صدقه، الذي لطالما احتاج إلى برهان. كنت أعيش هنا، لم أكن راحلاً دوماً، كنت عادة أقرب إلى البيت مما ظنني. هكذا قال جاك، وكيف أمكن أن يكون غريباً إلى هذا الحدّ عنهم؟ وكم كان قاسياً أنه أحب المكان على أية حال. ولده الصغير وهو يلامس الشجرة فقط لكي يلامسها. الشجرة التي بدت كالمحيط. يا رب السماوات، لا يمكنها تغيير أي شيء. كيف كان لها أن تعرف أنه ملأ عقل ابنه بقصصه، تلك القصص الحزينة التي جعلتهم يضحكون. اعتدت أن أتمنى العيش هنا، قال. أن أدخل من الباب مثلما تفعلون جميعاً.

ولم تدخلا الباب. كانتا مضطرتين إلى الذهاب سريعاً لتجنّب مخاطر هبوط الليل. كان الفتى معهما، وما كان والده ليرغب في أن تخاطرا. تعرف أنه كان ليجيب على توق جاك إذا استطاع أن يتصور فحسب أن روحيهما مرتا بذلك البيت القديم الغريب. مجرد الفكرة قد تعيده،

وسيبدو المكان مختلفاً له ولها. وكأن كل ذلك الحفظ والاحتفاظ الذي قام به والدهما كان تدبيراً بالفعل، وحباً جديداً سيحول الحب القديم كله ويسبغ الروعة على جميع تعاويذه.

التقت ديلا جاك بعد ظهر يوم ماطر. كان خارجاً لتوه من السجن. وكان يرتدي البدلة - شبه الجديدة، قال - التي اشتراها بالمال الذي كان يفترض أن يعيده إلى المنزل في جنازة أمه. البدلة التي باعها لأنها جعلته يبدو أشبه بالقس بعض الشيء. وقد حصل على مظلة بطريقة ما. مجرد رعب إطلاقه إلى العالم، متأكداً من أنه خسر عائلته إلى الأبد وكل هذا الوقت، قد جعلاه ساخراً ومتوقداً، ومن هنا الاحترام غير المتعمد المتمثل في بدلة داكنة ومظلة صالحة. وأمامه سيدة بحاجة إلى مساعدة. قالت: «شكراً لك أيها الموقر». عينان بالغتا الرقة، صوت بالغ الرقة. نسي ذلك، متعة مخاطبته برقة. أخيراً قال لها إنه ليس رجل دين. وهكذا بدأ يخبرها بكل ما يمكنه الوثوق بأنها ستغتفره له.

لقد غفرت الكثير، قال. لا فكرة لديك. وكيف أمكنها أن تغفر هذا، أنها شعرت أنها مضطرة إلى المجيء إلى جلعاد كأنه بلد غريب معاد؟ أيعرف أي أحد آخر عكس ذلك؟ جلعاد البالية المتواضعة الريفية، جلعاد عباد الشمس. حملت نفسها برباطة الجأش القوية لامرأة تشعر أنها مراقبة، وموضع تساؤل عن هويتها. ما كان جاك ليحلم بأن تأتي إلى هنا، وكان ثمة سبب كاف للشك، وإن لم يستطع منع نفسه من أن يحلم بذلك أيضاً. كان الفتى معهما، جاك سيكون قلقاً على الصبي، فكانوا مضطرين إلى العودة إلى ميزوري قبل هبوط الظلام. لديهم مكان يقيمون فيه في ميزوري.

فكرت، ربما روبرت هذا سيعود يوماً ما. الشبان نادراً ما يكونون

حذرين. أي سمات سيحتفظ بها من جاك؟ وسأكون عجوزاً تقريباً. سأراه واقفاً على الطريق قرب شجرة البلوط، وسأميزه من خلال ظهره المحدودب بسبب طوله، واضعاً يده على خاصرته. سأدعوه إلى الشرفة وسيجيب بلكنة جنوبية جواباً مهذباً «أجل سيدتي يمكنني ذلك». أو أياً كان ما يجيبون به. وسيكون بالغ اللطف معي. إنه ابن جاك، والجنوبيون مهذبون بصورة خاصة مع النسوة الأكبر سناً. سيكون فضولياً حول المكان، وإن لن يتفوق فضوله على سلوكه المهذب. سيكلمني قليلاً، وسيكون أكثر خجلاً من أن يخبرني بسبب مجيئه، ثم سيشكرني ويغادر، يخطو إلى الوراء بضع خطوات، مفكراً، أجل الحظيرة ما زالت هناك، أجل الليلك، وحتى أصص البطونية. كان هذا بيت أبي. وسأفكر، إنه شاب. لا يمكنه أن يعرف أن حياتي كلها اختزلت في هذه اللحظة.

أنه أجاب صلوات أبيه.

الربّ جميل.

البيت

وثمة أمام البيت شجرة البلوط، الأقدم عمراً من الحيّ أو البلدة، والتي حوّلت الرصيف الذي تنتصب عليه إلى حصى. مادّة غصونها التي يصعب تقدير حجمها، إنما الأضخم من جذع أي شجرة عادية، فوق الطريق والفناء الخارجي. وكان جذعها مفتولاً على نحو يبديها لأنظارهم مثل درويش عملاق. قال والدهم إنهم إذا كانوا يستطيعون الرؤية مثلما يستطيع الربّ، لكان في وسعهم في الزمن الجيولوجي، أن يروها وهي تنبثق من الأرض، متقلبة في الشمس وناشرة أذرعها متمتعة بمباهج كونها شجرة بلوط في أيوا...

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة





